المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية

ميخائيل جميعان

المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية

ميخائيل جميعان

ميخائيل جميعـــان
وكيل ديوان الموظفين ومدير معهد الادارة العامة سابقاً

المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية

الطبعة الأولى
١٩٨٣م

ميخائيل جميعـــان

بكالوريوس في الآداب من الجامعة الاميركية بالقاهرة سنة ١٩٤٠
دورة في الادارة المالية في المملكة المتحدة في سنة ١٩٤٨
زمالة في الادارة العامة في نيوزيلانده في سنة ١٩٥٣
زمالة في الادارة العامة في الولايات المتحدة الامريكية والمملكة المتحدة في سنة ١٩٦٠–١٩٦١
دورة في الادارة العامة في الولايات المتحدة الامريكية في سنة ١٩٦٨

كلمة شكر وتقدير

يسعدني ان اقدم وافر الشكر والعرفان الى استاذي الكبير حسني فريز والى الاستاذين الكريمين في الجامعة الاردنية الدكتور عبد الرحمن ياغي والدكتور صالح حمارنه لتكرمهم بمراجعة مسودات هذا المؤلف وابدائهم ملاحظات قيمة افدت منها قبل احالته للمطبعة .

المؤلف

محتويات الكتاب

الجـــزء الأول

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الجزء الاول

المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربيــة
من خلال الحروب الصليبية

تصـــدير

كنت قد أعددت اطروحة بالانجليزية في عام ١٩٤٠ بوصفها جزءاً مما يتطلبه الحصول على درجة البكالوريوس في الآداب من الجامعة الامريكية بالقاهرة . وكان موضوع الاطروحة « المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية » . وكنت أحب ان انقل مضمونها للعربية وظلت الفكرة تعاودني بسببما بذلته من جهد وما تيسر لي من مادة . ولكنني رأيت ان اتمم الموضوع بإعداد موجز للحروب الصليبية نفسها ويقتضيني هذا الرجوع الى كثير من المصادر . ولما اسعفني الوقت واتيحت لي فرصة التأمل لاستكمال هذه الدراسة انصرفت الى اتمام هذه الرغبة زمناً ليس بالقليل . وبلاد الشام ، كما يعلم القارىء ، كانت مسرحاً لعدة حروب وملتقى لعدة حضارات تفاعلت على ارضها واختلط الناس فيها من مختلف الجنسيات والديانات والشعوب شرقية وغربية . وسيرى القارىء الكريم ان الحروب والصراعات التي قامت في سورية الطبيعية قد هيأت لها قيام صراعات ولقاءات بين الشعوب والحضارات المختلفة وأصحاب العقائد والمذاهب ، وكما قامت المذابح التي تقشعر لهول ذكرها الابدان كان تنــاحر العقائد والمذاهب والوان التعصب اشد هولاً من الحروب الحقيقية ، ولكن حتى تلك الحروب كانت قد هيأت فترات طويلة من السلم سادت فيها روح التسامح والتفاهم بين المتحاربين الامر الذي هيأ للغرب فرص الاخذ من حضارات الشعوب الشرقية التي التقت بها ومن ثقــافاتها وعلومها المختلفة وهي الامور التي تكوّن مضمون الجزء الثاني من هذا الكتاب . فان وفقت في ذلك فهذا جلّ ما ابغي وان قصرت فان لي في سعة صدر القارىء الكريم ما يعفو والله من وراء القصد والسلام .

مقـــدمة

الحروب الصليبية هي من اعنف غارات الاقطار المسيحية على الديار الاسلامية وتعد احداثها من ابرز الاحداث العالمية في تاريخ الصراع بين الشرق والغرب وهي عبارة عن غزو غربي استعماري مسلح لبلدان الشرق العربي لم يشهد له التاريخ مثيلاً في العصور الوسطى اذ امتد من اواخر القرن الحادي عشر الى اواخر القرن الثالث عشر.

وبما ان العاطفة الدينية تعد من اقوى العواطف في الهاب النفوس واثارتها للحرب فقد اتخذت الدول الغربية من الدين ستاراً لاخفاء ما انطوت عليه نفوسها من نوايا استعمارية خبيثة . وقد اثارت الحروب الصليبية أقطار اوربا المسيحية على مسلمي الشرق بحجة تخليص الارض المقدسة وقبر المسيح من ايدي المسلمين . وجميع الذين اشتركوا في هذه الحروب من رجال وفتيان علقوا اشارة الصليب على صدورهم ورسموا الصليب على اعلام فرقهم المحاربة وعلى ملابس جنودهم . ومن هذه الاشارة اشتق إسم الحروب الصليبية . وبما ان ممالك اوربا المسيحية التي اشتركت في هذه الحروب قد تأثرت تأثراً بالغا بحضارة العرب وتراث الشرق الاسلامي رأيت ان اعرف الثقافة اولاً قبل البحث فيأحوال الغربالاوربي وفي اسباب الحروب الصليبية ودوافعها وفي عوامل فشلها من حيث الاسباب الظاهرية التي ادت الى اثارتها ثم انتقل الى وصف طبيعة الحضارة العربية ومصادرها والحالة السياسية للشرق الاسلامي والحضارة البيزنطية وحضارة اوربا قبل اندلاع الحروب الصليبية ثم اقدم المامة عن احداث الحروب الصليبية وحضارة العرب ومدى تقدم الشرق وتفوقه في مضمار الحضارة وكيف ان الغرب كان لا يزال يتخبط في دياجي العصور المظلمة في الوقت الذي كان الشرق ينعم بحضارة عريقة وثقافة غنية وتراث علمي زاخر . وبما ان الشرق العربي هو مركز الموجات الثقافية العارمة التي اثرت في تاريخ الحضارة العالمية وغيرت وجه العالم فنقلته من الحالة البدائيـــة الى الانسانية المتحضرة كان لا بدّ من تخصيص جزء كبير من هذا الكتاب للبحث في الحضارة العربية والمؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية حيث ان مراكز الحضارة قبل اندلاع الحروب الصليبية وفي اثنائها كانت مستقرة في الشرق العربي بينما غلب على اوربا النظام الاقطاعي .

وقد رأيت ان ارجع في بحثي الى مصادر شتى عربية واجنبية وان اكتفي بأثبات الحقائق التي اجمع عليها كبار المؤرخين والمؤلفين دون ما اسهاب ممل او ايجاز مخل. وقد هالني ما صادفت في اثناء البحث من متناقضات . فبينما تجد بعض الغربيين قد اعماهم التعصب لغربيتهم عن اثبات الوقائع الصحيحة واغراهم بتشويه الحقائق ودس المفتريات على قادة الجبهة الاسلامية وعدم الاعتراف بما قدمه العرب والمسلمون للحضارة الغربية من عطاء علمي بالغ الاهمية وما تركوه من اثر كبير في حياة الشعوب الاوربية تجد من الناحية الاخرى بعض المؤرخين الشرقيين قد شوهوا الجبهة الغربية فبالغوا في اظهار نقائص قادتها . والمؤلف غير المتحيز فيما يكتب يكون منصفاً حين يتكلم عن الشرق والغرب والمسلمين والمسيحيين ولا يتردد في الاعتراف بما للشرق من مزايا وفي ابراز ما قدمه العرب والمسلمون من عطاء عظيم الفائدة للحضارة العالمية في العلوم والآداب والشرائع . وقد كنت من ناحية اخرى ارى من خلال مطالعتي نور الحق يسطع بين السطور ومصباح الهداية ينير السبيل على لسان بعض المؤرخين والمؤلفين من ذوي الضمائر الحية .

ومن ابرز المؤرخين الذين دونوا تاريخ الحروب الصليبية ستيفان رينسمان الذي وضع كتاب « تاريخ الحروب الصليبية » في ثلاثة مجلدات وسعيد عبد الفتاح عاشور الذي وضع كتاب الحركة الصليبية في مجلدين وستيفانسون الذي وضع كتاب « تاريخ الممالك الصليبية » وكتاب « تاريخ الاحداث العالمية » وكتاب « الحروب الصليبية في الشرق » وجيبون الذي وضع كتاب « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » والمستشرق لويس ايميلي سيديو الذي وضع كتاب « تاريخ العرب والاسلام » ومدرسة دس مونرو الامريكية التي كتبت فصولاً عن الحروب الصليبية وجورجي زيدان الذي وضع كتاب « التمدن الاسلامي » في خمسة مجلدات وريتشارد نيوهول الذي وضع كتاب « الحروب الصليبية » والدكتور فيليب حتي الذي وضع كتاب « تاريخ العرب » وكتاب « تاريخ سورية » وايرنست باركر الذي وضع فصلاً رائعاً عن الحركة الصليبية في دائرة المعارف البريطانية . ويعتبر كتاب « الكامل » لابن الاثير الذي عاصر الحروب الصليبية من ادق ما كتب عن الجبهة الاسلامية .

ومن المؤلفين الغربيين من ذوي الضمائر الحية الذين حملوا لواء العروبة خفاقاً المؤرخة الالمانية الدكتورة سيجرد هونكه التي ابرزت بشجاعة بارعة وموضوعية مجردة أثر العرب البارز في الحضارة الغربيـة بكتابها المشهور « شمس الله على الغرب فضل العرب على الغرب » الذي ترجمه وحققه وعلّق عليه الدكتور فؤاد حسنين علي ، وكتابها « شمس العرب تسطع على الغرب – أثر الحضارة العربية في اوربة » وقد نقله الى العربية كمال دسوقي وراجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري . وربما يكون الكتابان كتاباً واحداً وان اختلف النقل والتبويب بعض الاختلاف .

ومن المؤرخين الذين كتبوا عن أثر الحضارة العربية في الحضارة الغربية الدكتور غوستاف لوبون الذي وضع كتاب « حضارة العرب » ونقله الى العربية عادل زعيتر وجورج بيرتون الذي وضع كتاب « حضارة القرون الوسطى » والدكتور زكي علي الذي وضع كتاب « الاسلام في العالم » وجوزيف هل الذي وضع كتاب « الحضارة العربية » وجورج سارتون الذي وضع كتاب « مقدمة للعلوم » وكتب فصلاً في كتاب ثقافة الشرق الادنى لمؤلفه كايلر يونغ تحت عنوان « العلم الاسلامي » والدكتور عزيز عطية استاذ التاريخ في جامعة لندن وهو هندي وقد وضع كتاب الحروب الصليبية وايرنست بيرجس الذي وضع كتاب « تراث الاسلام » والدكاترة سهير قلماوي ومحمود علي مكي وابراهيم بيومي وعبد الحليم منتصر ومحمد كامل حسين ومحمد محمود الصياد الذين وضعوا كتاب « أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية » وهو يضم عدة ابحاث قاموا بها باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية (اليونسكو) ، وجلال مظهر الذي وضع كتاب « أثرالعرب في الحضارة الاوربية » وزكي النقاش الذي وضع كتاب « العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج في خلال الحروب الصليبية » وغيرهم كثيرون .

تعريف الثقافة : –

يعد العلامة الانجليزي تيلر Taylor أشهر من عرف الثقـافة بقوله : « الثقافة هي ذلك المركب الكلي الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والاخلاق والقانون والعادات وأية مؤهلات حصل عليها الانسان كعضو في الهيئة الاجتماعية ».

ووصف العلامة الامريكي ديكسون Dixon الثقافة بقوله : « اطلق علماء الطبائع البشرية والاجتماع وغيرهم لفظة ثقافة على مجموعة جهود الناس وانتاجهم سواءً اكانت اجتماعية ام دينية ام مختصة بالعادات والمعتقدات التي اعتدنا ان نسميها عند المتقدمين في الحضارة مدنيتهم ».

ويرى جلّين Gillin وبلاكمار Blackmar ان كلمة ثقافة Culture تعني عند الفلاسفة الاخلاقيين التربية وتهذيب العقل وصقل العادات والطبائع والحفلات والادوات والآلات والمنازل وكل العناصر الداخلة ضمن اختراع الانسان .

"Culture means education and refinement of mental and moral habits; they have uesd customs, ceremonies, tools machines, houses, in fact all products of human invention". 1

ومن هذه التعاريف يتضح ان الثقافة تشمل جميع الفنون والعادات والانظمة والمؤسسات والآراء والاخلاق وكل ما له قيمة مادية او معنوية .

الفصل الاول

أسباب الحروب الصليبية

الحروب الصليبية احداث تاريخية مهمة في سلسلة الصراع الدموي القائم بين الشرق والغرب وقد بدأت في اواخر القرن الحادي عشر وانتهت في اواخر القرن الثالث عشر ولم يكن هنالك مناص من وقوعها في الوقت الذي وقعت فيه حيث كانت لها اسباب مباشرة جعلت وقوعها امراً لا مفر منه كما كانت لها اسباب تاريخية بعيدة المدى واسباب حقيقية اخرى .

١ — الاسباب التاريخية للحروب الصليبية البعيدة المدى :

تؤلف الحروب الصليبية اطول فصل من حيث امتداد الحوادث التاريخية في قصة النزاع بين الشرق والغرب منذ اقدم عصور التاريخ ، ذلك النزاع الذي

1 – Gillin and Blackmar, **Outline of Sociolgy**, P. 78.

لم تهدأ ثائرته الى الابد ، بل هي قصة التفاعل الدائم بين الشرق والغرب مبتدئة بغزو اليونان لطروادة في آسيا الصغرى فحروب الفرس ضد اليونان وحروب الاسكندر المكدوني وهرقل في الشرق وحروب العرب في شمال افريقيا واسبانيا والحروب الصليبية في سورية ، والانتصارات العثمانية في آسيا الصغرى والتوسع الاوربي في آسيا وافريقيا في العصر الحديث ومنتهية بالاستعمار الغربي المقنع بأستعمال مخلب القط اسرائيل للاستيلاء على اجزاء من الوطن العربي وتشريد اهله الشرعيين والاستيلاء على مقدساته وثرواته وخيراته . وما الحروب الصليبية الا فصل متوسط من فصول النزاع العام بين الشرق الآسيوي والغرب الاوربي يرجع الى عدة اسباب جغرافية وسياسية واقتصادية ودينية . وكان هذا النزاع يقع بين اجناس مختلفة ويعود الى عدة اسباب مجتمعة . ولعل السبب الجغرافي الاجتماعي الحضاري كان اقواها واهمها ، ذلك لان المدنيات القديمة والديانات العظمى والفلسفات المهمة كانت قد نشأت في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط الشرقيـة . يضاف الى هذا ان اوربا كانت تطمع دوماً في الاتصال بآسيا لتحصل على خيراتها ومنتجاتها عن طريق البحر الاسود او البحر الاحمر او عن طريق بيروت عبر الصحراء ، فكان لا مفر من وقوع الاصطدام في هذه المنطقة الحيوية الواقعة في وسط العالم .

وكانت الحروب الصليبية بنوع خاص بمثابة رد فعل مسيحي قامت به اوربا المسيحية ضد آسيا الاسلامية ، اذ بعد خمسة عشر عاماً من الهجرة النبوية الشريفة تحررت القدس بيد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وكان ذلك في عام ٦٣٧م. وبقيت القدس في ايدي المسلمين حتى نهاية الحرب الصليبية الاولى ، وكان العرب قد نجحوا في فتحهم الموفق لغرب اوربا نجاحاً ملحوظاً امتد من القرن العاشر ففتحوا اسبانيا وتقدموا حتى بلغوا جبال البيرنيس وغزوا صقلية واسسوا لهم معاقل على سواحل ايطاليا على يد الاغالبة في القيروان في شمال افريقيـا . واشتبك مسلمو اسبانيا بحامية بروفنس في جنوب فرنسا كما مضوا الى شمال ايطاليا وسويسرا ايضاً. وكانت سفنهم تتقدم بين حين وآخر نحو جزيرتي كورسيكا وساردينيا . فأعتـبرت الدولة الاوربية اقتحام العرب لبلدانهم عدواناً عاماً عليها وغزواً عسكريا شرقياً موجهاً ضد الغرب . وكانت الدولة البيزنطية ايضاً تعتبر العرب عدوهم الاول والخطر الاكبر الذي كان يهدد سلطانهم في الشرق والغرب في آن واحد ذلك لان البـلاد

العربية كانت مصدر قوة عسكرية في نظرهم ونموذج الحضارة والرقي والتقدم العلمي والثقافي وحرية الفكر . لهذا هبت اوربا مذعورة لمحاربة المسلمين في آسيا وصد هجماتهم المظفرة في اوربا . وفي اواخر القرنين الحادي عشر والثاني عشر انعكس التيار حتى مال الميزان لصالح الامم المسيحية يقول تشالز ميلز في ذلك :

« اذا نظر الى الحروب الصليبية من حيث الحوادث السابقة والحوادث اللاحقة يتضح انها تؤلف جزءاً من نزاع طويل بين المسيحية والاسلام وقع في مناسبات شتى وجر الى التحارب بينهما احياناً في اوربا واحياناً في آسيا »(١) .

"The Crusades, viewed in connection with earlier and later events, are plainly a part of a long struggle between Islam and Christianity, which with varying fortunes, has been fought sometimes in Europe and sometimes in Asia". (1)

ولا يستطيع احد التنبوء بتاريخ انتهاء هذا النزاع الذي كان يبدأ نزاعاً دينياً ثم ينقلب الى نزاع سياسي ، وكثيراً ما كان يبدأ نزاعاً سياسياً ثم ينقلب الى نزاع ديني ، على انه في جميع الاحوال كان يقع بين طرفين شرقي وغربي وتتقابل فيه حضارتان وجهاً لوجه . وكانت بلاد الشام التي تضم الاراضي الحالية للجمهورية العربية السورية ولبنان وفلسطين والاردن مسرح الحوادث التي دارت فيها معارك الحروب الصليبية وكانت هذه الحروب قدرها منذ اقدم عصور التاريخ حيث كانت سورية تتعرض للغزو والفتح بسبب موقعها الجغرافي في وسط العالم وعلى الطرق التجارية والحربية التي تصل بين آسيا وافريقيا واوربا . فقد غزاها المصريون والبابليون والفرس واليونان والرومان والاتراك وكان الغزاة من جنسيات مختلفة مكونين جزءاً من تاريخ سورية . وطبيعة الارض السورية من الناحية الجغرافية واضحة المعالم وهي تكون وحدة متكاملة ولكنها لم تكوّن في يوم من الايام دولة وطنية موحدة بأستثناء فترة الفتح العربي وتأسيس الدولة الأموية فيها وكان موقعها يغري دوماً بغزوها . فالجبال التي ارتفعت قممها من الشمال والجنوب ساعدت على تكوين الامارات الاقطاعية المستقلة في مدنها الكبرى . وهذه الامارات كانت تحارب بعضها بعضاً في معظم الاوقات وكان الغزاة يغتنمون فرصة هذه المنازعات الداخلية فيقومون بغزوها .

(١) ملز ، تشارلز ، تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٣٥

(1) Mills, Charles, **The History of the Crusades** P. 335.

وحينما ابتدأت الحروب الصليبية في سنة ١٠٩٦ لم تكوّن سورية جزءاً من اية امبراطورية اذ ان السلاجقة الاتراك كانوا آخر من غزاها . وكان هؤلاء مشغولين باخماد نيران الحروب الداخلية في دولتهم المترامية الاطراف . وكان حاكم كل مدينة أميراً عليها لمدة قصيرة . فأنطاكية وحلب ودمشق وحماة والقدس وصور كانت من المدن المهمة في تلك العصور ويعود سبب ضعفها الى عدم تكوينها وحدة سياسية متماسكة بالرغم من ان الدفاع عن المدن المحصنة في ذلك الوقت كان اسهل مما هو عليه الآن.

ومن المرجح ان يكون لموقع البحر الابيض المتوسط الجغرافي والادوار التاريخية التي مرت بشعوبه في القرون السابقة اثر بارز في النزاع المستمر بين الشرق والغرب ذلك لان البحر الابيض المتوسط ينقسم الى جزئين شرقي وغربي . والجزء الشرقي يضم بلدان حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي الممتد من السواحل الشرقية لجزيرة صقلية فسواحل آسيا الصغرى فسورية والجزء الغربي يضم بلدان حوض البحر الابيض المتوسط وراء الخط الممتد من ايطاليا فصقلية فرأس بون في تونس . وقد كان جزءا البحر الابيض المتوسط المذكوران موطناً لحضارتين عظيمتين هما الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية . ففي الجزء الشرقي من البحر الابيض المتوسط نشأت الحضارة اليونانية والكنيسة اليونانية والامبراطورية البيزنطية الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية وفي الجزء الشرقي من البحر الابيض المتوسط ظهر الاسلام ايضاً في القرن السابع للميلاد ومنه انتشر المسلمون وانطلقوا بسرعة البرق الى شمال افريقيا واسبانيا . وفي الجزء الغربي نشأت الحضارة اللاتينية والكنيسة الرومانية والامبراطورية الرومانية الغربية التي كانت عاصمتها روما . والحروب الصليبية التي ابتدأت في سنة ١٠٩٦ وانتهت بعد سقوط آخر معقل صليبي في سنة ١٢٩١ ما هي الا مظهر من مظاهر النزاع الطويل المستمر بين الشرق والغرب .

٢ — الاسباب الروحية للحروب الصليبية :

كانت زيارة القبر المقدس منذ اقدم عصور الكنيسة تعتبر عملاً دينياً ذا اهمية قصوى ، لان المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يهابون الكنيسة ويحترمون تعاليمها وينفذون اوامرها وكان التكفير عن الذنوب عادة قديمة في الغرب . وكانت القدس

اقدس المقدسات وانأى المزارات الدينية بعداً عن اوربا . وكان الحج الى الاماكن المقدسة التي وطئتها اقدام المسيح يعتبر غفراناً مضاعفاً وقد ظهر في العالم المسيحي في اثناء الحروب الصليبية مظهران هما مظهر الحج ومظهر الحرب المقدسة . وكان الحج الى الديار المقدسة لزيارة مهد المسيح والقبر المقدس اقدم هذين المظهرين . وما لبث ان لقي الحج التشجيع الكبير والتوجيه المؤثر من الكنيسة فأصبح من مظاهر التوبة والاستغفار وتضاعفت قيمة الحج ولم يلبث ان تحول الى حرب مقدسة ظهرت في اواخر القرن الحادي عشر بعد ان ارتفع شأن البابوية وصارت لها السيادة على سائر الكنائس الاوربية بفضل وجود البابوات الاقوياء على رأس الكنيسة امثال جريجوري السابع واربان الثاني اذ حضّ هؤلاء على توحيد الصفوف ونبذ الخلافات بين امراء الاقطاع وتوجيه جهودهم لمحاربة المسلمين في الشرق . وتعتبر الموجة العارمة من الحماسة المتوقدة والعاطفة الدينية الجياشة التي اجتاحت اوربا فألهبت شعور عشرات الآلاف من فقراء الرجال والنساء فجعلتهم ينضوون تحت الوية بطرس الناسك وولتر المفلس وغيرهم مرحلة هامة في تاريخ الحروب . وقد ساعدت على الهاب عواطف المسيحيين المتحمسين للحروب الصليبية الاناشيد التي نظمها شعراء الفرنجة امثال انشودة رولان التي ترجمت الى سائر اللغات الاوربية والتي كانت تعبر تعبيراً مثيراً عما كان يجيش في صدور الشعوب المسيحية وضمائرها فتولد الكراهية والعداء للعرب والمسلمين . وشاعت امثال هذه الاناشيد في جميع اوربا لا سيما في فرنسا وايطاليا والمانيا ونحتت التماثيل لرولان على مداخل الكنائس الكبرى في كثير من المدن الاوربية تخليداً لذكراه وتقديراً للاثر الطيب الذي تركه في نفوس عارفي فضله . وقد انتشرت في اوربا اناشيد اخرى كثيرة لا تقل اهمية عن انشودة رولان كالانشودة التي تحمل عنوان « حج شرلمان » التي كان لها اكبر الاثر في تكوين الروح الصليبية .

وعندما فتح العرب فلسطين في القرن السابع للميلاد احترم هذا الشعب الكريم روح الحجاج الدينية وسمح للمسيحيين ببناء كنيسة ومستشفى في القدس . يقول جورج بيرتون ادامز .

« لما دانت فلسطين لسلطان العرب لم يجد الحجاج المسيحيون عقبات خاصة

في طريقهم لان العرب كانوا متسامحين معهم ومتساهلين . وقد حموا الحجاج المسيحيين ومنحوهم امتيازات خاصة بدلاً من إعاقة اهدافهم الدينية »(١) .

"While the Saracens ruled over Palestine, such pilgrims had found no special obstacles on their way. The Saracens were of a liberal and tolerant disposition and had rather protected the pilgrims and granted them privileges, than hindered their pious designs".(1)

وبالرغم من ذلك التسامح وتلك الامتيازات فقد حاول القسس والباباوات مراراً إثارة العالم المسيحي لتخليص القدس من ايدي المسلمين ، غير ان جهودهم باءت بالفشل واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان سقطت القدس في ايدي اسياد جدد هم السلاجقة الاتراك الذين كانوا وقتئذ شعباً متأخراً . وكانت قوة هؤلاء السلاجقة قد بدأت تظهر الى الوجود وتتجمع في آسية الصغرى لتثب منها الى القارة الاوربية عبر المضايق التي تفصل اوربا عن آسية . وكانت قد خرجت من اواسط آسيا مدمرة كل ما وقع في ايديها في اثناء اندفاعها الاول . واعتنق السلاجقة الديانة الاسلامية واصبحوا اكثر تعصباً لها من جميع معتنقيها . وبالرغم من خشونة طباعهم فقد هذّب الاسلام من طباعهم ولطف من خشونتهم فأنشأوا دولة متحضرة على يد سلطانها القوي طغرل بك في سنة ١٠٣٨ واستطاعت هذه الدولة السلجوقية ان تمتص تدريجياً ممتلكات الخليفة العباسي في بغداد ، وان تتوسع على حساب ممتلكات الدولة البيزنطية في الغرب وفي خلال عشرة اعوام من معركة مانزيكرت في سنة ١٠٧١ استطاعت هذه الدولة الفتية اجتياح معظم الاراضي في آسية الصغرى . ولم تبق سوى وثبة واحدة نحو التقدم في الاراضي الاوربية واحتلال القسطنطينية نفسها وتمكن هؤلاء الغزاة من فتح القدس في سنة ١٠٧٨ غير انهم جعلوا الحالة لا تطاق فيها . فالسلاجقة الاتراك بدلاً من ان يحموا الحجاج المسيحيين ويمنحوهم حقوقاً مرضية كتلك الحقوق التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم العربي السمح اخضعوهم لاشد انواع الذل والاهانة واقصى ما يمكن ان تخترعه القسوة والفظاعة. فوصف الحجاج العائدون الى بلدانهم انواع الاعمال البربرية التي تعرضوا لها وقد أحدثت انباء هذه الفضائع اسوأ الاثر في الامم المسيحية واثارت فيهم رغبـــة عامة

---

(١) ادامز ، بيرتون ، حضارة القرون الوسطى ص ٨٨

(1) Adams, Burton, **Medieval Civilization,** P.88.

في تخليص الارض المقدسة من ايدي المسلمين وانقاذ اماكن الحج من الاخطار التي كان يتعرض لها الحجاج المسيحيون خاصة بعد هدم كنيسة القيامة بأمر من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمره في عام ١٠٠٩ ، وهي الكنيسة التي كانت مفاتيحها قد ارسلت الى شارلمان في سنة ٨٠٠م. كبركة من بطريرك القدس .

كانت سيطرة السلاجقة الاتراك على مدينة القدس وعلى معظم الاراضي في آسية الصغرى اشد هولاً على الاوربيين من الحكم العربي المرن المتسامح ، ذلك لان الاتراك كانوا يملكون الاراضي التي يفتحونها ويستعبدون الشعوب التي تقع تحت سيطرتهم استعباداً وكان حكمهم يتصف بالقسوة والفظاعة على النقيض من الحكم العربي الذي كان يتصف بالعدل والتسامح والمعاملة الانسانية الرقيقة وتحضير الشعوب المحكومة . فالحروب الصليبية اذن كانت بمثابة حج كبير تحميه قوة السلاح لتحرير القدس وفتح الطريق امام الحجاج في المستقبل .

٣ — رغبة البابوات في توسيع نفوذ الكنيسة :

لقد ساعد البابوات الحركة الصليبية اكبر مساعدة لانهم رأوا فيها فرصة سانحة لتوسيع الكنيسة وفرض سلطانهم على الامراء الغربيين الشغوفين بالحرب ولتحويل حماستهم الحربية الى اعمال مقدسة ضد المسلمين ، كما بشرّ بذلك البابا اربان الثاني في مؤتمر كليرمنت في عام ١٠٩٥م . وكانت الكنيسة قد حرصت على تشجيع الفرسان لمحاربة المسلمين اشباعاً لنزعاتهم الحربية ولكي ينالوا في آن واحد بركة روحية وخلاصاً من الذنوب وتطهيراً من المعاصي الامر الذي يرضي الجانب الروحي من طبيعة الفارس . وقد لبّى الفرسان دعوة الكنيسة الى امتشاق الحسام وحمل الصليب بشوق عظيم وحماسة منقطعة النظير وقد رأى اولئك الفرسان في تلك الحروب فرصة سانحة ليطبقوا عملياً في ميادين القتال ما كانوا قد تعلموه نظرياً من فنون الفروسية ودروسها والتدريب عليها ولكي ينالوا بركة دينية في حفلة قبول الفارس في عداد الفرسان وتدشين اسلحته فكان هذا التشجيع من الكنيسة باعثاً على خلق نوع جديد من الفروسية . وكان المبشرون بالحروب الصليبية يندون بالحروب الفردية التي تؤدي الى تقتيل المسيحيين بعضهم بعضاً ويطالبون بتحويلها الى حرب مقدسة ضد

المسلمين كما فعل البابا اربان الثاني في مؤتمر كليرمنت في عام ١٠٩٥م . وقد شدد البابوات على السلام الداخلي فربطوا بين ضرورة القيام بالحرب المقدسة والسلام الداخلي الذي هو في نظرهم السلام الالهي . وبما ان الكنيسة الغربية كانت قد احتكرت العلم والفلسفة والتوجيه الفكري والثقافي في العصور الوسطى وكانت صاحبة السلطة الكبرى المطلقة في العالم المسيحي والنفوذ العظيم على سائر طبقات الشعوب الاوربية، فقد راعها ظهور العنصر العربي الذي بدأ ينشر ثقافته وعلمه وفنه وحضارته فيخلق بذلك نهضة فكرية متحررة من كل قيد لا سيما ان المسلمين الفاتحين كانوا قد سيطروا على الفكر الاوربي بحضارتهم الراقية وتعاليمهم السمحاء . ورأت الكنيسة في هذه الحضارة الجديدة خطراً يهدد سلطتها التقليدية التي كانت تقوم على الجهل . لهذا كان البابا اربان الثاني اول من دعا الى اجتماع اوربي عام في مؤتمر كليرمنت في سنة ١٠٩٥ لحث الدول المسيحية على تخليص الاراضي المقدسة من ايدي الكفار (كما ورد في منشوره البابوي) وشن حرب شعواء ضد العرب والمسلمين وهي حرب تقوم في حقيقتها على نزاع في المبادىء والافكار اكثر مما تقوم على اسباب دينية ظاهرية .

٤ ـ المغريات الروحية والدينية وتشجيع المجرمين

تمكن المبشرون بالحروب الصليبية من اقناع الناس بأن الله سيمنح كل صليبي مكافأة ازلية . وكان هذا الوعد بالمكافأة قد اغرى الوفاً من الناس للحج الى الارض المقدسة . واعتبرت الكنيسة كل من زار فلسطين حاجّاً كما اعتبرت الحملة الصليبية بجملتها فترة غياب مؤقت عن الوطن وقد رحبت الكنيسة بجميع طبقات الناس وعلى الاخص المجرمين والسفاكين والاشقياء وشذاذ الآفاق وغيرهم لكي يكفروا عن آثامهم ويمحوا سيئاتهم بأشتراكهم في الحروب المقدسة .

٥ ـ القلق الذي كان يساور القسطنطينية

بعد ظهور الاسلام وبزوغ الشخصية العربية الاسلامية على مسرح الاحداث العالمية عن طريق الرسالة الاسلامية السمحة المتسامحة وتأثير الخلق العربي الاصيل في العفو عند المقدرة والفتوحات العربية المظفرة في العراق وفارس وسوريا كانت

الدولة الغربية الوحيدة التي تنافس هذه السيادة الجديدة هي الامبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت القسطنطينية عاصمتها وهي توأم الامبراطورية الرومانية الغربية التي كانت روما عاصمتها ذلك انه عندما دب الخصام في الامبراطورية الرومانية الكبرى انشطرت الى قسمين في سنة ٣٣٠ قسم اتجه نحو الشرق واتخذ القسطنطينية عاصمة له وكانت تسمى بيزنطية فظهرت الامبراطورية الشرقية وقسم بقي في الغرب وكانت عاصمته روما وقد سمي بالامبراطورية الغربية ونتيجة لهذا الانقسام السياسي انشقت كنيسة القسطنطينية الشرقية عن كنيسة روما الغربية انشقاقاً نهائياً في سنة ١٠٥٤ واصبحت القسطنطينية تنافس روما في العظمة والازدهار .

ولما مضى العرب في فتوحاتهم ودانت لهم الامصار حتى بلغوا حدود الصين واحتلوا شمال افريقيا وفتحوا صقلية وساردينيا واسبانيا واغاروا على مقاطعة بروفنس في جنوب فرنسا وعلى شمال ايطاليا وسويسرا دب الهلع في قلوب البيزنطيين فلم يستطيعوا الوقوف في وجه تيار الفتح العربي الاسلامي الذي امتد الى ما وراء جبال طوروس الامر الذي اضطرهم الى الانسحاب من مصر وجزر البحر المتوسط . كانت فتوحات العرب المظفرة نهاية احلامهم في السيادة على بلدان الشرق الاوسط وفي استعادة هذه السيادة على الاسكندرية وانطاكية ودمشق والقدس التي كانت دعائم رئيسية لامبراطوريتهم قبل بدء الفتوحات الاسلامية اذ كانت في هذه المدن ذكريات تاريخية ودينية وكانوا ينظرون اليها نظرة الصهاينة الى فلسطين غير انه بسبب تمزق الامبراطورية العربية في القرنين العاشر والحادي عشر وتقسيم بلاد الشام والممالك الاسلامية الى اقطاعيات ودويلات مستقلة كانت تحارب بعضها بعضاً اراد البيزنطيون اغتنام هذه الفرصة الذهبية التي كانت اكثر الفرص ملاءمة للعالم الغربي لتسديد الضربة القاضية على هذه الدويلات واستعادة المناطق التي كانت تعتبرها جزءاً من الامبراطورية الرومانية الشرقية . وكان الامبراطور الكسيوس في الوقت الذي كان يخشى فيه تقدم السلاجقة الاتراك وزحفهم نحو حدود ممتلكاته في آسية الصغرى والحلم الذي كان يراود العرب والمسلمين في احتلال القسطنطينية عاصمة بلاده ، كان ايضاً اشد الطامعين في تحقيق احلامه الذهبية في استعادة مجد الامبراطورية الشرقية وصد هجوم الاتراك ودحرهم ومهاجمتهم في عقر دارهم لاسيما وان اتفاق الكنيستين الشرقية والغربية كان من اقوى العوامل التي ساعدت

على تحقيق فكرة الحروب الصليبية وغزو الشرق . يضاف الى ذلك ان السلاجقة كانوا سنيين ومن دعاة الخلافة العباسية في بغداد وان الفاطميين من الشيعة ومن دعاتها في مصر . ولكي يكسروا شوكة السلاجقة السنيين الذين كانوا يهددون دولتهم بعد استيلاء السلاجقة على بلاد الشام ، ولم يبق بينهم وبين مصر أية أراض تحول دون دخولهم مصر ، دعوا الفرنج لاحتلال بلاد الشام ليكونوا سداً واقياً بينهم وبين السنيين .

وفي ذلك يقول ابن الاثير :

« قيل ان اصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية اخرى تمنعهم من دخول مصر وحصارها خافوا وارسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين السنيين والله اعلم(١) » .

٦ ـ حالة المجتمع الاوربي

كان المجتمع الاوربي في القرون الوسطى يرزح في ظل النظام الاقطاعي تحت انواع كثيرة من الاعباء والالتزامات والضرائب اذ انه كان مقيداً بشتى الاصفاد والقيود . فلم يكن هنالك مفر للناس من البحث عن آفاق اخرى للتخلص من ذلك النظام البغيض فرأوا في الانضواء الى لواء الصليب اكبر محقق لآمالهم في التخلص من ذلك الضيق . وكان التشوف للغنى والرغبة في النفوذ والمباهاة بالقوة والتطلع للشهرة قد جذبت كثيرين من الامراء والفرسان الغربيين . وحب المخاطرة بالنفس والمجازفة بالروح قد جذب اعداداً آخرين من المغامرين . وكان لهذه النزعات الحربية بالاضافة الى الميول القومية الى الهجرة التي امتازت بها قبائل التوتون اثر بالغ في تشجيع الحروب الصليبية والانضمام الى صفوفها .

٧ ـ المجاعة الكـــبرى :

كانت سنة ١٠٩٥م سنة جفاف وقحط في اوربا اذ عمت تلك البلاد مجاعة كبرى اتت على الاخضر واليابس وقضت على الجزء الاكبر من حاصلات اوربا الزراعية وخاصة فرنسا فعم الفقر وانتشرت الامراض المعدية بين الناس وكثرت

---

(١) ابن الاثير ، الكامل

حوادث الاجرام والسرقات فجاءت فكرة الحروب الصليبية مخرجاً للمحتاجين وحافزاً قوياً لكثيرين من امراء الاقطاع للانخراط في صفوف المحاربين تحت لواء الصليب طمعاً في خيرات الشرق وموارده الغنية . وكان بعضهم قد لمس بعض آثار هذه الخيرات في الاندلس المجاورة لهم وصدقوا القصص التي كانت تروى لهم عن غنى الشرق وموارده التي لا تنضب .

٨ — فتح اسواق تجـــارية :

كانت موانىء البندقية وجنوه وبيزا الايطالية آخذة في النمو والتقدم وقد رأت في الحروب الصليبية الفرصة الذهبية السانحة لمد تجارتها الى سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية طمعاً في تأسيس مستعمرات تجارية لها بحيث تكون محطات تتجمع فيها حاصلات الشرق ومنتوجاته الكثيرة فتنقلها على سفنها الى موانىء اوربا بالاضافة الى الارباح الطائلة التي تتدفق عليها عن طريق التجارة ونقل الجنود المحاربـــين والحجاج سنوياً فشجعت هذه الموانىء الحركة الصليبية اكبر تشجيع . فكان لها ما ارادت من حيث نجاحها في إيجاد مؤسسات تجارية لها على سواحل سورية استخدمتها كمستودعات تتجمع فيها السلع الآسيوية لنقلها الى اوربا . وقد رافقت السفن الايطالية اول حرب صليبية وساعدت على تقدمها . وكان وجود الاساطيل الايطالية لازماً للحرب التي ادت الى نمو مملكة القدس وانتعاشها ولو الى حين . والدور الذي لعبته اساطيل الجمهوريات الايطالية في مد الصليبيين بخطوط المواصلات التي احتاجوا اليها بين سورية وغرب اوربا وفي عمليات احتلال السواحل السورية كان ذا اهمية بالغة اذ لولا هذه الاساطيل لما امكن احتلال اية اجزاء من سورية والاحتفاظ بها حتى ولو لمدة سنة واحدة .

يضاف الى ذلك ان الفرنسيين في جنوب فرنسا كانوا يضمرون عداء للدولة الاسلامية الامر الذي شجعهم على مساعدة المسيحيين الاسبان عدة مرات في نزاعهم المستمر مع المسلمين في اواخر القرن الحادي عشر في اسبانيا وقد اتخذ مثل هذا التعاون الذي قام بين الفرنسيين والاسبان مثلاً لاقامة وحدة بين العالم المسيحي لشن حرب مقدسة ضد المسلمين وتخليص الاراضي المقدسة من ايديهم . وفي جنوب فرنسا جرى

اول إعلان عن بدء الحروب الصليبية وكان ريموند اوف تولوز اول من شجع البابا على اتخاذ الخطوة الاخيرة المتعلقة باعلان الحرب المقدسة ضد المسلمين .

ان التجار الايطاليين لم يكونوا من دعاة السلام اذ ان قيام جنوة وبيزا بمهاجمة المسلمين في سردينيا في البحر الابيض المتوسط وفي شمال افريقيا كان لاغراض تجارية في الدرجة الاولى وكانت الحرب عندهم مهنة يجنون منها الارباح الطائلة .

وقد لقي توسع النورمان في صقلية تشجيعاً من الكنيسة طمعاً في جعل امرائهم تابعين لها شريطة ان يحكموا كل ما يفتحونه في تلك الجزيرة .

٩ ــ حل مشكلة تكاثر السكان :

شعر صغار النبلاء في العهد الاقطاعي بان املهم ضعيف في النمو والحصول على اقطاعات واسعة بسبب تكاثر السكان وتوزيع الاقطاعات بين ابناء الامير الاقطاعي الواحد وعدم وجود الاراضي الكافية لسد حاجة المقطعين وكان لابد من السعي للحصول على اقطاعات جديدة بالتوسع شرقاً . وهذا يفسر الحافز القوي الذي دفع كلاً من بلدوين وبوهمند وتانكرد للاشتراك في الحروب الصليبية اذ هيأت لهم هذه الحروب الفرصة لانشاء امارات مستقلة لانفسهم ، الامر الذي يحد من طموحهم ويفقدهم اي امل في مستقبلهم في بلادهم . فلو لم تنشأ مملكة القدس ومملكة صقلية وامارات ادسا وانطاكية وطرابلس بعد الحرب الصليبية الاولى لما ارتفع شأن كثير من الامراء ، لان هذه الممالك والامارات كانت بمثابة مستعمرات اقطاعية هيأت مخرجاً آوى اليه كثيرون من النبلاء والمهاجرين في العهد الاقطاعي .

١٠ ــ اطماع فرنســـا :

كانت فرنسا ومن ورائها اوربا الغربية تطمع في السيطرة على ارمينية وسورية وكانت فرنسا بوجه خاص تسعى الى السيطرة . ومن الخطأ الفاحش ان تعتبر فلسطين وحدها هدف الحروب الصليبية لان الغاية منها كانت الاستيلاء على جميع سورية وارمينية وآسيا الصغرى ولكن المبشرين بالحروب الصليبية وجهّوا همهم الى الهدف الظاهري وهو تخليص الاماكن المقدسة في فلسطين وتأييد الامم المسيحية في ادعائها

بحق احتلال ارض الله الخاصة . وبهذه الاساليب اثيرت الجماهير . وجعل الصليبيون هدفهم الظاهري فلسطين لتخليصها من ايدي السلاجقة الاتراك وتحويلها الى مستعمرة مسيحية .

١١ — السبب المباشر للحروب الصليبية :

كان السبب المباشر للحروب الصليبية نداء الاستغاثة الذي وجهه الكسيوس امبراطور بيزنطية الى البابا اربان الثاني في سنة ١٠٩٥ بعد ان تم للسلاجقة اكتساح الامبراطورية الآسيوية حتى بلغوا بحر مرمره واخذت جيوشهم تهدد القسطنطينية نفسها . فرأى البابا في هذا الاستنجاد فرصة مواتية لضم الكنيسة اليونانية الشرقية الى كنيسة رومة الغربية التي كانت قد انشقت عنها انشقاقاً نهائياً في عام ١٠٥٤م . وكانت الغاية التي اعلنها البابا من هذه الحروب « فك اغلال المسيحيين في الشرق من سلطان السلاجقة وتخليص فلسطين من حكمهم » . وتلبية لهذا النداء وضعت التصاميم ورسمت الخطط لاجابة البابا على مطلبه . وكانت الكنيسة قد جسدت هول الخطر العربي في اوربا وحثت جميع الدول الغربية لا لطرد العدو من القارة الاوربية وتطهير المناطق المحتلة منهم فحسب بل ايضاً لمهاجمته في عقر داره والقضاء على منابع قوته وسلطانه وتسديد الضربة القاضية عليه في الصميم حتى لا يتجدد خطره في المستقبل وبهذه الصورة اجمعت الدول الغربية على محاربة العرب وشنها حرباً ضارية بأسم الصليب منتقلة بذلك من الدفاع الى الهجوم .

١٢ — هل يوجد مبرر للحروب الصليبية ؟

لم يستطع احد من المؤرخين الاوربيين رغم الجهود الكثيرة التي بذلت ان يثبت ان الحروب الصليبية كانت ضرورية او انه كان لها مبرر . فهم على النقيض من ذلك كانوا ملزمين بالاعتراف بأنها تكون فصلاً مخزياً في تاريخ اوربا واتفق جميعهم على ان المسلمين لم يكونوا مشهورين بشجاعتهم وبطولتهم النادرتين فحسب بل ايضاً بعدلهم وعطفهم على الاسرى والمغلوبين على امرهم وكثيراً ما كان يحدث ان يهجر السكان المسيحيون اسيادهم الرومان ويدعون العرب لحكمهم .

وسواء اكان للحروب الصليبية مبرر ام لم يكن فأن حل هذه القضية سهل جداً. ان العزة الالهية لم تطلب من الصليبيين ان يقوموا بأعمال عدائية ضد المسلمين . وفلسطين لم تكن عن حق ملكا للمسيحيين وهبه الله لهم ، كما انه لم يكن لدى الامم المسيحية سبب حقيقي يستحق ان تثار من اجله حرب عالمية طاحنة تدوم زهاء قرنين من الزمان ، كما انه لم يرد في الكتب المقدسة امر للمسيحيين بأن يبنوا اسوار المدينة المقدسة على هام القتلى او يغمروا شوارعها بالدماء . ليس في طبيعة المسيحية ولا في روحها مقابلة الشر — ان وجد — بالشر او اللجوء الى اعنف ضروب الانتقام . واذا اردنا ان نكون منصفين فليس من العدل ان نحكم بأن السلاجقة الاتراك كانوا وحدهم شعباً همجياً متأخراً بل ان المسيحيين ايضاً كانوا قد برهنوا على انهم لم يكونوا اقل همجية وتأخرا من السلاجقة . ويؤيد ذلك وليام دانتون بقوله :

« لم تحدث حروب دينية اطول امداً واكثر اراقة للدماء واشد فتكاً وتدميراً من الحروب الصليبية . فقط سقط عدد كبير من الصليبيين ضحية حماستهم الانتقامية وغيرتهم الحربية . القسوة والتعصب كانا مظهرين من ابرز مظاهر الحروب الصليبية في العصور المظلمة وربما لم يكن شيء مثل هذا في هدف الحروب الصليبية كما كان في مظهرها »(١) .

"No religious wars have ever been so long, so sanguinary, so destructive as the crusades. Countless hosts of holy warriors fell the victims of their own vindicative enthusiasm and military ardour. Fierceness and intolerance were the strongest features in the character of the dark ages, and it is perhaps, not so much in the conduct, as in the object of the crusades, that anything distinct and, peculiar can be marked."(1)

لقد كان من نتائج الحروب الصليبية ان اذكت نار الحقد والضغينة بين الشرق والغرب وغرست بذور الفتنة والتعصب بين الشعوب وجعلت الاندفاع لاحتلال بلاد الشرق سياسة استعمارية تقليدية لدى الدول الاوربية حتى اصبح تاريخ الاستعمار الاوربي الحديث يعود الى عهد الحروب الصليبية . واصبحت سياسة « فرق تسد » وتقسيم البلاد المحتلة الى دويلات صغيرة لا تقوى على الدفاع عن نفسها هي السياسة التي إتبعتها الدول الاوربية الغازية التي تمركزت في بعض البلدان العربية والشرقية

(١) دانتون ، وليام ، تاريخ العالم للمؤرخين المجلد الثامن ص ٤٧٦

(1) Denton, William, **The Historians History of the World**, Vol. VIII P. 476

لحماية القوات المسلحة . وقد اتخذت حماية الاماكن المقدسة ودعوى الحقوق التاريخية حجة لاقامة المستعمرات في البلاد العربية وتعزيز قوتها فيها وتوطيد مركزها في هذه المستعمرات .

اهمية الحروب الصليبية :

يجب ان نعتبر الحروب الصليبية عصراً تاريخياً مهما وتتجلى اهميته في قول ستيفنسون :

« كانت الحروب الصليبية مشهداً عجيباً من مشاهد الانخذال والانتصار وتضارب الغايات واختلاط النزعات ومن حلفاء اقسموا الاخلاص لهدف حربي مهم ولكنهم كانوا على الدوام يحارب بعضهم بعضاً » (١).

"The Crusades must be considered a great epoch. Their significance lies in the fact that they were an amazing spectacle of failure and triumph of conflicting purposes and mixed motives, of allies vowed to the same great military cause yet frequently at war with one another".(1)

ومن هذه الناحية تعتبر الحروب الصليبية بداية لتحول ملحوظ في تاريخ القرون الوسطى . فهي حركة كبيرة اجمعت عليها الشعوب الاوربية مدفوعة بأغراض واحدة وحوافز متجانسة فكانت دليلاً على ان وحدة اوربية قد بدأت تتكون وعلى ان العالم المسيحي قد بدأ ينهض وعلى ان هذه الحروب كانت قادرة على هذا التكوين . فهي اذن اول حادثة اوربية عامة وربما كان ذلك اهم ما امتازت به فقد اشتركت فيها جميع الامم الاوربية ومثلت فيها جميع طبقات الشعب من ملوك وامراء وسادة ورجال دين وتجار ومجرمين وصعاليك ولصوص فكان كل هؤلاء يشعرون بشعور واحد هو شعور الوحدة المعنوية للشعوب الاوربية .

والحروب الصليبية في رأي الكثيرين تكوّن اهم فصل في تاريخ اختلاط الشرق بالغرب . واغرب مافيها انها انتهت ليس بأحتلال الغرب المسيحي للشرق ولكن بأحتلال الشرق الاسلامي للغرب . بدأت الحروب الصليبية والسلاجقة الاتراك متحصنون في نيقية (ازنيق) وانتهت بتحصن الاتراك العثمانيين على ضفاف الدانوب .

---

(١) ستيفنسون ، و ، ب ، التاريخ العالمي للعالم المجلد الخامس ص ٢٧٩٧

(1) Stevenson, W.B. **Universal History of the World** Vol. 5 P. 2797

وقد بدأت الحروب الصليبية بحجة الدفاع عن الامبراطورية البيزنطية ولكنها بالرغم من ذلك ادت الى انهيار تلك الامبراطورية . وبدأت الحروب الصليبية ونجحت بوصفها اعظم اداة للتعبير عن روح الحاج في القرون الوسطى ولكنها فشلت حربياً لان روح الحاج اعتبرت اقل من ان يضحي الانسان بنفسه من اجلها . غير انه يلاحظ ان الحروب الصليبية التي ابتدأت في نهاية القرن الحادي عشر وانتهت في اواخر القرن الثالث عشر قد امتازت بنقل المسيحية اللاتينية في الغرب الى الشرق بعد ان كانت منعزلة عنه الى ذلك الحين . وهناك وقع الاحتكاك بينهما وبين الكنيسة اليونانية والامبراطورية البيزنطية في الشرق وكانت حليفتها بالاسم ، كما احتكت من الناحية الاخرى بمسلمي الشرق فناصبتهم العداء ، وربما كانت الحروب الصليبية اول مظهر من مظاهر تدخل الغرب في الشرق .

اما مدن ايطاليا مثل البندقية وبيزا وجنوه فقد ساعدت هذه الحركة اقوى مساعدة من اجل مصالحها التجارية . ولكن تجار البحر من سكان هذه المدن الذين فضلوا ارباح التجارة على اخطار الحرب لم يخدموا جنوداً للصليب الا لماماً . اضف الى ذلك ان الحروب الصليبية اعتمدت في نجاحها وتأييدها على امم اوربا متحدة . ولكن هذه الامم لم تكن في سلام بعضها مع بعض ولهذا لم تفز الحروب الصليبية بالهدف الظاهري الذي سعت لتحقيقه .

هل حققت الحروب الصليبية اهدافها ؟

اذا نظر الى ما حققته الحروب الصليبية من حيث غرضها الحقيقي وهو حماية المسيحية عموماً من خطر غزو الاسلام لبلدان اوربا فقد نجحت نجاحاً عظيماً اذ انها انقذت المسيحية الغربية من خطر غزو الاسلام لبلدان اوربا وتوسع الدول الاسلامية في تلك الفترة المهمة التي كانت حضارة اوربا الغربية آخذة فيها بالنهوض في العصور الوسطى فحالت بينها وبين الانحصار في دائرة ضيقة . يضاف الى ذلك ان الحروب الصليبية كانت بداية تحول عظيم في الحياة السياسية لدول اوربا الغربية اذ انها تمثل فجر التوسع الاستعماري الاوربي لبلدان الشرق الاوسط واتخاذ هذه البلدان مركزاً يقفزون منه لاحتلال اقطار شرقية اخرى واستعمارها والسيطرة على تجارتها ومواردها وامتصاص خيراتها وتأسيس قواعد لهم فيها لتأمين مواصلاتهم وحماية مصالحهم .

وكما اوضحنا لم تكن الحروب الصليبية في حقيقتها نزاعاً بين اصحاب الصليب و الهلال كما صوره رجال الكنيسة وقادة الحملة الصليبية بقدر ما كانت صراعاً طويلاً مريراً بين الشرق والغرب منذ اقــدم عصور التاريخ في سبيل السيطرة والتحكم . وما الاستعمار الاوربي البغيض الذي خيم على صدور الدول الشرقية في آسيا اجيالاً طويلة الا امتداداً لتلك الحروب . كما ان الحركة الصهيونية لم تكن الا اثراً من آثار السياسة الغربية في السيطرة على البلدان العربية واخضاعها لنفوذها عن طريق غرس سرطان الصهيونية في جسم الامة العربية ليهدد وجودها وكيانها دوماً بهذا السرطان الخبيث .

اهداف الحملات الصليبية :

اصابت الحملات الصليبية هدفين : الهدف الاول تدريب عسكري لمدة قصيرة والهدف الثاني كسب بركة دينية عن طريق زيارة اماكن الحج المعروفة . وكان من جملة طموحات الصليبيين ان يؤسسوا في سورية قوة عظيمة تستطيع الدفاع عن البلاد ضد اي هجوم خارجي . ولم يكن بالامكان تنفيذ مثل هذه المطامح مالم يصمم عدد كبير من الصليبيين على الاقامة الطويلة في فلسطين وفعلاً بقي جودفري في نهاية الحرب الصليبية الاولى يحكم القدس وميناء يافا البحرية وقد تدفق سيل جارف من الصليبيين الى سورية في السنوات التالية . والى هذه الاعداد الكبيرة يعزى سبب نجاح الحملة الصليبية الاولى . ومن الواضح ان الحملات الصليبية التي تلت الحرب الصليبية الاولى كانت في الاصل حملات حربية هدفها المحافظة على الحكومات اللاتينية في سورية في اثناء عراكها مع المسلمين واطفاء ظمأ الفتح الذي كان يجري في صدور اللوردات والبارونات . وبعد الحرب الصليبية الاولى تأسست جمعيات حربية كثيرة في المملكة اللاتينية بالقدس . ولم يكن امام الفتى الفارس مجال اسلم له من الانخراط في سلك هذه الجمعيات الغنية القوية .

اما الرواتب فكانت تدفع بنظام خاص . وكل جندي ذي رتبة عسكرية كان يتقاضى راتباً محدداً في وقت معين وبالرغم مما كان سيتعرض له الجندي من اخطار جسيمة وصعوبات جمة كحرب مروعة وسفر مضن ووباً فتاك فانه كان يعلم

على كل حال انه سيتمتع في ظل الجندية بحياة اهنأ وعيشة الذ مما لو بقي في وطنه ومسقط رأسه .

فشل الحروب الصليبية :

اما فشل الحروب الصليبية النهائي فأنه يعزى الى اسباب كثيرة منها :

أولاً : ان اغلب قوّاد الحملة الصليبية الاولى قد غادروا اوطانهم وفي نيتهم ان يقيموا في فلسطين وسورية اقامة دائمة . غير انهم كانوا خليطاً من شتى الامم ولم يكن بينهم زعيم بارز قوي يتمتع بنفوذ خاص وكان التنافس والتحاسد بين القوّاد اهم سبب في فشل الحروب الصليبية . ولدينا ما يوضح ذلك في معظم الحملات الصليبية . فقد تعهد جودفري وزملاؤه الامراءالذين قادوا الحملة الصليبية الاولى ان يحكموا البلاد التي تدين لهم بأسم البابوية. فلما بلغوا القسطنطينية تعهدوا ان يحكموها بأسم الامبراطور الا انهم ما كادوا يصلون الى انطاكية حتى ذرّ قرن الخلاف بينهم وثارت في وسطهم عاصفة شديدة من التفرقة . فأنفصل بلدوين عن زملائه واستقر في امارة ادسا (الرها) واستقر بوهيمند في انطاكية وانشغل ريموند اوف تولوز بفتح طرابلس . واسس جودفري مملكة القدس وحكم الجميع هذه البلدان بأسمهم الخاص وانشأوا فيها القصور واقطعوا الاقطاعيات دون ان يعيروا الامبراطور في القسطنطينية اي التفات .

ثانياً : ان الشعوب اللاتينية كانت غير قادرة على ابقاء قوة كافية في سورية لتقاوم وحدها قوات سورية ومصر المتحالفة . وكان السكان اللاتين المقيمون في سورية اقامة دائمة قليلين . وهؤلاء كانوا في حاجة مستمرة الى طلب المساعدة من اوربا حتى في حالة اتحادهم .

ثالثاً : ان المساعدة التي كانت تصل الى الصليبيين لم تكن كافية في اغلب الاوقات وكان نصيبها الفشل لانها كانت تفتقر الى قوة فرد قدير يستطيع ادارتها ادارة ناجحة فيعمل على ايجاد الانسجام التام بين صفوفها . ويسهل ان نلاحظ أنه في كل حرب صليبية مهمة كان يلتقي المحاربون من مختلف الامم في ارض الشرق وكان يجهل بعضهم بعضاً وكانوا منقسمين على انفسهم لمصالح شخصية

متضاربة وكانوا معتادين على التخاصم في اوطانهم ولم تكن الاحوال الداخلية في اوربا مستقرة على حال في اثناء الحروب الصليبية . اذن كان مستحيلاً على الامم الاوربية الكثيرة ان تتحد قلبياً في حملتها على الشرق بينما كانت تتخاصم على امور كثيرة في الغرب .

الفصل الثاني

طبيعة الثقافة العربية ومصادرها قبيل الحروب الصليبية

اظهر العرب تحت حافز الاسلام مرونة سياسية عجيبة مزجـوها بالثقافة اليونانية والثقافة الفارسية فأوجدوا نهضة ممتازة في القرن الثامن والقرن التاسع في العلوم والفنون والفلسفة ولهذا لم يقتصر ما شاده العرب في تاريخ العصور الوسطى على انشاء دولة فحسب بل تجاوزوه الى الثقافة والعمران .

وقد ورث العرب ثروة كبيرة من المدنيات القديمة التي ازدهرت على ضفاف الرافدين وسواحل البحر الابيض المتوسط وفي وادي النيل واقتبسوا من اليونان والرومان القيم الخالدة من مآثرهم وعلومهم وفلسفتهم التي اضافوا اليها الشيء الكثير مما ابتكروه ثم نقلوا هذه العلوم والفنون والفلسفات الى اوربا التي كانت لا تزال تعيش في عصورها المظلمة وعملوا على نشرها فكان من نتيجة ذلك ان بزغ في اوربا فجر النهضة الاوربية التي لا تزال اوربا وامريكا تتمتعان حتى اليوم بحسناتها . يقول الدكتور فيليب حتي في كتابه العرب « ليس من شعب آخر قام في العصور الوسطى بما قام به العرب في سبيل تقدم البشرية (ونحن هنا لا نطلق كلمة عرب على ابناء الجزيرة فحسب بل على سائر الشعوب التي اتخذت العربية لساناً) فبينما كان فلاسفة العرب منكبين على دراسة تآليف ارسطو كان شارلمان ورجال بطانته يحاولون اتقان كتابة اسمائهم . وبينما كان علماء العرب في قرطبة يترددون على خزائن كتبها (منها خزانة حوت ٤٠٠٠٠٠ مجلد) ويعودون الى بيوتهم فينعمون بالاستحمام

في حمامات بلغت الغاية في النظافة والاناقة كان الاساتذة والتلامذة في جامعة اكسفورد يستنكرون الاستحمام ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية ويجب الترفع عنها »(١)

وقد نقلت الثقافة اليونانية الى سورية والعراق تحت تأثير اليونان والرومان وسيطرتهم فأهتم بها السوريون اشد الاهتمام وان لم يدركوا فائدتها اول الامر كل الادراك، وشرعوا في الاديرة السورية ليس في ترجمة الكتب الرومانية فحسب بل في ترجمة كتب المؤلفين المشهورين وبصورة خاصة كتب ارسطو وابقراط وجالينوس. وقد وجد النساطرة وهم الذين عذبتهم الامبراطورية البيزنطيـــة واضطهدتهم ملجأ اميناً لهم ولعلومهم في بلاد فارس . وفي هذا الصدد يقول جوزيف هل :

« في هدأة ملجئهم الجديد واصلوا دراساتهم واصبحوا نقلة الثقافة اليونانية الخاصين الى العالم بوجه عام وفي سنة ٥٥٠ ب.م اسس الملك الفارسي خسرو انوشروان جامعة في جوناشيبور في غرب بلاد فارس لدراسة الطب والفلسفة . واستمرت هذه الجامعة التي كانت وليدة الثقافة اليونانية تشع النور والعرفان الى ايام العباسيين»(٢) .

In the tranquility of their new asylum they resumed their studies, and became special surveyors of Greek culture to the world at large. About A.D. 550 the Persian king, Khusru Anushirwan, founded an academy west of Persia at Junashapur for the study of medicine and Philosophy, This academy, an offshoot of Greek culture, continued to shed light and learning up to the time of the Abbasides''(2)

وفضلاً عن الاديرة السورية وجامعة جوناشيبور في بلاد فارس فقد كانت مدينة حرّان فيما بين النهرين موطناً ثالثاً لدراسة العلوم اليونانية وكان سكان حرّان يعبدون الاوثان الى القرن الرابع وحتى ذلك التاريخ واصلوا دراساتهم الرياضية والفلكية دون اي عائق . فمن جميع هذه المصادر تحدر العلم الى العرب الذين مكنتهم فتوحاتهم من الوصول الى تراث اليونان الادبي عن طريق الترجمات السريانية وفي ذلك يقول الدكتور زكي علي :—

---

١ — فليب حتى تاريخ العرب ص ٩

٢ — هل جوزيف ، حضارة العرب صفحة ٨٦

(2) Hell, Joseph, **Arab Civilization,** Page 86

« من ناحية جديدة وبقوة جديدة يقول اتش جي ويلز تعهد العقل العربي التقدم المطرد للمعرفة الحقيقية التي بدأها العقل اليوناني وتخلى عنها. فاذا كان اليوناني هو الاب فالعربي هو الربيب لذلك الاسلوب العلمي والبحث عن الحقيقة بصراحة تامة وعبارة بسيطة وشرح واف وسجل حقيقي ونقد مستفيض . فعن طريق العرب ، وليس عن طريق الامم اللاتينية تسلم العالم هبة النور والقوة »(١).

"From a new angle, and with a fresh vigour, says H. G. Wells, the Arab mind took up that systematic development of positive knowledge which the Greek had begun and relinquished. It received the human persuit of science. If the Greek was the father, then the Arab was the foster-father of the scientific method dealing with reality, that is to say, by absolute frankness, the utmost simplicity of statement and explanation, exact record and exhaustive criticism. Through the Arabs it was, and not by the Latin route, that the modern world received the gift of light and power".(1)

وتعزى نهضة العرب العلمية في القرون الوسطى ، الى حد بعيد ، الى تأثر العالم الاسلامي بالحضارات اليونانية والفارسية والهندية والسريانية وهي النهضة التي اشتدت فيها حركة الترجمة الى العربية من اللغات السنسكريتية والفارسية والسريانية واليونانية وقد استطاع العرب بذكائهم الفطري وقواهم العقلية النيرة وحبهم للمعرفة ورغبتهم في استيعاب كل جديد وقابليتهم الشديدة لتلقي العلم واستعدادهم الطبيعي لاستغلال امكاناتهم لكي يصبحوا ورثة الشعوب العريقـــة في الحضارة التي كانوا قـــد تغلبوا عليها او احتكوا بها . وقد استمد العرب من الحضارة الآرامية في الشام التي تأثرت بالحضارة اليونانية ، واستمدوا ايضاً من الحضارة الآرامية في العراق التي تأثرت بالحضارة الفارسية . ولم يمض على تأسيس بغداد ثلاثة ارباع القرن حتى اصبحت في حوزة العرب كتب ارسطو ونخبة من كتب الشروح لاهل الفلسفة الافلاطونية الجديدة وكتب جالينوس الطبية وعدد كبير من الكتب الفارسية والهندية . ففي عشرات السنين استطاع العرب ، كما يذكر الدكتور فيليب حتي ، الوقوف على آثار علمية وفلسفية قيمة كان اليونان قد امضوا القرون في انشائها . والجدير بالذكر ان السريان المسيحيين كانوا قد قدّموا للنهضة العلمية والعقلية التي تمركزت في بغداد واصبحت من اسمى

(١) علي زكي الاسلام في العالم صفحة ٩٩

(1) Ali, Zaki, **Islam in the World, P.** 99

ما يفخر به العرب في عصر الاسلام الذهبي اكثر مما قدم اي شعب آخر وكان العالم العربي بين عام ٧٥٠ وعام ٨٥٠ مسرحاً لأهم حركات تاريخ الفكر واخطرها وبدأت هذه الحركات بالترجمات من الفارسية واليونانية والسريانية الى العربية ويقول الدكتور فيليب حتي في ذلك :

"More than any other people the Syriac-speaking Christians contributed to that general awakening and intellectual renaisance centered in Abbasid Baghdad which became and remained the chief glory of classical Islam. Between 750 and 850 the Arab world was the scene of one of the most spectacular and momentous movements of the history of thought. The movement was marked by translations from Persian, Greek and Syriac".(1)

وقد كان لانتصارات العرب على الروم اثر بارز في تألق نجم هذا العصر غير ان سبب عظمته الحقيقية يعود الى النهضة الفكرية التي لم يعهد لها مثيل في تاريخ الشعوب والتي تعتبر من النهضات الهامة في تاريخ التقدم الفكري في العالم . « وثقافة ذلك العصر — كما يقول الدكتور فيليب حتي — كانت قد استمدت اصولها من مصر وبابل وفنيقية واليهودية واتجهت في مجرى واحد نحو اليونان ثم عادت الى الشرق بثوب هليني . وسنرى فيما بعد كيف عاد هذا المجرى الى اوربا عن طريق العرب في اسبانيا وفي صقلية فكان مبعثاً للنهضة الاوربية المشهورة » .

ومن الخطأ الفاحش ان نحصر معطيات العرب للحضارة في حفظ علوم الاقدمين ونقلها الى العالم . لقد برهن علماء العرب والمعلقون منهم على مخلفات علماء اليونان وفلاسفتهم على مقدرتهم على الابداع وبلغوهم اعلى درجات الابتكار في الوقت الذي انتكس فيه الهلينيون (اليونان) وارتدوا الى سبات القرون الوسطى العميق وفي ذلك يقول استاذ التاريخ في جامعة لندن الدكتور عزيز عطية وهو هندي :

"Yet it would be an error to limit the Arab contribution to the transmission of ancient knowledge. Arab scholars and commentators showed themselves to be creative and attained extraordinary heights of originality. while the later Hellenes relapsed into medieval lethargy"(2)

---

(1) Hitti, K. Philip, History of Syria, P. 548

(2) Atiya S. Aziz, Crusade Commerce, and Culture, P. 209

ويقول جورج سارتون في هذا الموضوع :

« لقد كانت الكتب التي كتبها العرب في العلوم في القرون الوسطى الاوعية الحقيقية للعلم الحي لبضعة قرون . وقد نقحها وترجمها او حللها وبحث فيها عدد من العلماء الذين كانوا في الاصل مستشرقين ضليعين في العربية . وتاريخ العلم في الوقت الحاضر ينمو ببطء نحو النضوج وتوجد الآن نوعية جديدة من العلماء ومن المؤرخين في العلوم المحترفين . فأذا اراد هؤلاء ان يفهموا كيفية انتقال العلم القديم الى العالم الحديث وجب عليهم ان يعرفوا العلم العربي ولكن مهمتهم ستكون صعبة في هذه الحالة »(١) .

"The Science books written in Arabic during the middle Ages were, for a few centuries, the main vehicles of the living science. They have been edited, translated, or analyzed and discussed, by a good many scholars who were primarily arabists orientalists.Now the history of science is slowly growing to maturity.There is now a new kind of scholars, professional historians of science, who if they would understand the transmission of ancient science to the modern world, must obtain some knowledge of Arabic science. Their position is a very difficult one"(1)

ويقول ايضاً :

« ان دراسة العلم العربي واسعة جداً ذلك لان هذا العلم يتألف من اجزاء غير متجانسة كثيرة التركيب وغنية بحيث لو كرّس الانسان المتبحر في العلم والمتحمس له معظم وقته وجهـــده لما استطاع سبر غوره واستقصاءه كله . وعليه في هذه الحالة اما ان يحتضن كامل الميدان ، كما حاولت ان افعل ، او ان يبحث في جزء صغير منه بدقة (٢) .

"The study of Arabic science is so vast a subject in itself, so heterogeneous and so rich, that a man of great learning and zeal, devoting most of his time and energy to it, could not investigate deeply the whole of it, He would have to chose between embracing the whole field, as I have tried to do, or excavating more thoroughly a small part of it" (2)

ويقول ايضاً :

« لا شيء يشبه معجزة العلم العربي في تاريخ العالم سوى هضم اليابانيين للعلم

---

(١) سارتون جورج ، ثقافة الشرق الادنى والمجتمع ، ليونج ت كويلر ص ٨٤ .

(1) Sarton, George, Near Eastern Culture and Society, by T. Cuyler Young,P.84"

(٢) سارتون ، جورج ، ثقافة الشرق الا دنى والمجتمع ، ليونج ت كويلر ص ٨٤ .

(2) Ibid, P. 84

الحديث والتكنلوجيا . والموازنة بينهما مفيـــدة لان وضعهما في الحالتـــين سواء . فالقادة ذوو العقول النيرة من العرب ادركوا حاجتهم الى العلم اليوناني بالسرعة التي ادرك فيها اليابانيون حاجتهم الى العلم الاوربي منذ جيلين مضيا . وكل من الشعبين يملك الارادة ونفس النشاط الروحي للتغلب على الصعوبات التي لا تقهر . والواقع انه لم تكن عندهما الخبرة الكافية ولا الصبر على التفكير في الصعوبات والخوف منها . وببساطة فقد غامرا . وكل شيء يصبح اكثر سهولة اذا لم تتصور أنه صعب» (١) .

"There is nothing like the miracle of the Arabic science in the history of the the world, except the Japanese assimilation of modern science and technology. The comparison is useful, because the situation was fundamentally the same in both cases. The intellectual leaders of the Arabs realized the need of Greek science as urgently as the Japanese of two generations ago that of European science. Both had the will and the kind of spiritual energy which overcomes unsuperable difficulties. Indeed they had not sufficient experience nor enough patience to consider difficulties and be frightened by them, they simply rushed through. Everything becomes easier if you dont even imagine how difficult it is".(1)

ويمضي جورج سارتون في القول :

«تعزى معجزة العلم العربي الى حد كبير الى امتزاج عزيمـــة الاسلام بحب الاستطلاع الفارسي وبلورته وحكمته المتقنة . وبعبارة اعم يمكن القول ان العلم العربي كان نتيجة للعبقرية السامية المعززة بالعبقرية الايرانية . وهذه العبارة عامة جدا اذا توخينا الدقة ولكنها تساعدنا على فهم ما حدث في بغداد في خلال القرنين من ٧٥٠م الى ٩٥٠م . فالحكام المسلمون الذين كانوا يستخدمون الرعايا الذين يجيدون عدة لغات ومعظمهم من المسيحيين واليهود كانوا السبب في جعل المعرفة اليونانية الجيدة في متناول اللغة العربية»(٢) .

"The miracle of Arabic science was largely due to the crystallization of Arabic vigour and earnestness of Islamic faith by Persian curiosity and sophistication. To put it in more general terms, Arabic science was the fruit of the semitic genious fertilized by the Iranian genious.

This may be too a general statement for strict accuracy, but it helps us to understand roughly what happened in Baghdad. Within a couple of centuries (750 - 950) the Islamic rulers using their polyglot subjects, most of them Christians and Jews, caused the best of Greek knowledge to become available in the Arabic Language" (2)

---

(١) سارتون ، جورج ، ثقافة الشرق الادنى والمجتمع ليونج كويلر ص ٨٥
(1) Sarton, George, Near Eastern Culture and Society by T. Cuyler Young, P.87
(2) Ibid P. 87 . (٢) سارتون ، جورج ، ثقافة الشرق الادنى والمجتمع ، ليوينج ت ، كويلر ٨٧ .

وقد ورد في دائرة المعارف البريطانية حول انتقال العلم اليوناني الى العرب ما يلي :

« لقد اختفى العلم في الغرب مع انقراض الامبراطورية الرومانية اللاتينية وابتداء الانحلال ايضاً في نفس الوقت في الامبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت تتكلم اللغة اليونانية ولم يتوقف ذلك الانحلال ابداً وقد ترجم عدد كبير من المؤلفات العلمية اليونانية القيمة الى اللغة السريانية، اي لغة الهراطقة النسطوريين المسيحيين وروجعت تلك الترجمات في خلال الفترة من ٧٥٠م الى ٨٥٠م واضيف اليها الشيء الكثير . وفي خلال الفترة من ٨٥٠م الى ٩٥٠م اعاد المترجمون النساطرة في بغداد ترجمة تلك المؤلفات من اللغة السريانية الى اللغة العربية . ويعتبر هذا العرض للعلم اليوناني باللغة العربية المصدر الاساسي للعلم العربي وانتشرت اللغة العربية والثقافة العربية بعد ذلك من البرتغال في الغرب الى الصين في الشرق »(١).

"In the west, science disappeared with the Latin Roman Empire. In the Greek-speaking Eastern Roman Empire, a disintegration began that was never arrested. Much valuable Greek scientific literature was, however, translated into Syriac, the language of the heretical Nestorian Christians. Between 750 and 850 these versions were revised and many others added. From 850 to 950 Nestorian translators at Baghdad rendered the Syriac versions into Arabic.This presentation of Greek science in Arabic is the primary source of Arabian science. The Arabic language and culture spread after to Portugal in the West, as far as China in the East."(1)

ويقول جورج سارتون :

« حاول بعض المؤرخين الاقلال من انجازات العرب الضخمة بأدعائهم أنه لم يكن فيها شيء من الاصالة وان العرب ما كانوا الامقلدين . ومثل هذا الحكم خاطيء وبمعنى آخر ليس هنالك شيء يعد اكثر اصالة من الجوع الحقيقي للمعرفة التي كان يمتلكها القادة العرب . كان معظم المترجمين من الاجانب لسبب بسيط هو ان هذا العمل احتاج الى درجـــة من معرفة عدة لغـــات ، والغزاة المسلمون لم تكن لهم هـــذه المعرفة. ولكي يترجم المرء من لغة الى لغة اخرى يجب عليه ان يجيد اللغتين اجادة

(١) دائرة المعارف البريطانية ، المجلد العشرون صفحة ١٤ — تاريخ العلم

(1) Encys. Brit. Vol. 20, P. 14. History of Science.

تامة . ومثل هذه المؤهلات التي توافرت في الاجانب كانت ضرورية ولكنها لم تكن كافية . وبصورة عامة ، لا يمكن لاي عمل ، وخاصة اذا كان متقناً وطويلاً ، ان ينجز الا اذا احتاج اليه الانسان بشدة وكان يرغب في دعم العلماء الذين يقومون به. كان القادة العرب متشوقين ليروا العمل قد تم وانه اصبح مهيئاً لاستكماله، وكانت بينهم منافسة حادة حول هذا الموضوع وزمام المبادأة في هذا كان لهم » (١).

"Some historians have tried to pooh-pooh those immense achievements by claiming that there was nothing original in them and that the Arabs were nothing but copy-cats,such a judgement is all wrong. In a sense, nothing can be more deeply original than the genuine hunger for knowledge which possessed the Arab leaders. .... The translators were most of them foreigners for the simple reason that the task required a degree of polyglotism which the invading Muslims could not have. In order to translate from one language into another one must know both languages well. Such qualifications as the foreigners had were necessary but not sufficient. In general, no work especially that one which is long and exacting, can be done unless somebody wants it badly enough and is willing to maintain the scholars engaged in it The Arab leaders were generally anxious to have the work done and ready to make its performance possible; there often was a generous emulation between them about it. The initiative was theirs".(1)

لقد تم معظم الترجمات من اليونانية الى العربية مباشرة او من اليونانية الى السريانية ثم الى العربية وتمت بعض الترجمات من السنسكريتية وربما ايضاً من بعض اللغات الشرقية الاخرى ولا تزال معلوماتنا عن اللغة السنسكريتية وبعض اللغات الشرقية الاخرى المستعارة غير دقيقة لان العلماء الذين كانوا يعرفون اللغة العربية واللغة السنسكريتية (الفارسية القديمة والصينية) كانوا قلائل جداً وهذا يثبت الاصالة العربية والابداع العربي كما يقول الدكتور جورج سارتون . فالعرب لم يخلدوا المصادر اليونانية فحسب بل كانوا ايضاً متشوقين الى شرب العلم من اي مصدر ولم يمض وقت طويل حتى استطاعوا امتصاص المعرفة وهضمها وتحويلها الى شيء جديد .

« كان علم الحساب الجديد وعلم المثلثات الجديد اعظم ابتكارات العرب في الرياضيات والفلك . والمهم في هذين العلمين – كما يقول الدكتورسارتون – انهما

١ – سارتون ، جورج ، ثقافة الشرق الادنى والمجتمع – فصل في العلم الاسلامي يونغ كويلر ص ٨٨

(1) Sarton, George Islamic Science- a chapter in the book "The Near East Curlture and Society, by T. Cuyler P.88.

مبنيان على اسس سنسكريتية ويونانية مزدوجة . وحتى الاستعارات الطبية كانت من الهند واليونان . ان الحاقدين الذين ينتقصون من المعطيات العربية يعترضون بقولهم ان الاستعارات من مصادر عدة ليست احسن من الاستعارة من مصدر واحد. ان مثل هذا المنطق مضلل وخاصة ما يتعلق منه بالرياضيات . ففي الحالتين السابقتين المذكورتين لم ينقل الرياضيون العرب من المصادر اليونانية والسنسكريتية العلوم التي تكاد تكون عديمة الفائدة . لقد جمعوا المصدرين معاً وخصبوا الاراء اليونانية بالآراء الهندية . فاذا كانت هذه الاعمال لا تعتبر ابتكارات فليست هنالك اذن ابتكارات في العلوم . ان الاختراع العلمي بكل بساطة هو حياكة الخيوط المتفرقة وربط العقد الجديدة وليست هنالك اختراعات من العدم »(١) .

"The two greatest Arabic innovations in mathematics and astronomy are the new arithmetic and the new trigonometry, It is significant that both were established on a double foundation,Sanskrit and Greek......... In the two cases mentioned above the Arabic mathematicians did not copy the Greek and Sanskrit sources- that would have been almost useless - they brought them together and fertilized the Greek ideas with the Hindu ones. If these were not innovations, there are no inventions in science. A scientific invention is simply the weaving together of separate threads and the tying of new knots. There are no inventions ex nihilo"(1)

ويقول الدكتور زكي علي :

« في الوقت الذي ظهر فيه العرب في الشرق كان العلم اليوناني في انحطاط تام وكان لتعاطي السحر بين اليونانيين السيطرة المطلقة »(٢).

"At the time when the Arabs appeared in the orient Greek science was in complete decadence, and the practice of magic reigned supreme".(2)

ويقول بيكمان في كتابه تاريخ الاختراعات كما يقول الدكتور زكي علي :

« كم كان العرب نبلاء ، اننا مدينون لهم بفائدة جلّى ، ويجب علينا ان نظل نشكرهم اكثر فأكثر لاننا شاعرون بالفوائد الجمة التي حصلنا عليها منهم

---

(١) سارتون ، جورج ، ثقافة الشرق الادنى والمجتمع ، فصل في العلم الاسلامي يونغ كويلر ص ٨٨

(1) Sarton, George, Islamic Science, Near Eastern Culture and Society by T. Cuyler P. 89

(٢) علي زكي ، الاسلام في العالم ص ٩٩ .

(2) Ali Zaki, Islam in the World P. 99

يا للاسف لمؤلفاتهم المطمورة في التراب دون ان يستفاد منها يا للعار كيف ان اولئك الذين يعرفون هذه اللغة الغنية لا يجدون التشجيع الكافي . لو كنت اعلم انني سأعيش عشرين سنة اخرى واملي في ان يكون عندي قدر كاف من مؤلفات العرب لتعلمت العربية »(١) .

"What a noble people were the Arabs, says Beckmann, in his History of Inventions. We are indebted to them for great utility; and we should have still more to thank them for we were fully aware of the benefits we have derived from them. What a pity that their works should be suffered to moulder into dust, without being available. What a shame that those acquainted with this rich language should meet with so little encouragement. Had I still twenty years to live and could hope for an abundant supply of Arabic works, I would learn Arabic" (1)

اننا نستطيع القول بكل تأكيد ان ترجمات العرب العديدة وشروحهم الكثيرة لعلوم اليونان التي جعلت ادبهم الاخ الثاني للادب اليوناني هي التي منحت الامم الحديثة اول قبس من نور العلوم والفنون القديمة . والعرب هم الذين فتحوا عيون الامم الحديثة اليها . ولا ريب في ان الامم الاوربية رغبت في اقتناء هذه العلوم والفنون ومعرفة مؤلفيها الاصليين بعد ان عرفوها عن طريق ترجمات العرب وشروحهم ومنذ ذلك الوقت وجدت لغتا هومر وافلاطون كثيرين من المفسرين المجتهدين . ويعود الفضل في سرعة النشاط العلمي العجيب عند العرب الى سرعة ترجمة علوم اليونان الى العربية الحية وسهولة هذه اللغة . وسهّل هذا الامر — لحسن الحظ — وجود المدارس والمكتبات الكثيرة .

والعرب لم يحفظوا كنوز اليونان العلمية من فقدان وتلف محققين فحسب بل خلقوا ايضاً ذوقاً سليماً لحب البحث والتنقيب في كل من الشرق العربي واسبانيا وشرحوا تراث اليونان العلمي والعقلي وعلقوا عليه ونشروه . ولو وقفوا عند هذا الحد اي بجمعهم مخطوطات اليونان وكتبهم وعلومهم وتسليمها الى اوربا عن طريق العائدين من الصليبيين وعن طريق آسيا الصغرى وصقلية واسبانيا قبل ثلاثة قرون من اندلاع الحروب الصليبية لكفاهم هذا فخراً ولأكسبهم مجداً خالداً ولكنهم عملوا

(١) زكي علي ، الاسلام في العالم ص ٩٩

(1) Ali Zaki, **Islam in the World,** P. 99

اكثر من هذا . كانوا مبتكرين في جميع الآداب والعلوم والفنون . وسرعان ما احتل الطابع العربي مكانه اللائق به وقد اثبتت مؤلفات العرب انه كانت عند العرب مقدرة ابتكارية اصيلة تختلف عن مقدرة اصحاب المدنيات القديمة يقول هامبولدت كما ورد في كتاب زكي علي :

« بعد ان طرد العرب البربرية التي كانت موجودة في اوربا قبل قرنين رجعوا الى مصادر الفلسفة اليونانية الخالدة ولم يكتفوا بحفظ الكنوز الثقافية التي كسبوها ولكنهم زادوا عليها ايضاً وشقوا لانفسهم طريقاً جديدة لدراسة الطبيعة » (١) .

"The Arabs, says Humboldt, drove back barbarism which had already existed in Europe for two centuries .... they went back to the eternal sources of Greek philosophy. They did not stop at saving the treasures of acquired knowledge; they increased it and opened up new routes for the study of nature". (1)

وبعد ان فرغ العرب من فتوحاتهم في كل من آسيا وافريقيا واوربا برهنوا للعالم على انهم كانوا يفوقون غيرهم من الامم في المقدرة السياسية والكفاية الادارية كما برهنوا على مقدرة فائقة في ميادين العلم والفلسفة . وبعد ان تعلم العرب المبادىء الاولية المهمة من علوم اليونان خطوا حالاً خطوة ابعد من خطوات اساتذتهم . يقول الدكتور لوسيان كما ورد في كتاب الدكتور زكي علي :

« لن يرى العالم مرة ثانية منظراً عجيباً كالمنظر الذي عرضه العرب في القرن التاسع . هؤلاء القوم الرعاة الذين صيرتهم حماستهم الدينية فجأة اسياد نصف العالم انكبوا على العمل بعد تأسيس امبراطوريتهم لينالوا من العلوم ما كان ينقص عظمتهم.

وفي اواخر القرن الثامن كانت ثروتهم العلمية تتألف من ترجمات لكتب الطبيعة وبعض كتب الكيمياء القديمة الخرافية كتحويل المعادن الى ذهب وقبل ان يجنح القرن التاسع الى الغروب كان العرب يملكون جميع علوم اليونان . وقد انجبوا من بين صفوفهم تلامذة من الدرجة الاولى اظهروا قابلية لكسب العلوم الحقيقية التي كانت تنقص اساتذتهم . فتفوقوا عليهم منذ ذلك الوقت » .

---

(١) زكي علي ، الاسلام في العالم ص ١٠١

(1) Ali Zaki, **Islam in the World,** P. 101.

Zaki Ali quotes: Says Dr. Lucien,

"Never shall the world see again so marvellous a spectacle as the Arabs afforded during the ninth century. These pastoral people, whose religious enthusiasm had suddenly made them masters of half the world, have once founded their empire, immediately set to work to acquire that knowledge of the sciences which was lacking to their greatness.... At the end of the eighth century, their entire scientific possessions consisted of translation of one medical treatise and some books on alchemy. Before the ninth century had run to its close, the Arabs were in possession of all the sciences of the Greeks; they had produced from their own ranks students of the first order, and they showed from this time on an aptitude for the exact sciences which was lacking in their instructors, whom they hence forward surpassed". (1)

فالحضارة العربية فاقت في امور كثيرة حضارات البلدان الاوربية المعاصرة . وفي الوقت الذي كانت فيه اوربا تتربع في احضان البربرية وتهيم في ظلمات الجهل ولا يكاد يبصر فيها شعاع من النور ، كانت عواصم المسلمين تشع بأنوار العلم والادب والفلسفة والفن والصناعة .

فالعصر الذهبي للاسلام لم يكن عصر ترف وبذخ فحسب بل عصر انتاج ثقافي وسيادة مارس في اثنائه العالم الاسلامي اعظم قدر له من التأثير على العقل الغربي العلمي والادبي . فالفلاسفة والاطباء والمنجمون والفلكيون والرياضيون وجغرافيو العصر العباسي في الشرق وفي اسبانيا العربية هم الذين نشروا تراث اليونان ومصر وفارس والهند العلمي والفلسفي القديم ونسقوا هذا التراث لينسجم مع ناموس المعتقدين بوحدانية الله وهكذا اوجدوا الرابط الجوهري بين تعاليم ارسطو وجالين واقليدس وافلاطون وبين تفكير الاوربيين المعاصرين وفي ذلك يقول انتوني ناتنج مؤلف كتاب لورنس العربية .

"This was Islams golden age, not only of luxurious living but also of cultural achievement and predominence, in which the Moslem world was to establish and maintain a paramount influence upon western scientific and literary thought. For it was the Philosophers, doctors, alchemists, astronomers, mathematicians and geographers of the Abbasid east and of Arab Spain who developed the philosophic and scientific heritage of ancient Greece, Egypt,Persia, and India brought it into line with the religious precepts of a monotheistic world, and so provided the essential link between the teachings of Aristotle, Galen, Euclid and Plato and the thinking of the modern Europeans"(2)

---

(1) Ali Zaki O.P. Cit P. 103 (As quoted from Dr. lucien, histoir de la medicine arabe P.P. (91-92)

(2) Nutting Anthony, Author of Lawrance of Arbia. P. 124

الفصل الثالث

الثقــافة في عصــر الخلفاء

حظيت الثقافة العربية بأحسن الظروف التي عجّلت في تقدمها ومن حسن الحظ ان السلطة المالية وخزينة الدولة كانتا تحت تصرف الخليفة ذي الحكم المطلق المستنير. وهذه الصلاحية الواسعة ساعدت الخلفاء في بغداد والقاهرة على ان يكونوا حماة للعلم. وقد خصص الخلفاء مبالغ كبيرة من دخل الدولة للانفاق على المدارس والجامعات والعلماء والوظائف. وكغيرهم من الحكام ذوي الحكم المطلق المستنير في التاريخ جعلوا عصرهم مزدهراً بالمشاريع العمرانية وحموا العلم والعبقرية العقلية. ولما مضى العرب يفتحون البلدان والامصار ادركوا القيمة الحقيقية لثقافات البلدان التي دانت لسلطانهم او احتكوا بها فكانوا على النقيض من الالمان الذين نهبوا مدنية الرومان في اوربا الغربية ودمروها.

وقد كيف العرب انفسهم بمهارة فائقة لدراسة العلوم والاستفادة من مدنيات الامم الخاضعة لسلطانهم وبأذهان صافية وعقول نيرة انصرفوا لدراسة الفلسفة القديمة وعلوم اليونان والرومان والفرس والهند. ولحسن الحظ كان المسلمون في القرون الوسطى يتمتعون بحرية في المسائل العقلية اكثر مما كان يتمتع به المسيحيون.

يقول ريتشارد نيوهول :

« صحيح ان العلماء المتعصبين للدين قد عبسوا في وجه دراسة العلوم الفلسفية ولكنهم لم يؤلفوا مشيخة دينية منظمة تسيطر على الحياة العقلية في طائفتهم. لذلك لم يقو نفوذهم عــلى كبح البحوث العلمية التي شجعهــا الخلفاء انفسهم وهم رؤساء المسلمين فقد ازدهر البحث الحر الذي كثيراً ما كان مطبــوعاً بطابع الكفر في زمن العباسيين ».

Richard Ager Newhall says:

"It is true that the most rigidly theologians frowned upon the study of science and philosophy, but they did not form an organized priesthood dominating the intellectual life of their community; their influence could not check the scien'ific

investigations which the caliphs themselves, the religious heads of Islam, encouraged. Free thinking, often quite infidel in its character, and with it scientific inquiry flourished under the Abbaside caliphs".(1)

والجدير بالذكر ان الاسلام لم يمنع المسرات الدنيوية — بل على النقيض من ذلك — شجع التمتع بالحياة الامر الذي غرس في نفوس المسلمين حب الترف الذي تهذب بتأثير الفرس . يقول نيوهول :

« كان مسموحاً للمؤمن ان يطلق عنان الحرية لأذواقه الفنية والعقلية وان ينصرف بحماسة لدراسة العلم الطبيعي للحصول على نتائج عملية »(٢) .

R.A. Newhall again says:

"The believer was free to indulge his intellectual and artistic tastes, and to supply himself with enthusiasm to the study of natural science with a view of obtaining practical results"(2)

وهناك عامل مهم ساعد على تقدم حضارة العرب وهو روح التسامح التي كانت عند العرب نحو الطوائف غير المسلمة الامر الذي مكنهم من الاستفادة من العلماء المسيحيين اكبر استفادة ممكنة وتحت هذه الظروف ازدهرت المدن بالتجارة والنشاط الصناعي ، كما ان الخلفاء ساعدوا الحياة العقلية اكبر مساعدة لشغفهم الخاص بالبحوث الطبيعية والفلكية وبالتجارب العملية .

ولم يكن المسيحيون السريان وحدهم في سورية الذين ساهموا في عطائهم للحياة العقلية العربية بل ساهم في ذلك السريان الوثنيون في سورية الذين كان مركزهم في مدينة حرّان بين النهرين وكانوا يعرفون بالسبئيين ، وبما ان السبئيين كانوا يعبدون النجوم وكانوا قد ورثوا تقاليدهم الدينية عن البابليين فقد اهتموا بدراسة الفلك والعلوم الاخرى ذات العلاقة بهذا العلم وكانوا من عشاق الثقافة الهلينية وقد وقفوا على قدم المساواة مع السريان المسيحيين وفي مد الحياة العقلية في سورية بالثقافة الهلينية .

وكان ثابت بن قرة (٨٣٦م — ٩٠١م) اشهر علماء السبئيين . ويعود الفضل له ولتلامذته من بعده في ترجمة معظم مؤلفات اليونان الفلكية والرياضية بما في ذلك مؤلفات بطليموس وارخميدس بالاضافة الى مراجعتهم للترجمات السابقة . وقد

(١) ريتشارد نيوهول ، تاريخ الحروب الصليبية ص ٨٥

(1) A. R. Newhall, History of The Crusades P. 85

(2) Ibid P. 85

(٢) ريتشارد نيوهول ، تاريخ الحروب الصليبية ص ٨٥

راجع ثابت بن قره ترجمة حنين لمؤلفات اقليدس في الرياضيات وخلف ثابت ابنه وحفيده وابن احد حفيديه في اعمال الترجمة وسنأتي على ذكر معطيات هؤلاء المترجمين في مكان آخر من هذا الكتاب .

لقد كانت سياسة الخلفاء العباسيين تهدف الى تشجيع البحوث العلمية على غرار اساليب العلماء اليونان . ويرجع الفضل الاكبر في اعطاء الحافز الاول لدراسة العلم الحقيقي الى الخليفة ابي جعفر المنصور (٧٥٤—٧٧٥) ذلك لان دراسة علم الفلك من جملة الاشياء التي اشغل نفسه بها . فمنظر السماء الجميل كان قد استرعى نظره كما استرعى انظار جميع من كانوا يعيشون في بلاد تتمتع بمناخ لطيف . وقد تمكن المسلمون في عهد المنصور من معرفة اسماء الكواكب السيارة وبعض النجوم نتيجة لاختلاطهم بالامم المجاورة كما تمكنوا من تعيين مواطن القمر تعييناً دقيقاً وبرهنوا على انهم كانوا قادرين على فهم الامور الفلكية الصرفة . وقد امر المنصور بترجمة رسالة في الفلك كتبها رحالة هندي كان قد قدم الى بغداد تدعى سد ذاتنا (السند هند) في العربية على يد محمد بن ابراهيم الغزاري الذي اصبح اول فلكي في الاسلام وقد ذاع صيته في اواخر القرن الثامن للميلاد .

وفي زمن هارون الرشيد (٧٨٦—٨٠٩م) بلغت الدولة العباسية اعلى درجات الرقي والعمران ذلك لان الرشيد كان اعظم الخلفاء العباسيين شأناً وارفعهم مقاماً . وقد ذاع صيته في الشرق والغرب وعرفه كبار الناس وصغارهم وتألق نجمه في دنيا العرب والاسلام وازدهرت بغداد في زمنه في العلوم والآداب واحتلت المقام الاول في الثروة . وكانت المنافسة الوحيدة لبيزنطية .

وكان بلاط الخليفة في عهد الرشيد والخلفاء الذين تولوا الحكم بعده موئل الشعراء والادباء والندماء وارباب الموسيقى والغناء . فكان القصر ملتقى لمختلف الثقافات وضروب اللهو . وكان في مقدمة المطربين والمغنين ابراهيم الموصلي وسياط وابن جامع وكان افراد البيت الملكي وغيرهم من الحاشية يقلدون الخليفة في العطايا والبذل وسعة العيش . وفي زمن المأمون (٨١٣—٨٣٣) بلغت الدولة العباسية اقصى درجات القوة وارفع مراتب الحضارة واسمى معالم النهضة . وقد لقب المأمون بأغسطس العرب ، اذ تحقق على يديه من الانجازات الثقافية والعلمية والحضارية ما يفوق كل ما كان يؤمل في ذلك الوقت ، يضاف الى ذلك انه كان عالماً ويحب

العلم والعلماء ويشجعهم ويكرمهم ويعلي مقامهم ، وقد جعل العلوم والاداب في منأى عن تقلبات السياسة وانفق على تشجيعها ونشرها الاموال الطائلة . واحاط العلماء والادباء بالرعاية البالغة والعناية الكريمة وكان متسامحاً مع العلماء والمترجمين من غـــير المسلمين بغض النظر عن جنسهم ودينهم وفي ذلك يقول المؤرخ سيديو أ . ل . « أفسح المأمون المكان للعلماء اليونان والفرس والسريان والكـــلدان والاقباط دون اي تحيز او تمييز ديني ونشطت في زمنه اعمال الترجمة من الكتب الرومانية واليونانية والهندية والفارسية وغيرها . ويرجع ذلك الى شغفه الخاص بالفلسفة والمنطق والعلم . . . . . وقد شجع المأمون حركة الترجمة ونشطها بما اولاها من الرعاية وما اغدق عليها من الاموال وما ابتاع من الكتب القديمة . وقد طلب من ملك الروم ان يرسل له الكتب القديمة والمخطوطات اليونانية . ولما جيء بها امر بترجمتها بسرعة . وفي زمنه ترجمت كتب كثيرة في الهندسة والميكانيك والفلك والموسيقى . وازدهرت العلوم الرياضية والفلكية وعلوم الجغرافية والطب والكيمياء»(١)

وفي عصر المأمون ظهرت حركة عظيمة ونهضة ادبية ممتازة . وكان اهتمام العرب بدراسة الآداب في عصر المأمون يزيد على اهتمام اوربا بدراستها زمن النهضة الاوربية . وقد فتح المأمون عدة مدارس في بغداد ، كان يدرس فيها ستة آلاف طالب مجاناً ، على حد قول سيديو . وانشأ ايضاً مكتبات عامة وسمح لاي انسان ان يدخلها وقبل ان يتولى المأمون الخلافة كانت قد ترجمت عدة كتب منها كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع وكتب في الطب لابقراط وجالينوس وكتاب الهندسة لاقليدس.

عرف المأمون كيف يسير نحو المجد وكيف يتألق نجمه في سماء التاريخ وقد حافظ على تألقه حتى اواخر خلافته مدة اربعة عشر عاماً وكان بحق رائعاً ومبدعاً للحوادث وصانعاً للتاريخ واستطاع ان يحول الخلافة العباسية الى مركز ثقافي وعلمي بارز في عالم عصره . وبسبب حبه العميق للآداب والفنون والعلوم فقد اصبح اعظم الخلفاء رعاية للشعر والفقه والفلسفة والتنجيم والفلك . وقد شجع العلماء واستقدمهم بغض النظر عن جنسهم ودينهم ، وفي ذلك يقول نتنج انتوني مؤلف كتاب «لورنس العربية » .

---

١ — سيديو أ . ل . تاريخ العرب العام ص ٢٥٦

٢ — الطبري الجزء الثالث صفحة ١٠٨١ والمسعودي الجزء السابع صفحة ٦٥ وابن الاثير الجزء السادس صفحة ٢٧٩ .

" He encouraged and imported men of learning, regardless of race or religion, Christians, Greeks, Jews, Zoroastrians, even heathen Sabians whose star-worshipping was thought to make them experts in astronomy- were patronized and pampered in order that they might enrich the caliphate with their knowledge and creative power. The stream of culture that had earlier flowed into Greece from its ancient sources in Egypt, Babylonia, Phoenicia, and Judaea now poured back to fertilize the areas of its origins".(1)

« لقد شجع رجال العلم ودللّهم واستقدمهم بغض النظر عن جنسهم ودينهم وشمل برعايته كلا من المسيحيين واليونان واليهود والزرواستيين (اصحاب الديانة المجوسية من الفرس القدماء او عبدة النار) والسبئيين الوثنيين الذين كانوا يعبدون الاجرام السماوية لاعتقادهم بأن هذه العبادة ستجعلهم مهرة في علم الفلك ، وذلك لكي يخصب الخلافة ويغنيها بالمعرفة والمقدرة المبدعة . وقد عاد المد الثقافي الذي كان قد انساب في الماضي الى بلاد اليونان من مصادره الاساسية في مصر وبابل وفنيقية وجوديا ليخصب الاراضي مرة اخرى في مصادرها الاصلية »(١) .

وقد راجع المأمون نظام التعليم العام الذي كان يقوم به رجال الدين في الجوامع وفق المناهج الابتدائية التي اقتصرت في ذلك الوقت على قراءة القرآن الكريم والكتابة وقليل من الحساب ولم يحظ الرواد العرب الاوائل في علم الطب والتنجيم في الماضي بأية مساعدة من الدولة غير ان هذا قد تغير في زمن المأمون ولم يكن رجال الدين وحدهم المعلمين الوحيدين لرعايا الخلفية ، اذ انشئت معاهد للتعليم العالي واسست مدرسة للحقوق وبنيت قاعة للعلوم جهزت بمكتبة ومختبر كاملين . وخصصت الدولة الاموال اللازمة لاقامة الكليات وبذل جهد كبير لزيادة نفوذ الخليفة في المجالين العلمي والادبي وجرى البحث في الاوساط القريبة والبعيدة عن مؤلفات الفلاسفة والرياضيين اليونان وكتب الشعراء والادباء والمؤرخين الفرس . وقد نقلت الكتب المكتوبة بالفارسية والسنسكريتية والسريانية الى العربية عن طريق فريق من المترجمين الذين استضيفوا في قاعة بيت الحكمة (Hall of Wisdom) التي كانت مجهزة بمكتبة واكاديمية وديوان ترجمة وكان يشرف على هذه القاعة شيخ المترجمين المسيحي العربي « هارون بن اسحق » الذي ترجم بنفسه كتاب « جمهورية افلاطون » وكتاب « الفيزياء والمقولات في المنطق » واعمال اقليدس في الهندسة . وقد دفع له اجر

---

(1) Nutting, Anthony, the Arabs from Mohammed to the Present, P. 113

(١) نتنج انتوني ، العرب من محمد (صلعم) الى الوقت الحاضر ص ١١٣

بالذهب يعادل وزن الكتب التي ترجمها . وشجع المأمون العلماء على كتابة المجلدات العلمية الطويلة وكانت هنالك ايضاً مؤلفات في مواضيع غامضة وصعبة تتعلق بالتنويم المغناطيسي hypnotism وابتلاع السيف ومضغ الزجاج . وفي ذلك يقول انتوني نتنج :

"As for Arabic literature not only were poets, historians and theologians encouraged to write long and learned volumes but there were even books written on such recondite subjects as hypnotism, sword-swallowing and glass-chewing"(1)

كان النثر العربي في الاصل موجزاً ومحكم السبك وكان اسلوبه يناسب لغة اهل البادية . غير انه طبع في عصر المأمون بالطابع الفارسي وصبغ بالعبارات الارجوانية والتعابير المزوقة التي لا تزال عالقة حتى الآن.

كان عصر المأمون بحق عصر الاسلام الذهبي ليس بالنسبة للرفاهية والبذخ والعيشة الرغيدة فحسب بل ايضاً بالنسبة للانجازات الثقافية الخالدة حيث ترك الاسلام أثره البارز في الفكر العلمي والادبي على الحضارة الغربية ويعود الفضل في ذلك الى الفلاسفة والاطباء والمنجمين وعلماء الفلك والرياضيين والجغرافيين الذين ظهروا في الشرق العباسي وفي اسبانيا العربية وهم الذين ساعدوا على نشر التراث الفلسفي والعلمي القديم لليونان ومصر وفارس والهند وتنميته كما حاولوا توفيق الفلسفة مع الدين بالنسبة للعالم المؤمن بوحدانية الله وبهذا اوجدوا الصلة الاساسية بين تعاليم ارسطو وجالين واقليدس وتعاليم الاوربيين الحديثين وفي ذلك يقول انتوني نتنج :

"For it was the philosophers, doctors, alchemists, astronomers, mathematicians and geographers of the Abbasid east and of Arab Spain who developed the philosophic and scientific heritage of Ancient Greece, Egypt, Persia and India, brought it into line with the religious precepts of a monotheistic world, and so provided the essential link between the teachings of Aristotle, Galen, Euclid and Plato and the teachings of modern Europeans".(2)

استمرت الدولة العباسية في التقدم والازدهار منذ انتقال الخلافة اليها وحتى نهاية حكم المأمون بسبب اعتمادها على العنصر العربي في الدرجة الاولى الذي امدها بالحيوية والنشاط والقوة فبلغت اقصى درجات الرفعة والمجد والتقدم العلمي والثقافي والسياسي والاجتماعي والعمراني واصبحت بغداد في زمن المنصور والرشيد والمأمون قبلة العالم الاسلامي ومحط انظار العلماء والفقهاء ورجال الفكر والسياسة .

---

(1) Nutting, Anthony, the Arabs from Mohammed to the Present, P. 113

(2) Nutting, Anthony, the Arabs from Moh. to the Present, P. 124

الفصل الرابع

الحضارة البيزنطية وحالة اوربا قبل الحروب الصليبية

دامت حضارة الامبراطورية البيزنطية الف سنة تقريباً اي حتى سنة ١٤٥٣ حينما سقطت القسطنطينية بأيدي الاتراك العثمانيين الذين دمروا الجزء الاكبر من معالم حضارتها . وبالرغم من انحلال هذه الامبراطورية فقد كانت الآثار الباقية من حضارتها اسمى بكثير من حضارة اية امة من امم اوربة الغربية . وكانت عناصر الثقافة البيزنطية يونانية ورومانية وشرقية وأهم ما قدمته هذه الثقافة من خدمة حقيقية للعالم الحديث هو حفظها تلك الثقافة ونقلها للعالم الغربي في فترتين الاولى كانت في عصر الحروب الصليبية عن طريق الاختلاط المباشر والتجارة وتبادل الآراء والثانية بعد سقوط القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ عن طريق المهاجرين الذين لجأوا الى ايطاليا وغرب اوربا. وكانت الامبراطورية الشرقية تتألف من جزائر متوسطة حصينة تسربت اليها جميع ثقافات العرب والمسلمين وثقافات جميع الدول الشرقية عن طريق الترجمات والعلماء المسلمين لانها وجدت ملجأ اميناً لها ضد هجمات البرابرة .

وانتعش في القسطنطينية الادب اعظم انتعاش ونجح اكبر نجاح إذ ثابر الناس على دراسته وتقليده بحماسة فائقة . وحفظت في القسطنطينية علوم اليونان كما جمعت علوم الرومان ونسقت فيها . وامتازت ثقافة الامبراطورية البيزنطية عن سائر الثقافات في الغرب من عدة وجوه وخاصة في الطب والجراحة ونشأ في القسطنطينية طراز جديد ممتاز في فن البناء الهندسي اشتهر بكثرة استعمال القباب والاقبية وظهر فيها اجمل انواع الفن وذلك بأستعمال الفسيفساء للزينة . وليس هنالك مثل ادل على روعة جمال هذا الفن من جمال الفسيفساء التي تزين كنيسة سانكتا صوفيا في القسطنطينية اذ ان منظر هذه الكنيسة الخارجي يبين بكل جلاء ووضوح انه لا مثيل لفن بنائها الهندسي حيث ان له طابعاً فنياً خاصاً وجمالاً فريداً ساحراً . والشيء الذي يكسب بناءها الهندسي جمالاً يفوق جمال البناء الهندسي الروماني هو استعمال الجدران الخفيفة والفتحات الكبيرة والاعمدة الفخمة .

وفي الصناعات الخفيفة اشتهر البيزنطيون في ابتكاراتهم وخاصة ما يتعلق بصياغة المعادن يقول وليام مونرو .

« كانت القسطنطينية في اوائل القرون الوسطى اغنى مدينة في اوربا واكثرها سكاناً . وكان اهلها احسن المسيحيين فناً واغزرهم علماً وارقاهم حضارة . حكموا تجارة البحر المتوسط واحتكروا كثيراً من ادوات الترف ووجـــد المسافرون في القسطنطينية شوارع مرصوفة مضاءة وحدائق عمومية كبيرة ومستشفيات جميلة وملاجىء انيقة للايتام . وحافظت على النظام فيها قوة مدربة من الشرطة احسن تدريب وانشئت فيها ملاه كثيرة وملاعب للخيل لتسلية عامة الشعب وكانت فيها مدارس راقية تابع الطلاب فيها دراستهم ليست الابتدائية فحسب بل تلقوا دروساً في الحقوق والطب وعلوم أخرى ايضاً . وكان النبلاء يسكنون في بنايات فخمة فاقت بدرجات قصور السلاطين الغربيين وكان للصناع بعض البيوت وقد تعاونوا في مصانعهم الكبيرة في انتاج البضائع الفنية التي كانت نادرة الوجود وغالية الثمن في الغرب . وصفوة القول وجد الناس في القسطنطينية حضارة سبقت بمئات السنين العادات الخشنة التي كانت سائدة في المانيا وفرنسا وانجلترا »(١)

حالة اوربا قبيل الحروب الصليبية :

اذا القينا نظرة على حالة اوربا في القرن الحادي عشر وحالتها في القرن الرابع عشر او العصر الذي سبق سقوط القدس في سنة ١٠٩٩ بأيدي الصليبيين والعصر الذي تلا انتزاع عكا من ايدي الغزاة الغربيين في سنة ١٢٩١ لاصبح بوسعنا ان نتبين حدود المؤثرات الثقافية على العالم الغربي . لاننا نعلم ان اوربا قبل الحروب الصليبية التي ابتدأت في سنة ١٠٩٦ كانت في حالة ركود عقلي وتجمد ثقافي وكانت الشعوب الاوربية بأسرها غارقة في جهلها وفي دياجي القرون الوسطى التي كانت تدعى (بالعصور المظلمة) . فالجهل كان عميقاً ومنتشراً انتشاراً واسعاً لدرجة ان بعض الملوك والاباطرة كانوا لا يكادون يعرفون فن القراءة اذ ان العلم كان مقتصراً على الاديرة بوجه عام وكان الاعتقاد بالخرافات سائداً . ولكن الحروب الصليبية نبهت الشعور الاوربي العام وحفزته على ضرورة بناء هيئة اجتماعية جديدة في ضوء ما تعلمه الصليبيون من العرب والمسلمين الذين كانت لهم حضارات مجيدة في الشرق الاسلامي وقامت لهم دولة شهيرة في البلدان الاوربية التي دانت لسلطانهم فانشأوا فيها حضارات مزدهرة كانت هي قبس النور الوحيد في الغرب . واصبح الناس يشعرون على الاقل

(١) مونرو وليم بنت — تاريخ العصور الوسطى ص ٩٥–٩٦

بضرورة فتح عيونهم والنظر الى ما حولهم وطرح أثواب الخمول والكسل عن انفسهم. يقول لويس روسكو أشلي :

« ان كثيرين من هؤلاء الحجاج المسيحيين لم يخرجوا ابداً من بلدانهم قبل سفرهم الى الارض المقدسة سواءً اكانوا من الفرسان ام من الصعاليك ولم يتجاوزوا الاقطاعية التي ولدوا فيها . ماذا سيكون إذن مصير هؤلاء الرجال الجهلة بعد سفرهم مع رجال من بني قومهم واقوام آخرين شهروا بعد شهور ورأوا مدناً عظيمة واكتشفوا طرقاً حديثة في المعيشة واللبس هي احسن من طرقهم ونفضوا عنهم اثواب الجهل باختلاطهم مع البيزنطيين اللطفاء والمسلمين الاذكياء (١)

"Many of these armed pilgrims, whether knights or villians, had never been outside of their countries or even beyond the manor on which they had been born. Imagine the result when these ignorant men, in company with other soldiers of their own nation, journeyed months with men of other nationalities, viewed great cities, discovered better ways of dressing and living, and dispelled their own ignorance by contact with courteous Byzantines and intelligent saracens".(1)

الفصل الخامس

المسيحيون إبان الحكم العربي

تمتع المسيحيون منذ فجر الاسلام باقصى درجات التسامح وباشروا طقوسهم الدينية بكل حرية وحصلوا على حقوقهم المدنية وامتيازاتهم الاخرى دون صعوبة وسافروا في سائر اطراف الامبراطورية دون عائق وسمح لهم بالاتصال بالامراء المسيحيين في البلدان الاجنبية كما سمح لهم بأن يقتنوا ما شاؤا من الاموال وان يمتلكوا العقارات كغيرهم من المسلمين وكانت الوظائف مفتوحة لهم على قدم المساواة مع المسلمين باستثناء ما حصل في عصر الحكام الطغاة . وقد بنيت الكنائس في معظم مراكز العالم الاسلامي وسمح للحجاج بأن يزوروا الارض المقدسة دون عائق .

(1) Ashley Roscoe lewis Early Europaen Civilization. P. 448

وقد اعطى الخليفة عمر بن الخطاب اعظم درس للعالم الاسلامي والمسيحي في التسامح الديني وفي المحافظة على المقدسات المسيحية وعدم السماح لاحد بالاعتداء عليها او ادعاء ملكيتها او مسها باذى ذلك انه في شهر شباط من سنة ٦٣٨ دخل بيت المقدس فاتحاً بعد معركة اليرموك الفاصلة وهو يركب جملاً ابيض اللون وسار الى جانبه البطريرك صفرونيوس باعتباره الرأس الديني والاداري الاكبر للمدينة المقدسة وقد بادر عمر بالتوجه فوراً الى موقع الصخرة المكرمة وهو المكان الذي صعد منه النبي (صلعم) الى السماء ليلة المعراج ثم طلب الخليفة زيارة الاماكن المقدسة المسيحية فصحبه البطريرك صفرنيوس الى كنيسة القيامة واطلعه على ما بها . وبينما كانا في الكنيسة قرب وقت الصلاة عند المسلمين استوضح الخليفة عن المكان الذي يستطيع ان يفرش عليه سجادة الصلاة فتوسل اليه صفرونيوس أن يبقى في مكانه ولكن عمر رأى ان يخرج الى خارج الكنيسة لكي لا يدعي اصحابه المتحمسون لدينهم ملكية كنيسة القيامة او الادعاء بأن لهم حقاً في المكان الذي صلى فيه وبقيت كنيسة القيامة الى يومنا هذا بيد المسيحيين كأقدس مقدساتهم التي يحج اليهـــا عشرات الالوف من الناس سنوياً . وانشيء جامع في المكان الذي صلى فيه عمر مقابل كنيسة القيامة .

وفي عصر الحروب الصليبية التي شنت على العالم الاسلامي اظهر المسلمون درجة قصوى من التسامح اذ برهن صلاح الدين الايوبي في مناسبات كثيرة انه كان جديراً بالنصر الذي حققه لانه عامل الاسرى المسيحيين معاملة انسانية تدل على الشهامة ونبل الاخلاق بأخلائه سبيلهم وبأرسال بعضهم احياناً الى ذويهم محملين بالهدايا . ويعود الفضل في بقاء الكثيرين من الجرحى على قيد الحياة وشفائهم من جروحهم الى عنايته الخاصة بهم . وتمنى كثيرون منهم لو تسنى لهم ان يخدموا تحت لوائه .

الفصل السادس

موجز الحروب الصليبية

تمهـــــيد :-

من المرجح ان تكون فكرة الحروب الصليبية التي امتدت طول قرنين كاملين من الزمن من اختراع البابا اربان الثاني الذي كان خطيباً بارعاً شديد الحماسة بليغ

الكلام فصيح البيان يستلفت الانظار بعلو قامته وثبات خطواته وقوة شخصيته وقد كان لحماسة ترجمانه بطرس الناسك اثر مباشر في اضرام عواطفه بعد الزيارة التي قام بها للاراضي المقدسة اذ شهد بطرس امامه انه رأى بأم عينيه بعض الفظائع التي كان يرتكبها السلاجقة الاتراك في الاراضي المقدسة الامر الذي اهتزّ له قلبه وغلى مرجل الغيظ في صدره من رؤية الاشياء التي مجرد ذكرها سيوقظ غضبه في قبره على حد قوله .

وبالرغم من ان بطرس الناسك لم يشهد مؤتمر كليرمنت فان سنة ١٠٩٥ ما كادت تنتهي حتى أخذ يبشر بالحرب الصليبية وينادي بها وقد لقيت دعوته نجاحاً منقطع النظير لاسباب كثيرة منها ازدياد عدد السكان في السنوات الاخيرة وحدوث الفيضانات وتحطم الجسور وطغيان البحر والانهار على الحقول في سنة ١٠٩٤ وانتشار الاوبئة وما تلا ذلك من جفاف ومجاعة في سنة ١٠٩٥ وتساقط الشهب في تلك السنة . ومنها ان حياة الفلاحين في شمال غرب اوربا كانت قاسية جداً بسبب غزوات البرابرة وغارات الشماليين وتعرض القرى للنهب والسلب والحرق على ايدي المحاربين الذين يشنون حروباً أهلية وقطاع الطرق . كل هذه الامور شجعت الناس على طلب الهجرة الى اي مكان فيه موتهم المؤكد. وكان ذلك العصر عصر رؤى. وكان الناس يؤمنون بعلم التنجيم وبأقوال السحرة وبما يرون في احلامهم. واعتقد كثير من الناس ان بطرس الناسك كان يعلم بالغيب وان القيامة الثانية اصبحت وشيكة الوقوع ويجب على البشر ان يكفروا عن ذنوبهم وان يستغفروا عن زلاتهم ما دام لديهم متسع من الوقت . وقد ركز بطرس في تبشيره على القول إنّ كل حاج الى الاراضي المقدسة سوف يكفر الله عن ذنوبه .

كيف تقررت الحملات الصليبية :

على أثر خطب بطرس الناسك التي الهبت عواطف الجماهير واثارت حماستهم عقدت عدة مؤتمرات في سنة ١٠٩٥ وكان من ابرز هذه المؤتمرات مؤتمر بيانزا Peanza الذي عقد في شهر آيار من سنة ١٠٩٥ ومؤتمر كليرمنت الذي عقد في فرنسا في ٢٦ تشرين ثاني من سنة ١٠٩٥ ومثلت في مؤتمر كليرمنت جميع الطوائف المسيحية وحضر المؤتمر ما يقرب من مائتين وخمسين اسقفاً وعدد كبير من الامراء والفرسان . وتقررت في هذا المؤتمر الحرب الصليبية .

وقد القى البابا اربان الثاني في مؤتمر كليرمنت خطبة حماسية تاريخية الهبت عواطف المؤتمرين واثارت مشاعرهم بما ملك من قوة البيان وفصيح الكلام وشديد العاطفة حتى اذا ما شعر بأنه ملك الاسماع والافئدة واستولى على الحاضرين بسحر بيانه وقوة شخصيته وشديد عاطفته ضرب بيده على منصة الخطابة ضربات تجاوبت لها اصداء المكان فأنبعثت منه صرخات المجتمعين "Deus Le Volt" " Deus Le Volt" مدوية مجلجلة « الله يريدها » « الله يريدها » . واصبحت هاتان الكلمتان فيما بعد « صرخة الحرب » للحملة الصليبية .

وما كاد البابا اربان الثاني يفرغ من القاء خطبته الحماسية حتى وقع نظره على حشد من الطغاة والقتلة واللصوص فوجه الكلام لهم قائلاً :

« انتم ايها المضطهدون للايتام والارامل ، انتم ايها القتلة والمنتهكون لحرمات الكنائس انتم ايها السارقون ممتلكات الآخرين انتم ايها الذين تشبهون سباع الطير التي تسقط على الجيف سوف تجذبكم الرائحة التي تنبعث من ميدان المعركة . فأسرعوا بالانضواء تحت لواء السيد المسيح لتخليص القدس ما دمتم تحبون ارواحكم . فجميع المذنبين منكم ممن ارتكبوا امثال هذه الخطايا والذنوب وكانوا محرومين من مملكة الله سوف تكفر خطاياهم وتفتدى نفوسهم بهذا الثمن اذ ان هذه ارادة الله ».

"You oppressors of orphans and widows, you murderers and violators of churches, you robbers of the property of others, you who like vultures are drawn to scent of the battlefield hasten as you love your souls under your captain Christ to the rescue of Jerusalem. All you who are guilty of such sins as to exclude you from the kingdom of God. ransom yourselves at this price fur such is the will of God".

وكان اربان الثاني يأمل من وراء خطبته الحماسية ان يشعل في قلوب سامعيه نار الغيرة على المسيحيين من اجل حثهم على الذود عن حياض البلاد المقدسة التي ولد فيها السيد المسيح ونشأ فيها وترعرع . كما انه كان يأمل ايضاً في ان يوحـد امم اوربا المتخاصمة فيجعل منها قوة ضاربة خاضعة لسلطانه مؤتمرة بأمره بأعتباره خليفة بطرس الرسول على الارض وتعتبر الخطبة التي القاها اربان الثاني في مؤتمر كليرمنت من ابلغ الخطب وابعدها أثراً في تاريخ الحروب .

---

(١) نيوهول ريتشارد ، الحروب الصليبية ص ٤١

(1) Newhall A. Richard The Crusades. Page 41

وبعد ان فرغ اربان من القاء خطابه الناري نهض من مجلسه اسقف لي بويه فركع امام عرش البابا والتمس الاذن منه للالتحاق بالحملة المقدسة . ثم تبعه الكاردينال جريجوري الذي ركع على ركبته وأخذ يتلو قداس الاعتراف Confitear وكانت جموع الحاضرين تردده من بعده وقد تزاحموا بالمئات معلنين انضمامهم للحملة الصليبية . ولما انتهت الصلاة نهض البابا مرة ثانية وتلا بيان تحلل كل من يلتحق بالحملة المقدسة من الذنوب التي اقترفها ثم أمر سامعيه بالانصراف الى بلادهم .

تصنيف الحروب الصليبية :

ابتدأت الحروب الصليبية في سنة ١٠٩٦ وانتهت في سنة ١٢٩١ . وبالرغم من وقوع آخر معقل للصليبيين بيد المسلمين في سنة ١٢٩١ باقتحام حصن عكا وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام فأن الحروب الصليبية لم تتوقف بعد سنة ١٢٩١ بل امتدت حتى شملت القرن الرابع عشر وجزءاً من القرن الخامس عشر .

ويختلف المؤرخون في تصنيف الحروب الصليبية فبعضهم يرى انها تتألف من ثماني حملات وبعضهم يرى انها تتألف من تسع حملات . وبما ان الحملات الصليبية متداخل بعضها مع بعض فانه يصعب فصل الحملة الواحدة عن الاخرى ، على انه يرجح ان تعتبر الحملات الصليبية ثماني حملات وليس تسع حملات . ويفضل بعض المؤرخين تقسيم الحملات الصليبية الى ثلاثة ادوار رئيسية هي :

الدور الأول :

هو دور انتصار الصليبيين في الحملة الصليبية الاولى التي انتهت بأحتلال بلدوين للرها (اودسا) في سنة ١٠٩٨ وتأسيس امارة صليبية فيها واحتلال بوهيمند لأنطاكية وتأسيس امارة صليبية فيها وسقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين وتأسيس مماكة بيت المقدس الصليبية بتتويج جودفري ملكاً عليها وتأسيس امارة طرابلس وتنصيب ريموند اميراً عليها .

الدور الثاني :

هو دور تغلب المسلمين على الغزاة وطرد الصليبيين من الرها (اودسا) في سنة ١١٤٤ ويشمل هذا الدور :-

(١) الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧–١١٤٩ .

(٢) الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩–١١٩٢ وهي الحملة التي انتهت بأنتصار صلاح الدين الايوبي في معركة حطين الكبرى في سنة ١١٨٧ وانتزاع بيت المقدس من أيدي الصليبيين وعدد كبير من المدن في الساحل الفلسطيني وبلاد الشام وعدد آخر من القلاع في الداخل وفي الساحل .

الدور الثالث :

هو الدور الذي يعرف بالحروب الاهلية والمعارك الصغرى التي ابتدأت في في عام ١١٩٩ وانتهت في عام ١٢٩١ بانتزاع عكا من أيدي الصليبيين وتحطيم آخر معقل لهم فيها وفي بلاد الشام ويشمل هذا الدور :

١) الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية ١٢٠٢–١٢٠٤ .

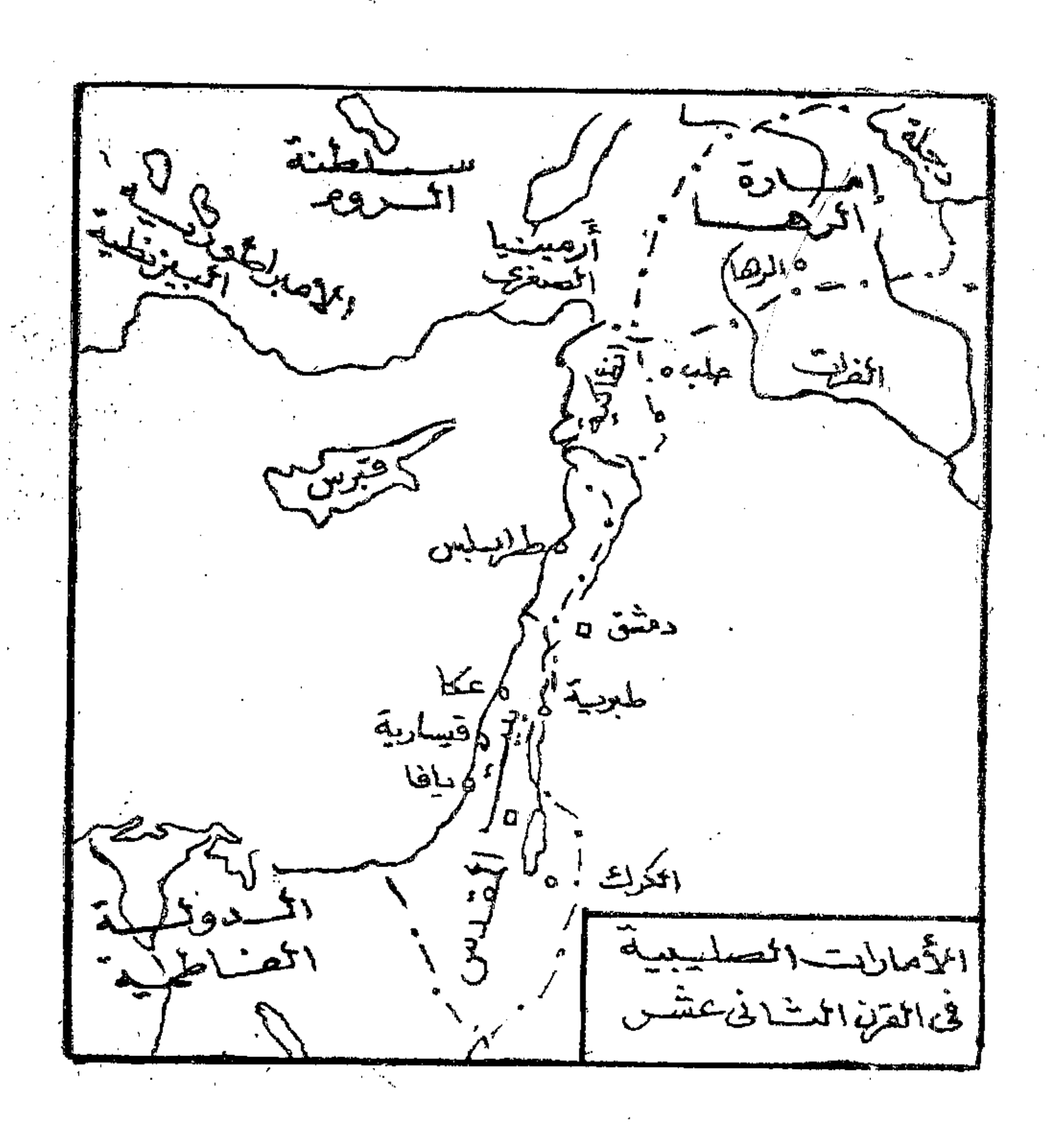
٢) الحملة الصليبية الخامسة ١٢١٩–١٢٢١ على مصر التي قادها لويس السابع ملك فرنسا وانتهت بهزيمته وتحطيم قوته .

٣) الحملة الصليبية السادسة في سنة ١٢٢٩ التي قادها فردريك الثاني امبراطور المانيا والتي حقق بها للصليبيين مكاسب في بيت المقدس وبيت لحم وشريط ضيق على الساحل الفلسطيني دون ان يدخل في معركة واحدة مع المسلمين .

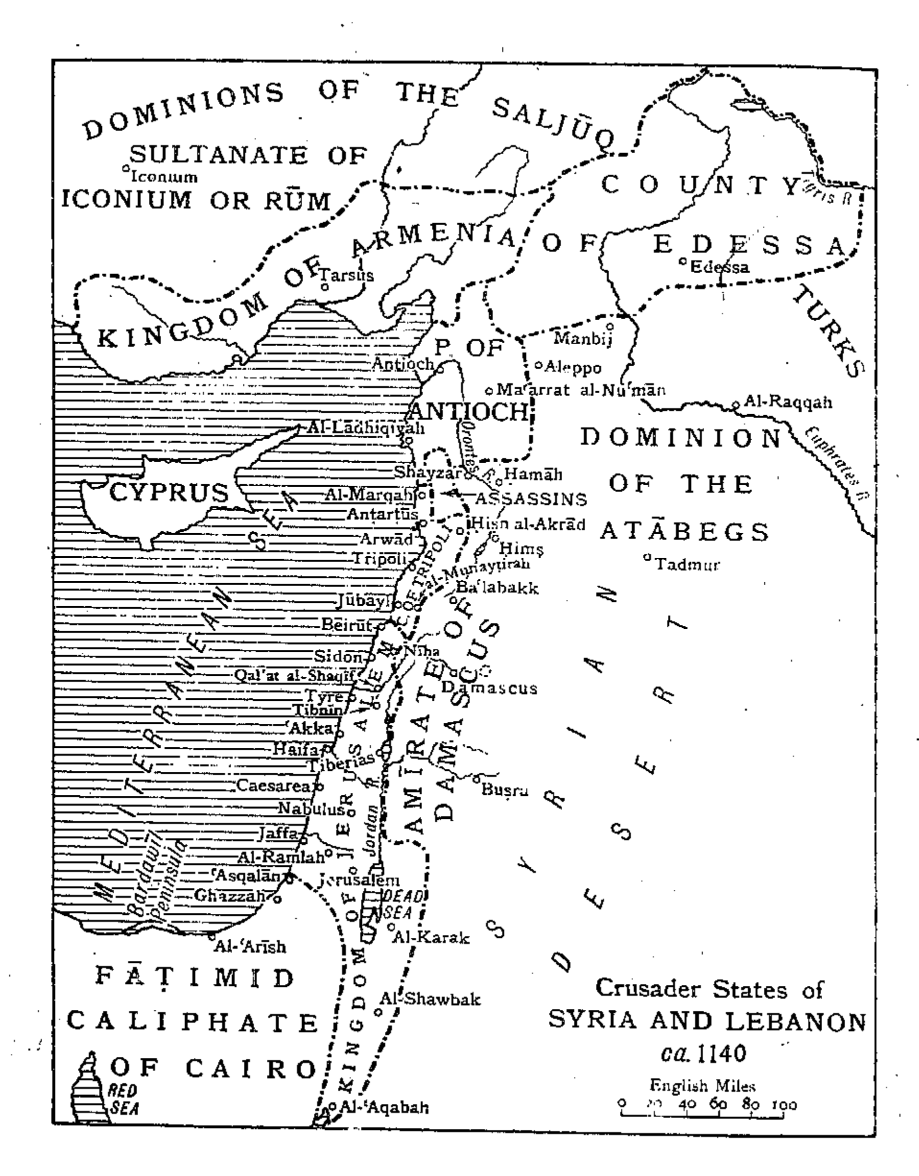
٤) الحملة الصليبية السابعة التي قادها على مصر لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ١٢٤٩ والتي انتهت بتحطيم قوة الصليبيين ووقوع الملك لويس التاسع في الاسر.

٥) الحملة الصليبية الثامنة التي قادها على تونس لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ١٢٧٠ والتي انتهت بوفاة لويس التاسع في تونس وفشل هذه الحملة .

مما سبق يتضح ان الحملات الاولى والثانية والثالثة والسادسة اتجهت نحو بلاد الشام والحملة الرابعة اتجهت نحو القسطنطينية والحملتين الخامسة والسابعة اتجهتا نحو مصر والحملة الثامنة اتجهت نحو تونس .



سعيد عبد الفتاح عاشور ، اوربا في العصور الوسطى



History of Syria by Philip K. Hitty,
London. Macmillan and Co. Ltd. 1957

الفصل السابع

الحملة الصليبية الأولى

تتألف الحملة الصليبية الاولى من خمس حملات شعبية ومن حملة الامراء الرئيسية .

الحمـــلة الشعبية الاولى :

انطلقت هذه الحملة من اوربا في سنة ١٠٩٦ وكانت تمثل العالم الغربي اصدق تمثيل وقد تألفت من عشرين ألفاً من المشاة الفرنسيين غير المدربين بقيادة فارس مغامر اسمه وولتر المفلس Walter the Penniless وقد غادرت هذه القوة حوض الراين ولكنها ما كادت تصل الى بلغراد حتى انقضت عليها نهباً وسلباً انقضاض الوحش النهم على الجيفة فأخذت تهاجم الأهلين وتنهب أموالهم وتسلبهم كل ما تقع عليه ايديهم من حلي وجواهر ومواد غذائية ومائية . ثم واصلت زحفها الى بلغاريا فتكررت اعمال السلب والنهب والقتل في كل مكان فأثارت هذه الاعمال غضب البلغاريين الذين شنوا عليها هجوماً قوياً فتفرق شملها ولم ينجح من افرادها الا القليلون ومن بينهم وولتر المفلس نفسه وقد حاول ستة عشر منهم مهاجمة احد الاسواق فالقى المجريون القبض عليهم وجردوهم من اسلحتهم وملابسهم وعلقوهم على جدران مدينة سملن تحذيراً لغيرهم . ثم أرسلوهم عراة الى مدينة بلغراد وقد واصل من بقي منهم احياء سيرهم الى القسطنطينية التي وصلوا اليها في شهر تموز من سنة ١٠٩٦ .

الحملة الشعبية الثانية :

تألفت هذه الحملة من عشرين الفاً وبعضهم يقدرها بأربعين الفاً من المشردين وشذاذ الافاق والاشقياء والتعساء من الفلاحين واناس من صغار النبلاء ومن سكان المدن ومن النساء والاطفال بقيادة بطرس الناسك Peter the Hermit وكانت تسمى هذه الحمـلة (حملة الفقراء الصليبية) وكان افرادها يحملون اشارة حمراء للصليب وسلكت هذه القوة طريق القوة السابقة وتبعت نفس الاسلوب بمهاجمة الأهلين وسلبهم اموالهم والاعتداء على مزارعهم . وقد اشعل افرادها النار في مدينة بلغراد

بعد نهبها . ووجهت اعتداءاتهم ضد اليهود بوجه خاص فقاومهم السكان مقاومة عنيفة وجرت بين الطرفين حرب طاحنة قتل فيها عدد كبير من الجانبين . ولم يصل مع بطرس الناسك من هذه الحملة الى القسطنطينية سوى سبعة آلاف . وفي القسطنطينية انقلب رجال بطرس الناسك وولتر المفلس الى لصوص ماهرين وقطاع طرق محترفين يسطون على المتاجر والمزارع في جنح الليل ويسلبون المارة وكل ما تقع عليه ايديهم وكانوا يغيرون على البيوت ايضاً فيهتكون الاعراض ويعتدون على النساء المحصنات ويرتكبون شتى الجرائم والموبيقات لا يفرقون بين غني وفقير ولا يعرفون للاماكن المقدسة حرمة .

وقد اسرع امبراطور بيزنطية الكسيوس الى انقاذ المدينة منهم فنقلهم الى ازنيق (نيقية) ولكنهم استمروا في النهب والسلب والاعتداء على البيوت الآمنة فهاجمهم قليج ارسلان سلطان قونيه وفتك بهم فتكاً ذريعاً .

الحملة الشعبية الثالثة :

تألفت هذه الحملة من خمسة عشر الفاً من الرجال والنساء والاطفال الالمان الذين ساروا تحت قيادة كاهن هو تلميذ بطرس الناسك واخذ هؤلاء ينهبون القرى التي مروا بها ويسطون على النبيذ والقمح والماشية والثيران فتصدى لهم المجريون بسبب هذه الاعمال الوحشية ونشب القتال بينهم ولقي كثيرون منهم مصرعهم وشتت الباقون في بلاد المجر.

الحملتان الشعبيتان الرابعة والخامسة :

تألفت هاتان الحملتان من جيش جرار زاد عدد افراده على مائتي الف شخص من تعساء فرنسا وانجلترا والفلاندرز واللورين . وقد سارت هذه الجموع الكثيرة نحو الشرق مارة بالمانيا فأحدثت فيها وفي غيرها من البلدان التي مرت بها اشد انواع التخريب والتدمير واشنع انواع التقتيل والتعذيب وخاصة ضد اليهود الذين قاموا بدور كبير في التجارة الدولية بين البلاد الاسلامية والبلاد المسيحية . وكان تحريم الربا في البلاد المسيحية وتشديد بيزنطية رقابتها على الربا قد هيأ المجال لليهود لانشاء بيوت مالية في ارجاء العالم المسيحي فأشتدت كراهية العالم المسيحي لهم لاستبقائهم فوائد فاحشة منهم . وكان اليهود اشد عداوة لهم من المسلمين لانهم هم الذين

اضطهدوا المسيح وصلبوه وهم الذين يتعاملون بالربا الفاحش ويسلبون المسيحيين اموالهم عن هذه الطريق فأغتنم الصليبيون هذه الفرصة واعملوا السيوف في رقابهم دونما رحمة او هوادة وقتلوا منهم عدداً لا يقل عن عشرة آلاف . يقول جورج بارت :

« لم تفسر الحرب الصليبية ضد الاتراك بعبارة اقل وضوحاً وصراحة من كونها حرباً موجهة ضد اليهود ، احفاد اولئك القوم الذين صلبوا المخلص اذ تحولت شوارع فردان وترفيس ومدن اخرى كبيرة تقع على نهر الراين الى لون احمر من دماء ضحاياهم البشرية . واذا كان بعض اليهود قد نجوا بأرواحهم بتظاهرهم بأعتناق الدين المسيحي فان كثيرين آخرين قد خدعوا مضطهديهم بالقائهم امتعتهم وانفسهم بالأنهار وفي النيران المتأججة » (١) .

The Crusade against the Turks was not interpreted as a crusade directed less explicitly against the descendants of those who crucified the Redeemer. The streets of Verdun and Treves, and of great cities on the Rhine, ran red with blood of their victims; if some saved their lives by pretended conversions, many more cheated their percecutors by throwing their property and their persons either into rivers or into consuming fires"(1)

وقد لاقت هاتان الحملتان الصليبيتان الشعبيتان الرابعة والخامسة ذات المصير الذي لاقته الحملة الثالثة اذ قتل عدد كبير من افرادها في بلاد المجر وشرد الباقون بعد ان حلت بهم هزيمة ساحقة بعد معركة لم تستمر طويلاً ولم ينج من افرادها الا عدد قليل انضم الى الحملات المتوجهة الى فلسطين .

الفصل الثامن

حملة الامراء الصليبية وهي الحملة الصليبية الرئيسية

ظهرت الحروب الصليبية بمظهرها الحقيقي في هذه الحملة التي تألفت من الامراء والنبلاء والفرسان ومثلت فيها الطبقات كافة من نبلاء واشراف وعبيد واشقياء

---

(١) بارت ، سير جورج ، الحروب الصليبية ص ٣٩

(1) Bart, Sir George, The Crusades, P. 39

وقطاع طرق وتولى قيادتها اعظم امراء اوربا الغربية وظهرت في الميدان ستة جيوش كانت تسير منفصلة وفي اوقات متفاوتة واهم هذه الجيوش هي :ـ

أولاً : ـ الجيش الفرنسي الاول بقيادة الامير جودفري اوف بولون الذي اعترف له جميع زملائه بالزعامة الاولى لما اشتهر به من سمعة عالية وسجايا حميدة بالاشتراك مع اخيه بلدوين امير السكسون من اللورين وسار على طريق شارل العظيم ماراً بهنغاريا وبلغاريا الى القسطنطينية حيث وصل اليها في ٢٣ كانون الاول من سنة ١٠٩٧ .

ثانياً : ـ الجيش الفرنسي الثاني بقيادة الكونت ريموند اوف تولوز الذي يعتبر اغنى امراء اوربا وكان يصحبه الاسقف ادهيمار مبعوث البابا وسار على طريق الساحل ماراً بشبه جزيرة البلقان الى ان وصل الى القسطنطينية في آخر شهر نيسان من سنة ١٠٩٧ .

ثالثاً : ـ الجيش الايطالي بقيادة بوهيمند اوف اوترانتو وكان بصحبته تانكرد ابن اختــه وتألف جيشه من خيرة المقــاتلين من الفرسان الايطاليــين والنورمنديين وتمّ نقل هذا الجيش بحراً عن طريق بحر الادرياتيك الى مرفأ دورازو في البانيا ومن هناك سار براً حتى وصل الى القسطنطينية في شهر نيسان من سنة ١٠٩٧ .

رابعاً : ـ الجيش البلجيكي بقيادة روبرت اوف فلاندرز وتحرك هذا الجيش عن طريق ايطاليا الى ان وصل الى باري وهناك نقل بحراً حتى وصل الى القسطنطينية في شهر نيسان من سنة ١٠٩٧ .

اجتمعت هذه الجيوش في القسطنطينية في فصل الربيع من سنة ١٠٩٧ وقد خشي الكسيوس امبراطور بيزنطية اليوناني من ان تفتح هذه الحشود الكبيرة الاراضي الجديدة باسمها اذ قدرها فالتشر بنحو ستماية الف مقاتل وقدرها اربان الثاني بنحو ثلاثماية الف مقاتل وقدرها ايرنست باركر بنحو مائة وخمسين الف مقاتل . اما رجال جودفري فقد قدر عددهم بنحو ثلاثين الفاً من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان وقد دعاهم الامبراطور للاعتراف به اتباعاً له بأستثناء تانكرد والكونت ريموند .

حصار ازنيق (نيقية) في سنة ١٠٩٧ :

كانت اولى عمليات الصليبيين الحربية محاصرة العاصمة السلجوقية نيقية التي كانت تدافع عنها حامية سلجوقية وكان الامبراطور الكسيوس قد قدم مساعدة فعالة لجيش بوهيمند اذ اشرف بنفسه على العمليات الحربية وزود الجيش الصليبي ببعض الابراج الحربية التي كانت تستخدم في هدم الاسوار وبقاذفات الحجارة وقدم له بعض المراكب وكتيبة من الجنــود . وقد واجه الجيش الصليبي اول الامر مقاومة عنيفة اذ حوصر حصاراً قوياً وكادت ابواب الهرب تسد في وجهه لولا وصول طلائع الجيش الصليبي الذي يقوده جودفري . فأنتعشت آمال الصليبيين بعد ان كادوا يستسلمون للجيش السلجوقي الذي هب لمحاربتهم فدب الرعب في صفوف السلاجقة وهزم السلطان قليج ارسلان في ١٨ حزيران من سنة ١٠٩٧ وسقطت نيقية بيد الصليبيين . وكان ابطال المعركة بوهيمند وتانكرد وجودفري وقبل ان يتمكن الجيش الصليبي من تحقيق اول نصر له قيل انه فقد ما لا يقل عن ثلاثماية الف قتيل لتعرضه للجوع والتعب والحصار وكان السلطان قد أمر بتدمير جميع المراكز التي لم يستطع الدفاع عنها في اثناء تراجعه حتى لا يستفيد منها العدو .

وفي الشهر الثاني اي في ١ تموز من سنة ١٠٩٧ سقطت دوريليوم بيد الصليبيين وهي مدينة اسكي شهر الحديثـــة وهذا الزحف المظفر اعاد للامبراطور البيزنطي الجزء الاكبر من آسيا الصغرى .

تأسيس امارة الرها (ادسا) الصليبية في سنة ١٠٩٨ :

اما بلدوين شقيق جودفري فقد انفصل في شهر ايلول من سنة ١٠٩٧ عن الجيوش الصليبية الاخرى وكان معه تانكرد ابن اخت بوهيمند وتوجه نحو قيليقية لانتزاعها من السلاجقة الاتراك وبفضل مساعدة ثورس حاكم الرها الارمني وثورته ضد الحاميات السلجوقية التركية لم يجد بلدوين مقاومة تذكر فسقطت الرها بيده في شهر شباط من سنة ١٠٩٨ .

حصار انطاكيـــة :

كانت انطاكية اول مدينة سورية في طريق الجيش الصليبي وكان يحكمها الامير السلجوقي باغسيان . وبما ان انطاكية مهد اول كنيسة مسيحية منظمة فقد كانت ذات

اهمية خاصة بالنسبة للصليبيين وقد ضرب الحصار حولها من ٢ تشرين اول من سنة ١٠٩٧ الى ٣ حزيران من سنة ١٠٩٨ وكان يقود الحملات الصليبية بوهيمند النورماندي من ايطاليا ويساعده في ذلك قائد النورمان تانكرد ابن اخته وقد امتنعت المدينة قرابة سبعة شهور وقاوم سكانها الغزاة مقاومة الابطال اذ اظهروا من ضروب الشجاعة والاستبسال ما اصبح مضرب الامثال وعانى المحاصرون (بكسر الصاد) في اثناء الحصار الوان الشدائد واصناف العذاب وضروب الارهاق من وهن شديد الى مرض فتاك انتشر في صفوفهم الى جوع مضن هدد حياتهم بالموت . فأضطروا الى اكل لحوم الخيل والحمير والكلاب وعندما نفدت مؤنهم أخذ كثيرون منهم يفرون هاربين الى اوربا. ولما اشتدت وطأة الجوع عليهم التهموا كل ما وجدوه في طريقهم حتى الجرذان كما اخذوا يبقرون اسراهم من المسلمين ويأكلون امعاءهم . وهكذا انتقل المهاجمون من فرسان جاءوا لتخليص المقدسات وحماية المضطهدين من الحجاج الى وحوش ضارية وحيوانات مفترسة . وفي ٩ شباط من سنة ١٠٩٨ هزموا جيش رضوان حاكم حلب الذي هرع لنجدة المسلمين في المدينة على شاطىء بحيرة انطاكية وقتلوا آلافاً من الاتراك الذين دفنت جثثهم خارج اسوار المدينة . يقول ميكاند :

« ولكن المسيحيين نبشوها وبتروا الرؤوس من الاجساد وساروا بها في موكب حافل حاملين رؤوس القتلى على اسنة الرماح كأنها انصاب تذكارية لذلك الانتصار »(١).

"The Christians dug them up. severed the heads from the trunks and paraded the ghastly trophies on their pikes"(1)

ان الابدان لتقشعر من بشاعة هذه الصورة . ولكننا اذا اغمضنا عيوننا وتغاضينا عن ذكر هذه الفظائع ذهب الصدق من التاريخ . اننا نكتب عن اقوام متوحشين ومن الصواب ان نعرف ذلك .

وفي حزيران من سنة ١٠٩٨ استطاع الصليبيون التسلل الى احد ابراج المدينة عن طريق خيانة قائد ارمني حانق اسمه فيروز من رجال باغسيان والاستيلاء عليها وكان ذلك خاتمة اجل المدينة ويقول في ذلك الدكتور فيليب حتي :

"But it was the treachery on the part of a disgruntled Armenian commander of one of the towers that sealed the fate of the city". (2)

---

(١) ميكاندز ، تاريخ الحروب الصليبية ص ١٨٨

(1) Mechands, History of the Crusades, P. 188

(2) Hitti, philip, History of syria p. 593

كانت انطاكية وقتئذ مدينة غني وترف وقد طبقت شهرتها الآفاق وانتشر صيتها في سائر ارجاء العالم الروماني لكثرة ابراجها ومناعة حصونها وفخامة ابنيتها وجمال مناظرها وازدهار تجارتها وثراء اهلها وانتشار روح البهجة والفرح بين سكانها . ولكن ايام العز المقيم والرونق الباهر سرعان ما زالت زوال النهار بعد الاصيل فهدمت اسوارها ودكت حصونها وقوضت منازلها وسقط في حومة الوغى آلاف من سكانها الآمنين . وقيل ان الصليبيين الناقمين نهبوا المدينة وقتلوا سكانها عن بكرة ابيهم . وما كادت تمر على الصليبيين ايام قليلة وهم ثملون بغمرة النصر حتى دارت عليهم الدائرة اذا حاصرهم جيش مؤلف من مائتي الف من المسلمين بقيادة كربوغا صاحب الموصل فحوصر الصليبيون بعد ان كانوا محاصرين (بكسر الصاد) ودب الرعب في قلوبهم ولم يبق لديهم من المؤن والذخائر الا بضعة ايام فاضطروا الى اكل لحوم البغال والحمير وفر بعضهم من فوق الاسوار الى اوربا حاملين معهم صورة كئيبة مجسمة عن حالة المسيحيين واستسلم آخرون وقد عانى الباقون كثيراً من مرض الطاعون والجوع في خلال الخمسة والعشرين يوماً التي تلت فتح المدينة . وكانت الفرصة سانحة امام كربوغا لاستخلاص المدينة من الصليبيين غير انه بسبب كبريائه وعنجهيته اساء التصرف مع اميري دمشق وحمص وغيرهما من الامراء الذين هبوا لنجدته والمحاربة في صفوفه فاشمأزوا من سلوكه وصمموا على الانتقام منه .

وفي الوقت الذي بدأ التصدع يتسرب الى صفوف المسلمين أخذ بوهيمند ينفخ في الصليبيين روح الحماسة والاستبسال لدحر قوات كربوغا . وبالرغم مما كان يعانيه كربوغا من تصدع في قواته بسبب الخلافات التي دبت بينه وبين الامراء الذين هبوا لنجدته فقد اصر على طلب الاستسلام من الصليبيين دون قيد او شرط ، الامر الذي رفضه بوهميند وجعله يصر على مواصلة الحرب وقد امر رجاله بالخروج من باب المدينة متفرقين كل جماعة مؤلفة من خمسة او ستة رجال وكان بأمكان رجال كربوغا الاجهاز عليهم ولكن كربوغا امر بأمهال قواته حتى يتكامل عددهم فيقضي عليهم جميعاً وبذلك اضاع الفرصة في القضاء عليهم إذ بعد ان اكتمل عدد الصليبيين خارج اسوار المدينة دارت بين الصليبيين والمسلمين معركة فاصلة فأندحر جيش كربوغا وتفرقت قواته هاربة من الميدان وتاركة وراءها عدداً من القتلى وكان ذلك في ٢٨ حزيران من سنة ١٠٩٨ . وفي هذا التاريخ اسس بوهيمند قائد الجيش الصليبي امارة انطاكية الصليبية .

حصار القدس :

بعد ان تم الاستيلاء على انطاكية توجه الكونت ريموند نحو الشرق في زحفه الى القدس فأستولى على معرة النعمان مسقط رأس ابي العلاء المعري . وفي ١٣ كانون الثاني من سنة ١٠٩٩ واصل زحفه الى القدس وكان يصحبه روبرت النورمندي وتانكرد ابن اخت بوهيمند وكان قد تم الاتفاق بين بوهيمند وريموند على اساس ان تصبح انطاكية لبوهيمند وان تصبح قيادة الحملة الصليبية برمتها الى ريموند . وكان الفاطميون قد اغتنموا فرصة هزيمة كربوغا في انطاكية فزحفوا الى القدس وبعد حصار دام اربعين يوماً تمكنوا من فتحها والاستيلاء على كل فلسطين .

وبعد النجاح الذي اصابه الفاطميون في فلسطين ارسلوا الى قادة الصليبيين في انطاكية عرضاً يتضمن استعداد المسلمين لقبول الحجاج المسيحيين في المدينة المقدسة ولكن الصليبيين رفضوا هذا العرض وصمموا على الزحف الى المدينة المقدسة مهما بلغت التضحيات . وفي طريقهم احتلوا حصن شيزر وحصن الاكراد في شمال بلاد الشام وفي شهر آذار من سنة ١٠٩٩ انضمت عساكر جودفري الى عساكر ريموند فأحتلت اللاذقية وطرسوس . ولما اقترب الصليبيون من طرابلس بادر اميرها ابن عمار بالتماس الامان لمدينته وضواحيها بعد ان قدم الهدايا الفاخرة والجياد الى ريموند وبعد ان دفع للصليبيين تعويضاً قدره خمسة عشر الف دينار وزودهم بعدد كبير من دواب الحمل. كما ارسل عدداً من الادلاء مع الصليبيين الذين تولوا ارشادهم الى الطرق المؤدية الى القدس. فرفع ريموند الحصار عن مدينة طرابلس بعد ضربها واستولى على المدن والقرى المجاورة لها وأسس فيها إمارة طرابلس باستثناء مدينة طرابلس .

استمر الصليبيون في زحفهم وتوجهوا نحو بيروت وصور وصيدا وقدم لهم المسلمون كل ما يحتاجون اليه لكي يأمنوا شرهم ثم واصلوا سيرهم حتى وصلوا الى عكا وفي ٢٤ أيار من سنة ١٠٩٩ تحولوا الى الداخل فأستولوا على اللد والرملة مارين بقيصرية وعرسوف وفي ٧ حزيران بدأ حصار القدس ووقف الجيش الصليبي في مواجهة المدينة المقدسة وهي الهدف الرئيسي من الحملة الصليبية وابصر القدس اربعون الفاً من الصليبيين وهم الشرذمة الباقية من تعساء ذلك الجيش الجرار الذي حاصر ازنيق (نيقية) قبل سنتين فعم الفرح قلوبهم ورفعوا ايديهم نحو السماء شاكرين الله على تحقيق امنيتهم بمشاهدة المدينة المقدسة . وبعد حصار عنيف بقيادة جودفري وريموند

وتانكرد دام خمسة اسابيع (من ٧ حزيران الى ١٥ تموز من سنة ١٠٩٩) استبسل في اثنائه المسلمون استبسالاً يدعو الى الاعجاب قرر المحاصرون (بفتح الصاد) الاستسلام بعد حصولهم على الامان من رؤساء الحملة الصليبية المتضمن المحافظة على الاعراض والارواح والاموال . وكانت القدس ذات حصون ضخمة اشتهرت بالمتانة والقوة منذ زمن اليبوسيين . ولكن الصليبيين نكثوا عهدهم وتناسوا وعدهم فأخذوا ينهبون الاموال ويسبون النساء والاطفال الى انطاكية وقيل ان جودفري امر بقتل عشرات الآلاف من سكان المدينة . وقد قدر بعض المؤرخين عدد القتلى بمائة الف اما فيليب حتي فيقول :

« اكتسحت المدينة بعنف (١٥ تموز) وتعرض السكان لمذبحة رهيبة بغض النظر عن السن والجنس دون تمييز ويقدر مصدر عربي عدد الضحايا بنيف وسبعين الفاً ويقدره مصدر ارمني بخمسة وستين الفاً ويشير مصدر لاتيني الى اكوام الرؤوس والايدي والارجل التي كانت تشاهد في الشوارع والساحات » (١).

"The city was stormed (July 15) and its population, regardless of age and sex, was subjected to an inconsiderate slaughter. An Arab source puts the number of victims above 70000, and an Aremenian at 65000 and a Latin refers to heaps of heads and hands and feet to be seen throughout the squares" (1)

وقد جرت اكبر مجزرة بشرية بشعة تشمئز منها النفوس وتقشعر منها الابدان في جامع عمر فسالت دماء القتلى كسيل جارف . ويضيف تشارلز ملز الى هـذه الصورة بقوله :—

« وحرق جميع اليهود احياء في كنيسهم وغاصت خيول الصليبيين التي دخلت رواق الهيكل حتى الركب في الدماء البشرية التي تقشعر منها الابدان »(٢).

"The Jews were all burnt in their synagogues. The horses of the crusaders, who rode up to the porch of the temple, were up to the knees in the loathsome of human blood"(2)

---

(١) حتي ، فيليب ، تاريخ سورية ص ٥٩٥

(1) Hitti, Philip, HIstory of Syria P. 595

(٢) ملز تشارلز ، تاريخ الحروب الصليبية ص ٨٩

(2) Mills Charles, History of The Crusades P. 89

ويصف ستيفان رنسيمان المذبحة التي حصلت في القدس بعد ان اكتسحها الصليبيون بقوله :—

« على انه لم ينج من المسلمين بحياتهم الا الفئة القليلة اذ ان الصليبيين ، وقد زاد جنونهم ما احرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناد شديدين ، انطلقوا في شوارع المدينة والى الدور والمساجد يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والاطفال دون تمييز واستمرت المذبحة طول مساء يوم ١٥ تموز وطول الليل . وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد الاقصى ثلة من الصليبيين فأجهزت على جميع اللاجئين . وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه . وفر يهود بيت المقدس بحجة انهم ساعدوا المسلمين فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة فأشعلوا النار في المعبد ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين » .

ويقال : انهم انغمسوا سراً في غمرة اكل لحوم البشر » (١)

"In secret, they indulged in the orgy of eating human flesh"(1)

وفي سنة ١١٠٩ اقتحم الصليبيون طرابلس فدمروها واعملوا السيف في رقاب السكان وحطموا الكلية والمكتبة ونهبوا كل ما وجدوه من مؤن واموال .

المذبحة الثانية في القدس :

يقال ان تانكرد احتفظ بثلاث مائة اسير في احد الايام وكان قد اعطاهم اماناً على ارواحهم واموالهم ولكن مثل هذه الرحمة عدت في غير موضعها واعتبرها الصليبيون جريمة فقرروا تقديمهم ضحايا جديدة بأحتفال مهيب فقتلوا جميع الرجال والنساء والاطفال الذين ابقاهم تانكرد على قيد الحياة عن بكرة ابيهم . فثار غضب تانكرد ليس لمصيرهم ولكن لان شرفه قد امتهن ويصف هذه المجزرة تشارلز ملز بقوله :

(١) ستيفن ، رنسيمان ، ترجمة الباز العريني ، تاريخ الحروب الصليبية الجزء الاول ص ١٩٠

(٢) ابسانو الله خان بهادور ، تاريخ العالم الاسلامي ص ١٩٧

(2) Absanullah, Khan Bahadur, History of the Moslem World, P. 197

« فبوشر بالمذبحة دون تحيز او تمييز بين صغير او كبير ، رجال ونساء وامهات مع اطفالهن الرضع وبنات وشباب وشابات في ريعان الصبا قد حصدوا حصداً وقدت اجسامهم اربا وطوّح برؤوسهم واطرافهم في فوضى مريعة » (١) .

وبعد ان فرغ الصليبيون من واجبات سفك الدماء والتقتيل والتعذيب واعمال النهب ومهاجمة البيوت بوحشية نادرة وايديهم لا تزال ملطخة بالدماء إنتقلوا الى طقوس العبادة فدخلوا كنيسة القيامة حيث القبر المقدس مكشوفي الرؤوس حفاة الاقدام ومرتدين ثياباً بيضاء من الكتان وتقدموا الى الله شاكرين وهم في غيبوبة من الجذل والفرح فركعوا امام سيدهم الاعلى . وبدموع حرّى ونحيب مرير دخلوا كنيسة القيامة واحداً واحداً لتقديم تسابيحهم للعزة الإلهية لمنحها النصر لجيوش الامم المسيحيـــة .

لقد مضت اربعة قرون ونصف على هذه الاعمال البربرية المتوحشة التي تركت اعمق الاثر في جميع العـــالم بعد دخول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) القدس فاتحاً وركوعه امام كنيسة القديس قسطنطين (كنيسة القيامة) ورفضه الصلاة فيها لكي لا يدعي المسلمون من بعده حق ملكيتها ومن هذا يتضح الفرق الكبير بين خليفة النبي ذي الادراك الواسع والنفس العالية وبين الفرنج من ابناء الكنيسة الكاثوليكية .

والجدير بالملاحظة ان نجـــاح الحملة الصليبية الاولى في تحقيق هدفهـــا باحتلال الساحل السوري وجميع فلسطين وجزء كبير من الاراضي السورية وفتح القدس لا يرجع الى تفوق الصليبيين على المسلمين في كثرة اعدادهم ولا الى انواع الاسلحة التي كانوا يستخدمونها في القتال فحسب ، بل يرجع ايضاً الى المساعدات الكبيرة التي كانت تزودهم بها القسطنطينية والامدادات الضخمة من الجنود والمحاربين والاسلحة والذخائر والمؤن التي كانت تصل اليهم تباعاً على ظهر السفن الايطالية ، يضاف الى ذلك اضطراب الامن الداخلي وبلوغ العرب منتهى حالات الضعف والانهيار المعنوي بسبب الحروب الداخلية التي كانت مشتعلة بين الامارات العربية المستقلة وبسبب الازمات الداخلية التي عملت على تمزيق كيان الامبراطورية العربية وتجزئتها الى اقطاعات وامارات ودويلات كانت دوماً يحارب بعضها بعضاً . وهذه الحروب والانقسامات حالت دون توحيد صفوف العرب ليقفوا جبهة واحدة متحدة

---

(١) ملز ، تشارلز ، تاريخ الحروب الصليبية ص ٩٥

قوية صامدة في وجه الاعداء قادرة على صد الجيوش الصليبية الغازية ، كما يرجع الى استخدام الصليبيين للعملاء وغيرهم في تحقيق اغراضهم وما اتبعه الغزاة من غدر وخيانة ونكث للعهود واقدامهم على ارهاب السكان بأقصى انواع الوحشية والفظاعة وممارسة اعمال التقتيل وسفك الدماء واجراء المذابح في المدن والقرى التي اقتحموها متناسين عهود الامان التي أعطوها للسكان الآمنين في بيوتهم قبل استسلامهم . وقد لعبت ايضاً العناصر الطفيلية الطارئة من سلاجقة ومماليك وفرس وارمن وغيرهم دوراً كبيراً في انهاك جسم الامة العربية وفي اضعاف جذوة عصبيتها وشدة اندفاعها .

تأسيس مملكة القدس :

بعد احتلال الصليبيين للقدس التي كانت من اضخم المعاقل والحصون في عالم العصور الوسطى بدأ التفكير في كيفية المحافظة عليها وفي شكل الادارة التي يجب ان تقوم فيها وتألفت هيئة من الناخبين من كبار رجال الدين والفرسان واتجه الناخبون الى جودفري الذي قبل ان يتحمل المسؤولية والسلطة بعد عشرة ايام من سقوط القدس بأيدي الصليبيين شريطة ان يطلق عليه لقب (حامي القبر المقدس) ورفض ان يلبس تاجاً من ذهب على رأسه في المكان الذي لبس فيه السيد المسيح تاجاً من شوك .

***نتائج الحملة الصليبية الاولى :**

نجحت الحملة الصليبية الاولى بتأسيس مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية التالية :—

أولاً : — امارة الرها (ادسا) الفرنسية Edessa وتقع شرق سورية على ضفتي نهر الفرات وقد اسسها بلدوين اخو جودفري في سنة ١٠٩٨ وكانت هذه الامارة تابعة طبيعياً من ناحية اقطاعية الى بيت المقدس .

ثانياً : — امارة طرابلس الفرنسية التي وقعت تحت نفوذ بيت المقدس وهي الامارة التي اسسها ريموند ما بين ١١٠٢ وسنة ١١٠٥ بمساعدة البندقيين وبالتحالف معهـــم .

ثالثاً : — امارة انطاكية التي حكمها بوهيمند النورماني الايطالي الاصل وقد حكمها تانكرد بعد خاله بوهيمند من سنة ١١٠٤ — الى سنة ١١١٢

الفصل التاسع

الحملة الصليبية الثانية من ١١٤٧ ـ ١١٤٩

كانت الرها في نظر عماد الدين زنكي أمير الموصل تشكل خطرا كبيرا على خطوط مواصلاته بين حلب والموصل وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى فوجه الضربة الاولى الى الرها في ٢٨ تشرين الثاني من ١١٤٤ وكانت الرها اول امارة صليبية انشأها الصليبيون واول حكومة صليبية تقع بيد المسلمين وكان هذا الوقوع المؤشر الاول لبداية انقلاب التيار لصالح المسلمين وقد اثار وقوعها بيد المسلمين الحملة الصليبية الثانية من سنة ١١٤٧ ـ ١١٤٩

وعندما استولى عماد الدين زنكي على الرها لجأ الى اتباع سياسة حكيمة ليضمن بقاء المدينة بيده فحافظ على المسيحيين المحليين من ارمن وسريان وامر رجاله برعايتهم وعدم الاعتداء عليهم وسمح للراغبين منهم بمغادرة المدينة ولم ينتقم إلا من الصليبيين الكاثوليك كما حافظ على كنائس الارمن والسريان الارثوذكس في الوقت الذى دمر فيه كنائس الصليبيين الكاثوليك وعادت مدينة الرها الى ما كانت عليه سابقا بسكانها الارمن والسريان المسيحيين الشرقيين .

كان عماد الدين زنكي من اقدر الرجال وابرعهم في السياسة وكان بطلا من ابطال المسلمين وسياسيا محنكا لا يشق له غبار وقد ادار امور الدولة بحنكة فائقة ومقدرة كبيرة وحكم الناس بالعدل فلم يستطع القوي ان يظلم الضعيف في عهده وعمر سورية بعد ان كانت خرابا وقضى على الفوضى فيها وكان اول من بادر الى اتخاذ خطوات عملية لتوحيد قادة المسلمين في جبهة قوية واول من سعى جادا لاسترداد الاراضي الاسلامية التي امتلكها الصليبيون وكان من نتائج هذا الاتحاد سقوط الرها (ادسا) بيده وامتداد هجماته الى القدس وانطاكية وطرابلس .

وقد بدأت حركة الجهاد الاسلامي بعد سقوط القدس بيد الفرنجة وتعرض عشرات الآلاف من المسلمين لاعمال التقتيل والتعذيب والتشريد وسفك الدماء في

سنة ١٠٩٩ واتسمت الفترة التي انقضت بعد قيام مملكة بيت المقدس وظهور عماد الدين زنكي باليقظة والتأهب ورأب الصدع وتوحيد الكلمة ، ذلك لان عماد الدين كان قد ادرك اهمية توحيد الجبهة الاسلامية قبل المباشرة بمناضلة الصليبيين فوطد ملكه في الموصل واستولى على حلب وحرّان ونصيبين ومقاطعات اخرى غيرها قبل الزحف الى الرها وانتزاعها من الصليبيين . وقد هيأ الطريق لابنه نور الدين محمود لانتزاع دمشق من التحالف الصليبي ولصلاح الدين الايوبي لاكمال ما بدأه عماد الدين من جهد في سبيل الوحدة الاسلامية ولانزال الضربات القاصمة بالصليبيين في معركة حطين الفاصلة في سنة ١١٨٧ التي استرد فيها المسلمون القدس من ايدي الصليبيين .

ومات عماد الدين زنكي مقتولاً في سنة ١١٤٤ بعد سقوط الرها وقد قتله جماعة من مماليكه غيلة وغدراً وقيل في سبب قتله انه كان قد تشاجر مع خادم ينتمي اصلاً الى الفرنجة بعد ان فاجأه الخادم الذي كان يشرب الخمر وقد غضب هذا الخادم بسبب تأنيب زنكي له فصمم على الانتقام وانتظر حتى نام زنكي ثم قتله . وقد تلقى الصليبيون نبأ وفاة زنكي واختفائه عن مسرح الاحداث بفرح شديد ، ذلك لان وفاته سببت خسارة جسيمة للجبهة الاسلامية وتصدعاً فيها بسبب المنازعات الاسرية التي كانت تحدث عادة بعد وفاة كل امير فتمزقت المملكة وتفتتت وحدتها . ولكن آمال الصليبيين منيت بالفشل اذ انتقلت بطولة القضية الاسلامية الى ابنه نور الدين الذي اخذ خاتم الملك من يده وتوجه الى حلب ونادى به اسد الدين شيركوه الكردي شقيق نجم الدين ايوب سلطاناً واقتسم اولاد عماد الدين زنكي ارث والدهم فصار العراق من نصيب سيف الدين وصارت ممتلكات عماد الدين زنكي في الشام من نصيب نور الدين الذي كان اقدر من ابيه في مقاومة الصليبيين ومنازلتهم .

كيف تقررت الحملة الصليبية الثانية :

كان انتزاع عماد الدين للرها من ايدي الصليبيين في سنة ١١٤٤ قد احدث ردود فعل عنيفة وغدت انتصارات نور الدين محمود فيما بعد باعثاً لتجديد مخاوف زعماء الدول الغربية وقادتها من حركة توحيد القوى الاسلامية ، لذلك ادرك زعماء الغرب انهم اذا لم يسرعوا الى انقاذ الرها فسوف تنتهي الحركة الصليبية بفشل ذريع . وما ان وصلت صيحات الاستغاثة الى مسامع البابا يوجينوس الثالث وملوك اوربا

وامرائها حتى تنادى الناس لتلبية نداء الاستغاثة وكان الراهب القديس برنارد الفرنسي من اكثر الناس حماسة واشدهم تأثيراً في استثارة الجماهير وحثهم على التحرك نحو الشرق .

وتألفت الحملة الصليبية الثانية في سنة ١١٤٧ من الفرنسيين بقيادة الملك لويس السابع ملك فرنسا ومن الالمان بقيادة كونراد الثالث امبراطور المانيا . ويقدر المؤرخون عدد افراد هذه الجيوش بمليون ومائتي الف وقد برهنت هذه الحملة عن فشلها الذريع لان الامبراطور البيزنطي مانويل كومنياس كان قد اشترط من اجل السماح للصليبيين بعبور اراضيه وامدادهم بالمؤن ان يتعهدوا له بالولاء وان يسلموه ما يستولون عليه من اراض واملاك في آسيا . غير انه لم يكن منتظراً من الملك لويس السابع والامبراطور كونراد الثالث ان يقبلوا على انفسهم بأن يكونوا اتباعاً للامبراطور البيزنطي ويرى مؤرخو الحروب الصليبية ان الحملة الصليبية الثانية كانت احسن تنظيماً وقيادة وانضباطية من الحلمة الصليبية الاولى ذلك لانه لم يكن فيها متشردون ولصوص وقطاع طرق واشقياء بل فرسان وبارونات ممن دفعتهم حماستهم الدينية الى الاشتراك في هذه الحملة .

لقد فضل قادة الحملة الصليبية الثانية سلوك الطريق البري عبر آسيا الصغرى على سلوك طريق البحر وتألف جيش كونراد من اعداد بالغة الضخامة اذ ان بعض المؤرخين الذين هالهم العدد قد قدروه بمليون محارب وقدره آخرون بسبعين الفاً وفي منتصف تشرين الثاني من سنة ١١٤٧ وهو في طريقه الى قونيه بعد ان غادر نيقية (ازنيق) دب الخلاف بين الالمان وادلائهم البيزنطيين الذين تخلوا عنهم وكانوا قد تلقوا اوامر من الامبراطور البيزنطي مانويل لتضليل هذه الحملة نكاية بالامبراطور كونراد الذي رفض ان يكون من اتباع الامبراطور البيزنطي . وفي اثناء سيرهم في سهول الاناضول داهمتهم جيوش السلاجقة من كل جانب وهم تائهون لا يعرفون الى اين يتجهون ولا الى اين ينسحبون وقد انهكهم التعب والجوع فتراجعوا القهقرى الى نيقية بعد ان اعمل السلاجقة فيهم قتلاً واسرا ولم يصل من فلولهم الى نيقية الا العشر .

ولما علم لويس السابع بالكارثة التي حلت بجيش كونراد لم يشأ ان يعرض نفسه وجيشه لنفس المصير فقرر سلوك الطريق الساحلي ماراً بأنطاكية ومنها الى القدس فأستقبله ملكها بلدوين الثالث بأحتفاء عظيم وكان قد سبقه اليها الامبراطور كونراد

الثالث واتفق الملوك الثلاثة على محاصرة دمشق وفتحها . وهكذا انحرفت الحملة الصليبية الثانية عن هدفها الاساسي الذي قدمت من اجله الى الشرق وهو القضاء على الدولة الزنكية واسترداد ادسا .

نتائج الحملة الصليبية الثانية :

كان فشل الحملة الصليبية الثانية ورجوع فلول العساكر التي اتت من اوربا الى اوطانها وفقدانها عدداً كبيراً من رجالها وقدراً كبيراً من عتادها وتعرضها لأشد انواع الجوع والعطش والتعب وعجزها عن تحقيق هدف واحد من اهدافها قد ادت جميعها الى النتائج العكسية التي رمت اليها اذ ان فشل هذه الحملة في تحقيق اهدافها يعد ضربة قاصمة لكرامة الجيوش الصليبية ، الامر الذي ادى الى انحطاط هيبة الصليبيين ومكانتهم في سوريا وازدياد نفوذ المسلمين وارتفاع روحهم المعنوية.

الفصل العاشر

أبطال الجهاد الأكبر

كان ابطال الجهاد الاكبر ثلاثة من امراء المسلمين اولهم عماد الدين زنكي الذي وحد ولايتي حلب والموصل ووضع نواة الوحدة بين ولايتين من ولايات بلاد العرب بعد ان ازال كل اثر للصليبيين فيهما وكان ثانيهما نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الذي جمع ولايتي حلب ودمشق وانتصر على الصليبيين في عدة معارك قوية وكانت حياته سلسلة من الحروب التي نستطيع ان نسميها جهاداً وكان نجاحه عظيماً في توحيد العالم الاسلامي وتكوين دولة عظيمة وقد جعل حياته كلها وقفاً على الدفاع عن دنيا العرب والاسلام امام الغزوة الصليبية الشرسة وكان ثالثهم صلاح الدين الايوبي الذي وحد بلاد الشام ومصر واصبحت مملكته اوسع الممالك الاسلامية المعاصرة واكثرها قوة اذ كانت تمتد من بلاد النوبة في جنوب مصر الى ما وراء نهر دجلة .

صلاح الدين الايوبي ونسبه :

اجمعت المصادر على ان صلاح الدين كردي الاصل وهو يوسف بن ايوب إبن شادي الكردي الاصل وكان جده شادي قد نزح بولديه نجم الدين ايوب وأسد الدين شيراكوه من اذربيجان الى بغداد ونزل بتكريت حيث مات شادي وعاش الاخوان في اعالي العراق واعتصما بالجبال وكانا يروضان نفسيهما على اعمـــال الفروسية وركوب الخيل ولعب الصولجان ولما ذاع صيتهما في العراق رغب عماد الدين زنكي امير الاتابكة الشهير في الاستفادة من ذكائهما النادر وشجاعتهما الفذة فأدخلهما في خدمته وجعل نجم الدين حامياً لقلعة بعلبك وعين أسد الدين شيراكوه في بلاطه ليكون مشيراً له في حياته واميناً على ملكه ومربياً لاولاده بعد مماته . وبعد مقتل عماد الدين انتقل نجم الدين واخوه اسد الدين الى خدمة صاحب حلب نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي . ونور الدين امير لم يعرف التاريخ الاسلامي اشد منه حباً بالاسلام وغيرة عليه بأستثناء الخلفاء الراشدين والخليفة الاموي عمر إبن عبد العزيز . وقد اعتمد نور الدين محمود في بناء ملكه على البطلين الشقيقين نجم الدين واسد الدين اللذين ساعداه على فتح دمشق ودحر الجيوش الصليبية في عدة مواقع ومسح عار وجود هذه الجيوش في الارض العربية بحجة حماية الحجاج والمحافظة على الاماكن المقدسة .

شخصية صلاح الدين :

ولد صلاح الدين في سنة ١١٣٨ ونشأ في كنف ابيه في ظل السلاطـــين الاتابكة من آل زنكي ليصبح اعظم شخصية اسلامية عرفها تاريخ الحروب الصليبية إذ اصبح اسطورة في التاريخ وبطلاً من ابطال المسلمين الذين تضرب بهم الامثال في الشجاعة والعفو عند المقدرة . لقد اشترك في العاب الفروسية في صباه شأنه في ذلك شأن ابيه وعمه ونال اعجابهما كما نال اعجاب نور الدين نفسه في اللعب بالسيف والرمح بسبب مهارته وخفة حركته ومن ابرز الصفات التي تميز بهـــا كرمه في البذل لمن معه وتعففه عن ان ينال لنفسه شيئاً .

كان صلاح الدين في السادسة عشرة من عمره عندما دخل في خدمة نور الدين مع ابيه نجم الدين ايوب وعمه أسد الدين شيراكوه . وعاش الفتى في بيئة

عسكرية نشيطة بين ابيه وعمه الفارسين وكان لا يغيب عن مجالسهما وكانت هذه المجالس كلها مدرسة تعلم فيها صلاح الدين فنون السياسة والحكم والحرب التي كان لابد من تعلمها .

لم يلبث صلاح الدين ان اظهر كفاية كبيرة في مصاحبته لعمه اسد الدين شيراكوه في حملاته على مصر حتى ولاّه الخليفة العاضد الوزارة وهو في الحادية والثلاثين من عمره وكان ذلك عقب وفاة عمه اسد الدين شيراكوه في سنة ١١٦٨ وقبل الوزارة بعد امتناع ولكنه كان يرى اموراً كثيرة يجب اصلاحها ويرى انه لها ولما احضر الى القصر خلعت عليه خلع الوزارة من جبة وعمامة وغيرهما ولقب بالملك الناصر وانضمت مصر بهذه الصورة الى سلطنة آل زنكي وعين السلطان نور الدين قائده صلاح الدين اميراً على مصر .

انقراض الخلافة الفاطمية في مصر في سنة ١١٧١ :

كان نور الدين محمود سنياً وكان الخليفة العباسي في بغداد سنياً ايضاً وقد ازدادت علاقة نور الدين بالخلافة العباسية قوة بعد استيلاء نور الدين على الموصل وفرض سيطرته عليها في سنة ١١٧١ . وكان الخليفة الفاطمي في مصر شيعياً وكان صلاح الدين متحمساً للمذهب السني . وقد بقيت الدولة الفاطمية في مصر نحو قرنين وهي تحاول بسط سلطانها على البلدان المجاورة لها وكانت الدولتان العباسية والفاطمية في تنافس مستمر تعلو كفة الفاطمية مرة وكفة العباسية مرة اخرى ولما كان نورالدين حريصاً على وجوب سيطرة المذهب السني كتب الى صلاح الدين يطلب اليه عدم ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الصلاة بجميع المساجد في مصر وان يذكر اسم الخليفة العباسي في بغداد ولكن صلاح الدين لم يستجب لرغبة نور الدين في الحال بسبب قوة المؤثرات الشيعية في مصر في ظل الحكم الفاطمي ولاعتقاد صلاح الدين انه كان يستمد سلطته من الخليفة الفاطمي بالرغم من انه كان يعتبر نور الدين سيداً له . وفي سنة ١١٧١ قدم متصوّف زائر من الموصل واقدم على ارتقاء المنبر بالمسجد ودعا للخليفة العباسي المستضيء بدل الخليفة الفاطمي العاضد الذي كان يعاني مرض الموت في قصره .

ولما توفي العاضد جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة .

الفصل الحادي عشر

ارناط ودوره في الحروب الصليبية

شيد بلدوين الاول اخو جودفري حصن الشوبك في سنة ١١١٥ لكي يبسط سيطرته على طرق التجارة والقوافل في وادي الاردن ووادي عربة وشيد فولك ملك بيت المقدس حصن الكرك في سنة ١١٤٢ من اجل السيطرة على طرق القوافل بين مصر والشام وشبه الجزيرة العربية . وقد مكّن هذان الحصنان الصليبيين من حماية طرق التجارة والقوافل الواقعة جنوب البحر الميت وشرقه ، الامر الذي اوقع البدو الرحل تحت حكم الصليبيين وسيطرتهم .

وكان الامير الفرنسي ريجينالد دي شاتيون الذي عرفه العرب باسم ارناط قد قدم الى بلاد الشام في الحملة الصليبية الثانية مع لويس السابع وهو صاحب الدور الكبير مع صلاح الدين. وحكم انطاكية من سنة ١١٥٤ الى سنة ١١٦٠ . وكان ريجينالد فارساً متهوراً ومغرماً بمهاجمة جيرانه المسلمين والارمن وامتازت تصرفاته بالطيش وعدم مراعاة العهود والجهل بأصول السياسة فسبب بذلك متاعب للصليبيين .

وبينما كان نور الدين محمود متغيباً في آسيا الصغرى لمحاربة السلاجقة انتهز بلدوين الثالث هذه الفرصة فأغار على منطقتي حوران ودمشق . اما ارناط فقد جرّه الطمع في السلب والنهب فأغار على مناطق المراعي في الجزيرة ولكن مجد الدين نائب نور الدين في حلب اسر اناط ومكث في اسره من سنة ١١٦٠ الى سنة ١١٧٦ وقد اطلق سراحة امير حلب كمشتكين مع كل من كان في قلعة حلب من اسرى الصليبيين وعلى رأسهم ريجينالد دي شاتيون (ارناط) وجوسلين الثاني امير الرها تعبيراً عن اعترافه بالجميل للصليبيين في مؤازرتهم له ضد صلاح الدين وبعد اطلاق سراحه تزوج ايثينت دي ميلي وريثة صاحب الاردن ، الامر الذي مكّن ارناط من القيام بدور بارز في الحروب الصليبية في فلسطين . وقد تزوجها ارناط لا لشبابها وجمالها ، فقد كانت ارملة وقد سبق ان تزوجت رجلين ثالثهما ارناط ، وانما تزوجها ليرث عنها الاردن وحصن الشوبك وحصن الكرك وكانت قلعة الكرك

تسيطر على الطريق الوحيدة المارة من مصر واعالي بلاد العرب والشام وتشرف في نفس الوقت على مخاضات نهر الاردن .

وفي سنة ١١٨٢ سقطت العقبة بيد ارناط بعد ان ظلت في حوزة المسلمين منذ سنة ١١٧٠ وكان امتلاكه لحصن الكرك وحصن الشوبك اللذين كانا يتحكمان في طريق الحجاج الى الحرمين الشريفين وفي الطريق البري بين شطري دولة صلاح الدين في مصر والشام قد اثار غضب صلاح الدين ولم يسعه السكوت عن غطرسة ارناط وتعرضه بالنهب والسلب للقوافل التجارية . وفي صيف سنة ١١٨١ اعتدى ارناط على قافلة تجارية كانت تسير الى مكة المكرمة وفي سنة ١١٨٢ واصل غزواته على سواحل البحر الاحمر وبدأ يبني اسطولاً ليهاجم به المدينة المنورة ومكة المكرمة . وفي اواخر سنة ١١٨٢ توجه ارناط الى خليج العقبة وحمل اليها الاخشاب التي اعدها من اخشاب غابات مؤاب وتحركت سفنه التي بناها فأستولى على ميناء عيذاب الكبير المواجه لمكة المكرمة . وكان ارناط يهدف من هجماته التي اصابت العالم الاسلامي بالصميم قطع طرق الحجاج الى اقدس مقدسات المسلمين من جهة والاستيلاء على عدن في الجنوب من اجل اغلاق البحر الاحمر في وجه سفن المسلمين واحتكار تجارة الشرق الاقصى والمحيط الهندي .

وبسبب تهديد الصليبيين للحرمين الشريفين اسرع الملك العادل اخو صلاح الدين الذي كان والياً على مصر بأتخاذ اجراءات سريعة واعداد اسطول قوي في البحر ووضعه تحت قيادة قائد الاسطول المصري حسام الدين لؤلؤ من اجل محاصرة العقبة وكان يحمل بحارة مغاربة من شمال افريقيا وكان هجوم حسام الدين لؤلؤ مفاجئاً للصليبيين اذ ترك بعضهم السفن ولاذوا بالفرار الى الجبال المجاورة ولكن رجال حسام الدين طاردوهم بين الجبال وتمكنوا من اسرهم بعد استرداد العقبة من ايديهم .

ولكن ارناط استمر في خرقه الهدنة بينه وبين المسلمين وفي الاعتداء بجنوده على الحجاج والتجار وكانت اساطيله تبحر عباب البحر الاحمر تتصيد فريستها من المسلمين وذلك لان الفارس اللص لا يستطيع العيش دون الاعتداء والنهب والسرقة ففي اوائل سنة ١١٨٧ هاجم ارناط قافلة كانت متجهة من القاهرة الى دمشق ليستولي على النفائس التي كانت تحملها والثروة الطائلة التي اسالت لعابه فقتل وسلب واسر

وسام الاسرى انواع البطش وكان قد نصب كميناً للقافلة وحاميتها وباغتها بالهجوم عليها . وقد غضب صلاح الدين من هذا التصرف واقسم ان يقتل ارناط بيده . وفي معركة حطين الكبرى سقط ارناط اسيراً مع من اسر واخذ صلاح الدين يذكره بجرائمه وخيانته ثم سلّ سيفه من غمده فضربه على كتفه فحلّه وتمم عليه من حضر من الخدم ثم اخذ ورمى به على باب الخيمة .

مقدمات معركة حطين الكبرى :

كانت خطة صلاح الدين مهاجمة الصليبيين في اقوى حصونهم ومعاقلهم وتحطيم خطوط مواصلاتهم فلم يتجه نحو السواحل بل وضع نصب عينيه مدينة القدس هدفاً رئيسياً لحملته المظفرة . وكان الصليبيون قد استولى عليهم الرعب من قوة صلاح الآخذة بالازدياد يوماً بعد يوم اذ كانت مملكته تمتد من حدود النوبة جنوباً وبرقة غرباً الى بلاد طورس وبلاد الارمن شمالاً وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً بالاضافة الى اليمن في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة العرب وكان الخليفة العباسي في بغداد يعترف لصلاح الدين بسيادته على هذه الديار .

وعندما ظهر صلاح الدين على مسرح التاريخ كانت الحروب الصليبية قد انهكت قوى الفرنجة التي امتدت زهاء نصف قرن . وكانت الامدادات التي تصل من الغرب الى ارض المعركة اقل من عدد الذين يفقدون من المحاربين الصليبيين في ميادين القتال . يضاف الى ذلك ان الفساد قد دب في داخل المملكة الصليبية في عهد بلدوين الرابع لضعفه وعدم مقدرته على ردع ارناط المتطرف الذي سببت اعماله وقرصنته كوارث عامة للصليبيين ، ذلك لان حصن الكرك وحصن الشوبك اللذين امتلكهما ارناط كانا لا يتحكمان في طريق الحجاج المسلمين الى الحرمين الشريفين فحسب بل ايضاً في الطريق البرى بين شطري دولة صلاح الدين في مصر وبلاد الشام ، الامر الذي اثار شعور المسلمين وولّد فيهم حماسة شديدة للانتقام لكرامتهم من الفرنجة وطردهم نهائياً من الارض العربية .

موقعة حطين الكبرى في سنة ١١٨٧ :

عندما فرغ صلاح الدين من مشاغل دولته الداخلية بعد ان دانت له الامارات الاسلامية جميعاً اخذ يجمع القوة الهائلة بين يديه ليقذف بها في المعركة الفاصلة ضد

الصليبيين فيحطم قواتهم ويهز عرشهم في القدس . وكان شعور الصليبيين بالخوف قد دفع أمراءهم وفرسانهم الى الاستبسال ومن هؤلاء ارناط صاحب الكرك وفرسان الداوية والاسبتالية الذين كانوا يتحرقون شوقاً للقاء صلاح الدين مؤملين ان يقوّضوا بهجماتهم صرح الدولة الاسلامية .

ارسل صلاح الدين رسله ليجمع الجيوش الاسلامية واخذ يقوم بتعبئة شاملة من اجل حشد القوى والموارد الذاتية للامة الاسلامية استعداداً لخوض معركة الجهاد الاكبر وجعل مركز القيادة دمشق واتته الامدادات من اطراف دولته . وقد بذل صلاح الدين قصارى جهده في تنظيم جيشه وتدريبه وبث روح الحماسة في نفوس افراده . وبعد ان اعلن انتهاء الهدنة التي انتهكها ارناط ولم يقو لوزجنان ملك بيت المقدس على زجره اعلن صلاح الدين الجهاد المقدس ونادى بالنفير العام فأنضم الى جيشه خلق كثير من المصريين والسوريين المتحمسين الذين آلوا على انفسهم تطهير الوطن العربي من رجس المعتدين . وليس عجيباً ان يروي التاريخ ان اقباط مصر والمسيحيين العرب في بلاد الشام كانوا ينضمون الى صفوف اخوانهم المسلمين لمنازلة الفرنج ولم تصدر منهم اشارة واحدة تدل على ميلهم للفرنج ، ذلك لانهم كانوا يريدون مصلحة اوطانهم ونجاة اخوانهم وطرد الصليبيين الغازين من بلادهم .

وقد بلغ عدد افراد الجيش الذي سارتحت قيادة صلاح الدين والذين تجمعوا من الموصل وماردين وحلب وحوران وسائر اطراف الامبراطورية العربية ثمانين الفاً واختار الصليبيون صفورية في اقليم الجليل نقطة تجمع وكانت صفورية وقتئذ تعتبر من احسن المواقع لتجمع الجيوش فيها بسبب توافر الماء والمراعي لخيول المحاربين المخيمين فيهـــا . وكان جيشهم يضارع في ضخامته جيش صلاح الدين بل كان جيشهم يتمركز في موقع عسكري يتميز على الموقع الذي تمركز فيه جيش المسلمين الذي بدأ زحفه من دمشق على طريق القنيطرة ثم انحدر الى بانياس نقطة تجمع قوات المسلمين وقد قرر صلاح الدين دخول فلسطين مع مجرى نهر الاردن وسار على رأس جيشه مع مجرى النهر من جهة ضفته اليمنى حتى وصل الى طبرية في اوائل شهر تموز من سنة ١١٨٧ واستولى عليها . كان الفصل صيفاً وحرارة الشمس محرقة واليوم من ايام شهر تموز الحارة التي لم يستطع الصليبيون تحملها وقد أخطأوا لسوء حظهم ببدئهم الهجوم على قوات صلاح الدين اذ ان قصدهم كما نصحهم ارناط الوصول الى

اماكن المياه قبل المسلمين ليشربوا منها ويسقوا دوابهم ولكنهم ما كادوا يتقدمون بفرسانهم الى المواقع التي صمموا على الوصول اليها حتى وجدوا المسلمين قد سبقوهم اليهـــا .

اما صلاح الدين الذي عسكر بجنوده في حطين المكسوة بالاعشاب قرب بحيرة طبرية من تحتهم فأنه لم يستطع ان يكتم فرحه وسروره من الفرصة الذهبية التي حانت له واخذ رجاله يرددون الادعية والاناشيد الحماسية والاكثار من الاكبار والتهليل بينما امضى الصليبيون ليلتهم في بؤس من شدة العطش والتعب وزاد في عنائهم ان اشعل المسلمون النار في الاعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي التل فغشى الدخان المعسكر الصليبي . ويقول في ذلك ابن الاثير :

وكانت الريح على الفرنج فحملت حرّ النار والدخان اليهم فأجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال » (١) .

وما كادت شمس يوم السبت في ٤ تموز من سنة ١١٨٧ تشرق حتى وجد الصليبيون قـــوات صلاح الدين تحيط بهم احاطة السوار بالمعصم وكان انسحاب قوات صلاح الدين من طبرية الى هضبة حطين خدعة اذ ظن الصليبيون ان ذلك الانسحاب كان بداية الهزيمة فخف فرسانهم الى ركوب الخيل وتقفي آثار المسلمين في مدارج السفوح ولما تم انتشار جموع الصليبيين بين السهل والجبل اطبقت عليهم قوات صلاح الدين من كل جانب واستبسلت واستماتت . اما الصليبيون فقد تعذر عليهم الصمود طويلاً وهم في درجة قصوى من التعب والعطش وتمّ اسر الملك جاي لوزجنان ووقع صليب الصلبوت (وهو الخشبة التي كان يعتقد ان السيد المسيح قد صلب عليها) بيد المسلمين وكان أخذ هذا الصليب اشق على نفوس الصليبيين من اسر الملك نفسه ولقي اسقف عكا مصرعه كما وقع ارناط صاحب حصن الكرك وجيرارد مقدم الداوية وغيرهم من اكابر الصليبيين في الاسر . وقد حياهم صلاح الدين بلطف واجلس الملك جاي لوزجنان بجانبه وناوله كأساً من الماء الممزوج بالثلج الوارد من جبـــل الشيخ . فشرب منه الملك ثم اعطى ما تبقى الى أرناط فشرب . ووفقا لعادات الضيافة العربية متى جرى تقديم الطعام او الشراب للاسير فان ذلك معناه الابقاء على حياته ولكن صلاح الدين قال ان هذا الملعون (ويعني ارناط) لم

---

(١) ابن الاثير الكامل حوادث سنة ٥٨٣هـ

يشرب الماء باذني . وان الذي اعطاه الماء هو جاي وليس انا ثم التفت الى أرناط واخذ يذكره بجرائمه وخيانته وغدره وسل سيفه وضربه على كتفه فحلّه واجهز عليه من حضر من الخدم كما ورد ذكره .

كانت نتيجة معركة حطين ان دارت الدائرة على الفرنج وتمزق جيشهم شر ممزق وأسر معظم قوادهم وقتل آخرون منهم . وتعد هذه المعركة اعظم معركة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية ولم تقم للصليبيين بعدها قائمة تذكر وكان من نتائجها المباشرة سقوط عكا والناصرة وعدة مدن فلسطينية في الساحل ثم جاء دور بيروت فأستسلمت بعد مقاومة ضعيفة .

وقد عقد صلاح الدين العزم على احتلال عسقلان قبل ان يتوجه نحو القدس لاحتلالها وفي شهر ايلول من سنة ١١٨٧ ظهر صلاح الدين امام عسقلان ودارت معركة بين المسلمين والصليبيين واستبسل أهل عسقلان في الدفاع عن مدينتهم ولما أمنّهم صلاح الدين على أرواحهم واموالهم استسلمت المدينة له وسمح لاهلها بمغادرتها وبعدها استولى صلاح الدين على غزة والخليل وبيت لحم والرملة ويبنا والداروم واللطرون وبيت جبرين وهي القلاع التي كانت بايدي الداوية .

احتلال بيت المقدس :

بعد هذه الانتصارات المتوالية لم يبق امام صلاح الدين في داخل البلاد سوى بيت المقدس التي اخذ يستعد للاستيلاء عليها وقبل ان يزحف بجيشه اليها فكر في منع اية إمدادات قد تأتي الى القدس عن طريق البحر فامر اسطوله المصري بالتوجه الى السواحل الفلسطينية بقيادة القائد حسام الدين لؤلؤ المعروف بشجاعته . وفي ٢١ ايلول من سنة ١١٨٧ شرع في مهاجمة اسوار القدس . ويروي المقريزي انه في الوقت الذي اشتدّ فيه الهجوم اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من ارثوذكس وكاثوليك . فالارثوذكس كانوا يفضلون سيادة المسلمين على سيادة الكاثوليك من الفرنج وكان المسلمون يعدون الارثوذكس اصدقاء لهم بينما اتسمت الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت بالغطرسة التي كانت تثير دائماً نفور المسيحيين الارثوذكس الذين كانوا يؤلفون غالبية السكان الفقراء في المدينة وكانت الطبقة العليا من رجال الدين الارثوذكس في كل مكان ما عدا انطاكية . وكان سكان المدينة من الارثوذكس ملزمين بأن يمارسوا طقوساً دينية لغتها وشعائرها غريبة عليهم ولهذا كانوا يتحرقون

شوقاً الى ايام الحكم الاسلامي التي كانوا يمارسون فيها شعائرهم الدينية بحرية وانطلاق كما شاؤوا ، وكان صلاح الدين قد وجد في العالم المسيحي الارثوذكسي يوسف بابيط مستشاراً مخلصاً له وقد ساعده في اتصالاته مع رجال الدين الارثوذكس الذين تعهدوا بفتح ابواب المدينة .

ولما كان صلاح الدين واثقاً من قدرته على احتلال المدينة اراد ان يكون سخياً في معاملته رحيماً في قدرته ولهذا رغب في ان لا تتعرض المدينة المقدسة للدمار واكتفى بأن يدفع سكان المدينة ثلاثين الف دينار لافتداء سبعة آلاف شخص . والقي السلاح في ١٢ تشرين الاول سنة ١١٨٧ بعد حصار دام اربعة عشر يوماً ودخل صلاح الدين المدينة . وبعد ان احتل قلعة المدينة سمح للصليبيين بالخروج منها بعد دفع المال المتفق عليه واخذ يزيل كل اثر للصليبيين فيها وانزل الصليب الذهبي الكبير الذي أقامه الصليبيون في اعلى قبة الصخرة وقام بتطهير المسجد الاقصى من كل آثار احتلال الداوية ورش بنائي قبة الصخرة والمسجد الاقصى اللذين اصبحا مهيئين لتأدية الشعائر الاسلامية فيهما بماء الورد وجعل يصلح ما افسدته الحرب فاعاد الابنية الى ما كانت عليه . اما المسيحيون الارثوذكس فقد بقوا في مدينة بيت المقدس بشرط ان يدفعوا ضريبة الرأس بالاضافة الى الفدية المتفق عليها مع اعفاء الفقراء وغير القادرين على دفعها . وقد استعاد رجال الدين الارثوذكس نفوذهم وسيطرتهم على الاماكن المسيحية المقدسة بعد طرد الصليبيين الكاثوليك منها .

ومن امثلة رحمة صلاح الدين وعطفه على النساء والاطفال ان امرأة من نساء الفرنج وقفت على باب خيمة السلطان وبكت بكاءً شديداً وهي تمرغ وجهها بالتراب وتستغيث وتستنجد به فأمر في الحال من اتى بها وعرف من قصتها انها فقدت في الليلة السابقة رضيعاً لها وعمره ثلاثة اشهر وكان ملوك الفرنج حين علموا بأمرها قد عرضوا عليها ان تذهب الى السلطان صلاح الدين بنفسها فأتته فرق قلبه لها ودمعت عيناه لمنظرها وامر باحضار رضيعها فوجدوه قد بيع في السوق فارتده ودفع ثمنه ولم يزل واقفاً على قدمه حتى احضر الطفل وسلمه بيده الى امه كي تقر به عينها ثم امر لها بفرس ركبته ولحقت بخيام الفرنج .

ان مواقف صلاح الدين وتصرفه مع اعدائه ومحافظته على الاماكن المقدسة المسيحية تشير الى بطل اتصف بكرم الاخلاق والشجاعة والوفاء واصبح مضرب

الامثال في الشرق والغرب في الشهامة والسماحة والمعاملة الانسانية التي قلّما تجدها في قائد عظيم غير صلاح الدين .

لقد كان انتصار صلاح الدين العظيم على الصليبيين في معركة حطين الكبرى التي مهدت السبيل الى استيلائه على معظم المدن الساحلية الواقعة في جنوب طرابلس ومدينة بيت المقدس باستثناء مدينة صور ايذاناً ببداية زوال السيطرة الصليبية على الرغم من الحملات الصليبية التالية التي لم تسفر عن اية نتيجة حاسمة . وبتخليص بيت المقدس من ايدي الصليبيين يكون صلاح الدين قد حقق أغلى امنية كانت تراود افكار المسلمين .

بعد الانتصارات الباهرة التي احرزها صلاح الدين ضد اعدائه لم يبق بيد الصليبيين من مملكة بيت المقدس وامارة طرابلس وامارة انطاكية سوى مدينة صور من مملكة بيت المقدس ومدينة طرابلس عاصمة امارة طرابلس ومدينة انطاكية عاصمة امارة انطاكية وميناءها السويدية وحصن المرقب . وقد شهد المؤرخون الاوربيون بأن مروءة صلاح الدين وشهامته وكرم اخلاقه وإنسانيته لم تفق المستويات العادية التي يعرفها فرسان الغرب فحسب بل فاقت ايضاً المثل العليا للمستويات الاخلاقية والانسانية التي لم يصل اليها فرسان الغرب في يوم من الايام .

وكان السر في هذه المعاملة الطيبة بالاضافة الى طبيعة صلاح الدين السمحة الطيبة عدم رغبته في استثارة غضب العالم الغربي ضده لو تطرّف في معاملته للصليبيين او عاملهم كما عاملوا المسلمين يوم دخلوا القدس في سنة ١٠٩٩ وبهذه المعاملة الانسانية فتحت معظم المدن الفلسطينية ابوابها ودخلها صلاح الدين دون حرب او مقاومة تذكر . وتمكن بعد ذلك من الاستيلاء على المناطق الواقعة جنوب انطاكية وشمالها .

الفصل الثاني عشر

الحملة الصليبية الثالثة من سنة ١١٨٩–١١٩١

كانت هزيمة الصليبيين في معركة حطين الكبرى واستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس وسقوط المدن الساحلية بيد المسلمين قد احدثت ردود فعل عنيفة في اوربا اججّت النيران في صدور رجال الدين الذين ثاروا ثورة عنيفة واخذوا يهيجون

الرأي العام الاوربي بوسائلهم المعروفة . وقد بالغ رجال الدين في اثارة الحماس في النفوس . وقد لبى الملوك والامراء والفرسان نداء الاستغاثة الذي وجهه البابا غريغوري الثامن لتنظيم حملة صليبية جديدة من اجل تخليص بيت المقدس وسائر المدن الصليبية التي وقعت بيد صلاح الدين .

كان اول الملبين للدعوة من ملوك اوربا امبراطور المانيا فردريك بارباروسا الذي تحرك في شهر أيار من سنة ١١٨٩ وابحر ريتشارد قلب الاسد ملك بريطانيا وفيليب اوغسطس ملك فرنسا في صيف سنة ١١٩٠ على رأس جيوشهما الصليبية ليقضيا فصل الشتاء في جزيرة صقلية .

وكان جيش امبراطور المانيا فردريك باربروسا بالغ التنظيم وقد قدره المؤرخون بمائة الف مقاتل . وما كاد هذا الجيش يدخل اراضي الامبراطورية البيزنطية حتى قوبل بالعداء بدلاً من الترحيب وتحول ذلك العداء الى حرب سافرة ادت الى قيام العساكر الالمانية بالنهب والسلب . وعندما اكتشف فردريك باربروسا ان العراقيل التي وضعها البيزنطيون تزداد خطورة يوماً بعد يوم قرر الاتجاه بجيشه الى اراضي قيلج ارسلان الذي كان عدواً طبيعياً لكل من الامبراطور البيزنطي وصلاح الدين . ولهذا رحب قيلج ارسلان بقدوم الجيش الالماني .

وبالرغم من الحماية التي قدمها قيلج ارسلان للامبراطور فردريك باربروسا ولجيشه فانه لم يستطع صد قبائل التركمان في آسيا الصغرى ومنعها من الاعتداء على الجيش الالماني الزاحف عبر آسيا الصغرى . وبينما كان الجيش الالماني مستمراً في زحفه وصل نبأ مفاجىء الى مسامع صلاح الدين يفيد بأن الامبراطور قد غرق فجأة في اثناء عبوره نهراً صغيراً في قليقية في طريقه صوب انطاكية . وقد اختل نظام الجيش الالماني بعد وفاة قائده وعجز ابنه عن السيطرة على الجيش فقرر الامراء والعساكر الرجوع الى اوربا وسار الباقون في اتجاه انطاكية حاملين جثمان الامبراطور المتوفى في جرة نبيذ . وقد تعرض هذا الجيش في اثناء سيره الى وبأ شديد واخيراً اتجه نحو عكا لمساعدة اخوانهم وتشديد قبضة الحصار على المدينة .

حصار عكا في سنة ١١٩١ :

أخذ حصار عكا ضد المسلمين يشتد بعد وصول جيش الملك الانكليزي ريكاردوس قلب الاسد و جيش الملك الفرنسي فيليب اوغسطس في ربيع سنة ١١٩١.

وكان صلاح الدين يدرك ما كانت عكا تعانيه من تعب وضيق فأخذ يشدد في الحث على القتال والصمود امام هجمات الصليبيين وكان يطوف بنفسه بين صفوف الجند وهو ينادي « يا للاسلام » كان لا يأكل الا قليلاً . وبدأ بعد ذلك اهل المدينة يفاوضون الفرنج على التسليم وكان شديد الالم لما يراه من الضيق الذي أحاط المدينة حتى كان من شروط انهاء الحرب أن تسلّم المدينة للصليبيين بما فيها من آلات وعدد ومراكب وأن يدفع المسلمون مائتي الف دينار فدية عن اسراهم وان يطلقوا سراح ٢٥٠٠ من اسرى الصليبيين وان يعيدوا صليب الصلبوت الى الفرنج وان يخرج جميع من في المدينة سالمين بامتعتهم .

نتائج الحمـــلة الصليبية الثالثة :

يعتبر بعض المؤرخين الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة ، ذلك لأنها لم تحقق الهدف الذي اعدت من اجله وهو تخليص بيت المقدس من ايدي المسلمين الذين كانوا قد استولوا عليها بعد معركة حطين الكبرى . وان ما حققه الصليبيون من هذه الحملة لا يتعدى استيلاءهم على عكا والمدن الساحلية حتى يافا بما فيها موانىء صور وحيفا وقيسارية وارسوف ويافا بالاضافة الى جزيرة قبرص وايقاف نشاط صلاح الدين في الفتح . أما مملكة الصليبيين فكانت عاصمتها عكا وقدر لها ان تعيش مائة سنة أي من سنة ١١٩١ الى سنة ١٢٩١ وكانت هذه المملكة الصغيرة قليلة العرض والطول اذ لم يزد عرضها على عشرة اميال ولم يزد طولها على تسعين ميلاً .

أما امارة انطاكية فقد بقيت تحت حكم اميرها بوهيمند بفضل سياسة الحياد التي اتبعها واحتفظ ابنه بامارة طرابلس .

وفاة صلاح الدين في ٣ آذار من سنة ١١٩٣ :

كان صلاح الدين في الرابعة والخمسين من عمره عندما داهمه المرض في ٤ تشرين الثاني من سنة ١١٩٣ وهو في دمشق وقد انهكه التعب واخذت صحته في الانهيار بسبب الحمى الصفراوية والارق والوجع ولزم الفراش احد عشر يوماً . وقد مات صلاح الدين تاركاً وراءه مملكة واسعة الاطراف وفراغاً كبيراً لم يستطع أحد من ابنائه السبعة عشر واخوته وابناء اخوته ان يملأه .

صلح الرملة في سنة ١١٩٢ :

كان معروفاً عن ريتشارد الاول ملك الانجليز (ريكاردوس قلب الاسد) انه كان يعتمد في محاربة خصومه على المكر والدهاء تارة وعلى العنف والغلظة تارة اخرى. وابرز ما فيه دهاؤه وشجاعته الخارقة وذكاؤه النادر وميله الشديد للمغامرات الخطرة وغرامه بالحروب . وكان داهية ومن طرق الدهاء التي سلكها منذ وطئت اقدامه ارض الشرق انه اخذ يبالغ من جانبه في اكرام صلاح الدين ليقينه انه رجل يقابل الحسنة بأحسن منها وبانه لا يقبل من احد وداً ولا كرماً حتى يكون اقدر منه على بذل هذا الود والكرم . والود في نظر صلاح الدين غلّ في عنقه لا يستطيع الفكاك منه .

وكانت الحرب سجالاً بين الصليبيين والمسلمين على السواحل الفلسطينية وقد اشتد لهيبها وحمي وطيسها واصبح كل من الطرفين تواقاً للصلح ليعطي جنوده وفرسانه فرصة للاستجمام والراحة من عناء التعب الذي انهك قواهم في ايام البرد القارص والمطر الشديد والاوحال التي كان يغوص فيها الجنود حتى الركب . وقد قرر ريتشارد مواصلة السير نحو القدس مهما كان الثمن وبلغت التضحيات فاحتل اللطرون وبيت نوبه وفي نهاية سنة ١١٩١ بدأ فصل الشتاء ببرده وعواصفه وحالت الاوحال والامطار دون الوصول اي الجانبين الى الآخر . وفي تلك الاثناء وصلت الى ريتشارد انباء تفيد ان الحالة في انجلترا قد ساءت وان يوحنا اخاه قد اغتصب السلطة وحاول كبير وزرائه وليام اقناع ريتشارد بالعودة الى بلاده . وكان الغضب يملأ قلبه بسبب تخلي العساكر الفرنسيين عنه وذهابهم الى عكا .

وقد اعتراه المرض وهو في يافا وأبت شهامة صلاح الدين إلاّ ان يزوده بالدواء والفاكهه وقد أحسّ ان الوقت قد حان للعودة الى بلاده ولكنه ابى العودة قبل الوصول مع صلاح الدين الى حل لتأمين موقف الصليبيين في بلاد الشام . وفي اليوم الثاني من شهر ايلول من سنة ١١٩٢ تم عقد صلح الرملة الذي نص على تخصيص المنطقة الساحلية من صور الى يافا الى الصليبيين بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف وتخصيص عسقلان للمسلمين وان تصبح اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين وان تكون للمسيحيين حرية الحج الى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة كما كان الحال ايام السلاجقة الاتراك .

مكانة صلاح الدين في التاريخ :

ظهر في التاريخ عظماء كثيرون من رجال الفكر والسيف وقد ترك هؤلاء بعد موتهم آثار خالدة سجلها لهم التاريخ وحفظها لهم الاحفاد فما هو سر عظمة هؤلاء الرجال ؟

عظماء الرجال ذوو اعصاب متينة لا تؤثر فيهم الصدمات ولا ترهبهم الهزائم فهي محك قوتهم وصلابة عودهم وقدرتهم على امتصاص الصدمات لتشحن فيهم العزيمة على احراز النصر في الجولات القادمة . وقد قال نابليون بعد هزيمته في البحر الابيض المتوسط على يد القائد الانجليزي نلسون « كأن الاقدار كانت عالمة بما خبأته لي من صدمات فجعلت لي اعصاباً من حديد » .

وعظماء الرجال لهم همة ووقار لا يستطيع الانسان الذي يقف امامهم او يقترب منهم الا ان يقدم لهم كل حب واحترام وتقدير .

وعظماء الرجال يتصفون بوضوح الرؤية والبساطة في التفكير والبساطة في النظرة الى الحياة دون تعقيد ويرون الاشياء على حقيقتها كما هي . وصلاح الدين كان يظهر امام الناس ببساطة امام امرائه وامام جنده وامام خدمه بنفس المظهر فيعاملهم جميعاً معاملة الرجال للرجال دون ان يفرق بين رجل وآخر الا بمقدار حظه من الرجولة .

وعظماء الرجال يجمعون بين قوة الشخصية وقوة العقل والذكاء فيتركون آثار عظيمة في مجتمعاتهم وفي احداث تاريخ عصرهم . وصلاح الدين بالاضافة الى قوة شخصيته وعقله الراجح وذكائه النادر كان قد امتاز بالخلق الرفيع وشرف المعاملة وحسن السيرة . وكان مجلسه طاهراً من الرجس لا يحب الا ان يسمع الكلام الطيب اللطيف . كان في حياته المنزلية هادئاً محباً ومحبوباً وكان كريماً ينفق ما في يده في سبيل الخير والاحسان ولم يترك ميراثاً من ذهب او فضة .

وتتجلى عظمة صلاح الدين ومكانته في التاريخ بين عظماء الرجال بتوحيده صفوف المسلمين واعلانه الجهاد لطرد الغزاة الدخلاء من الارض العربية . وقد اتم

جهود عماد الدين زنكي وجهود ابنه نور الدين محمود بتوحيد الجبهة الاسلامية وشحنها بروح الجهاد لطرد الغزاة الاوربيين من بيت المقدس الى شريط ضيق على الساحل الفلسطيني وكان انتصاره الحاسم في معركة حطين الكبرى وانتزاعه مدينة بيت المقدس من ايدي الصليبيين وعدداً كبيراً من القلاع والحصون والمدن في الداخل عملاً حربياً بالغ الخطورة .

الفصل الثالث عشر

الحملة الصليبية الرابعة من سنة ١٢٠٢–١٢٠٤

احدث نبأ وفاة صلاح الدين وتقسيم دولته بين ابنائه واخوانه والنزاع الذي قام بينهم ردود فعل قوية في الغرب الامر الذي اغرى المتحمسين على الاعداد لحملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس من ايدي المسلمين . وكان امبراطور المانيا هنري السادس اعظم سياسي في عصره بل اعظم امبراطور ظهر في اوربا منذ ايام شارلمان وكان من اشد المتحمسين لشن حرب صليبية جديدة ضد الشرق لانتزاع بيت المقدس من ايدي المسلمين واخضاع الوجود المسيحي اللاتيني والبيزنطي بأكمله للامبراطورية الالمانية المقدسة . وكانت خطته تهدف اولاً الى اخضاع القسطنطينية لسيطرته ثم التوجه لبيت المقدس لمحاربة المسلمين وانتزاعها منهم .

غير ان هنري السادس وافاه الاجل في سنة ١١٩٧ بعد ان اعد اسطولاً ضخماً لغزو الشرق ويستنتج المؤرخون انه لولا تلك الوفاة المفاجئة ، ولم يكن قد تجاوز الثانية والثلاثين من عمره ، لجاز ان يصبح سيد العالم المسيحي . وبعد ثلاثة شهور من وفاة هنري السادس مات البابا سلستين فولّي انوسنت الثالث كرسي البابوية . وقد حزن انوسنت الثالث عندما اطلع على صلح الرملة الذي ترك القدس بايدي المسلمين واعتبر العمل الذي قام به ملكا فرنسا وانجلترا ناقصاً بسبب عدم استطاعتهما تخليص بيت المقدس من ايدي المسلمين .

وفي سنة ١١٩٨ وصلت الحملة الصليبية الرابعة الى اقصى درجات الاعداد والتقدم بفضل الجهود التي بذلها البابا انوسنت الثالث وخاصة في فرنسا وكان قادة

هذه الحملة من امراء الاقطاع ولم تكن حملة شعبية او حملة ملوك واباطرة . وقد اشترك فيها عدد كبير من البارونات الفرنسيين . واتجهت النية اول الامر الى مهاجمة مصر . ولكن البندقية من تجار البحر لا تهتم الا بمصالحها التجارية في الدرجة الاولى. لهذا اغتنمت فرصة عجز الصليبيين عن تأمين المال اللازم لدفع اجور نقلهم على ظهور سفنها التجارية واشترطت عليهم القيام اولاً بمهاجمة مدينة زارا على شاطىء البحر الادرياتيكي الشرقي لانتزاعها من ملك هنغاريا وتسليمها للبنادقة ثمناً لنقلهم الى مصر . ذلك لان زارا كانت تشتغل بالتجارة وتنافس البندقية منافسة شديدة ولم يسع قادة الصليبيين إلاّ الاستجابة لطلب البندقية . فهاجموا زارا في سنة ١٢٠٢ بالرغم من غضب البابا الشديد لهذا الهجوم . وقد قام المهاجمون باستباحة المدينة ونهبها ومن شدة استياء البابا وغضبه قرر حرمان الحملة بأكملها . وبذلك خرجت هذه الحملة عن خط سيرها الحقيقي الذي اعدت من اجله بسبب تحكم العوامل الشخصية .

وفي الوقت الذي استعد فيه الصليبيون للابحار نحو مصر نشبت ثورة داخلية في القسطنطينية انتهت بخلع الامبراطور اسحق الثاني الضرير وفرار ابنه الكسيوس الصغير الذي سعى لطلب النجدة والمساعدة من الصليبيين والبابوية . وفي اوائل سنة ١٢٠٣ وصل عرض من الكسيوس الصغير الى الصليبيين يتكفل فيه بأن يؤدي الى الصليبيين الاموال المدينة بها الامبراطورية البيزنطية للبنادقة وقدرها ٨٥ الف كلونية وان يمد الصليبيين ايضاً بما يلزم من المال والمؤن لفتح مصر وضمان خضوع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما في حالة توجه الحملة الى القسطنطينية ومساعدته في الجلوس على عرش والده في بيزنطية وقد فرحت البندقية لهذا العرض لانه يؤمن لها المال الذي تعهد الصليبيون بدفعه لها اجوراً لنقل المقاتلين على سفنها ويضمن اذلال اليونانيين في الامبراطورية البيزنطية ويساعدها على استعادة امتيازاتها التجارية وتوسيعها وتوطيدها في ارجاء الامبراطورية البيزنطية .

وقد فوجىء البابا اونسنت الثالث بهذا العرض فلم يعترض على تحول الحملة الصليبية لمهاجمة القسطنطينية بدلاً من مهاجمة مصر . اما الكسيوس الصغير الذي اصبح امبراطوراً على بيزنطية بأسم الكسيوس الثالث فلم يحاول منع وصول القوات الصليبية الى عاصمة بلاده لان معظم جيشه كان من المرتزقة ولم يكن مطمئناً له ولانه كان يعلم في قرارة نفسه انه مغتصب للعرش من ابيه الضرير اسحق انجيلوس .

وهكذا انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الاساسي في تخليص بيت المقدس من ايدي المسلمين إذ اتجهت نحو القسطنطينية وكان الصليبيون يعتقدون ان الأهلين سوف يرحبون بهم بمجرد وصولهم الى بلادهم ولكن الدهشة استبدت بهم حينما اكتشفوا ان جميع ابواب المدينة قد اغلقت في وجوههم وان الجنود البيزنطيين كانوا يرابطون على الاسوار وقد قدرت كثافة القوات المهاجمة من الصليبيين بمائتي الف . وقد دهش الامبراطور الكسيوس الثالث من محـاولة الدفاع عن المدينة فلاذ بالفرار وأطلق سراح ابيه ونصب على العرش . اما الكسيوس الثالث فقد اقنع الصليبيين بوقف القتال والاعتراف بابيه امبراطوراً والاعتراف به قسيماً في الحكم باسم الكسيوس الرابع .

أطاحت الجماهير الغاضبة بالكسيوس الرابع وراحت تعيث في الارض فساداً . اما الصليبيون فقد اقتحموا المدينة في سنة ١٢٠٤ ونسوا انهم فتحوا بلداً مسيحياً وانهم اقتحموا اكبر مدينة ظلت تحمل لواء المسيحية في الشرق مدة تسعة قرون . اما البنادقة فقد انتشروا في الشوارع كالجراد وانقضوا على قصور المدينة ومعاهدها وكنائسها فنهبوها وحرقوا الكثير منها وكانوا يقتلون كل من صادفهم من الرجال والنساء والاطفال . ولم يقع نظرهم على اية تحفة فنية الا واستولوا عليها وعلى جميع الكنوز التي وقعت تحت ايديهم ونقلوها الى مدينتهم وزينوا بها الميادين والكنائس والقصور .

واما الفرنسيون فقد اندفعوا كالذئاب الجائعة فأخذوا يجوبون في الشوارع ويقتحمون البيوت وينتزعون كل ما يتلألأ ويلمع ويحملونه ويدمرون ما لا يستطيعون حمله . ولم تسلم الكنائس والمكتبات من أذاهم فقـد قاموا بتدميرها ونهب كل شيء ذي قيمة فيها . وكان جماعة من الرجال السكارى قد اقتحموا كنيسة القديسة صوفيا ذاتها فمزقوا الستائر الحريرية وحطموا الاواني الفضية وداسوا باقدامهم الكتب المقدسة والايقونات ولم يتركوا اثراً فنياً او ادبياً الا ودمروه .

واستمرت اعمال النهب والسلب والتدمير والتقتيل ثلاثة ايام . وفي اثناء الهجوم التجأ جماعة من اعيان الروم الارثوذكس الى كنيسة القديسة صوفية فهاجمهم اللاتين وقابلهم الرهبان والاساقفة الروم وهم يحملون الانجيل والصليب وتوسلوا اليهم الابقاء عليهم غير ان الفرنج اللاتين لم يعيروا توسلاتهم اي انتباه فهجموا عليهم وفتكوا بهم عن بكرة ابيهم ونهبوا الكنيسة ودمروا كل مالم يستطيعوا حمله .

واذا كان هذا شأن الصليبيين مع المسيحيين الارثوذكس في القسطنطينية ومع الكنائس والاماكن المقدسة فليس غريباً ان نقرأ انهم حرقوا الجامع الذي كان للمسلمين في القسطنطينية .

استولى الصليبيون على القسطنطينية في اليوم الخامس والعشرين من شهر نيسان من سنة ١٢٠٤ .

واذا نحن انعمنا النظر في هذه الحملة نجد ان الفكرة الصليبية قد تطورت اذ ان ما اشتهرت به الحملات الصليبية السابقة من حماسة دينية قد اختفى من جراء تحول الحملة الصليبية الرابعة عن اهدافها التي نظمت لتحقيقها ولم يكن سلوك رجال الدين فوق الشبهات ولم تكن اخلاقهم وتصرفاتهم تتناسب مع المعايير الاخلاقية التي يجب ان تتوافر فيهم . وقد سادت بينهم الاحقاد، ومنهم من لم يقصد الا الشهرة او الحصول على مكاسب وامتيازات .

نتائج الحملة الصليبية الرابعة :

تعتبر الحملة الصليبية الرابعة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية ذلك لان المصالح التجارية والاقتصادية اخذت تحتل مكان الصدارة في تفكير قادتها. وقد قوت البغضاء والعداء بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية وأدت هذه الحملة الى تدمير ما حرصت بيزنطية على الاحتفاظ به من كنوز الزمن الغابر وحرمت المسيحيين الشرقيين في بلاد الشام من المساعدة التي تقدم لهم من اخوانهم المسيحيين في القسطنطينية واخذ قيام امبراطورية لاتينية في القسطنطينية يجتذب الكثيرين من فرسان الفرنج للاقامة في بيزنطية .

وكان من نتائج هذه الحملة ان اصبح الطريق البري الممتد من اوربا الى بلاد الشام بالغ الصعوبة نظراً للاخطار التي تهدد المسافرين من اعتداءات اليونانيين الحانقين والاتراك .

ويعتبر تدمير المعالم الحضارية في القسطنطينية فاجعة في تاريخ الحروب الصليبية ذلك لانها ارتكبت جرماً بالغاً لا يغفره التاريخ في حق الحضارة الاوربية وفي حق الفكرة الصليبية . وادت الحملة الصليبية الرابعة بالتالي الى اضعاف مركز الصليبيين في بلاد الشام واقفار بلادهم من المقاتلين .

الفصل الرابع عشر

حملة الاطفال الصليبية في سنة ١٢١٢

تعزى هزائم الصليبيين المتوالية السابقة الى حد كبير الى سوء اخلاق الصليبيين انفسهم ، ولهذا تقرر قيام حملة صليبية من الاطفال الابرياء . وفي سنة ١٢١٢ قام صبي فرنسي اسمه استيفن وقاد جماعة مؤلفة من ثلاثين الفاً من الصبيان والبنات . وقاد صبي آخر من المانيا اسمه نيكولا جماعة اخرى مؤلفة من عشرين الفاً غير ان معظم هؤلاء الاطفال ماتوا في الطريق وبيع الباقون عبيداً في سوق النخاسة .

الفصل الخامس عشر

الحملة الصليبية الخامسة من ١٢١٩ — ١٢٢١

وصلت قناعات الصليبيين بعد الحروب الطاحنة والتجارب الكثيرة التي مروا بها ان القاهرة هي مفتاح بيت المقدس وان عليهم مهاجمة مصر اولاً بوصفها الطريق الطبيعية للوصول بهم الى بيت المقدس وان مصر هي مركز المقــاومة الحقيقية في العالم الاسلامي ضد الصليبيين وان مملكة بيت المقدس لا تستطيع الوصول الى القدس قبل احراز نصر على المسلمين في مصر ضروري لبقائهم في بلاد الشام وانه بدون سيطرتهم على مصر تصبح حياتهم في بلاد الشام محفوفة بالخطر .

وقد اعلن البابا إنوسنت الثالث قيام الحملة الصليبية الخامسة وتعهدها بعده البابا هونريوس وكانت تتألف من مائتي الف محارب معظمهم من الالمان . وفي سنة ١٢١٧ وصلت طلائع هذه الحملة الى قبرص بقيادة ملك هنغاريا ودوق النمسا ثم واصلت سفرها الى عكا حيث انضم اليهم يوحنا دي بريين ملك بيت المقدس وقد وضعت الحملة برمتها تحت قيادته .

وتحركت الحملة الصليبية في ٢٧ أيار من سنة ١٢١٨ من عكا قاصدة دمياط بقيادة يوحنا دي بريين ملك مملكة بيت المقدس وكان شيخاً له من التجارب وبعد النظر ما جعله يؤيد فكرة مهاجمة مصر قلب الدولة الاسلامية النابض واختار الصليبيون النزول بدمياط لانها كانت اقرب الموانيء المصرية الى بلاد الشام .

ولما بلغ العادل أخا صلاح الدين نبأ هذا الهجوم بادر الى تجهيز جيش من سوريا واستدعى ابنه الاشرف الذي سار على رأس هذا الجيش الى حمص ودخلها وكان قصده من ذلك تخفيف الضغط عن دمياط بينما قام ابنه الكامل الذي كان ينوب عن ابيه في حكم مصر بتسيير معظم الجيش المصري من القاهرة صوب دمياط . وفي ١٩ تشرين الاول من سنة ١٢١٩ قام الكامل بمهاجمة معسكر الصليبيين المواجه لمدينة دمياط ولكن هجومه مني بالفشل وتكبد جيشه خسائر جسيمة في الارواح ويقال انه من بين السبعين الفاً من سكان دمياط لم يبق على قيد الحياة سوى ثلاثة آلاف .

وفي الوقت الذي سقطت دمياط بايدي الصليبيين كان المغول بقيادة زعيمهم جنكيز خان يهاجمون الجانب الشرقي من العالم الاسلامي ويقتحمون مدنه وتحصيناته فاستولوا على خوارزم وبلاد ما وراء النهر وبخارى ومعظم ايران الامر الذي جعل العالم الاسلامي مطوقاً بفكي كماشة من غربه ومن شرقه .

زحف الصليبيين الى القاهرة :

كانت النجدات التي قدمت من بلاد الشام قد عززت مركز المسلمين في مصر وساعدت الكامل على الاستبسال والصمود في وجه الهجمـــات الصليبية وفي دفاعه عن الديار المصرية . وكانت الاخطاء التي ارتكبها الصليبيون والخلافات التي وقعت بين المندوب البابوي ويوحنا دي بريين ملك بيت المقدس قد ساعدت كثيراً على الحاق معظم الاضرار والمصائب التي حلت بالحملة الصليبية الخامسة الامر الذي استغله المسلمون للسيطرة على مياه البحر بين دمياط وعكا فتمكنت سفنهم من حرق واغراق عدد من سفن الصليبيين بين الاسكندرية وقبرص وبين عكا ودمياط .

كان الكامل قد قدم عرضاً للصليبيين على الصلح بعد هزيمة جيشه في دمياط تتضمن اعادة صليب الصلبوت الى المسيحيين (وهو الخشبة التي كان يعتقد ان السيد المسيح قد صلب عليها) وقد وقع بايدي المسلمين بعد سقوط بيت المقدس في معركة حطين الكبرى واعادة بيت المقدس وبعض مدن الساحل والجليل الى الصليبيين اي باحياء مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة باستثناء حصن الكرك وحصن الشوبك ووادي عربة واعادة هذه المملكة الى ما كانت عليه قبل معركة حطين الكبرى في سنة ١١٨٧ باستثناء الاردن غير ان المندوب البابوي بلاجيوس الذي كان القائد الاعلى

للحملة الصليبية رفض هذا العرض وايدته في ذلك فرقتا الداوية والاسبتالية لاعتقادهما ان بقاء مصر وقلعتي الشوبك والكرك بايدي المسلمين يعرض مملكة بيت المقدس للخطر .

وفي ١٥ تموز من سنة ١٢٢١ اجتمع الاخوة الثلاثة الكامل والمعظم عيسى والاشرف موسى ابناء العادل في المنصورة ومعهم جيوشهم التي كانت على اهبة الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة مع الصليبيين في مصر وكان الصليبيون ايضاً على اتم الاستعداد اذ وصلت اليهم الامدادات من المانيا وبافاريا ومن مملكة بيت المقدس.

وبعد وصول الامدادات الى جيش الكامل رفض طلب الصليبيين تسليم قلعتي الكرك والشوبك كما رفض تسليم القدس وبيت لحم والناصرة وصليب الصلبوت وعسقلان وطبريا وصيدا وجبلة واللاذقية وسائر الممتلكات التي وقعت بيد صلاح الدين بعد معركة حطين الكبرى وايده في الرفض اخواه المعظم والاشرف وبعد هذا الرفض تقدم الجيش الصليبي على شكل مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات . وفي شهر آب من سنة ١٢٢١ استطاعت جيوش المسلمين تطويق الجيش الصليبي وكانت مياه نهر النيل تزداد ارتفاعاً بسبب الفيضان فساء موقف الصليبيين في دلتا نهر النيل بعد ان فتح المسلمون السدود وحطموا الجسور فاضطروا الى طلب الصلح على اساس ترك دمياط والجلاء عن الديار المصرية كاملة مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذي وقعوا فيه .

قبل الكامل العرض عندما بلغه نبأ مجيىء الامبراطور فردريك الثاني على رأس حملة صليبية كبيرة . وتم جلاء الصليبيين عن دمياط في ٧ ايلول من سنة ١٢٢١ ودخلها الكامل واخلى سبيل الرهائن من الطرفين وعاد الملك يوحنا دي بريين ورجاله الى عكا. وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل بعد ان كادت تنجح لولا استبسال المسلمين وحنكتهم في تدبير الخطة الحربية التي مكنتهم من حصر الجيوش المسيحية في دلتا النيل وارغامها على الاستسلام وطلب الصلح .

الفصل السادس عشر

الحملة الصليبية السادسة ١٢٢٩

بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر توجه الملك يوحنا دي برين بنفسه الى ايطاليا ليشرح للبابا سوء حالة الصليبيين وليحث زعماء الغرب على ارسال النجدات العاجلة لانقاذ الموقف المتدهور . وزار ايضاً اسبانيا وانجلترا وفرنسا وطلب النجدة السريعة من ملوكها .

وكان فردريك الثاني امبراطور المانيا بطل النزاع بين الامبراطورية والبابوية لانه كان يجمع في قبضته بين عرشي المانيا وصقلية ولانه اتخذ ايطاليا ميداناً لجهوده وقد زاد من مخاوف البابا على نفوذه وعلى املاكه ان فردريك الثاني كان يعمل على توطيد نفوذه في شمال ايطاليا كما وطد نفوذه في صقلية وجنوب ايطاليا . وقد فزع البابا عندما قام فردريك الثاني بتتويج ابنه هنري في سنة ١٢٢٠ ملكاً على صقلية ليخلفه في حكم صقلية والامبراطورية الالمانية الغربية .

نشأ فردريك الثاني في جزيرة صقلية التي كانت تعتبر نصف عربية ونصف يونانية . أما دمه فكان نصفه الماني ونصفه نرماني ذلك لان اباه الماني وامه نصف ايطالية وكان لنشأته في كنف الحضارة العربية وتأثره بالمؤثرات البيزنطية اثر كبير على روح التسامح التي اتسمت بها حياته .

كان السبب القوي الذي حمل فردريك الثاني على القيام بحملته الصليبية وعزمه على التوجه الى بلاد الشام لقيادة الفرق الصليبية التي سبقته الى ميدان المعركة هو ان يفوت على البابا فرصة قيامه بالحملة الاعلامية ضده واظهاره بمظهر المتخاذل عن تلبية الدعوة لامتشاق الحسام من اجل تخليص الديار المقدسة من ايدي المسلمين .

كانت الحملة الصليبية السادسة من اغرب الحملات الصليبية فبينما كانت الحملات الصليبية السابقة تحظى جميعها بتأييد البابوية وعطفها ومباركتها ودعمها بكل الوسائل المتوفرة لديها نجد ان الحملة الصليبية السادسة قد حلّت عليها اللعنة البابوية اذ وقعت على الامبراطور فردريك الثاني قائد هذه الحملة عقوبة الحرمان التي كانت امضى سلاح بيد البابوية ضد الخارجين على ارادتها .

كان فردريك الثاني شديد الحرج والقلق وموقفه كان بالغ الحساسية . فقد كان محروماً من البابا ومغضوباً عليه من الكنيسة وكان يتوقع من الكامل ان يعطيه بيت المقدس لاصلاح مركزه امام الرأي العام المسيحي الغاضب عليه . ولهذا لم يحضر معه الا قوة رمزية . ولولا الوعد الذي كان قد اعطاه له الكامل لاحضر معه جيشاً كبيراً لمنازلة المسلمين والدفاع عن الممتلكات الصليبية في بلاد الشام واسترجاع المدن والحصون التي خسروها في حروبهم مع صلاح الدين الايوبي .

ان الخمسماية فارس الذين حضروا معه لا يستطيعون الدخول في حرب مع المسلمين ورجوعه فاشلاً الى الغرب سيعرض هيبته للهبوط ويهز عرشه في الغرب ويؤدي الى خسران المعركة القائمة بينه وبين البابوية ونجاحه في استرداد بيت المقدس معناه انتصار على البابوية التي كانت ترسل الرسل الى السلطان الكامل وتحثه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور .

صلح يافا ١٨ شباط سنة ١٢٢٩ :

لجأ فردريك الثاني الى اسلوب الاستعطاف في التأثير على الكامل بعد فشل المساومات والخداع تارة واظهار الاعجاب المتبادل تارة اخرى . وبتأثير الامير فخر الدين رسول السلطان الكامل في المفاوضات على اثر المناورات الكبرى التي قام بها فردريك الثاني بحشد كل قواته والسير بها باتجاه الساحل الى يافا وقيامه ببناء استحكاماتها في سنة ١٢٢٨ وافق الكامل على توقيع معاهدة صلح يافا مع الامبراطور فردريك الثاني في ١٨ شباط من سنة ١٢٢٩ ومدتها عشر سنوات وبمقتضى هذه المعاهدة يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم وشريطاً ضيقاً من الارض يخترق اللد الى يافا بالاضافة الى الناصرة وغرب الجليل الذي يضم حصن مونتفرات وتبنين وما تبقى من المناطق الاسلامية حول صيدا .

واشترطت المعاهدة ان تبقى الاماكن الاسلامية في بيت المقدس التي تضم قبة الصخرة والمسجد الاقصى بايدي المسلمين وان يكون للمسلمين حق الاذان والعبادة والصلاة في هذه الاماكن والتردد اليها وان يتولاها قوّام من المسلمين . واشترطت المعاهدة ايضاً ان تكون سائر قرى القدس للمسلمين وان لا يكون للفرنج اي حكم فيها وان يقتصر حق اعادة بناء اسوار بيت المقدس على الامبراطور وحده .

وبهذه المعاهدة استطاع فردريك الثاني ان يحقق للصليبيين ، على ضعف امكاناته

العسكرية، ما عجزت عن تحقيقه جهود ريتشارد قلب الاسد بامكاناته الضخمة . وقد حقق هذه المكاسب للصليبيين دون ان يدخل في معركة واحدة او يخسر جندياً واحداً.

وفي ١٧ آذار من سنة ١٢٢٩ دخل فردريك الثاني بيت المقدس على رأس عساكره الالمان والايطاليين . وكان الامير شمس الدين قاضي نابلس قد قدم لاستقباله باسم السلطان الكامل وسلمه مفاتيح المدينة . وفي اليوم التالي توجه الى كنيسة القيامة فقرر تتويج نفسه بنفسه فتقدم نحو مذبح الجلجلة ووضع التاج الملكي على رأسه معلناً نفسه ملكاً على بيت المقدس وبعد انتهاء التتويج توجه نحو الاماكن الاسلامية المقدسة لزيارتها وكان الملك الكامل قد اصدر اوامره الى رجاله يطلب فيها منع المؤذن من الدعوة للصلاة ما دام الامبراطور موجوداً في بيت المقدس . فاحتج فردريك عند عدم سماعه صوت المؤذن وقال : يجب ان لا يغير المسلمون شيئاً من عاداتهم وتقاليدهم بسبب وجوده في المدينة المقدسة وقال : انني لم احضر الى بيت المقدس إلا لأسمع المؤذن ينادي للصلاة في جوف الليل . ويقول رنسيمان استيفن : « لما دخل فردريك ساحة الحرم الشريف شاهد رجلاً من رجال الدين المسيحي يقتفي اثره فبادر بنفسه الى طرده في خشونة وقوة واصدر الاوامر « ان كل قسيس مسيحي يجتاز عتبة الحرم الشريف بدون اذن من المسلمين كان جزاؤه الموت »(١) .

ويقول الدكتور سعيد عبد الفتاح على لسان فردريك « انما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه فلا يتعد احد منكم طوره »(٢) .

الفصل السابع عشر

مقدمات الحملة الصليبية السابعة

١ ــ الحملة الصليبية الفرنسية سنة ١٢٣٩ :

توفي السلطان الكامل في سنة ١٢٣٨ وانشق البيت الايوبي على نفسه وجاءت وفاته نذيراً بتفكك الدولة الايوبية وانقسامها على نفسها . وفي سنة ١٢٣٩ انتهى

---

١ ــ رنسيمان استيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٣٣٥

٢ ــ عاشور سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠١٥

اجل معاهدة صلح يافا التي ابرمت في سنة ١٢٢٩ وشعر قادة الصليبيين عندئذ ان المكاسب التي حصل عليها الامبراطور فردريك الثاني بموجب معاهدة صلح يافا تحتاج الى حماية ولم تكن لدى الصليبيين وسائل كافية للدفاع عن مدينة بيت المقدس . فأثارت المخاوف قلق البابوية على بيت المقدس فدعت لحرب صليبية جديدة وصادفت دعوة البابا استجابة من فرنسا اذ استجاب لها عدد من الفرسان الفرنسيين وقد توجه ثيبالد الرابع قائد الحملة الى عكا على رأس جيشه المؤلف من ١٥٠٠ فارس عدا المشاة .

ولما علم الناصر داود صاحب الاردن بوصول الجيش الفرنسي الى عكا توجه نحو بيت المقدس فاستولى عليها وطرد الفرنج منها . ولما بلغ الصليبيين نبأ استيلاء الناصر داود صاحب الاردن على بيت المقدس قرروا مغادرة عكا الى عسقلان عن طريق يافا وكان الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق قد استعان بالصليبيين ضد الصالح نجم الدين ايوب الذي أصبح سلطاناً على مصر بعد وفاة الكامل في سنة ١٢٣٨ وضد النـــاصر داود صاحب الاردن مقابل تعهده باعطاء بيت المقدس للصليبيين واعادة مملكة الصليبيين الى ما كانت عليه بما فيها الاردن ولكي يثبت وعـــده بادر بتسليم بيت المقدس وطبرية وعسقلان الى الصليبيين فضلاً عن قلعة الشقيف وقلعة صفد بعد ان انزل الهزيمة بجيش الملك النـــاصر داود صاحب الاردن الذي فرّ الى الكرك . وقد اثار تفريط الصالح اسماعيل ببيت المقدس وبقية الاماكن التي سلمها للصليبيين دون حرب الرأي العام الاسلامي مثلما اثاره ضد السلطان الكامل من قبل.

بعد هزيمة الملك الناصر داود توجه الصالح اسماعيل نحو غزة غير ان القوات الشامية إشمأزت من **تحالف** الصالح اسماعيل مع الصليبيين ضد اخوانهم المصريين فانشقوا عنه قرب غزة وانضموا الى القوات المصرية في مهاجمة الصليبيين والحاق الهزيمة بهم الامر الذي اضطرهم الى الانسحاب الى عسقلان وعقد الصلح مع الصالح نجم الدين ايوب في سنة ١٢٤٠ .

وقد حققت الحملة الفرنسية للصليبيين استعادة بيت المقدس وبيت لحم بالاضافة الى صفد والمجدل وعسقلان وبعض القلاع .

٢ ـ الحملة الانكليزية :

ما كاد ثيبالد الرابع قائد الحملة الفرنسية يغادر عكا عائداً الى بلاده مع بقية عساكره حتى وصل اليها ريتشارد كورنوول اخو هنري الثالث ملك انجلترا مع بعض

الجموع الصليبية وقد توجه الى عسقلان بعد وصوله الى عكا لتقوية تحصيناتها وقد تمكن ريتشارد بلباقته من الاتفاق مع الصالح نجم الدين ايوب على احترام الصلح المعقود مع ثيبالد قائد الحملة الفرنسية . وبموجب ذلك الصلح يعترف الصالح ايوب بحق الصليبيين في امتلاك بيت المقدس وبيت لحم والمجدل وعسقلان بالاضافة الى الجليل وحصن تبنين وهونين وطبرية والشقيف ارنون . وفي اوائل سنة ١٢٤١ غادر ريتشارد كورنوول عكا عائداً الى بلاده .

٣ ـ الخوارزمية يستردون بيت المقدس في سنة ١٢٤٤ :

استمر الخلاف بين الملك الصالح ايوب صاحب مصر وعمه الملك الصالح اسماعيل ملك دمشق وانضم الملك الناصر داود صاحب الاردن الى الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق وفي غمرة هذا الخلاف طلب كل من الخصمين مساعدة الفرنجة مقابل سيطرة الصليبيين على بيت المقدس سيطرة تامة اي بنزع سيطرة المسلمين على الحرم الشريف بما فيه المسجد الاقصى وقبة الصخرة المكرمة كما نص عليه صلح يافا مع فردريك الثاني في سنة ١٢٢٩ . ومن هذا يتضح ان ملوك الايوبيين الثلاثة قد وافقوا من حيث المبدأ على وقوع الاقصى المبارك وقبة الصخرة تحت سيطرة الصليبيين.

ولدرء الخطر الداهم على كل فريق ، استعان الملك الصالح اسماعيل بصاحب حمص واستعان الصالح ايوب بالخوارزمية حيث اندفع عشرة آلاف منهم نحو بلاد الشام فأغاروا على المدن والقلاع وتوجهوا نحو بيت المقدس في ١١ تموز فاقتحموها في سنة ١٢٤٤ واستولوا عليها واقتحموا كنيسة القيامة وغيرها من الاماكن الدينية المقدسة واتلفوا معظمها . وبذلك عادت مدينة بيت المقدس الى سيادة المسلمين .

الفصل الثامن عشر

الحمـــلة الصليبية السابعـــة

كان استرداد عماد الدين زنكي للرها في سنة ١١٤٤ واستخلاصها من ايدي الصليبيين قد اثار غضب العالم الاوربي الامر الذي ادى الى قيام الحملة الصليبية الثانية وكان استرداد المسلمين لبيت المقدس في سنة ١٢٤٤ للمرة الثانية بعد مائة سنة من وقوع الرها بايدي المسلمين قد اثار رد فعل عنيف في غرب اوربا الامر الذي

ترتب عليه قيام الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع . وكان البابا انوسنت الرابع اشد الداعين لهذه الحملة والمتحمسين لها والمحرضين عليها اذ جمع في سنة ١٢٤٥ مجلساً ضم عدداً كبيراً من رجال الدين في مدينة ليون بفرنسا وفي ذلك الاجتماع تقررت الحملة الصليبية السابعة على ان يتولى الملك لويس التاسع قيادتها . أما السبب المباشر الذي حمل لويس التاسع على الدعوة لهذه الحملة فهو اصابته في سنة ١٢٤٤ بحمى الملاريا واشرافه على الموت وكان قد نذر القيام بحملة صليبية في حالة شفائه .

بدأ هجوم الصليبيين على مصر في سنة ١٢٤٩ فاستولوا على دمياط ثم بدأ زحفهم الى القاهرة وعلى الرغم من شجاعة لويس التاسع وثباته الا ان موقف الصليبيين اخذ يزداد سوءاً بسبب قلة المؤن وانتشار الامراض في المعسكر الصليبي وكان المعظّم توران شاه الذي أصبح سلطاناً على مصر بعد وفاة أبيه الصالح ايوب في سنة ١٢٤٩ قد وصل الى المنصورة فيسنة ١٢٥٠ بعد اعلانه سلطاناً وهو في طريقه الى مصر وادى وصوله الى ارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين .

وعندما وصل الصليبيون الى منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة في طريقهم الى القاهرة خرّ لويس التاسع مريضاً ولم يستطع ان يحفظ توازنه على حصانه الا بكل صعوبة . وعندما تأكد المسلمون من سوء حالة الصليبيين دارت معركة ضارية بين الجانبين انتهت بالحاق هزيمة ساحقة بالصليبيين وسقوط جميع افراد الجيش الصليبي تقريباً بين قتيل واسير وكان الملك لويس التاسع من جملة الاسرى وقد سيق مكبلاً بالاغلال الى دار خاصة بالمنصورة غير أن توران شاه أكرم لويس التاسع في اسره وخصص له من يقوم على خدمته بطريقة لائقة ثم جرى التفاوض بين توران شاه ولويس التاسع وعقد الصلح بينهما على الشروط التالية :

١ — ان يدفع الصليبيون مبلغاً ضخماً من المال للمسلمين يقدر بنصف مليون ليرة تورانية اي ما يعادل مليون بيزنتة مقابل فداء الجيش الفرنسي وفكه من الاسر.

٢ — ان تسلم دمياط للمسلمين ثمناً لفداء الملك لويس التاسع .

٣ — ان يستمر الصلح لمدة عشر سنوات وان يقسم الطرفان على احترام الشروط .

فتوحات هولاكو بالعراق والشام وموقف الصليبيين منها :

تحرك الجيش المغولي الضخم من اواسط الصين في سنة ١٢٥٦ بقيادة هولاكو الى غرب آسيا لفتح ايران وبلاد الشام ومصر وبلاد الروم والارمن .

واستطاع هولاكو ان يقيم في بلاد فارس دولة قوية ثابتة الاركان . وكان اول هدف له الاستيلاء على مركز الباطنية الاسماعيليين (الحشيشية) في فارس بسبب اغتيالهم ثاني ابناء جنكيز خان . وكان هدفه الثاني القضاء على الخلافة العباسية في بغداد. وكان هدفه الثالث مهاجمة بلاد الشام .

وقد بدأ هولاكو هجومه على قلعة ألموت مركز الباطنية في فارس فاستولى عليها وعلى جميع قلاع الباطنية .

ولما فرغ هولاكو من القضاء على الحشيشية واستئصال شأفتهم تحرك بجيشه الضخم نحو بغداد للقضاء على الخلافة العباسية. وفي ٢٢ كانون الثاني من سنة ١٢٥٨ بدأ الهجوم على بغداد من جميع الجهات واقتحم الجيش المغولي المدينة وتوغل فيها واضطر الخليفة المستعصم بالله الى تسليم نفسه لهولاكو مع كبار قادة جيشه وكبار موظفي الدولة . وبعد القاء اسلحتهم تم القضاء عليهم .

وفي ١٨ كانون الثاني من سنة ١٢٦٠ توجه الجيش المغولي نحو حلب فأقتحمها واطبق عليها من جميع الجهات .

وفي اوائل شهر آذار من سنة ١٢٦٠ سار قائد المغول كتبوغا نائب هولاكو نحو دمشق وكان مسيحياً نسطورياً ومعه قوة لاحتلال قلعة دمشق وكان يصحبه هيثوم الاول ملك ارمينية الصغرى وبعض زعماء المسيحيين من الارمن وبوهيمند السادس امير انطاكية ذلك لان القلعة رفضت الاستسلام وبعد حصار عنيف دام اربعين يوماً ذاق فيه الطرفان مر العذاب اضطرت الحامية الى الاستسلام على ان يُعطى من فيها عهد بالامان على ارواحهم غير ان المغول نهبوا كل ما كان في القلعة .

وكان لسقوط المدن الاسلامية الكبرى بغداد وحلب ودمشق بيد المغول رنة حزن واسى عميقين في العالم الاسلامي .

مـــن هـم المماليك ؟

كان سلاطين الايوبيين يشترون صغار الرقيق الابيض من بلاد القفقاس وما وراء النهر ويربونهم ويستخدمونهم في الجيش لتثبيت حكمهم وصد هجمات اعدائهم

وكان هؤلاء الارقاء المماليك الاتراك مخلصين لسادتهم ومحتفظين بقوتهم وهيبتهم وكان لهم الفضل الاكبر في مساندة العادل وابنه الكامل ضد الصليبيين واحتفاظهما بتفوقهما الحربي . ونتيجة لانتصارات المسلمين على الصليبيين زمن السلاطين الايوبيين شعر هؤلاء المماليك باهميتهم فبدأ نفوذهم السياسي يقوى ويزداد وخاصة في عهد السلطان الصالح ايوب صاحب مصر الذي قرّبهم اليه واعتمد عليهم اعتماداً كلياً في حروبه الداخلية وفي التصدي للصليبيين .

وبعد النصر العظيم الذي احرزه المسلمون ضد الصليبيين بفضل المماليك البحرية وسقوط معظم الجيش الصليبي في الحملة الصليبية السابعة بين قتيل وأسير ووقوع الملك لويس التاسع اسيراً بيد المسلمين اصبح نفـــوذ المماليك يعظم ويشتد فشمخوا واستطالوا على السلطان توران شاه وهجموا عليه في اثناء حفلة الغداء التي اقامهـــا تكريماً لامرائه وقتلوه في سنة ١٢٥٠ .

المسلمون يهزمون المغول في موقعة عين جالوت في سنة ١٢٦٠ :

كان مقتل توران شاه إيذاناً بنهاية الدولة الايوبية وقيام دولة المماليك وقد اختيرت السلطانة شجرة الدر ارملة الصالح ايوب للحكم وكانت بحكم اصلها اقرب الى المماليك منها الى الايوبيين ولهذا اعتبرت اول سلاطين المماليك في مصر وبما ان المسلمين لم يألفوا ان تحكمهم امرأة فقد استقر الرأي على ان تتزوج شجرة الدر من الامير التركماني عز الدين ايبك الذي اعلن نفسه سلطاناً في سنة ١٢٥٠ وقبل ان تظل شجرة الدر مسؤولة عن اعماله .

وفي سنة ١٢٥٧ دبرت مؤامرة لقتل السلطان عز الدين ايبك وقتل زوجته شجرة الدر واعلن قطز سلطاناً في سنة ١٢٥٩ وهو ابن أخت خوارزم شاه واسمه سيف الدين قطز .

وفي اوائل سنة ١٢٦٠ ارسل هولاكو سفارة الى مصر تطلب من سلطانها قطز الخضوع لسلطان المغول والاذعان لهم غير ان المماليك قتلوا رسول هولاكو في الوقت الذي كانت غارات المغول قد بلغت غزة والخليل . فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان .

وكان السلطان قطز صاحب مصر يستعد للقضاء على المغول في بلاد الشام

مستغلاً فرصة نشوب الحرب الاهلية في منغوليا بعد وفاة خاقان المغول العظيم منكو وقد اظهر السلطان قطز حنكة سياسية وبعد نظر في اتجاهه لمسالمة الصليبيين خشية ان يحارب خصمين في آن واحد . وفي شهر آب من سنة ١٢٦٠ قاد السلطان قطز جيشه على الطريق الساحلي ومرّ بسلام في ممتلكات الصليبيين بالقرب من عكا التي خرج اهلها وهم يحملون الهدايا له وسار جيش قطز بالقرب من عكا متجهاً شرقاً عبر الجليل الى الاردن عن طريق الناصرة . وقد لجأ الى حيلة حربية ناجحة فاخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة وبين الاحراش المحيطة بعين جالوت بين بيسان ونابلس .

وابتدأ القتال بعد وصول كتبغا الذي حمل حملة عنيفة على جيش المماليك حتى خيل لقطز ان جيشه كاد يهزم فرمى خوذته عن رأسه واخذ يصيح بأعلى صوته (واإسلاماه) ثم اندفع كالليث نحو العدو وقاتل بشجاعة نادرة في اثناء تقهقره المرسوم الى التلال مع قائد جيشه بيبرس . وكان كتبغا يطارد جيش المماليك ضانا ان الهزيمة ستحل به ولم يدر بخلده انها خدعة حربية وان الجيش المغولي اصبح مطوقاً بقوات المماليك الرئيسية التي اطبقت عليه من جميع الجهات . وما كادت تمضي بضع ساعات حتى هزم المغول هزيمة شنعاء .

كان لانتصار المماليك على المغول في معركة عين جالوت نتائج خطيرة على سير الاحداث التاريخية اذ انقذ الاسلام من اخطر تهديد تعرض له . ولو انتصر المغول في تلك المعركة لما بقي للمسلمين دولة كبيرة في شمال افريقيا ولدمروا الحضارة المصرية ولفعلوا بأهلها مثل ما فعلوا بأهل بغداد وحلب ودمشق من التقتيل والتعذيب والنهب والسلب . وانتصار المماليك في عين جالوت لم ينقذ مصر وحدها من بربرية المغول ووحشيتهم وانما انقذ بلاد الشام ايضاً .

لقد اصبح السلطان قطز بعد النصر المبين الذي احرزه ضد المغول في معركة عين جالوت السيد المطاع في بلاد الشام كلها من الفرات الى حدود مصر وكان له الفضل في تخليص بلاد الشام من بربرية المغول .

مقتل قطز واعلان بيبرس سلطاناً على مصر :

في ٢٣ تشرين الاول من سنة ١٢٦٠ خرج قطز لصيد الارانب بصحبة بعض امرائه وكان بيبرس قائد جيشه من بينهم . وبعد ابتعادهم عن المعسكر تقدم احد

الرجال نحو السلطان متظاهراً بطلب شيء منه وفي اللحظة التي كان يمسك فيها يد السلطان ضربه بيبرس بسيفه من الخلف ثم هجم عليه المماليك الذين صحبوه في رحلة الصيد ورموه عن فرسه وقتلوه بالنشاب واعلن بيبرس البندقداري سلطاناً على مصر باسم السلطان الظاهر بيبرس .

الفصل التاسع عشر

الحملة الصليبية الثامنة

سقوط انطاكية بيد المسلمين :

في شهر ايار من سنة ١٢٦٨ توجه بيبرس بجيشه نحو انطاكية وحاصر المدينة وتمكن من احداث ثغرة في اسوارها بحيث استطاع المسلمون التدفق منها الى داخل المدينة وجرت فيها مذبحة مروعة بعد سقوطها بأيدي المماليك اذ امر السلطان باغلاق جميع ابواب المدينة حتى لا يهرب احد منها وقتل جميع الذين عثر المماليك عليهم في الشوارع والطرقات ، ولم ينج حتى الذين لجأوا الى بيوتهم من القتل او الاسر او بيعهم عبيداً وجواري .

هزائم الصليبيين :

لقد دامت امارة انطاكية مائة واحدى وسبعين سنة ويعتبر سقوطها بيد المماليك كارثة خطيرة بالنسبة للصليبيين اذ انتهى امرهم في شمال سورية وامر المسيحيين السريان والارمن لمساندتهم الصليبيين ضد المسلمين .

ضعف مركز الصليبيين كثيراً في بلاد الشام بعد سقوط انطاكية بيد المسلمين وبعد الهزائم المتلاحقة التي حلت بهم وكان من نتيجة ذلك تتويج ملك قبرص هيو الثالث ملكاً على بيت المقدس وبذلك تم توحيد مملكتي الصليبيين في الشرق الادنى تحت تاج واحد ولم يكن امام هيو الثالث لمواجهة قوات المسلمين وتدعيم مركزه في بلاد الشام سوى الاعتماد على حملة صليبية جديدة . ولكن هيو الثالث سرعان ما اصيب بخيبة امل ذلك لان الحملة الصليبية الثامنة التي خرجت من فرنسا بقيادة الملك لويس التاسع قد اتجهت نحو تونس في سنة ١٢٧٠ ولم تتجه نحو بلاد الشام وكان الملك

الظاهر بيبرس يتتبع اخبار تلك الحملة بعد ان اعد العدة الكاملة لتقوية تحصينات الثغور والشواطىء . ولما بلغه نبأ وفاة لويس التاسع في تونس وفشل حملته عاد بيبرس الى بلاد الشام في سنة ١٢٧١ وهاجم امارة طرابلس واستولى على بعض حصون الاسبتالية .

كان الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) اول من تصدى للمغول واوقف زحفهم كما تصدى للصليبيين وحطّم معاقلهم وكانت انتصاراته شبيهة بانتصارات صلاح الدين فقد استطاع ان يكتسح يافا وقيسارية في الجنوب وان يحتل حصن الاكراد وصافيتا وحصوناً اخرى في امارة طرابلس وان يقتحم انطاكية ويستولي عليها.

وقد خلفه في الحكم ابنه بركة الذي كان ضعيفاً فاعلن اخوه قلاوون قائد القوات سلطاناً . وفي سنة ١٢٨٥ وقع حصن المرقب وامارة طرابلس بيد المسلمين وجرت في طرابلس مذبحة مروعة اذ أخذ المماليك يقتلون جميع الرجال الذين كانوا يصادفونهم في طريقهم ويسبون النساء والاطفال وينهبون البيوت والكنائس وكل ما كانوا يعثرون عليه من تحف ونفائس ويدمرون القلاع والحصون .

سقوط عكا في سنة ١٢٩١ :

توفي السلطان قلاوون ابن السلطان الظاهر بيبرس في سنة ١٢٩٠ وخلفه السلطان اشرف ابن السلطان قلاوون الذي كان من اقدر السلاطين واعظمهم شأناً .

وقد قرر الاشرف تنفيذ خطة ابيه في تقويض دعائم مملكة بيت المقدس ودك معاقل الصليبيين ومحو وجودهم في ديار الشام فاتم استعداداته وتحرك بجيشه من القاهرة في شهر آذار من سنة ١٢٩١ متوجهاً نحو دمشق وفي ٥ نيسان وصل الى خارج اسوار عكا بجيشه المؤلف من ستين الفاً . وبدأ بمهاجمة المدينة واخذت منجنيقاته تقذف الحجارة الضخمة في اتجاه اسوار المدينة وابراجها وبعد شهر من الحصار استطاع المهندسون المسلمون احداث ثقوب وثغرات في بعض الابراج فأشعلوا النار في بعضها واخذت كتائب السلطان تقتحم شوارع المدينة كما اخذ القتال العنيف يدور في الشوارع واخذ الهلع يدب في نفوس السكان الذين بادروا الى الهرب اما الرجال والنساء والاطفال الذين لم يستطيعوا الهرب فقد لقي معظمهم حتفهم وبيع الباقون ارقاء .

وهكذا سقطت عكا بيد الاشرف في ١٨ أيار من سنة ١٢٩١ وشرع بتدميرها لكي لا تصبح في المستقبل رأس حربة يستعملها الصليبيون في الاعتداء على سورية

وأمر باستباحة المدينة واشعال الحرائق بها وتدمير حصونها واستحكاماتها وهدم دور الطوائف العسكرية التابعة للاسبتالية والداوية والتيتون ونزع التحف والزخارف التي كانت تزين مدخل كنيسة القديس اندراوس لاستعمالها في تزيين المسجد الذي بناه السلطان أشرف في القاهرة تكريماً لانتصاره .

لم يحرك وقوع عكا التي كانت اهم معقل صليبي بيد المسلمين في سنة ١٢٩١ الدول المسيحية الغربية للقيام بأي جهد ملحوظ لانتزاعها من ايدي المسلمين ولاستعادة النفوذ الصليبي في بلاد الشام . ويعتبر وقوع عكا بيد المسلمين خاتمة الحروب الصليبية التي امتدت زهاء قرنين من الزمان .

الفصل العشرون

فشل الحروب الصليبية

المعروف ان الحروب الصليبية بدأت بهجوم الدول الاوروبية الغربية على مسلمي الشرق ابان القرون الوسطى لتخليص الاراضي المقدسة من ايدي المسلمين بموجات متلاحقة كانت تتلاطم بين مد وجزر على شواطىء سورية وفلسطين ومصر وشمال افريقية مدة لا تقل عن مائتي سنة وقد انتهت ليس باحتلال مسيحيي الغرب للشرق الاسلامي وانما باحتلال مسلمي الشرق للغرب المسيحي. فعندما القى البابا اربان الثاني خطابه الحماسي في مؤتمر كليرمنت في سنة ١٠٩٥ الذي دعا فيه الناس الى الحملة الصليبية كان السلاجقة الاتراك يهددون البسفور . ولما انتهت الحروب الصليبية كان الاتراك قد وصلوا الى ابواب فينا . ويعتبر المؤرخون الحملات الصليبية من حيث النتيجة انها حملات فاشلة فشلاً ذريعاً . فالحملة الصليبية الأولى التي حققت نجاحاً كبيراً انتهت بتأسيس امارة الرها وانطاكية وكونتية طرابلس ومملكة بيت المقدس لم تكن الا نتيجة حماسة الشعوب المسيحية في غرب اوربا بين فرنسية وجرمانية وايطالية من اجل انتزاع بيت المقدس وتخليص قبر المسيح من ايدي المسلمين والاستيلاء على الاراضي المقدسة في سورية وحماية الحجاج المسيحيين من اعتداءات السلاجقة الاتراك

وقد رأى فيها آخرون انها امتداد لنزاع طويل بين الشرق والغرب منذ بسط الفينيقيون والآراميون سلطانهم في الشرق والغرب من ضفاف السند حتى سواحل المحيط الاطلسي الى ان قامت حروب طاحنة بين الفرس واليونان انتهت بأنتصار الاسكندر المكدوني الكبير فتفاعلت الحضارتان الفارسية والهلينية وكونتا نواة الحضارة الانسانية التي كان العرب حماتها وناقليها الى العالم بعد تهذيبها واضافة الشيء الكثير اليها عندما خرجوا من صحرائهم وهم يحملون مشعل النور والعلم والحضارة لينقلوا الى شعوب اوربا والعالم اجمع خلاصة حضارات العام القديم مطبوعة بالطابع العربي الاسلامي مع ما ابتكره علماء العرب واطباؤهم وفلكيوهم وفلاسفتهم من ابتكارات قيمة جديدة كانت سبباً في ظهور النهضة الاوربية .

اما فقدان عكا في سنة ١٢٩١ الذي كان اهم معقل صليبي في بلاد الشام وسقوطه بيد المماليك فلم يحرك الدول المسيحية الغربية للقيام بأي جهد ملحوظ لانتزاعها من ايدي المسلمين واستعادة النفوذ الصليبي في بلاد الشام ، ذلك لان فرنسا المصدر الرئيسي للمد الصليبي كانت مشغولة في حرب طويلة مع بريطانيا وفي نزاع مرير مع البابوية . ولهذا لم يكن بوسعها توجيه جهودها نحو الشرق كما فعلت في الحملات الصليبية السابقة . ويلقي المؤرخون اللوم على البابوات بسبب مساهمتهم في فشل الحروب الصليبية لانهم وضعوا مصالحهم الشخصية فوق مصالح المسيحية بوجه عام وخاصة عندما اخذ البابوات يقاتلون اسرة هوهنشتاوفن في جنوب ايطاليا وشمالها .

لقد استفادت البابوية من الحروب الصليبية في اوج انتصاراتها فأكسبتها سلطة ونفوذاً عظيمين عندما كان التبشير بها على انها حركة مسيحية دولية وما احرزته من انتصارات باهرة في مستهلها قد ساعد على مد سلطان البابوية على ارجاء كثيرة من البلدان الاوربية فضلاً عن مد سلطانها على البطريركيات القديمة في انطاكية وبيت المقدس والقسطنطينية حتى اصبح البابا في العصور الوسطى يعتبر نفسه الرئيس الاعلى لجميع العالم المسيحي وكان المسيحيون قاطبة يعترفون بسيادته الروحية . ولما ابتدأت الحروب الصليبية كانت بغداد والقاهرة والقسطنطينية المراكز الرئيسية للحضارة

الشرقية وكانت القسطنطينية اهم مركز للعالم المسيحي المتمدن ولما انتهت الحروب الصليبية انتقلت تلك الحضارة الى مراكز جديـــدة في ايطاليا ذلك لان الايطاليـــين الذين لم تنقطع علاقتهم ببلاد اليونان مدة طويلة قد فاقوا غيرهم في تقدير قيمة ما كانوا قد استولوا عليه عندما غزا البنادقة القسطنطينية في سنة ١٢٠٤ . وعنـــدما سقطت القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ بيـــد السلطان محمد الفاتح تفرق العلماء وهربوا الى اوربا فكانوا سبباً في ظهور النهضة الاوربية التي ابتدأت بالنهضة الايطالية .

ويرى بعض المؤرخين ان التنافس الشديد بين الجمهوريات الايطالية كان سبباً قوياً في اضعاف الروح الصليبية . اذ بسبب اطماع جمهورية البندقية وجهت الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية وبعض الممتلكات البيزنطية بدلاً من توجيهها الى فلسطين وبلاد الشام لمحاربة المسلمين في تلك الديار . وكان الخلاف قوياً بينهم وبين الجنويين والبيزيين حتى انهم كانوا يعقدون معاهدات تحالف مع بعض ملوك المسلمين وامرائهم ضد بعض الجمهوريات الايطالية الاخرى فالمعاهدة التي عقدها الجنويون وملوك صقلية مع المسلمين والمعاهدة التي عقدها البندقيون مع الملك الكامل في الوقت الذي كانت الاستعدادات تجري للقيام بالحملة الصليبية الخامسة لاكبر دليل على ضعف الروح الصليبية لدى الجمهوريات الايطالية وخروجها عن الاتجاه العام الذي سارت عليه الحملات الصليبية السابقة .

وكان النزاع الشديد بين طائفتي الاسبتالية والداوية والتنافس بينهما ومحاولة كل طائفة الحط من كرامة الطائفة الاخرى والاقلال من عطائها الحربي للحركة الصليبية من الاسباب القوية التي اضعفت الروح الصليبية . وكان تدخل البابوات في شؤون الاباطرة والملوك الداخلية والسياسية في غرب اوربا من الاسباب التي زادت في شدة النزاع بين السلطتين الدينية والزمنية الى الحد الذي حمل ملك انجلترا ادوارد الاول وملك فرنسا فيليب الرابع على رفض اوامر البابا وتهديداته وكان البابا قد اعترض على فرض الضرائب على رجال الدين . واستطاع فيليب الرابع اخيراً القضاء على طائفة الداوية الدينية العسكرية ومصادرة املاكها بالرغم من اعتراض البابا على ذلك.

وكان لسلسلة الهزائم التي مني بها الصليبيون على يد ابطال المسلمين وقادتهم العظام امثال عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي والعادل وتوران شاه وقطز والظاهر بيبرس وقلاوون والاشرف اثر كبير في اضعاف الروح

المعنوية لدى الصليبيين وتخاذلهم عن مواصلة الحمـــلات الصليبية بنفس الحماسة والزخم والاندفاع الذي اتسمت به الحملة الصليبية الاولى .

وكان النفوذ الذي تمتع به البابوات في اواخر القرن الحادي عشر واوائل القرن الثاني عشر اقوى بكثير من النفوذ الذي كان للبابوات في القرن الثالث عشر . فسلطان البابوات في اواخر القرن الحادي عشر هو الذي حمل كبار الامراء ورجال الاقطاع والفرسان وسائر طبقات الشعب من فلاحين وتجار وعمال ومجرمين ولصوص وقطاع طرق وسواهم الى امتشاق السيف وركوب الاخطار والانضواء تحت لواء الصليب وكان البابا قد وجه الحملة الصليبية الاولى على انها حركة مسيحية دولية تخضع لسلطانه وما احرزته تلك الحملة من نجاح قد اسهم في ازدياد سلطة البابا ونفوذه حتى ان الصليبيين جميعاً اعترفوا بسيادته عليهم واعتبروا فتوحاتهم فتوحاً له .

والخلاصة ان الحماسة الدينية التي كانت سائدة في القرن الثالث عشر لم تكن بمستوى الحماسة الدينية التي كانت سائدة في اواخر القرن الحادي عشر . وقد عجز الملوك والبابوات في القرن الثالث عشر عن تحقيق اي من الاهداف التي ناضل الملوك والبابوات من اجلهـــا في اواخر القرن الحادي عشر . ففي الوقت الذي كان ادوارد ملك انجلترا يسعى لتأسيس مملكة متحدة في بريطانيا العظمى وتسعى اسرة هابسبرج لتثبيت نفسها في النمسا وتسعى اسرة فيليب ليبيل وورثته الشرعيين لتثبيت دعائم الملكية في فرنسا على اسس صلبة كان التفكير في شن حرب صليبية من الامور الثانوية ولم يلق من الاهتمام والحماسة قدر ما كان ابان شن الحملة الصليبية الاولى والحملات التي تلتها .

وكان النزاع الكبير بين الصليبيين والامبراطور البيزنطي من العوامل القوية التي اضعفت الروح الصليبية . وقد اعتبر الصليبيون الامبراطور البيزنطي هو وقومه خارجين عن ارادة الله لعدم اعترافهم برسالتهم التي كانت رسالة إلهية في نظرهم واعتبروا البيزنطيين ملحدين وغير مؤمنين بالله .

اما الصليبيون فكانوا في نظر البيزنطيين مجرمين وقطاع طرق ومتوحشين لانهم غزوا مدينة القسطنطينية الجميلة في سنة ١٢٠٤ ونهبوا معالمها الحضارية وقتلوا الرجال والنساء والاطفال ودمروا كل ما وقع في ايديهم مما لم يستطيعوا حمله وكان سقوطها

بيد الصليبيين في سنة ١٢٠٤ يمثل كارثة فادحة للمدنية الغربية ذلك لان القسطنطينية كانت بمثابة المركز الحقيقي للعالم الغربي المتمدن .

كان الايمان هو الحافز القوي الذي دفع الجيوش الصليبية لغزو الشرق الاسلامي ولم يدركوا اسباب فشلهم لأنهم كانوا يحاربون من اجل الرسالة الالهية وبما ان ايمانهم مستقيم – كما كانوا يعتقدون – انتصروا ولما انحرفوا عن الرسالة خذلوا . وكانوا يتوقعون مواجهة الشدائد في حروبهم وظهور المعجزات ايضاً التي تقودهم الى النصر لأنهم اعتبروا النصر الذي احرزوه في الحملة الصليبية الاولى من المعجزات وان المعجزات سوف تستمر لانقاذهم كلما وقعوا في الشدائد .

وكان افتقار الحروب الصليبية الى قيادة قوية صالحة من اسباب فشلها ذلك لأنها كانت من صنع البابوات وقد ظهرت بعد تبشيرهم بها ولم يظهر بين مندوبي البابا قادة صالحون اقوياء الا عدد قليل . اما ملوك بيت المقدس فلم يكن لهم سلطان كاف على رعاياهم بالرغم من ظهور بعض الملوك الاقوياء بينهم . وقد عاد معظم الملوك الذين قادوا الحملات الصليبية الى بلدانهم بعد هزيمتهم واصابتهم بالفشل الذريع وعدم قدرتهم على احتمال المكوث طويلاً في بلاد الشرق بعيدين عن اسرهم باستثناء ريتشارد الاول ملك انجلترا الملقب بريكاردوس قلب الاسد الذي يعد من أقدر ملوك اوربا واكثرهم شجاعة وحنكة سياسية من بين الذين قادوا الحملات الصليبية . ولم تكن في بلاد الشام قوات صليبية مقيمة ذات قدرات عسكرية ضاربة سوى قوات طوائف الاسبتالية والداوية والتيتون التي بنت الحصون والقلاع وحمت المواقع الصليبية ودافعت عنها مدة قرنين من الزمان .

والخلاصة ان الحروب الصليبية تكوّن فصلاً مخزياً في تاريخ البشرية لأنها لم تكن سوى سلسلة من الحماقات والتعصب الذميم . وبالرغم من الشجاعة الفردية التي اظهرها بعض القادة والامراء والفرسان الصليبيين فقد لطخت الاعمال البربرية المتوحشة المتمثلة في التقتيل والتعذيب والنهب والسلب واشعال الحرائق وتدمير المعالم الحضارية تلك الشجاعة . فالغرب في عصر الحروب الصليبية كان غارقاً في بحر من الهمجية . وقد ظهر من البيان الوجيز عن احداث الحروب الصليبية ان الصليبيين في غالبيتهم

لم يكونوا الا وحوشاً ضارية ولم يفرقوا في اغلب المواقف بين الاصدقاء والاعداء بل كانوا يقتلون كل من وقع بأيديهم وقد دمروا في مدينة القسطنطينية من الكنوز والمعالم الحضارية الموروثة عن اليونان والرومان ما لا يقدر بثمن .

ولم يستفد الشرق منهم شيئاً ، لانه لم يكن عندهم ما يفيدون غيرهم به ولم يخلفوا وراءهم سوى التعصب الذميم وبذر الاحقاد في نفوس الملايين من بني البشر ، الامر الذي غرس في صدور الشرقيين مرارة وحقداً على الغربيين وازدراء بهم فحملوا عن الصليبيين ونصارى الغرب اسوأ الافكار اذ ساد عدم التسامح في العالم عدة قرون ولا يزال العالم يقاسي من آثاره وقد بلغ عدم التسامح حداً كبيراً يخالف ما امرت به الكتب السماوية من محبة وسلام بين شعوب العالم .

وبالرغم من ان الحروب الصليبية قد ظهرت للعيان بدافع الايمان فقد كان ذلك الايمان مغلفاً بالحماقة وضعف الادراك وعدم التبصر بالعواقب وديست المثل العليا والقيم الاخلاقية بالاعمال البربرية المتوحشة .

وتعد الحروب الصليبية في جملتها جريمة ازلية في اعناق مسببيها والمروجين لها والمحرضين عليها والداعين لاثارتها والعاملين على اشعال نارها . ويقدر عدد المسيحيين الذين فقدوا ارواحهم في عصر الحروب الصليبية بميلون ونصف نسمة قتلوا في اثناء المعارك او ماتوا بسبب الجوع والبرد والعطش والتعب ومشاق السفر والاوبئةالفتاكة وما شابه ذلك وقد ارتوت ارض فلسطين وبلاد الشام وبلدان الشرق الادنى بدماء القتلى من مسلمين ومسيحيين كما ارتوت ارض اوربا بدماء القتلى من المشتركين في الحملات الصليبية في اثناء مرورهم ببلاد الشام .

الفصل الحادي والعشرون

موازنة بين أوضاع العالم العربي زمن الحروب الصليبية وأوضاعهم في الوقت الحاضر

قبل ان نأتي على ختام الجزء الأول من هذا المؤلف لابد من وقفة فاحصة لنتبين الشبه الكبير بين الاوضاع التي عاشها العالم العربي زمن الحروب الصليبية والاوضاع التي يعيشها اليوم من حيث ان التاريخ يعيد نفسه فالعالم العربي الذي واجه

غزواً غربياً استيطانياً مسلحاً على مسلمي الشرق زمن الحروب الصليبية بحجة تخليص الارض المقدسة وقبر المسيح من ايدي المسلمين يقف اليوم وجهاً لوجه امام غزو صهيوني استيطاني مسلح للاستيلاء على المزيد من الارض العربية بعد ان مكّنه الاستعمار الغربي من الاستيلاء على كامل الارض العربية في فلسطين ومرتفعات الجولان . والنجاح الذي حققته الحملة الصليبية الاولى في تحقيق هدفها بأحتلال الساحل السوري وجميع فلسطين وانشاء امارة انطاكية وكونتية طرابلس وامارة الرها (اودسا) ومملكة بيت المقدس لا يرجع الى تفوق الصليبيين على المسلمين في كثرة اعدادهم ولا الى انواع الاسلحة التي كانوا يستخدمونها في القتال فحسب بل ايضاً الى المساعدات الكبيرة للتي كانت تزودهم بها القسطنطينية والامدادات الضخمة من الجنود والمحاربين والاسلحة والذخائر والمؤن التي كانت تصل اليهم تباعاً في السفن الايطاليـــة ، والى اضطراب الامن الداخلي وبلوغ العرب منتهى حالات الضعف والانهيار المعنوي بسبب الحروب الداخلية التي كانت مشتعلة بين الامارات العربية المستقلة وبسبب الانقسامات الداخلية التي عملت على تمزيق كيان الامبراطورية العربية وتجزئتها الى اقطاعات وامارات ودويلات كانت دوماً يحارب بعضها بعضاً ، وهذه الحروب والانقسامات حالت دون توحيد صفوف العرب ليقفوا جبهة واحدة قوية صامدة في وجه الاعداء قادرة على صد الجيوش الزاحفة التي اجتاحت بلادهم فأسست فيها امارات فرنجية مستقلة يحكمها امراء من الغرب ، بالاضافة الى ما اتبعه الغزاة من غدر وخيانة ونكث للعهود واقدامهم على ارهاب السكان بأقصى انواع الغلظة والفظاعة وممارسة اعمال التقتيل وسفك الدماء واجراء المذابح في المدن والقرى التي اقتحموها متناسين عهود الامان التي اعطوها للسكان الآمنين في بيوتهم قبل استسلامهم . وقد لعبت ايضاً بعض العناصر الطفيلية الطارئة من سلاجقة ومماليك وفرس وارمن وغيرهم دوراً كبيراً في انهاك جسم الامة العربية وفي اضعاف جذوة حماستها واندفاعها .

والنجاح الذي حققته الصهيونية العالمية بحصولها على وعد بلفور وعلى قرار من الجمعية العمومية للامم المتحدة بتقسيم فلسطين واقامة دولة اسرائيل في الساحل الفلسطيني وبالتالي قيام هذه الدولة بأجراء المذابح بين الاطفال والنساء في دير ياسين وقبية وفي بعض القرى والمدن العربية الاخرى وقيامها بأعمال الغدر والخيانة والارهاب وطرد السكان الآمنين من بيوتهم وتشريد نحو مليون عربي في وضح النهار من منازلهم وبالتالي شنّ

اربع حروب على الدول العربية المجاورة والاستيلاء على كامل الارض الفلسطينية وصحراء سيناء ومرتفعات الجولان والقيام بغرس المستوطنات في الضفة الغربية ومرتفعات الجولان وصحراء سيناء واقامة الحصون والقلاع في المدن والقرى العربية واعلان القدس العربية عاصمة ابدية لاسرائيل متحدية بذلك قرارات الجمعية العمومية للامم المتحدة ومجلس الامن والارادة الدولية بصلف وغطرسة لا مثيل لهما في التاريخ، بالاضافة للاعتداءات المتكررة على جنـــوب لبنان بالطائرات والدبابات ومختلف الاسلحة العسكرية المتطورة وقصف مدنه وقراه بالمدفعية الثقيلة وقنابل النابالم وتدميرها وقتل عشرات الالوف من سكانها وتشريد نحو نصف مليون من سكان لبنان وتدمير منشآته الاقتصادية والحضارية واشعال نار الحرب الاهلية فيه وتمزيق وحدته الوطنية وهدم كيانه السياسي واثارة النعرات الطائفية فيه وتحويل ترابه الى ميدان قتال تتصارع فيه الفئات المتحاربة وتغرس الصهيونية سموم الغدر والخيانة في صفوف بعض هذه الفئات لتجد لها مدخلاً تدق فيه اسفين وجودها ولتجد منه منفداً للاجهاز على اجزاء من الوطن العربي ما كان له ان يتحقق لولا غدر بريطانيا حليفة العرب في الحرب العالمية الاولى وحنثها بوعودها للملك حسين بن علي – طيب الله ثراه – واعطاء وعد بلفـــور في سنة ١٩١٧ الذي تضمن انشاء وطن قومي لليهود في فلســـطين شريطة ان لا يؤثر انشاء ذلك الوطن على الحقوق السياسية والاقتصادية للسكان العرب الاصليين وليس جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود كما ارادته الصهيونية العالمية، اذ في الوقت الذي تعهدت فيه بريطانيا للملك حسين بتوحيد العرب في دولة عربية واحدة تضم شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب بما في ذلك فلسطين مقابل قيام العرب بثورة عارمة ضد تركيا وطردها من الديار العربية ومؤازرة الحلفاء في حربهم ضدها وضد المانيا كانت بريطانيا وفرنسا قد عقدتا معـــاهدة سيكس بيكو السرية بينهمـــا تضمنت الاتفاق على تقسيم اجزاء من الوطن العربي بينهما بحيث جعلت العراق وفلسطين والاردن تحت الانتداب البريطاني وجعلت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي . ولم تكتف بريطانيا بهذا القدر من الغدر والخيانة والحنث بالوعود والعهود التي اعطتها للقادة العرب بل القت بكل ثقلها امام طموحات الملك عبدالله بن الحسين ومساعيه الهادفة الى طرد فرنسا من سورية ولبنان واعلان دولة سورية الكبرى . يضاف الى ذلك ان بريطانيا في اثناء انتدابها على فلسطين ولغاية ١٥ أيار من عام ١٩٤٨ مارست في فلسطين جميع الاساليب التعسفية واللاانسانية التي كان من شأنها تسهيل الهجرة

اليهودية الواسعة الى فلسطين من مختلف ارجاء العـالم وبأعداد ضخمة وتسليحها العصابات اليهودية وتدريبها لها وتجريد السكان العرب من السلاح ومقاومة كل الحركات الوطنية بالنفي والابعاد والسجن والتعذيب .

وهذا النجاح الذي حققته الصهيونية العالمية في فلسطين واجزاء اخرى من الوطن العربي ما كان له ان يتحقق لولا بلايين الدولارات التي انهالت على اسرائيل من امريكا ، ولولا الدعم السياسي والعسكري والاقتصـادي الذي قدمتـه امريكا لاسرائيل ولا تزال تقـدمه حتى اصبحت اسرائيل ترسانة حرب ، ولولا وقوف امريكا في وجه دول العالم لدعم اسرائيل وتصديها لقرارات الادانة واية قرارات اخرى من شأنها توقيع عقوبات اقتصادية على اسرائيل او طردها من الجمعية العمومية وذلك بأستعمال امريكا حق النقض (الفيتو) ، ولولا الاسلحة المتطورة التي قدمتها امريكا لاسرائيل لاستعمالها في حربها مع الدول العربية في سنوات ١٩٤٨ ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ واخلالها بميزان القوى وجعلها تقف بصلف وعناد ضد قرارات الجمعية العمومية ومجلس الامن القاضية بأنسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية المحتلة وفي مقدمتها مدينة القدس العربية وفك المستوطنات ومنح الشعب الفلسطيني حقه في اقامة دولته المستقلة على ارضه وتقرير مصيره في اطار تسوية عادلة وحل دائم ومشرف .

وهذا النجاح الذي حققته الصهيونية العالمية في فلسطين واجزاء اخرى من الوطن العربي ما كان له ليتحقق لولا انقسام كلمة العرب وعدم وقوفهم صفاً واحداً في جبهة قوية متراصة تحت قيادة عربية واحدة مجندة كل طاقاتهم المادية والعسكرية وقدراتهم الذاتية بروح ايجابية مخلصة وباندفاع حقيقي لتحرير الارض وطرد الغزاة ، بل كان انقسام العرب يساعد العدو في كل حرب من الحروب الخمس التي شهدتها المنطقة وخروج بعضهم عن الصف العربي الواحد من هنا وهناك والتردد في تقديم الدعم الحقيقي الفعال باستعمال الموارد المادية والعسكرية الهائلة المتواجدة لدى الدول العربية لسبب او لآخر .

ان غياب التضامن العربي وانقسام كلمة العرب بالاضافة الى قيام امريكا بدعم اسرائيل عسكرياً ومادياً وسياسياً دعماً لا حدود له وتزويدها بمئات الطائرات المتطورة وبأحدث انواع التكنولوجيا والاسلحة من دبابات وصواريخ ومدافع وقذائف وقنابل عنقودية وانشطارية وقنابل فراغ المحرم استعمالها دولياً وغيرها من اسلحة

الدمار هي التي شجعت الوحش الاسرائيلي على غزو لبنان بتاريخ ١٩٨٢/٦/٤ وقيامها بحرب ابادة ضد الشعبين الفلسطيني واللبناني في صور وصيداً والدامور والمخيمات الفلسطينية وبيروت وغيرها من المدن اللبنانية وقتل وجرح مالا يقل عن مائة الف من السكان المدنيين بالاضافة الى تشريد مئات الالوف وارغامهم على هجر منازلهم .

ان المقاومة الباسلة والصمود الذي ابداه المناضلون الفلسطينيون واللبنانيون في بيروت ضد اعنف الغارات والقذائف الجوية والبحرية والبرية التي استمر تساقطها على بيروت الغربية زهاء سبعين يوماً وتكبيدها العدو الاسرائيلي خسائر فادحة في الارواح والمعدات قد انتزعت اعجاب العالم بمنظمة التحرير الفلسطينية وبالمناضلين الفلسطينيين واللبنانيين الاشاوس فتوّجت هاماتهم بآكاليل النصر والفخار .

غير ان التعهدات الخطية التي اعطاها فيليب حبيب ممثل امريكا لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات بالمحافظة على ارواح المدنيين العزل من السلاح في بيروت الغربية هي التي دفعت المقاومة على مغادرة بيروت والاراضي اللبنانية حرصاً منها على تجنيب بيروت الغربية المزيد من الدمار وقتل الابرياء من سكانها وابادتهم .

لقد كانت مغادرة القوات الدولية الامريكية والايطالية والفرنسية لبيروت الغربية فوراً بعد مغادرة المقاومة الفلسطينية لها وقبل اتاحة الفرصة للجيش اللبناني للانتشار في بيروت الغربية للمحافظة على الامن فيها مؤامرة امريكية اسرائيلية متفق عليها بينهما الامر الذي شجع القوات الاسرائيلية على اجتياح بيروت الغربية وتجميع الاطفال والنساء والشيوخ في مخيمي صبرا وشاتيلا في مكان واحد وقيام الارهابيين بيغن وشارون باعطاء الاوامر للجيش الاسرائيلي وبالتعاون مع ميليشيات سعد حداد للقيام بمجزرة رهيبة ذهب ضحيتها الف وثمانماية شهيد من الاطفال والنساء والشيوخ . وهذ االعمل اللاإنساني واللاأخلاقي الذي تقشعر منه الابدان يعد احطّ ما يمكن ان تبتكره الوحشية وابشع ما يمكن ان يقترفـــه اي بشر في العصر الحديث . لقد اعاد ارهابيا دير ياسين وقبية شارون وبيغن ذكرى تلك المذابح على اوسع نطاق بهدف ارهاب السكان وحملهم على مغادرة منازلهم .

قال برونوكرايسكي المستشار النمساوي « انّ دولة شبه فاشيه بممارستها سياسة عنصرية ضد المواطنين العرب في الاراضي المحتلة بالاضافة الى ايمانها بأن الحرب هي

الوسيلة الوحيدة لحل المشكلات . وان من يتخذ الحرب سبيلاً لحل المشكلات لا يمكن ان يقبل شيئاً آخر غير اتخاذ طريق المخاطر بما فيها القيام بمذبحة والقيام بحرب ابادة . وبما ان جيش الاحتلال الاسرائيلي يسيطر سيطرة تامة على بيروت الغربية ولا يغيب عنه شيء فهو المسؤول عن المذبحة » .

فاذا لم تبادر الدول العربية مجتمعة الى تقليم اظافر وأسنان هذا الوحش الكاسر اسرائيل فسوف يقوم بافتراسها جميعاً واحدة بعد الاخرى .

ان الصيحات العربية الحرة والتحذيرات المتكررة التي تنطلق من الاردن ومن دول عربية اخرى للخطر الصهيوني الذي يستهدف دول المواجهة والعمق العربي ما زالت تعلو لتقول للعرب اتحدوا ففي الاتحاد قوة لكم واضعاف لعدوكم وما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة . وليكن ناقوس الخطر الذي يقرع حافزاً على توحيد الصفوف طلباً للثأر وطرد الغزاة من بلاد العرب وتحقيق النصر على يد الحسين بن طلال والمقاومة الفلسطينية الباسلة وقادة العرب الاشاوس في العالم العربي .

وكما استطاع العرب ومن ورائهم الشعوب الاسلامية تحقيق النصر النهائي في معركة الحروب الصليبية في القرون الوسطى على الشعوب الاوربية الغازية بوحدة الصف وتوحيد الكلمة فأن العرب جميعاً ومن ورائهم الشعوب الاسلامية يستطيعون تحقيق النصر على الاستعمار والصهيونية العالمية واسرائيل بالاعتماد على الموارد الذاتية العربية ووحدة الصف العربي وتوحيد الكلمة وبالجهاد المقدس ضد عدو العرب والمسلمين والانسانية وضد الاستعمار .

الجزء الثاني

المــؤثرات

الفصل الاول

النتائج العامة للحروب الصليبية

كان للحروب الصليبية نتائج عامة مؤثرة في تاريخ البشرية .وفي المجتمع الغربي بشكل خاص لأن الحروب الصليبية كانت حركة قوية فعالة نشأت من المجتمع الغربي ثم عادت فأثرت فيه ولأنها امتدت زهاء قرنين من الزمان احتك في خلالهما مسيحيو الغرب بالعرب والمسلمين فأخذوا عن حضارتهم وتأثروا بثقافتهم . اذ من الثابت علمياً ان الغرب الاوربي ظل في العصور الوسطى وحتى اواخر القرن الحادي عشر غارقاً في غمرة من التأخر الحضاري في الوقت الذي كان العرب والمسلمون ينعمون بحضارة راقية وبمستوى ثقافي رفيع في كل من العراق وسورية وشمال افريقيا وصقلية والاندلس . وقد ثبت علمياً ان الغرب قد غمرته حركة افاقة شاملة في عصر الحروب الصليبية شملت جميع نواحي حياة المجتمع .

وسوف نبدأ بذكر النتائج العامة لهذه الحروب وما تركته من آثار بالغة الاهمية في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية وفي مجال الاستكشافات الجغرافية قبل ان ننتقل للبحث في المؤثرات على الحضارة الغربية من خلال تلك الحروب .

أولاً : نتائج الحروب الصليبية في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية :

كان التعصب الديني الذميم اسوأ ما خلفته الحروب الصليبية من آثار في المجتمعات الاوربية والشرقية سواء بسواء اذ بلغ اقصى درجات العنف والشدة في عصر الحروب الصليبية ولا تزال آثار التعصب الديني باقية حتى زماننا الحاضر الامر الذي ولّد الحقد في قلوب العرب والمسلمين على ابناء الغرب لما اقترفوه من اعمال وحشية ومجازر بشرية تقشعر من ذكر هولها الابدان كما ولّد الحقد في قلوب الغربيين على العرب والمسلمين لاضطرارهم الى مقابلة العنف بالعنف وان تفاوتت درجاته بين

آونة واخرى ، على ان هنالك امثلة كثيرة من التسامح الذي كان يحمله المسلمون والعرب في قلوبهم نحو الاسرى المسيحيين والارامل والاطفال والعجز ونحو الرعايا المدنيين العزل من السلاح وقد ادى التعصب الديني الذي كان يحمله ابناء الغرب نحو المسلمين وينادون به الى غرس بذور الازدراء في نفوسهم للغربيين على مر الاجيال بسبب جهالة الغربيين وقسوتهم وغلظتهم ابان الحروب الصليبية وغطرستهم في العصور الحديثة ، الامر الذي جعل الشرقيين يحملون اسوأ الافكار عن الغربيين . وقد هلك في الحروب الصليبية مالا يقل عن مليون ونصف نسمة من الطرفين المتحاربين غير ان بعض المؤرخين يقدرون عدد الذين لاقوا حتفهم في اثناء الحروب الصليبية بسبب القتال وبعد المسافات وصعوبة الطرق والمواصلات وتعرض المحاربين لعوامل الطبيعة القاسية بمليوني نسمة .

وقد نتج عن الحروب الصليبية نوع جديد من الضرائب التي لم يعرفه الاوربيون من قبل اذ ان فكرة فرض ضرائب على ممتلكات الافراد لم تظهر لاول مرة الا في عصر الحروب الصليبية وكانت الغاية من فرضها ان تحل تلك الضرائب محل الضرائب الاقطاعية التي كانت مألوفة في العصور الوسطى ، ذلك لان حاجة لويس السابع ملك فرنسا الى المال قد دفعته في سنة ١١٤٦ الى المشاركة في الحملة الصليبية الثانية والى فرض ضريبة بمقدار العشر على جميع المنقولات الخاصة برجال الدين في فرنسا . وباسم الحروب الصليبية فرض كل من فيليب اوغسطس وريتشارد الاول قلب الاسد ضريبة بمقدار العشر على رجال الدين وعلى العلمانيين في سنة ١١٨٨ اطلق عليها ضريبة صلاح الدين Saladin Tithe . وقد استمرت جباية تلك الضريبة في انجلترا حتى تحولت الى ضريبة على الثروة والعقار واصبحت جزءاً لا يتجزأ من النظام المالي في انجلترا في الوقت الحاضر . ولهذا يقال ان الضرائب الحديثة نشأت عن حاجات الاراضي المقدسة للمال.

ومن اهم نتائج الحروب الصليبية انها ساعدت على اضعاف النظام الاقطاعي وانحلاله وفقدان امرائه مركزهم الاجتماعي في غرب اوربا وخاصة في فرنسا وايطاليا ، كما ساعدت على تقوية سلطة الملك واعلاء شأنه ذلك لان الدعوة الى الحروب الصليبية قد حملت الكثيرين من الامراء والسنيورات على بيع ممتلكاتهم لكي يستفيدوا من اثمانها في تجهيز الحملات الصليبية والانفاق عليها . يضاف الى ذلك ان الامراء والسنيورات في غرب اوربا قد منحوا عدداً كبيراً من المدن الصغيرة حريتها التي كانت

تطالب بها مقابل اثمان باهظة استخدمها الامراء في تجهيز الحملات الصليبية . واصبحت تلك المدن بعد ان نالت حريتها دويلات مستقلة ضمن دول الاقطاع الخاضعة لسلطان الملك مباشرة . وقد نشأ نظام البلديات في اوربا بعد ان عم شراء المدن لحريتها من الامراء الاقطاعيين فقويت بذلك سلطة ملوك فرنسا وضعفت سلطة الامراء الاقطاعيين نتيجة لنشوء البلديات المستقلة التي اعلنت ولاءها للملك . والذي ساعد على تصدع نظام الاقطاع في اوربا التحاق عدد كبير من الامراء والسنيورات بالحملات الصليبية سعياً وراء تأسيس اقطاعيات جديدة لهم في سورية وانتظامهم في سلك الهيئات العسكرية الدينية كالداوية والاسبتالية والتيتون . والمعروف ان النظام الاقطاعي في غرب اوربا كان يعتمد على قاعدة ضخمة من الفلاحين والعبيد الذين كانوا يفلحون الارض لسادتهم الامراء والفرسان . وعندما بدأت الحملات الصليبية تتجه نحو الشرق فتح باب الانخراط فيها على مصراعيه للفلاحين ورقيق الارض ولم يكن بوسع الامراء والفرسان منع اولئك المتطوعين من الفلاحين والعبيد من المشاركة في الحملات الصليبية خدمة للدين والكنيسة . ويقدر المؤرخون ان الحملة الصليبية الاولى وحدها استوعبت اكثر من عشرة آلاف فلاح وبهذا شعر ملاكو الارض بنقص كبير في الايــدي العاملة الامر الذي حمل امراء الاقطاع على البحث عن رجال احرار يقومون بفلاحة أراضيهم فتصدع بذلك النظام الاقطاعي وانقرضت طبقة الفلاحين والعبيد من المجتمع الاوربي . اذ من المؤكد ان الحروب الصليبية كانت قد قذفت الى الشرق بتلك النفوس المضطربة التي كانت تبحث عن اقطاعيات جديدة لها في بلاد الشام عوضاً عن اقطاعياتها في غرب اوربا .

ويتضح من هذا ان النظام الاقطاعي لم يكن نظاماً اجتماعياً فحسب وانما كان نظاماً سياسياً ايضاً ساعد على اضعاف السلطة المركزية في غرب اوربا بسبب جنوح الامراء الاقطاعيين الى الاستقلال وعدم الاعتراف بسلطة الملك الا ضمن حدود ضيقة اجازها نظام الاقطاع ، غير ان الحروب الصليبية قلبت الاوضاع رأساً على عقب بسبب توجه عدد كبير من الامراء الاقطاعيين الى الشرق واشتراكهم في الحملات الصليبية فاستوعبت تلك الحملات عدداً كبيراً منهم وبذلك وجهت طاقاتهم وثرواتهم الى الشرق بدلاً من توجيهها لمناوأة الملوك في الغرب وبهذا ضعفت سلطة الامراء في غرب اوربا بالقدر الذي قويت فيه سلطة الملوك ، يضاف الى ذلك ان عدداً كبيراً من الامراء قد لقوا حتفهم في الشرق ولم يقدر لهم العودة الى بلدانهم .

وبالاضافة الى تصدع نظام الاقطاع وتقوية سلطة الملوك في غرب اوربا ونهوض البلديات واستقلالها فقد ساعدت الحروب الصليبية على نمو التجارة الذي ساعد بدوره على نمو المدن اذ ان المدن الايطالية الكبرى كالبندقية وجنوه وبيزا ومدينة مرسيليا في فرنسا مدينة بشيء كثير من ازدهارها الى الحروب الصليبية، كذلك فأن الطريق الداخلي التجاري الذي كان يربط تجارة البندقية بالمدن الواقعة على بحر البلطيك وبحر الشمال عبر الراين هي الطريق التي قامت فيها المدن والنقابات الحرة وترعرعت .

ومن اهم النتائج السياسية للحروب الصليبية التي اثرت في المجتمعات الاوربية قيام وحدة اوربية جديدة، اذ لغاية سنة ١٠٩٦ لم تكن فكرة قيام وحدة بين دول غرب اوربا متمثلة في الامبراطورية الرومانية المقدسة وحدها بل امتدت تلك الوحدة لتشمل ايضاً جميع الدول في غرب اوربا في اثناء الحروب الصليبية بسبب رعاية البابوية لها التي كانت توجه الحرب الصليبية . فالمسيحية الغربية كانت توجهها روح دولية واحدة قاعدتها العامة العدوان المشترك على العدو المسلم . وفكرة قيام عصبة امم اوربية او دولية مسيحية واحدة نشأت اول ما نشأت للاشتغال بقتال الترك ثم لقتال العرب والمسلمين في الشرق العربي .

وقد احدثت الحروب الصليبية ايضاً اضطراباً في توازن الدول المسيحية القوية. فالامبراطورية البيزنطية كانت اضعف من الامبراطورية الغربية في اثناء الحروب الصليبية والدليل على ذلك سقوطها بأيدي الصليبيين في سنة ١٢٠٤ . وكانت فرنسا هي الدولة التي قدمت اقوى دعم للحروب الصليبية اذ ان فرسانها كانوا اول من لبوا نداء الحرب الصليبية وهم الذين انشأوا مملكة بيت المقدس . ويرى بعض المؤرخين ان اخضاع سورية ولبنان للانتداب الفرنسي في خلال الفترة من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٤٢ يعتبر أثراً من آثار الحروب الصليبية .

ثانياً : نتائج الحروب الصليبية في النواحي الدينية :

كان رجال الدين في اوربا يؤلفون هيئة دولية عظمى وكان زعيمهم البابا شخصية اوربية كبرى . والبابوية هي التي دعت للحروب الصليبية ورعت حركتها منذ بدايتها وحتى نهايتها . وقد بدأت الحروب الصليبية في عصر كان النزاع مستحكماً في غرب اوربا بين الامبراطورية والبابوية وبين السلطتين الزمنية والدينية . فكل منهما كان يطمح للزعامة والسيادة على الآخر وقد وجد البابوات في المناداة بالحروب الصليبية

والحث عليها ودعمها بكل الوسائل الممكنة وسيلة مجدية في اثبات زعامتهم . فالبابا اربان الثاني كان يعتبر نفسه القائد الاعلى للحملات الصليبية ويعتبر الحملات الصليبية بجملتها السياسة الخارجية للبابوية وقد بدأت هذه الحملات تحت زعامته وبجيش تولى قيادته مندوب البابوية الاسقف ادهيمار . ومن الواضح ان زمام المبادأة كان بيد البابا اربان الثاني الذي دعا للحرب المقدسة في مؤتمر كليرمنت في ٢٦ تشرين الثاني من سنة ١٠٩٥ وقد استجاب لدعوته الرأي العام في غرب اوربا الامر الذي عدّ كسباً كبيراً في نزاعها ضد الامبراطورية . فالحروب الصليبية التي اشعل البابا اربان الثاني نيرانها قد ايدت زعامته الفعلية للمجتمع المسيحي الغربي فسلمته قيادة الحملات الصليبية التي تولاها ممثله الشخصي الاسقف ادهيمار نيابة عنه .

ولكي يضمن البابوات نجاح الحملات الصليبية ضد مسلمي الشرق فقد حشدوا جميع الموارد البشرية والمادية اللازمة لاحراز النصر الذي كانوا يحلمون به ضد مسلمي الشرق . ومن جهة اخرى كانت المطامع الدنيوية للامراء الذين اشتركوا في الحملات الصليبية واضحة جلية اذ ان تأسيس مملكة القدس ومقاطعة الرها وامارة انطاكية وكونتية طرابلس بدلاً من تأسيس حكومة ثيوقراطية (اي حكومة لرجال الدين) يرأسها البابا وتدين له بالولاء والطاعة وتأتمر بأمره لأكبر دليل على الفشل الذي منيت به البابوية من هذه الناحيـــة . وبالرغم من هذا الفشل فقد ظلت الحروب الصليبية في صميمها متصلة بالبابوية . فالبابوات هم الذين تبنوا الدعوة للحملات الصليبية وبشروا بها وحثوا الشعوب الاوربية من جميع الطبقات على الاشتراك بها وهم الذين نظموها ووجهوها بادىء ذي بدء ضد مسلمي الشرق ثم ضد هراطقة الغرب كما فعل احد البابوات عندما وجه حملة ضد فردريك الثاني .

وبما ان الحملات الصليبية التي بشر بها البابوات وحثوا الناس على الاشتراك بها كانت تحتاج الى موارد بشرية ومالية ضخمة فقد استغل البابوات هذه الدعوة فأخذوا يجمعون الاموال ويجهزون الجيوش التي تمدهم بالقوة اللازمة لتحقيق النصر النهائي على المسلمين في الشرق وعلى الامبراطورية في الغرب . ففي اواخر القرن الثاني عشر ابتدع البابوات بدعة جديدة تدر عليهم المال وهي انه يجوز للشخص الذي لا يقوى على المشاركة بنفسه في الحرب ان يتبرع بمبلغ من المال لانفاقه على الشؤون الحربية وهذا يعطيه غفراناً لذنوبه ويكسبه ثواباً عند الله كما لو كان قد شارك في

الحرب المقدسة بنفسه . وهكذا بدأت بدعة صكوك الغفران التي كان البابوات يبيعونها للراغبين في شرائها وقد درت هذه الصكوك مورداً مالياً ضخماً للخزانة البابوية طيلة مدة العصور الوسطى .

ويقابل هذه الفائدة المالية الكبرى للبابوية الناجمة عن بيع صكوك الغفران خسارة مالية لهم من ناحية اخرى ذلك ان ملوك فرنسا وبريطانيا اغتنموا فرصة حاجتهم للاموال اللازمة لتجهيز جيوشهم التي اشتركت في الحملات الصليبية تلبية لرغبات البابا ونداءاته فقرروا فرض ضريبة العشور على الممتلكات المنقولة لرجال الدين والكنيسة وبذلك حطموا مبدأ الاعفاء من الضرائب التي كان رجال الدين في اوربا يتمتعون بها فوضعوا بذلك سابقة خطيرة تمسك بها الملوك وقاومها البابوات ورجال الدين وظلت موضع نزاع خطير بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية .

وكان من نتائج الحروب الدينية ايضاً ظهور طوائف كهنوتية عسكرية جديدة. فطائفة الداوية وطائفة الاسبتالية وطائفة التيتون بأتباعها قوانين الكنيسة قد قدمت لاوربا شيئاً جديداً لم يكن معروفاً هو القسيس المحارب الذي جمع بين حياة القسس الخاضعة لنظم الكنيسة وبين حياة الجندي المحترف . وهذه الطبيعة المزدوجة للحروب الصليبية جعلتها دينية ولا دينية تدين تارة للبابا والكنيسة بالطاعة والولاء وتارة تعمل ضد البابا والكنيسة كمنجم ينذر بتقويض الدين من اساسه وهي بهذه الطبيعة المزدوجة قد زعزعت التفريق بين الديني والعلماني وبين المقدس وغير المقدس في حدود العقيدة .

وبالرغم من التعصب الذميم الذي خلفته الحروب الصليبية في بداية عهدها فقد ولدت في آن واحد شيئاً من التسامح في فترات السلم نتيجة احتكاك الغرب بمسلمي الشرق ذلك الاحتكاك الذي كان من نتائجه اضعاف العداء القديم بين الايمان والكفر. ومن مظاهر ذلك الاحتكاك ايضاً استخدام فردريك الثاني جيشاً عربياً لمحاربة البابا وتقريبه العلماء العرب واجراء المفاوضات مع الحكام العرب حتى في الوقت الذي كان بيت المقدس مطمح انظار ملوك الفرنجة وكبار قادتهم وقد اخذ علماء الغرب يدرسون العربية ويتتلمذون على فلاسفة العرب .

وكان من نتائج الحروب الصليبية ايضاً ان اخذت الكنيسة تؤمن منذ بداية القرن الثالث عشر بعدم جدوى الحملات الصليبية المسلحة في نشر الديانة المسيحية بالقوة فأتجهت نحو ارسال البعثات التبشيرية لنشر مبادىء المسيحية بين المسلمين عن

طريق الاقناع اذ فكر لويس التاسع في نشر المسيحية بين المغول وبذلك يقع المسلمون في الشرق الادنى بين شقي الرحى في حالة اعتناق المغول الديانة المسيحية .

وقد بدأت الارساليات التبشيرية الى الشرق بالقديس فرانسيس الذي كان قد زار مصر وحاول تبشير السلطان الكامل في اثناء الحملة الصليبية الخامسة في سنة ١٢٢٠ واقناعه بأعتناق المسيحية . وقد نمت بذرة التبشير في خلال المائة سنة التالية حتى اصبحت شجرة عظيمة ففتح بذلك مجال واسع للعمل التبشيري في الامبراطورية المغولية حيث كان هنالك عدد كبير من المسيحيين . وما ان حلت سنة ١٣٥٠ حتى استقر المقام بالارساليات التبشيرية وبالاساقفة المسيحيين في البلاد الممتدة من بلاد فارس حتى بكين ومن نهر الدنيبر حتى صحراء التيبت . وكان رد الفعل الاسلامي قد بدأ بفضل حماسة تيمور فخسرت المسيحية وسط آسيا . وانتصر الهلال على الصليب في القرن الخامس عشر في كل مكان في آسيا واوربا حيث تلاشت الصليبية وانحسرت الارساليات المسيحية سواء اعدت اعمالها نافعة ام ضارة وفي هذا يقول ايرنست باركر :

"The Eastern mission had been begun by St. Francis, who had visited and attempted to convert the sultan of Egypt during the Fifth Crusade (1220); within a hundred years.The little seed had grown into a great tree. A great field for missionary enterprise opened itself in the Mongol Empire In which there were many Christians to be found; and by 1350 this field had been so well worked that Christian missions and Christian bishops were established from Persia to Peking, and from the Dneiper to Tibet itself. But a Mohammedan reaction came, thanks to a large measure to the zeal of Timur;and central Asia was lost to Christianity. Everywhere in the fifteenth century, in Europe and Asia, the crescent was victorious over the the Cross, and Crusade and Mission, whether one regards them as complementary or inimical, perished together"(1)

لقد احتفظ المغول بديانتهم الشامانية كما يقول ايرنست باركر في الوقت الذي كانوا يأوون فيه رعايا مسيحيين في امبراطوريتهم . وقد حاول المبشرون المتحمسون تحويلهم الى المسيحية وبذلك يستطيعون تطويق الاراضي المقدسة بين بلاد المغول المسيحية واوربا المسيحية فلا يكون هنالك مفر من بقائها في قبضة المسيحيين بقاءً دائماً.

1 — Barker, Ernest, The Crusades, P 97

وكان ريموند لل Raymond Lull اعظم شخصية تبشيرية ظهرت في القرن الثالث عشر وهو اسباني الجنسية ، وقد نادى بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تبشيرية واحلال التبشير السلمي محل الحملة الصليبية . وفي اوائل القرن الرابع عشر استطاع يوحنا اوف مونت كورفينو مؤسس الكنيسة اللاتينية في الصين ان يعتلي كرسي الاسقفية في بكين وان يعاونه ثلاثة من الرهبان الفرنسيسكان .

غير ان الجهود التي بذلها المبشرون المسيحيون في بلاد المغول لتحويلها الى المسيحية قد باءت بالفشل اذ ان الاسلام انتصر على المسيحية في تلك البلاد واصبحت الغالبية العظمى من المغول مسلمين في اواخر القرن الرابع عشر . ولكن المسيحية عوضت عن ذلك الفشل الذريع بأستكشاف القارة الامريكية وبذلك استطاعت ان تعيد رجحان كفة الميزان لصالحها .

وبالرغم من ان الارساليات التبشيرية قد فشلت في مهمتها التبشيرية وفي عدم تحويل بلاد المغول الى المسيحية فقد كانت الاعمال التبشيرية حجر الزاوية في الاستعمار الحديث في كل من آسيا وافريقيا .

ثالثاً : نتائج الحروب الصليبية في نواحي الاستكشافات الجغرافية والارتياد :

اذا كانت الحروب الصليبية قد باءت بالفشل في ناحيتها الحربية والتبشيرية فقد كانت للحروب الصليبية نتائج هامة من ناحية ازدياد المعلومات الجغرافية ، ذلك ان هذه الحروب قد اكسبت الشعوب الاوربية نظرة جديدة واسعة للعالم ، وهذه النظرة قد صاحبتها حركة ارتياد واستزادة في المعلومات الجغرافية التي تعتبر في نظر كثير من المؤرخين اهم نتائج الحروب الصليبية من حيث اتساع مداها وبعد اثرها . وليس ادل على ازدياد معرفة الاوربيين بالعالم الخارجي في عصر الحروب الصليبية من كثرة المؤلفات والكتب التي ضمت كثيراً من المعلومات عن الشرق بسبب الاتجاه الى العناية بكل آسيا . وقد بدأ عصر الاستكشاف الآسيوي منذ سنة ١٢٤٠ وانتهى بعد ذلك بقرون وهو يوازي في اهميته اكتشاف خرستوفر كولومبوس لامريكا . ونتيجة لحركة الارتياد الواسعة اصبح علم الجغرافيا في خلال القرن الثاني عشر اخصب العلوم لان الحجاج كانوا يعتمدون عليه في وصف الطرق والاماكن المقدسة وفي الحصول على المعلومات الحربية عن الميادين الصالحة للخطط العسكرية خصوصاً بلاد الشام ومصر والغرب الاوربي . ومن الطبيعي ان يكون وصف الاراضي والطرق الممتدة

من بلاد الشام فبلاد الاناضول فأوربا ومن بلاد الشام فمصر وشمال افريقيا وايطاليا وبلاد البلقان هي المحور الاول والاهم لتلك المؤلفات الجغرافية . وقد كان التركيز على وصف بلاد الشام طرقها وجبالها وسهولها واوديتها ومسالكها ومدنها وجوّها وخيراتها الزراعية وما الى ذلك .

وكان لازدياد النشاط التجاري في حوض البحر الابيض المتوسط الذي اهتمت به المدن الايطالية جنوة والبندقية وبيزا ومدينة مرسيليا الفرنسية بالاضافة الى النشاط الحربي في عصر الحروب الصليبية الذي امتد زهاء قرنين من الزمان قد جعل المدن الايطالية تهتم بجغرافية المدن الممتدة على سواحل البحر الابيض المتوسط من الشمال والشرق والجنوب فأعدت الخرائط الجغرافية المفصلة لحوض البحر الابيض المتوسط في اواخر القرن الثالث عشر وان كانت تلك الخرائط تفتقر الى الدقة . وبالاضافة الى النشاط الحربي في عصر الحروب الصليبية والنشاط التجاري فقد كان للنشاط التبشيري الذي قام به الاوربيون في اواسط آسيا اثره الكبير في ازدياد المحصول الجغرافي .

ومن اشهر الرحلات التجارية الرحلة التي قام بها ماركوبولو في سنة ١٢٧١ من بلدة البندقية وكان قد مر بالموصل فبغداد وخراسان ووصل الى بلاط خان المغول. وهناك كلفه الخان بمهمة في بعض بلدان آسيا فمر ببرما والصين والهند ثم عاد الى بلده البندقية عن طريق سومطره والهند وفارس في سنة ١٢٩٥ . وكان مؤلفه عن هذه الرحله ومشاهداته ومغامراته من امتع ما خلفه الرحالة الاوربيون .

الفصل الثاني

انتقال الحضارة الى الغرب

بعد ان استعرضنا بايجاز النتائج العامة للحروب الصليبية وما تركته من آثار بالغة الاهمية في المجتمعات الغربية في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية وفي حركة الارتياد وازدياد المعلومات الجغرافية بقي علينا ان نستعرض في الفصول القادمة مدى المؤثرات الشرقية الثقافية على الحضارة الغربية من خلال الحروب

الصليبية . والشيء المؤكد انه لم يستطع احد من المؤرخين حتى الآن ان يحدد بالضبط مدى المؤثرات الشرقية الثقافية على الحضارة الغربية عن طريق اتصال العرب بالمسيحيين في اسبانيا وصقلية وسواحل ايطاليا واتصال المسيحيين بالعرب عن طريق الحروب الصليبية اذ لا يمكن تعيين حدود فاصلة واضحة بين المؤثرات التي تمت في كل من هذين العصرين ذلك لان انتشار الحضارة في بلد ما وانتقالها من مكان الى مكان آخر لا يتمان دفعة واحدة ولا يمكن ان ينسبا الى سبب تاريخي واحد . ولعل الحروب الصليبية قد فاقت غيرها من الحروب في نتائجها البعيدة بسبب ما نتج عنها من قيام علاقات اجتماعية وثقافية بين العرب والفرنجة في بلاد الشام وما خلفته تلك الحروب من آثار بعيدة المدى كانت عاملاً مهماً في تطور الشعوب المسيحية وتمدينها .

واذا ما حاولنا الموازنة بين الحروب الصليبية وما سبقها من حروب مماثلة نجد ان الحروب الصليبية قد تميزت عن غيرها بمداها الزمني وبتعدد الامم والشعوب التي خاضت غمارها وبتنوع قوميات تلك الشعوب وجنسياتها ولغاتها ودياناتها ومذاهبها ، الامر الذي جعل هذه العوامل تترك اثراً بارزاً في نشوء اوربا الحديثة ويقظتها وخروجها من ظلمات العصور الوسطى الى انوار الحضارة والرقي .

لقد كان الشرق العربي مهد الحضارات العالمية ومركز الموجات الثقافية العارمة في التاريخ ، وهي الموجات التي غيرت وجه الشعوب والامم فنقلتها من حالة بدائية متأخرة الى حالة انسانية متحضرة ، ففي وادي النيل ظهرت اعرق الحضارات واعلاها شأناً منذ أقدم العصور ومنها استمد اليهود اصول شرائعهم وفي بابل واشور ظهرت شريعة حمورابي وبرزت معها مدنيّات عريقة وفي الشرق العربي ظهرت الديانات العظمى الثلاث التي انارت الضمير العالمي بضياء النور والحق والهدى وتبع ظهور هذه الديانات تفتق العقل البشري فأنتج علماً وادباً وشعراً ونثراً وحكماً وامثالاً وبسبب ارتباط جنوب اوربا ببلدان الشرق العربي بوحدة ثقافية فقد استمدت الثقافة اليونانية والثقافة الرومانية اصولها من مصر وبابل وفنيقية واليهودية واتجهت في مجرى واحد نحو اليونان ثم عادت الى الشرق بثوب هليني .

ومما لا شك فيه ان انتصارات العرب في القرنين السابع والثامن كانت سبباً في تألق نجم العرب وظهور يقظة فكرية لم يسبق لها مثيل في تاريخ التقدم الفكري في العالم وكانت جذور هذه اليقظة وليدة مؤثرات اجنبية سواءً اكانت هندية فارسية

ام سريانية ام هيلينية عن طريق النقل من الفارسية والسنسكريتية واليونانية الى العربية . ولم يكن لدى العربي قبل ذلك العصر ذلك التراث العظيم من الفلسفة والعلم والادب بأستثناء ما كان يحمله العربي معه من الصحراء من رغبة ملحة في طلب العلم والاطلاع على كل ما هو جديد وباستثناء تلك القابلية الشديدة لتلقي العلم والاغتراف من معينه بذكاء فطري واستعداد طبيعي لاستغلال قدراته في الاقتباس من الثقافات القديمة بالاضافة الى ما كان يميّز كل ما كان يطبع الشعوب الغنية من قدرة على التكيف بالبيئة والطموح الى الاستفادة من كل مصدر حضاري حتى اصبح الوريث الفكري للامم والشعوب التي دانت لسلطانه او احتك بها او كانت له علاقات معها .

وما كادت الامور تستقر بالدولة العربية ويتسع سلطانها ليمتد من مشارف الصين شرقاً الى مشارف فرنسا وجنوب ايطاليا واواسط اسبانيا غرباً حتى اخذ العلماء العرب ينهلون من موارد العلم الصافية وينعمون برعاية كريمة من الخلفاء الذين كانوا يغدقون عليهم الاموال ويكرمون وفادتهم ويتنافسون في رعايتهم ويتسابقون في الانفاق عليهم وعلى العلم . وقد انشأوا المعاهد العلمية والمكتبات والجوامع لتلقي العلم فيها كجامع المنصور في بغداد والجامع الاموي في دمشق والجامع الازهر في القاهرة وجامع القيروان في تونس وجامع قرطبة في الاندلس بالاضافة الى دار الحكمة في القاهرة وبيت الحكمة في بغداد ودار العلم في الموصل ومكتبة ابن سوار في البصرة ومكتبة ابن الشاطر في الشام وغيرها .

وقبل انشاء المدارس والجامعات كانت الجوامع والمكتبات ودور الكتب وقصور الخلفاء ومنازل العلماء بمثابة معاهد يتوافد عليها طلاب العلم من كل ارجاء المعمورة. وكان كل طالب العلم يجد معهداً يتلقى العلم فيه ومعلماً يعلمه وراتباً يسد به حاجته. وقد بدأت حركة ترجمة العلوم الى اللغة العربية في العصر الاموي. وكان خالد ابن يزيد بن معاوية اول من بدأ تلك الحركة وازدهرت حركة الترجمة في العصر العباسي وخاصة في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون فترجمت في العصر العباسي كتب الفلسفة والطب والتشريح والرياضيات والفلك والكيمياء والمنطق والتاريخ وغيرها من العلوم من الاغريقية واللاتينية والفارسية والسريانية والقبطية والكلدانية الى العربية . وكان الاتصال وثيقاً بين اثينا والاسكندرية من جانب وبغداد من الجانب الآخر كما كان الارتباط وثيقاً ايضاً بين جنديسابور وحران من جهة وبغداد من الجهة الاخرى .

وظهرت في ذلك العصر نهضة علمية وادبية منقطعة النظير في تاريخ العصور الوسطى امتدت الى كثير من اقطار اوربا وآسيا وافريقيا . وكان للفتوحات العربية التي امتدت الى انحاء واسعة من العالم اثر كبير في اغناء اللغة العربية بكثير من الكلمات التي انسابت اليها من اللغات السريانية والفارسية . ففي مجال الزراعة اقتبس العرب مئات الكلمات من اللغة السريانية كما اقتبسوا من اللغة الفارسية اكثر مما اقتبسوه من سائر اللغات في خلال الفترة التي استمرت فيهــا سيادة العرب على بلاد فارس خمسة قرون بعد ان فتحها العرب .

وقد اقبل العلماء العرب على التأليف والكتابة في مختلف العلوم وفروع المعرفة فترجموا علوم الاغريق والرومان وفلسفتهم وعلقوا عليها واضافوا اليها اضافات اصيلة وكانت لهم نظريات علمية مستجدة نسبت ظلماً وتجنياً لغيرهم والامثلة على ذلك كثيرة فمنها على سبيل المثال وليس الحصر ان الخازن كان اسبق من نيوتن في التحدث عن الجاذبية والربط بين السرعة والثقل والجاذبية وان ابن خــلدون وابن مسكويه واخوان الصفا كانوا اسبق من داروين في التحدث عن التطور وان ابن خلدون كان اسبق من لامارك في البحث في اثر البيئة على الاحياء وان ابن النفيس كان اسبق في شرح الدورة الدموية من هارفي وان ابن الهيثم كان اسبق من علماء اوربا في البحث في طبيعة الضوء وسرعته وانكساره وان البتاني والفرغاني والكندي والخوارزمي والصوفي وغيرهم كانوا اسبق من جليليو وكبلر وكوبرنيكس في قياس محيط الارض وتقدير حجوم الكواكب وما بينها من مسافات . وتقول الدكتورة سهير قلماوي « ظلت مؤلفات علماء العرب المراجع المعتمدة في جامعات اوربا حتى القرن السابع عشر واعترف عدد كبير من مؤرخي العلم بفضلهم على العلم والانسانية حتى قال قائلهم (لولا اعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الاوربية ان يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون »(١).

وقال آخر : « ان كثيراً من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا فإذا العرب سبقونا اليها . وظلت الامة الاسلامية والعربية حاملة لواء النهضة عدة قرون في وقت كانت اوربا ما تزال غارقة في الظلام ».

وتقول الدكتورة قلماوي ايضاً :

« اهدى الفكر العلمي في العصر الاسلامي الى الانسانية كثيراً من مظاهر الترف

---

(١) قلماوي سهير ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٢٠٧

والحضارة والرفاهية كما اهداها معلمها الثاني والثالث الفارابي وابن سيناء . ولو قدر لهذه النهضة الشاملة ان تستمر في عنفوانها وانتشارها لكانت هذه النهضة التي تتيه بها اوربا في العصر الحاضر من نصيب امتنا العربية وكانت تتقدم على تاريخها الحالي عدة قرون ولكن وقعت تحت سنابك الغزاة من المغول والتاتار وسقطت الاندلس في يد الفرنجة في الغرب وتداعت دويلات المشرق والمغرب العربي واحدة بعد الاخرى تحت وطأة الاستعمار التركي ثم الغربي وصحت اوربا »(١). « لقد قام العلماء العرب بدورهم الطليعي في بناء النهضة العلمية العالمية في العصر الاسلامي فنقلوا علوم اليونان والرومان والفرس والهند الى اللغة العربية التي كانت لغة العلم في القرون الوسطى وكانت كتب العرب والمسلمين في العـــلوم الطبيعية المراجع المعتمدة في جامعات اوربا حتى اواخر القرن السابع عشر اذ ترجمت الى اللغات اللاتينية . وما ان تم اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر حتى طبعت تلك الكتب عدة مرات . وشهد كثير من علماء الغرب امثال جورج سارتون وهولمبارد وسميث وغيرهم بأنه لولا اعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الاوربية الى ان يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون وقال بعضهم انه كان لابد من وجود ابن الهيثم والخازن والكندي وابن سينا والفارابي والبيروني والخوارزمي لكي يظهر جاليليو وكبلر ونيوتن وكوبرنيكس» (٢) .

لقد تبنى العربي بعد الانتصارات التي احرزها العرب على الروم في بلاد الشام المدنية الآرامية التي كانت متأثرة بمدنية الاغريق وتبنى المدنيـــة نفسها التي طبعت بطابع الفرس في العراق وفي خلال قرن واحد من الزمان من تاريخ ظهور الدولة العباسية اصبحت بين يديه ا هم كتب ارسطو الفلسفية وكتب الشروح لأهل الفلسفة الافلاطونية وكتب جالينوس الطبية وعدد من الكتب الفارسية والهندية .

واننا حينما نتحدث عن العرب انما نقصد العرب والمسلمين من غير العرب الذين عاشوا في بلاد العرب وساهموا في ثقافتها وتأثروا بحضارة العرب وثقافتهم واندمجوا بالمجتمع العربي وانصهروا به لغة وادباً وعلماً وديناً واصبحت ثقافتهم عربية وطبيعتهم عربية بقدر ما كان دينهم عربياً وخلقهم عربياً وولاؤهم عربياً .

---

(١) قلماوي سهير ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٢٠٧

(٢) منتصرعبد الحليم ، أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٢٥٤

وحينما نتحدث عن بعض عمالقة المسلمين الذين تحدروا من اصول فارسية امثال الرازي وابن سينا نتحدث عنهم بوصفهم عرباً لغة وديناً وعلماً وخلقاً وادباً وارتباطاً وولاء وثقافة وطبيعة كما نتحدث عن دويت ايزنهور بوصفه امريكياً وليس بوصفه المانياً متحدراً من اصل الماني . فكثيرون من العلماء ورجال التـــاريخ الذين ساهموا في الحضارة العربية وامدوها بثقافتهم الواسعة وكانوا من بناتها لم يتحدروا من اصل عربي فمنهم الفرس والهنود والسريان والبربر والغوط الغربيون الذين ساهموا جميعاً في رسم معالم الحضارة العربية بعد ان ذابت شخصياتهم بقوة الشخصية العربية من ناحية وبتأثير الروح العربية من ناحية اخرى في وحدة ثقافية ذات تماسك عظيم.

ومع الاسف الشديد فأن موقف الشعوب الاوربية من العرب منذ زمن بعيد موقف عدائي بعيد كل البعد عن التعقل والانصاف بسبب ما القاه العرب من رعب في قلوب الاوربيين بعد انتصاراتهم الساحقة وفتوحاتهم الواسعة في كل من آسيا وافريقيـــا واوربا وانتشار حضارتهم في الاقطار التي دانت لسلطانهم ، الامر الذي ولّد في نفوسهم الشعور بمذلة الخضوع للحضارة العربية التي فرضت نفسها عليهم فلم يقدروا على التحرر من سلطانها الا منذ زمن قريب . والظاهر ان الحافز على هذا العداء هو التعصب الاعمى الذي اعمى بصائرهم وضمائرهم فأخذ الكتاب الاوربيون ينكرون فضل العرب على الشعوب الاوربية وينكرون تأثرهم بحضارة العرب وثقافتهم وعلومهم واصبح هذا الانكار من تقاليد مؤرخيهم الذين لم يعترفوا لغير اليونان والرومان بفضل تمدينهم . اما العرب فلم يتعد دورهم في نظرهم دور ساعي البريد الذي نقل اليهم التراث اليوناني ولم يأتوا بجديد ولم يحققوا رسالة وحاولوا تبرير انكارهم لحضارة العرب وتأثرهم بثقافتهم وعلومهم بما اصابهم من تأخر سحابة القرون الخمسة الاخيرة من تاريخهم .

ان اوربا تدين للعرب بدين عظيم ويجب عليها ان تعترف به ولا يصح اتخاذ الحال الحاضرة دليلاً على الماضي فيطغى التعصب الديني على يقظة الضمير .

ومع ان نسبة الذين غطت عيونهم سحابة من التعصب الاعمى عالية جداً فأن اوربا مع ذلك لم تخل من مؤرخين ابصروا نور الحقيقة واعترفوا بفضل العرب عليهم من حيث تمدينهم فلم يعطوهم حقهم في ايقاظ الوعي الانساني في نفوسهم ونشر الثقافة الانسانية الرفيعة بين صفوفهم ، وهي الثقافة التي اثرت في اوربا وفي العالم

كافة والتي كان للعرب الدور الاكبر في ايقاظها .. وشاء الله ان يظهر بين صفوف الاوربيين من ينادي بهذه الحقيقة ويجرؤ على التصريح بها . فألفوا كتباً اعترفوا بها بما للعرب من فضل كبير على الحضارة الاوربية والحضارة العالمية بأكملها . ويأتي العلامة الفرنسي الكبير غوستاف لوبون والكاتبة الالمانية سيجرد هونكه في مقدمة هؤلاء الكتاب .

فغوستاف لوبون رأى ان يوقظ في كتابه « حضارة العرب » الذي اصدره في سنة ١٨٨٤ وترجمه الاستاذ عادل زعيتر عصر العرب الذهبي من مرقده وان يبديه للعالم في صورته الحقيقية فيقول :

« ان العرب كانوا قد خرجوا من جزيرتهم وهم اصحاب ذكاء مصقول في وقت عجز فيه البرابرة الذين قضوا على الدولة الرومانية عن ابداع اية حضارة بسبب غلاظة عقولهم كما عجز الترك الذين قضوا على الدولة العربية عن ابداع اية حضارة ويقول غوستاف لوبون ايضاً :

ان الفرق واضح بين الامم التي تكون على جانب كبير من الذكاء كالامة العربية والامم المنحطة كبرابرة القرون الوسطى الذين قضوا على دولة الرومان واجلاف الترك والمغول الذين قضوا على دولة العرب » ويمضي فيقول :

« لقد ابدع العرب من فورهم بعد ان استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس حضارة جديدة افضل من الحضارات التي جاءت قبلها وكانت عقول البرابرة عاجزة عن ادراك كنه الحضارة التي قهروا اهلها وكان انتفاعهم بها ممسوخاً في بداية الامر ولم يسيروا بها نحو الرقي الا بعد ان صقلت ادمغتهم فصارت قادرة على ادراك معانيها بعد زمن طويل »(١) .

ولم يغب عن بال العلامة لوبون الذي رأى ان العرب اثبتوا منذ ساعة اتصالهم بالعالم الخارجي انهم من ذوي العقول المستعدة للتمدن والتمدين ان يرد بحرارة على تهمة حرق مكتبة الاسكندرية بقوله :

« اما احراق مكتبة الاسكندرية المزعوم فمن الاعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب والتي تجعل المرء يسأل كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء

(١) لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ص. ١٤

الاعلام زمناً طويلاً وهذه القصة قد دحضت في زماننا فلا نعود الى البحث فيها ولا اسهل من ان نثبت بما لدينا من الادلة الواضحة ان النصارى هم الذين احرقوا كتب المشركين في الاسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل ولم يبق منها ما يحرق » (١) .

ويشيد غوستاف لوبون بحضارة العرب فيقول :

« ان الامم التي كانت لها سيادة العالم كالاشوريين والفرس والمصريين والاغارقة والرومان توارت تحت اعفار الدهر ولم تترك لنا غير اطلال دارسة وعادت اديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات . والعرب وان تواروا ايضاً لم تزل عناصر حضارتهم وان شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم حية »(٢) .

ويقول ايضاً :

« انشأ العرب بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها وتمكنوا من حمل امم كثيرة على انتحال دينهم وحضارتهم الجديدة واتصلت بالعرب امم قديمة كشعوب مصر والهندوس واعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفن عمارتهم واستولت بعد ذلك امم كثيرة على الاقطار التي فتحها العرب وظل نفوذ العرب فيها ثابتاً . ويلوح لنا ان رسوخ هذا النفوذ أبدي في جميع البقاع الآسيوية والافريقية التي دخلوها والتي تمتد من مراكش الى الهند »(٣) .

ويقول ايضاً :

« لا نرى في التاريخ أمة ذات اثر بارز كالعرب فجميع الامم التي اتصل العرب بها اعتنقت حضارتهم ولو حيناً من الزمان ، ولما غاب العرب عن مسرح التاريخ انتحل قاهروهم كالترك والمغول الخ .. تماليدهم وبدوا للعالم ناشرين نفوذهم ، اجل لقد ماتت حضارة العرب منذ قرون ، ولكن العالم لا يعرف اليوم في البلاد الممتدة من سواحل الاطلسي الى الهند ومن البحر المتوسط الى الصحراء غير اتباع النبي ولغتهم »(٤) .

---

(١) لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ص. ١٥
(٢) « « « « « ١٩
(٣) « « « « « «
(٤) « « « « « ٢٠

ويقول ايضاً :

« ان العرب مدنوا اوربا مادة ولغة ، وعلماً واخلاقاً . فقد كان عرب الاندلس يتصفون بالفروسية المثالية خلا تسامحهم العظيم فكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم ، وما الى هذا من الخلال التي اقتبستها الامم النصرانية في اوربا منهم مؤخراً » (١)

ويقول ايضاً :

« كان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم وان هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم . والعرب الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان. والعرب هم الذين فتحوا لاوربا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والادبية والفلسفية فكانوا ممدنين لنا وائمة لنا ستة قرون . وظلت ترجمات كتب العرب لا سيما الكتب العلمية مصدراً وحيداً تقريباً للتدريس في جامعات اوربا خمسة قرون او ستة قرون . واذا كانت هنالك امة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الامة . فعلى العالم ان يعترف للعرب بجميل صنعهم في انقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً . قال مسيو ليبري « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة اوربا الحديثة في الادب عدة قرون »(٢) .

اما الكاتبة الالمانية الدكتورة سيجريدهونكه فقد تقدمت الصفوف وحملت لواء العروبة عالياً خفاقاً كما يذكر الدكتور فؤاد حسنين علي في مقدمة كتابها « شمس الله على الغرب فضل العرب على الغرب » الذي ترجمه الى اللغة العربية ويروي على لسانها قولها :

ان موقف اوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد البعد كله عن الانصاف والعدالة . والتاريخ وقت ذاك كان يملي ويصنع ولم يكن المملي هو الضمير بل التعصب الاعمى . وكتابها قد ترجم الى عدة لغات . فالى جانب اللغة العربية ترجم الى الفرنسية والايطالية والتركية والاندنوسية والى لغات اخرى كثيرة »(٣) .

---

(١) لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ص ٢٠

(٤) « « « « «

(٣) هونكه سيجريد ، شمس الله على الغرب ، فضل العرب على الغرب — المقدمة

وتمضي الكاتبة فتقول :

« من خطل الرأي ان ننظر الى اوربا على انها هي ، وهي فقط العالم الحديث . ومن الحماقة ان نقول ان تاريخ اوربا هو تاريخ هـــذا العالم . ومما لا شك فيه ان سائر القارات التي يتكون منها عالمنا هذا ساهمت وتساهم في تكييف الاحداث العالمية التي تخضع لها شعوب المعمورة . ويكفي ان ننظر الى خريطة عالمنا هذا في العصور الوسطى لنرى كيف يحاصر البحر المتوسط جنوب القارة الاوربية ويخضعها للسلطان الثقافي لاثينا وروما . اما اليوم فقد شاء الله ان تزول هذه الغشاوة عن اعيننا وان يتسع صدرنا للحقيقة فلا نغمط الشعوب الاخرى التي ساهمت في ايقاظ الوعي الانساني وبعث انسانية رفيعة اثرت وتؤثر حتى يومنا هذا لا في اوربا فقط بل في مختلف ارجاء العالم المتحضر . وشاء الله ان يظهر من الاوربيين من يجرؤ وينادي بهذه الحقيقة فلا نغمط العرب حقهم في انهم حملوا رسالة عالمية وادوا خدمة انسانية للثقافة البشرية قديماً وحديثاً. ان هذا النفر من الاوربيين المنصفين لا يأبه بتحدي اولئك المتعصبين الذين اعماهم تعصبهم الديني فحاولوا جهد طاقتهم طمس معالم هذه الحضارة العربية او التقليل من شأنها ».

وتمضي فتقول :

« ان اروبا تدين للعرب وللحضارة العربية . وان الدين الذي في عنق اوربا وسائر القارات الاخرى للعرب كبير جداً . وكان يجب على اوربا ان تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد ، لكن التعصب الديني واختلاف العقائد اعمى عيوننا وترك عليها غشاوة حتى اننا نقرأ ثمانية وتسعين كتاباً من مائة فلا نجد فيها اشارة لفضل العرب وما اسدوه الينا من علم ومعرفة اللهم الا هذه الاشارة العابرة الى ان دور العرب لا يتعدى دور ساعي البريد الذي نقل اليهم التراث اليوناني . اما العربي فلم يأت بجديد ولم يحقق رسالة. إن النهضةالعلمية الحديثة كشفتالغطاء عنحضاراتالشرق القديم وبخاصة مصر وبابل واشور ولم يعد سراً ان مصر هي الوطن الذي بزغ فيه فجر الضمير وان هذا الشرق العربي القديم هو موطن الوحي ومبعث الفنون والعلوم والاداب ».

وتمضي فتقول :

« واذا ما انتقل الباحث الى بيزنطه ليقفز منهـــا الى المسيحية في العصـــور

الوسطى فالعصور الحديثة ازداد شكـــه في اليونان وروما وايقن ان اوربا بأثينا وروما لا تستحق كل هذه العناية وان ما يحـــاول المغرضون خلعه عليهما ما هو الا سراب لا يقوى على البقاء امام شمس الشرق العربي اذا ما سطعت وبددت ضباب الغرب وسحبه ومطره وثلوجه . انها سبة ان يعلم اهل العلم من الاوربيين ان العرب اصحاب نهضة علمية لم تعرفها الانسانية من قبل ، وان هذه النهضة فاقت كثيراً ما تركه اليونان او الرومان ولا يقرون هذا . ان العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعّون على العالم علماً وفناً وادباً وحضارة كما اخذوا بيد اوربا واخرجوها من الظلمات الى النور ونشروا لواء المدنية أنّى ذهبوا في اقاصي البلاد ودانيها سواء في آسية وافريقية أم في اوربا ثم تنكر اوربا على العرب الاعتراف بهذا الفضل»(١) .

كان العرب منذ القرن الثامن وحتى نهاية القرن الثالث عشر يتمتعون بحضارة مزدهرة لم ير التاريخ لها مثيلاً في الوقت الذي كان الغرب غارقاً في بحر من الظلمات ومن المؤكد تاريخياً ان الغرب الاوربي ظل طول العصور الوسطى وحتى نهاية القرن الحادي عشر عندما بدأت الحملات الصليبية غزوها بلاد الشام غارقاً في غمرة التأخر الحضاري في الوقت الذي كان العرب في المشرق والمغرب ينعمون بمدنية راقية وبمستوى حضاري رفيع . والعرب هم الذين نشروا لواء المدنية أنّى ذهبوا في اقاصي البلاد ودانيها . وقد اشار العلامة كويلر يونج في ختام بحث له عن اثر الثقافة الاسلامية في الغرب المسيحي بقوله :

« وبعد فهذا عرض تاريخي قصد به التذكير بالدين الثقافي العظيم الذي ندين به للاسلام منذ كنا نحن المسيحيين — داخل هذه الالف سنة — نسافر الى العواصم الاسلامية والى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الانسانية وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكي الذي قام الاسلام على رعايته خير قيام حتى استطاعت اوربا مرة اخرى ان تتفهمه وترعاه . كل هذا يجب ان يمازج الروح التي نتجه بها — نحن المسيحيين — نحو الاسلام نحمل اليه هدايانا الثقافية والروحية ، فلنذهب اليه — اذن — في شعورنا بالمساواة نؤدي الدين القديم ولن نتجاوز حدود العدالة اذا نحن ادينا ما علينا بربحه ولكننا سنكون مسيحيين حقاً اذا نحن تناسينا شروط التبادل ، واعطينا في حب واعتراف بالجميل »(٢) .

---

(١) هونكه سيجريد ، شمس الله على الغرب — فضل العرب على الغرب ص ٩

2 — The Cultural Contribution to Christiandom. T. Cuyler Young.

لقد بدأ الضمير العالمي يستيقظ فظهرت مذاهب انسانية حديثة تنادى بالاعتراف بالحقيقة وبأزالة التعصب الاعمى عن العيون لفهم عدو الامس وتحويله الى صديق ما دام انه قدم للحضارة الانسانية عطاء لم تقدمه رومة واثينا ولم يقدمه اي شعب من شعوب العالم بالقدر الذي قدمه العرب وذلك بالاعتراف بفضله على الحضارة وبمكانته العالمية وبما اسداه للغرب من حضارة وعلم .

ومن حسن الحظ ان انقضت تلك الفترة الزمنية التي كان الاوربي يشعر فيها بالمذلة حين يفتح عينيه ليبصر الحقيقة فيرى انه مدين للعرب بدين عظيم فتدفعه الرغبة في الاستعلاء والشموخ دفاعاً عن النفس والكيان والتراث القومي وليس امامه سبيل الى ذلك غير التحامل على العرب تعصباً لبني قومه متجاهلاً بذلك الدين الكبير للعرب الذي يطوقه من العنق الى اخمس القدمين ، وحلت محلها فترة احكمت فيها الروابط الانسانية والتفاهم العالمي وتحرر فيها الضمير الى حد ما من التعصب الاعمى والتبعية الحاقدة واخذت روح العصر المتفتحة تدرس الحضارات البشرية بتجرد وموضوعية وبروح التعاون بين الامم والشعوب تحقيقاً للوحدة الانسانية وحباً في اقرار السلام والوئام بينها على اختلاف دياناتها ومذاهبها واجناسها والوانها ولغاتها وثقافاتها مؤكدة ان الازدهار الحضاري الذي تنعم به اوربا وامريكا وسائر دول العالم في الوقت الحاضر انما هو حصيلة الحضارات الكبرى التي نشأت في عصور متعاقبة في آسية واوربا فتركت طابعها التاريخي على الامم والشعوب كافة وعملت على تقدمها وازدهارها . ولهذا اصبح من حق جميع الامم ان تشارك في كل ما اغدقته الحضارة الانسانية من خيرات ونعم وان تستفيد من تطبيقات هذه الحضارة التي تعد خلاصة الحضارات الكبرى المتعاقبة آخذين بعين الاعتبار ان التاريخ الانساني يتسم بالاخذ والعطاء والتعاون بين الشعوب . ولا محل فيه لشعور المعطي بالاستعلاء وشعور المعطى بالغضاضة . فجميع الشعوب ذات التاريخ العريق والحضارات المرموقة قد اخذت واعطت وان تفاوتت نسب الاخذ والعطاء عند الامم والشعوب .

الفصل الثالث

معابر انتقال الحضارة العربية الى الغرب

كان الشعب العربي في القرون الوسطى رائداً لغيره من شعوب العالم في حمل مشعل الحضارة والعلوم مدة تربو على سبعة قرون . وترجع الاهمية العالمية للعلم العربي الى انه نقـل كنـوز المعرفة والعلوم القديمة من الشرق والغرب الى الشعوب المسيحية في غرب اوربا بعد ادخالهم اضافات هامة على هذه العلوم وإغنائهابابتكارات جديدة ادت الى تنميتها وانضاجها . وقد اتصلت اوربا بالحضارة العربية والعالم العربي من خلال اربعة معابر هي الاندلس وصقلية والحروب الصليبية والقسطنطينية .

الاندلـس :

كانت اسبانيا العربية اهم مركز من مراكز التقاء الشرق بالغرب واكثرها اهمية من حيث النتائج والآثار . فتح العرب اسبانيا في سنة ٧١١م واستمر الوجود العربي في الاندلس مدة تقرب من ثمانية قرون . وكانت تلك المدة كافية لنقل الحضارة العربية التي بلغت قمة الازدهار والنضوج الى الشعبين الاسباني والبرتغالي ، اذ ظهر في الاندلس كثيرون من العلماء العرب والمسلمين في تلك الحقبة ممن اصبحوا اساطين في العلم والفلسفة فقادوا الحركة العلمية والثقافية في العالم وكانوا روادها الاوائل في الغرب واصبحت بلاد الاندلس تثير بحضارتها العربية وعلومها وفنونهـا اهتمام الامم الاوربية بالاضافة الى ان جامعاتها المزدهرة كانت مقصد طلاب العلم من كل مكان . وفي الوقت نفسه الذي كانت تضطرم فيه معـارك الحروب الصليبية في الشرق في القرن الثاني عشر كانت مدارس الترجمة الاندلسية وخاصة مدرسة طليطلة تقوم بعملها المنظم في نقل ثمار العلوم العربية والاسلامية الى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في سائر انحاء اوربا والتي ظلت لغة التخاطب عند الاغلبية الساحقة من سكان اسبانيا وان كانت العربية هي لغة العلم والادارة . ومنذ ذلك الحين بدأت مساهمة الحضارة العربية في تكوين حضارة اوربا وقد امتدت تلك المساهمة حتى القرن الخامس عشر وكان لها اثرها الواضح العميق . ومع ان مدرسة طليطلة لم تبلغ عظمة مدرسة بغداد في نقل العلوم وترجمتها فقد كان لها دور بارز في اذاعة

العلم العربي في المؤسسات العلمية الاوربية . ولهذا تعتبر الاندلس المعبر الاول الذي انتقلت منه الحضارة العربية الى اوربا واستطاعت اسبانيا ان تقيم امبراطورية ضخمة قوية لها في اوائل القرن السادس عشر . وقد انتقلت الحضارة العربية الى امريكا بعد سقوط غرناطة في ايدي الملكيين الكاثوليكيين واكتشاف امريكا في سنة ١٤٩٢ اذ تمكن الشعبان الاسباني والبرتغالي من اقامة ملك واسع لهما في القارتين الامريكيتين امتد من كاليفورنيا في اقصى الشمال الى الارجنتين في اقصى الجنوب .

صقليـــــة :

كانت صقلية المعبر الثاني الذي انتقلت منه الحضارة العربية الى اوربا . فهذه الجزيرة كانت قد سقطت بيد الاغالبة العرب في اوائل القرن الثالث الهجري(٨٢٧م) واستمر وجودهم فيها طول عهد حكمهم لتونس في شمال افريقيـــا ثم دانت للفاطميين الذين قضوا على دولة الاغالبة في السنوات الاخيرة من القرن الثالث الهجري. وقد انتشر العرب في الجزيرة وانتشر معهم الدين الاسلامي والحضارة العربية في عصري الاغالبة والفاطميين . وفي اواخر القرن الخامس الهجري (١٠٩٠م) نجح النورمان في الاستيلاء على الجزيرة وبالرغم من زوال الحكم العربي فقد بقيت الحضارة العربية تشع نور العلم والمعرفة في تلك الجزيرة عدة قرون اذ وقع حكامها الجدد في اسرها عن طيب خاطر ذلك ان النورمان اتبعوا سياسة تقريب العرب اليهم فعينوا الكثيرين منهم في الوظائف الحكومية واحتضنوا الثقافة العربية وكان ملكهم الشهير فردريك الثاني مولعاً باللغة العربية وبالعلوم الاسلامية كما كان على جانب عظيم من العلم والحكمة والسياسة وقد شجع العلماء وقربهم اليه بغض النظر عن جنسهم ودينهم فلم يفرق بين مسيحي ومسلم ويهودي . فالدعم الذي تهيأ للحضارة العربية والعلم العربي من ملوك النورمان كان سبباً في انتقال تلك الحضارة وذلك العلم الى شمال ايطاليا ومنها الى سائر البلدان الاوربية . وكانت الحضارة العربية في جزيرة صقلية مزيجاً من الثقافة العربية واللاتينية والاغريقية . وكانت الصدارة للثقافة العربية وكان تفوق العرب واضحاً كل الوضوح في العلوم بشكل عام وفي الطب بشكل خاص . وبعد سقوط الجزيرة بيد النورمان في سنة ١٠٩٠ استمرت الثقافة العربية تشع نورها عدة حقوب تاريخية . وكان لوجود اللغة العربية واللغة اللاتينية جنباً

الى جنب وقيام صلات ودية بين المسلمين والمسيحيين اثره الحميد في ذيوع المعرفة الجغرافية وغيرها من الوان المعرفة على نطاق واسع . فجهود العالم الجغرافي الفلكي ابي عبدالله محمد الادريسي في صنع كرة ارضية وخريطة للعالم وتأليفه كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » بتكليف من الملك روجر الثاني اكبر دليل على التعاون العلمي المثمر بين ملوك النورمان وعلماء العرب .

كان معظم ملوك النورمان يتقنون اللغة العربية قراءة وكتابة ومخاطبة وكانوا يقرأون الكتب العلمية المختلفة بهذه اللغة . وكانت العلاقات العربية النورمانية اقوى ما تكون في عهد الامبراطور فردريك الثاني ومعاصره السلطان الايوبي المسلم الكامل وكان في عصر كثرت فيه الحروب الصليبية واشتد فيه العداء والقتال بين المسيحيين والمسلمين غير ان الظروف السياسية وقتئذ التي كانت تحيط بكل منهما كان لها الاثر القوي في اقامة العلاقات الودية بينهما وتوثيقها فقد سبقا عصرهما بثقافتهما وعقليتهما اذ غلبت عليهما عقلية الحاكم المثقف والسياسي المحنك الذي يعنى بالاصلاح ونشر العلم وانشاء المعاهد العلمية والكليات والمدارس والايمان بحرية الفكر اكثر مما يعنى بالحروب .

الحروب الصليبية :

كانت الحروب الصليبية المعبر الثالث الذي انتقلت منه الحضارة العربية الى الغرب اذ من الثابت ان الغرب الاوربي ظل في العصور الوسطى حتى اواخر القرن الحادي عشر غارقاً في غمرة التأخر الحضاري الى ان بدأ الصراع بين الغرب والشرق. وقد حاول الغرب ان يلبس هذا الصراع مسوح الدين ليخفي من ورائه اغراضه الدنيوية واهدافه الاستعمارية الاستيطانية فأندلعت نيران الحروب الصليبية بعد ان توافدت افواج المحاربين من الغرب بجحافلها الجرارة واستمرت الحروب سجالاً بين مد وجزر زهاء قرنين من الزمان تمكن الشرق في نهاية المطاف من طرد الغزاة من بلاد الشرق . وكانت جموع الفرنج الغازية تتوقع ان تلتقي في بلاد سورية وفلسطين والشرق العربي بأمة همجية متأخرة بعيدة عن الحضارة فهالها ان ترى امة تفوق بيزنطية في حضارتها وهي الدولة التي كانت تنظر اليها على انها المثل الاعلى في التقدم الحضاري واستغربوا كيف ان العرب والمسلمين في المشرق والمغرب

كانوا ينعمون بمستوى حضاري رفيع ، دونه بكثير المستوى المنحط الذي عاشه الاوربيون الغربيون وفي ذلك يقول غوستاف لوبون :

« اذا اراد المرء تصور تأثير الشرق في الغرب وجب عليه ان يتمثل الحضارة التي كانت شعوبهما متقابلة . فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب واما الغرب فكان غارقاً في بحر من الهمجية . وقد ظهر من بياننا الوجيز عن الحروب الصليبية أن الصليبيين كانوا وحوشاً ضارية وانهم كانوا ينهبون الاصدقاء والاعداء ويذبحونهم على السواء وانهم خرّبوا في القسطنطينية ما لا يقدر بثمن من الكنوز القديمة الموروثة عن اليونان والرومان ولم يكن عند اولئك البرابرة ما يفيد الشرق ولم ينتفع الشرق منهم بشيء في الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند اهل الشرق من نتائج سوى بذرها في قلوبهم الازدراء بالغربيين على مرّ الأجيال ، ولم ينشأ عن جهالة الصليبيين وغلظتهم وتوحشهم وسوء نيتهم سوى حمل الشرقيين اسوأ الافكار عن نصارى اوربا وعن النصرانية وسوى ايجاد هوة عميقة لا يمكن سدها بين أمم الشرق وأمم الغرب وما إلى ذلك من النتائج الضارة التي أشرنا اليها »(١) .

لقد فتح الغرب عينيه على هذا العالم العربي الإسلامي المتحضر المتقدم في مختلف فروع العلوم والمعرفة في بلاد الشام وما بين النهرين وأصبحت الحروب الصليبية ميداناً للكسب الحضاري ، وبدأت محاولات الغرب المنظمة في الإقتباس من ذلك المنهل العذب الجديد الذي وجدوا انفسهم فجأة على ضفافه . وقد اثبتت الابحاث الحديثة ان الشعوب الاوربية دخلت في حركة افاقة شاملة في عصر الحروب الصليبية ، وان هذه الحركة شملت جميع نواحي الحياة في الغرب . وقد اطلق عليها هاسكنز اسم (النهضة الاوربية في القرن الثاني عشر) ولدى قيام المؤرخين بتقصي اسبابها وبواعثها لم يستطيعوا مطلقاً اغفال اثر الحروب الصليبية بحكم ما تم في اثنائها من اتصال قوي بين الصليبيين الغربيين من ناحية والمسلمين من ناحية اخرى مما ساعد على انتقال الكثير من مظاهر الحضارة الاسلامية العربية الى الغرب الاوربي . ويقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في ذلك :

« اننا لا نريد ان ننساق في الطريق الذي انساق فيه كثير من الكتاب الاوربيين في القرن التاسع عشر فنبالغ في اهمية بلاد الشام والحروب الصليبية كمعبر انتقلت

(١) لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ص ٣٣٤

منه حضارة المسلمين الى الغرب الاوربي . ذلك ان الحقيقة الكبرى التي يجب الا نغفل عنها هي ان الصليبيين اتوا الى الشرق الاوربي في اواخر القرن الحادي عشر محاربين لا طلاب علم ، وان ظروف اقامتهم في الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت صعبة وسط محيط واسع من الاعداء يهاجمونهم ويتربصون بهم الدوائر مما لم يترك لهم مجالاً للاستقرار الهادىء الذي هو شرط اساسي للتوافر على طلب العلم. واذا كانت هنالك معابر انتقلت عنها علوم العرب الى الغرب الاوربي في عصر الحروب الصليبية فأننا يجب ان نلقي الاضواء على اسبانيا وصقلية اولاً وقبل كل شيء ففي اسبانيا وصقلية ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية . وفيهما قامت في القرن الثاني عشر حركة ضخمة لترجمة الكتب وخلاصة الفكر العربي والاسلامي من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية »(١) .

ان الشيء المؤكد هو ان اليونان من بعض الوجوه والعرب من جل الوجوه كانوا أرقى حضارة واكثر تقدماً من الاوربيين الغربيين الذين غزوا بلاد الشام بجحافلهم الجرارة . ورغم ان العرب في عصر الحروب الصليبية كانوا ذوي عبقرية فكرية وسيادة علمية في الرياضيات والطبيعيات والفلك والكيمياء والصيدلة والطب والفلسفة فالاوربيون في ذلك العصر لم يبرهنوا على انهم كانوا ميالين الى الاستفادة من كنوز العرب العلمية كما كانوا ميالين الى الاستفادة من السلع وادوات الترف والزينة . ويرجح ان تكون مؤثرات الشرق العلمية والفلسفية في الحضارة الغربية من خلال اسبانيا وصقلية اشد واقوى من مؤثراتها من خلال الموصل وبغداد والقاهرة وبلاد الشام . وهناك سببان يعززان هذا الفرض وهما :—

أولاً : — لم يستطع الصليبيون الاستفادة من ثقافة الشرق العلمية كما استطاع المسيحيون الاستفادة من ثقافة المسلمين في كل من اسبانيا وصقلية وذلك لقلة المدارس والجامعات في سورية ووفرتها في اسبانيا وصقلية .

ثانياً : — لم يكن بين الحكام المسيحيين في مملكة القدس او في الامارات السورية التي انشأها الصليبيون في انطاكية والرها وطرابلس من كان يعنى بالعلوم والفلسفة كما كانت الحال في صقلية ابان حكم روجر الثاني وفردريك الثاني . بيد ان الصليبيين رغم كل ذلك استفادوا من علوم العرب

---

(١) عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية الجزء الثاني ص ١٢٦٩—١٢٧٠

وفلسفتهم سواءً اكانت تلك الاستفادة كثيرة أم قليلة بحكم اتصالهم الوثيق بالعرب وارتباطهم معهم بعلاقات ودية في فترات السلم التي كانت تتخلل الحملات الصليبية .

ثالثاً : — نشأت في صقلية حضارة هي خليط من حضارات عدة شعوب كانت تسكن الجزيرة وكان حكام الجزيرة امثال روجر الثاني وفردريك الثاني يشجعون الأخذ عن حضارات هذه الشعوب التي كانت تتألف من العرب والأغريق والنورمنديين والايطاليين وغيرهم .

لقد رسخت اقدام العرب في اسبانيا وصقلية قبل ابتداء الحروب الصليبية بثلاثة قرون ومن المقرر أن تأثير الشرق العربي على الغرب الاوربي في النواحي التجارية والصناعية والزراعية وفي الامور الحربية والهندسية وفي المسائل التي لها صلة بعلمي التاريخ والجغرافية كانت اشد واعمق من تأثيرها في الغرب الاوربي من مراكزها في أسبانيا وصقلية . اما تأثيرها في النواحي العلمية والفلسفية في مصر وسورية والعراق فكانت اضعف من تأثيرها في اسبانيا وصقلية . غير أن هذه الاسباب كلها لم تحل دون تسرب العلم العربي والحضارة العربية الى الامم اللاتينية بين آونة واخرى في غضون فترات السلم الطويلة التي كانت تتخلل الحملات الصليبية والتي امتدت نحو قرنين من الزمان .

ومهما يكن من امر فهناك فريق من المؤرخين يرى ان الحروب الصليبية هي العامل الاول في نهضة اوربا وينسب اليها كل فضل ومن هـؤلاء هن ام راين Hen-am--Rhyn وبروتز Prutz الالمانيـان ولوبون الفرنسي ومنهم من ينكر اثر الحروب الصليبية في نهضة اوربا وعلى رأسهم ايرنست باركر الذي يتساءل : « من هو الذي يقول ان اوربا الغربية ، كانت خاوية وتفتقر الى كل شيء بينما يقول لوبون « كان الشرق يتمتع بفضل العرب بحضارة زاهرة في حين كان الغرب غارقاً في بحر من الجهالة» .

ونحن بين النظريتين نظرية المبالغة في اثر الحروب الصليبية ونظرية الانتقاص من اثرها نرى ان اثر الحروب الصليبية في نهضة اوربا ان لم يأت بصورة قوية ومباشرة كما كان الحال في أسبانيا وصقلية فقد كان أثراً له اهميته ذلك لأن الحروب الصليبية ساعدت على تحرير الفكر والعقل وفتحت اذهان الاوربيين الى ان يعرفوا ان هنالك

شعوباً راقية ذات حضارات عريقة لم تعرف اوربا لها مثيلاً . وان حركة شبيهة بالحركة الصليبية تجعل مئات الالوف من الناس ممن يحملون افكاراً فجة وعقولاً ضيقة لم يسبق لهم ان اختلطوا بعالم خارجي غير عالم الاقطاع الذي كان يقسم الناس الى سيد ومسود ينتقلون الى وسط راق متطور ثقافياً وعلمياً واجتماعياً وفكرياً ويحتكون بهم وتقوم بينهم علاقات اجتماعية وصلات تجارية ولقاءات ودية في فترات السلم الطويلة فلا بد لهذه الحركة ان تأتي ثمارها في توسيع آفاق الصليبيين الضيقة وفي نظرتهم الى العالم فيعودون الى بلدانهم وهم اكثر تحرراً واشد شوقاً الى العمل المستقل الذي يرفع من كرامة الانسان ويزيح عنه كابوس العبودية والخضوع الى نظم الاقطاع التي ولدت في نفسه المذلة واضعاف النفس وقتلت فيه روح المبادأة والابتكار . فالحروب الصليبية اكسبت اوربا نظرة جديدة واسعة الى العالم مصحوبة بنهضة جديدة نحو الارتياد ومعرفة العالم سكانه وعاداته وتقاليـــده وآفاق تفكيره ومصادر ثروته والاستفادة من ثقافته وحضارته المزدهرة .

القسطنطينيـــة :

كانت القسطنطينية المعبر الرابع لانتقال الحضارة العربية الى اوربا اذ حمل العلماء الهاربون منها علوم العرب والرومان والاغريق وتراثهم الحضاري بعـــد سقوطها بيـــد الاتراك في سنة ١٤٥٣ بقيـــادة محمد الفـــاتح الامر الذي اسرع في قيام النهضة الاوربية في ايطاليا وانتقالها الى سائر بلدان اوربا الغربية . وقد زاد هذا الانتقال من معطيات العرب الحضارية لشعوب اوربا الغربية .

والجدير بالذكر ان انتقال الحضارة من بلد الى بلد ما ومن شعب الى شعب آخر ومن قارة الى قارة اخرى كان يتم عادة عن طريق الاتصال المباشر او عن طريق الغزو والفتح واختلاط الشعوب بعضها ببعض او عن طريق الرحلات والارتياد او عن طريق الهجرة وما يصاحبها من انتقال الكتب والمؤلفات والمخطوطات والنقوش والآثار وما الى ذلك .

الفصل الرابع

المؤثرات الثقافية

اولاً : تحرير العقل :

كان بناء جسر من الاتصال المباشر بين شعوب اوربا المسيحية والمسلمين في الشرق العربي من اهم نتائج الحروب الصليبية اذ مكنت الحروب الصليبية تلك الشعوب من الاتصال بالعرب والأخذ عن حضارتهم وعلومهم فملىء ذلك الفراغ الكبير الذي كان يفصل الشرق عن الغرب وعرف الناس بلداناً جديدة وشعوباً كثيرة وديانات كانوا يجهلونها واتسع أفق رؤيتهم الضيق واقتبسوا آراء جديدة وحوافز جديدة كما اتجهت انظارهم الى اشياء جديدة كانت ستظل مهملة لولا تلك المغامرة التي مكنت مئات الالوف من الناس من ذوي الافكار الفجة والعقول الضيقة من العيش في وسط سبقهم أهله شوطاً بعيداً في مضمار الحضارة والتطور الاجتماعي والتقدم العلمي ولا ريب في ان ذلك الاحتكاك بين سكان البلاد الاصليين والصليبيين القادمين من بلدان أوربا الغربية كان من شأنه ان ينقل هؤلاء الغزاة من آفاقهم الضيقة الى آفاق اوسع وارحب فيؤثر في نفوسهم وفي مجال تفكيرهم فيصبحون اكثر قابلية للتطور وتغيير مفاهيم الحياة واساليب التفكير عندهم، اذ يؤكد المؤرخون ان الصليبيين الذين عادوا من الشرق الى اوطانهم في اوربا الغربية كانوا يحملون معهم بذور الحرية الاجتماعية. فيتحررون من عبودية الاقطاع وتحكم رجال الدين، بالاضافة الى ما كانوا يتحلون به من صفات الفروسية التي اقتبسوها من العرب والمسلمين في ميادين القتال ومن خلال الصّلات الإجتماعية التي قامت في فترات السلم، وبالاضافة ايضاً الى اكتساب ثقافة جديدة وعلوم جديدة وعادات جديدة ومثل اخلاقية عليا ساعدت على تطور الهيئة الاجتماعية في غرب اوربا وفي إحداث انقلاب عظيم في اوساط الشعوب الاوربية.

غير ان الحروب الصليبية انتجت شيئاً أهم من انتشار الآراء ذلك هو تحرير العقل. فالحروب الصليبية خلقت وحدة سياسية اقوى بين شعوب اوربا وحرية فردية اوسع مما كانت عليه سابقاً وبعبارة اخرى ساعدت على تمركز الهيئة الاجتماعية.

وقد يتساءل البعض عن عناصر الحضارة التي نقلها الصليبيون من الشرق العربي الى الغرب الاوربي . والجواب على ذلك هو ان القسم الاعظم من الاكتشافات المهمة التي تمت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ساعدت على تقدم الحضارة في اوربا فالبوصلة والطباعة والبارود كانت معروفة في الشرق ومن المرجح ان الصليبيين هم الذين نقلوها معهم الى اوربا هذا — الى حد ما — صحيح ولكن اعظم تأثير للحروب الصليبية كان تحرير العقل لأن الصليبيين نقلوا الهيئة الاجتماعية الاوربية من نطاق ضيق محدود الرؤية الى نطاق واسع رحب الرؤية . فهم الذين قلبوا اسس الهيئة الاجتماعية الاوربية فحولوها الى حكومات وشعوب لها صفة الحضارة الحديثة .

ثانياً — الصلات الاجتماعية :

لم يعرف في تاريخ العالم ان اتصلت شعوب اوربا الغربية مباشرة بشعوب الشرق واختبرت نسبياً توسعاً سريعاً في معرفتها العالم كما عرف في عصر الحروب الصليبية ولكن نهضة الآداب والعلوم The Renaissance والثورة الصناعية The Industrial Revolution في العصر الحديث اي عصر العلوم قد تركا اثراً اكبر في العقل الاوربي وفي المعرفة الاوربية مما تركته الحروب الصليبية وكان نصيبهما اعظم من نصيب الحروب الصليبية في تحسين المعيشة غير ان ذلك الاثر لم يكن نتيجة لاختلاط مباشر بين الشرق والغرب .

لقد بدأ اول اتصال بين الصليبيين والعرب في ساحات القتال ولكن الصليبيين سرعان ما اظهروا اعجابهم ببطولة المسلمين وشجاعتهم النادرتين واخيراً اكتشفوا في العرب والمسلمين صفات طيبة اخرى كثيرة . لقد قدم الصليبيون الى الشرق بادىء الامر وهم يعتقدون انالمسلمين وثنيون يعبدون النبي محمد (صلعم) كأله وانهم يفوقونهم بمراحل . ولكن هذا الظن الخاطىء سرعان ما انقشع بعد اول اتصال لهم بالمسلمين . واما ما تركه الصليبيون في المسلمين من انطباع فقد وصفه اسامه بن المنقذ بقوله « انهم بهائم تتجلى فيهم صفتا القتال والشجاعة ليس اكثر كما تتصف البهائم بصفتي القوة والحمل » .

لقد كان للعلاقات الاجتماعية والثقافية التي قامت بين المسيحيين الغربيين والمسلمين في عصر الحروب الصليبية اثر مهم في تطوير الشعوب الاوربية اذ ما كادت

جموع الصليبيين تحرز ذلك النصر المؤقت في الحملة الصليبية الاولى حتى استقر بها المقام في المدن الساحلية السورية وفي بعض السهول الداخلية فأقاموا مملكة القدس واماراتي انطاكية والرها وكونتية طرابلس واخذوا يشعرون بطيب الهواء واعتدال المناخ وجمال الطبيعة وعظيم الثراء فترك ذلك كله اثراً طيباً في نفوسهم جعلهم يحبون البلاد ويرغبون في الاقامة الدائمة فيها وتغيرت بذلك روحهم المعنوية لانهم وجدوا انفسهم امام شعوب متحضرة راقية تحترم المرأة وتشفق على الشيخ والطفل وتعبد الله لا محمداً ويقول في ذلك غروسيه « ولنا فيما قرره المؤرخون المنصفون بهذا الصدد الشواهد العدل ايضاً على ما قررناه سابقاً . فلنسمع ما يجهر به احدهم ، فوشيه دو شارتر في مؤلفه F. de Chartres اذ يقول في تاريخ سنة ١١٢٠م (ها نحن اولاً قد تحولنا الى شرقيين . فمن كان منا ايطالياً او فرنسياً بالامس ، قد اصبح اليوم في وطنه الجديد ، جليلياً او فلسطينياً وكذلك قد تحول ابن مدينة ريمس Reims او مدينة Chartres الى صوري او انطاكي فقد نسي كل منا وطنه الاول فلم يعد احد يتذكره بل لم يعد احد يتكلم عنه . وقد غدا الواحد منا يملك بيتاً وحشماً وهو مطمئن حتى كأنه ورث ذلك بحق قديم له في البلاد كما ان البعض قد تزوجوا لا بالمواطنات الغربيات بل بالسوريات او الارمنيات او احياناً بالمسلمات ، بعد ان تعمدن ، هكذا اصبح كل منا يعيش في وسط اسرة وطنية جميلة ، اننا لنستعمل من آن لاخر اللغات المحلية المختلفة فأصبح ابن البلد والمهاجر منا من متعددي اللغات وقد شد التضامن ما بين اكثر الاجناس منا تباعداً حتى صدقت فينا آية التوراة القائلة (سيأكل الاسد والنمر في معلف واحد) . ويكادالواحد منا يكون قد تبلد والمهاجر قد تمثل بالقيم . وفي كل يوم يغدو علينا الاقرباء والاصدقاء فيفضلون ان يتركوا عقاراتهم هناك لينضموا الينا اذ اصبح في الحقيقة الفقير منا غنياً بنعمة الله ومن كان لا يملك سوى دريهمات يصبح ينعم هنا بثروة طائلة ضخمة حتى ان من لم يكن يملك قرية غدا هنا سيداً لمدينة بكاملها . فلم العودة الى الغرب طالما الشرق يحقق له كل الرغبات ؟ » (١) .

لقد كان للعلاقات الاجتماعية الطيبة التي سادت بين الفرنجة والعرب في فترات السلم الطويلة والاحتكاك بين الشعوب المسيحية والاسلامية في الشرق العربي اثرها

(١) غروشيه ج١ ص ٣٨٧ نقلا عن الدكتور زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ص ١١٣

الكبير في تهذيب نفوس الفرنجة والتخفيف من خشونة اخلاقهم وجفاء طبعهم . ومع الزمن ضعف ولاء الفرنجة الذين ولدوا في البلاد السورية وعاشوا فيها مدة طويلة واحتكوا بسكان البلاد الاصليين وقامت بينهم علاقات تجارية وصناعية واقتصادية واجتماعية لبلدانهم الاصلية في غرب اوربا التي عاش فيها آباؤهم واجدادهم ففقدوا بذلك العزة القومية لكثرة ما تغير عليهم من حكام واصبح الامر لديهم سيان ما داموا يعاملون بالعدل وقد انصرف معظمهم الى الاعمال الصناعية والزراعية والتجارية وتركوا امر القتال لبعض الفرسان وعشاق الحرب . وهذه الظاهرة ساعدت على تقريب الشقة بين الشعوب المسيحية من جهة والمسلمين والعرب من جهة اخرى فقوي الاختلاط بينهم . ولا عجب ان نسمع صليبياً يقول « ان القتال بين المسلمين والافرنج انتحار اخوي » .

ويمكن القول ان اروع ما سجله التاريخ عن حياة العرب والافرنج في خلال الحروب الصليبية انشاء علاقات اجتماعية وصداقات ربطت في اوقات السلم بين قلوب الفريقين المتحاربين فخلقت جواً من التفاهم والاحترام المتبادل يجعلنا نعتقد ان الانسان مهما بلغت فيه الرغبة في الانتقام والشهوة في اراقة الدماء وطغت عليه المطامع الدنيوية فلا بد ان تبقى هنالك بين جنبيه زاوية تميل للخير وتجنح للسلم والارتفاع روحياً الى المثل الاخلاقية العليا والفضائل الانسانية التي تميزه عن سائر المخلوقات الحيوانية الشرسة . ومن امثلة تلك العلاقات الودية ما رواه اسامة بن المنقذ حيث يقول عن نفسه في كتاب الاعتبار ص ٨١ .

« كنت اتردد الى ملك الافرنج فلك الخامس ملك القدس في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك (امير دمشق وقتئذ) رحمه الله ليدٍ كانت للوالد على بلدوين الملك والد الملكة امرأة الملك فلك الخامس »(١) .

وجاء في صفحة ٩٠ من نفس الكتاب المذكور « وذلك ان جوسلين الاول صاحب تل باشر ، اغار على الرقة والقلعة ، وهي لنجم الدولة مالك بن سالم ، فأخذ كل ما عليها وسبى وساق غنائم كثيرة ونزل مقابل القلعة وبينهم الفرات . فركب نجم الدولة مالك في زورق ، وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة ، ولمالك

(١) النقاش زكي ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ص ١٦٦

عليه جميل . . . . فقام جوسلين والتقاه واكرمه ، وردّ عليه جميع ما اخذه من الغنائم والسبي »(١) .

ويقول اسامة ايضاً في كتابه في صفحة ١٣٤—١٣٥ « كنت إذا دخلت المسجد الاقصى (في القدس) وفيه الداوية وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه »(٢) .

فبالاضافة الى علاقات الصداقة التي قامت بين العرب والفرنج في فترات السلم في عصر الحروب الصليبية فقد احب الصليبيون البلاد السورية وتعلقوا بها لوفرة خيراتها واعتدال مناخها وطيب هوائها ودماثة اخلاق اهلها وحسن معاشرتهم ولهذا لم يعودوا يسألون عن اوطانهم الاصلية واعتبروا البلاد السورية بلادهم ووطنهم وكان الفرنسيون ادهى الشعوب الاوربية سياسة واحسنهم معاملة للسكان الذين كانوا يقعون تحت حكمهم وقد استطاعوا بسهولة ان يمتصوا بعض عادات اهل البلاد وان يهضموها وان يقيموا علاقات طيبة مع جيرانهم المسلمين ومع الرعايا الخاضعين لهم . وقد حظيت مثل هذه التطورات بالاهتمام الكبير من لدن المؤرخ ف جفري والمؤرخ و هـ بروتز اللذين اعتبرا اقامة الامارات اللاتينية في البلاد السورية انها تكون الفصـــل الاول في تاريخ فرنسا الاستعماري . ويؤمن المؤرخ لويس مدلـــين Louis Madelin بحرارة بمقدرة الفرنسيين على حكم الشعوب الاخرى لمصلحتها .

وفي ذلك يقول آرسي سميل :

"The early history of the Latin Sates shows that the Franks rapidly assimilated some of the customs of the country and established good relations with their Muslim neighbours and subjects. Such developments received marked attention in works as early as those of Rey and Prutz, and they were given fresh emphasis when Frenchmen came to regard the Latin States as the first chapter in their colonial history .... Louis Madelin, this historian, believed ardently in the ability of Frenchmen to rule other peoples for their good" (3)

ويمضي ايضاً فيقول :

« كان الفرنسيون ذوي عبقرية استعمارية ، وحتى في تلك البلدان فقد اضاعوا اسمهم ولم تنسَ عدالة حكمهم كما كانت الحال في سورية . وقد ضمنت عدالة

(١) النقاش ، زكي ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ص ١٦٦
(٢) النقاش ، زكي ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ص ١٦٧
3 — R. C. Smail, Crusading Warfare, P. 43

القرن الثاني عشر الفرنسية لكل طبقة من طبقات الرعايا الفرنسيين الشرقيين التمتع بحقوقها الخاصة وعاداتها الوطنية . وكان الفرنسيون محبوبين لأنهم — وان كانوا غزاة فاتحين — لم يقفوا بمعزل بعيدين عن الشعب الذي كان خاضعاً لحكمهم . لقد استعملوا لباسهم واتخذوا عاداتهم وتعلموا لغتهم واقاموا معهم علاقـات صداقة متينة . فكانت النتيجة التزاوج بين الشرق والغرب وكون الخلف ليس وحدة حضارية فحسب بل ايضاً وحدة قومية فرنجية سورية . وقد قيل ان سكان الامارات اللاتينية وان كانوا عالميين (ينتمون الى عدة شعوب وأمم) فقد كانوا يؤلفون هيئة اجتماعية مكمل بعضها بعضاً ومتجانسة بحيث امتزجت بأرتياح عناصر الدين والجنس بسرعة فكونت حياة خاصة بها لها قوتها الداخلية »(١) .

"The French have a genius for colonization, and even in those lands they have lost their name and, above all, the justice of their rule have never been forgoten. So it is in Syria. Twelfth-century French justice guaranteed to each class of its eastern subjects the enjoyment of its own rights and native custom. The French were beloved because they did not, although conquerors, remain aloof from the the people over whom they ruled. They adopted their dress and manners, learned their language, maintained with them close and friendly relations. The result was the intermarriage of East and West. The offspring was not only une civilization originale. but also une nation franco-syrienne. The latin states, it is said, were peopled by a cosmopolitan yet integrated society in which the various racial and religious elements were happily blended, and which had an inner life and strength of its own"

كانت الحاجة ماسة الى قيام علاقات ودية بين الفرنجة والمسلمين في الشرق العربي وخاصة في فترات السلم التي كانت اطول من فترات الحرب واخذ الصليبيون يتعرفون على أنواع الاطعمة السورية التي اعجبتهم نكهتها فأقبلوا عليها اقبالاً شديداً لانها كانت اشهى والذ من اطعمتهم وخاصة انواع الاطعمة التي يكثر فيها استعمال السكر والبهارات واقبلوا على استعمال انواع الفطائر والمعجنات والتمر الهندي والافاوية والذرة الشامية والاطياب والبهارات والذرة وانواع القطاني الاخرى . وتعلموا بناء البيوت الشرقية الفخمة ذات الاروقة المكشوفة والابهاء الرحبة والمياه الجارية وقد فضلوها على بيوتهم الحقيرة وكانوا يكيفون حياتهم الخاصة مع مناخ البلاد وحسب الظروف ومقتضيات الحال . فكان ملوكهم وامراؤهم يقلدون الطراز

(١) آرسي سميل ، الحرب الصليبية ص ٤١

العربي في بناء قصورهم ومنازلهم فالطراز الدمشقي كان ظاهراً في بيوتهم ذات الافنية الواسعة التي تحيط بها القاعات والغرف وتتوسطها بحرة يتدفق منها الماء من خلال نافورة ليخفف رذاذها من شدة حرارة الجو في فصل الصيف ويبعث في النفوس الارتياح والبهجة .

وتفيد مصادر تاريخ الحروب الصليبية ان اخلاق الصليبيين قد تهذبت بعد سكناهم في البلاد السورية وان الفرنجة قد استخدموا الاطباء السوريين والخدم والطهاة وارباب الصناعات والعمال واهتموا بزخرفة البيوت فركبوا الزجاج على نوافذها وصفحوا ارضيتها بالفسيفساء ولبسوا الاثواب الشرقية واستعملوا الفواكه والاطعمة الشرقية وفي ذلك يقول ارسي سميل :

"The sources of crusading history give numerous instances in which the manners of the the Franks were modified after their settlement in Syria. It can be shown that the Franks employedSyrian doctors, cooks, servants, artisans labourers. They clothed themselves in eastern garments, included in their diet the fruits and dishes of the country. They had glass in their windows, mosaics on their floors, fountains in the courtyards of their houses, which were planned on the Syrian model " (1)

وتقول مصادر صليبية اخرى . قلد الصليبيون السوريين في تصفيح جدران منازلهم بالرخام والفسيفساء وفي تمويهها بالذهب والميناء وفي تجميلها بالالوان المعدنية الزاهية . فالقصر الذي اقامته اسرة ابلين مثلاً في القرن الثالث عشر في بيروت قد اشتهر بالفسيفساء التي كانت تغطي حجراته وبالجدران المصنوعة من الرخام وبالسقوف المحلاة بالصور وبالنوافذ الكبيرة المطلة غرباً على البحر وشرقاً على الحدائق والبساتين الممتدة حتى الجبال . وغدت منازل النبلاء والسادة الفرنج آية في الرواء والجمال بما ازدانت به من الطنافس والستائر المصنوعة من الدمقس وبالموائد المزينة بالحفر والتكفيت الدقيقين بالاضافة إلى الاسرة المغطاة بالفراش الناصع البياض وبالاضافة ايضاً الى ادوات المائدة والاواني الخزفية والنحاسية الرائعة الجمال والمنمقة وبالصحون والاطباق والسكاكين المصنوعة من الذهب والفضة والمعادن الثمينة . وتوافرت في هذه المنازل والدور الحجرات الجميلة لسيدات البلاط وقاعات الاستقبال الواسعة

1 — R. C. Smail, Crusading Warfare P. 41

والحمامات الشرقية وجميع وسائل الراحة التي تمثلت في الحضارة الشرقية . وقد فرشت تلك المنازل بالسجاد والرياش والطنافس وزينت بالاثاث الفاخر .

واستعمل الفرنجة الملابس الشرقية الفضفاضة والعباءات العربية المزركشة بالخيوط الذهبية والثياب ذات الأكمام الواسعة المطرزة بالخيوط الحريرية الزاهية الالوان . ولم تلبث ملابس الفرنجة ان اضحت من الفخامة والابهة ان صار لها من الصفة الشرقية ما كان لأثاث دورهم ومنازلهم . اذ حمل الفارس الاوربي عدته وسلاحه وارتدى برنساً من الحرير وقلد العرب والمسلمين ايضاً في لبس العمامة وفي ارتداء سترة من الكتان فوق درعه لوقاية الزرد من حرارة الشمس المحرقة في الصيف وذلك عند خروجه للقتال ولبس الكوفية العربية بدل الخوذة .

اما السيدة الفرنجية فقد لبست القميص الطويل والسترة القصيرة الموشاة بخيوط الذهب والمزينة بالجواهر . وقلدت المرأة الشرقية في استعمال الحجاب ليس حياءً واحتشاماً وانما لحفظ المساحيق والطلاء التي كانت تغطي وجهها . فكان البذخ الشرقي والترف السوري اللذين اتسمت بهما الحياة في الشرق العربي يثيران الدهشة في نفس القادم من اوربا بعد وصوله الى عكا او هبوطه في السويدية ذلك لانه اعتاد ان يعيش حياة البساطة والتقشف في اوربا في ظل النظام الاقطاعي البغيض . كانت ملابس الاوربي مصنوعة من الوبر او الصوف الخشن وقلما بغسلها اذ لم تتوافر وسائل الغسيل والنظافة عند الاوربيين الا في بعض المدن القديمة التي كانت توجد فيها حمامات رومانية . فتعلم الفرنجة عادة الاستحمام من العرب في سورية وادخلوا الحمامات الى بيوتهم .

فعادة الاستحمام وخلع الملابس هي من العادات التي اقتبسها الاوربيون وتقول الدكتورة سيجرد هونكه في ذلك :

« فالجرمان المخشوشنون اعتادوا كما يحدثنا (تتسيستوس) الاستحمام صباحاً وغالباً بالماء الساخن عقب قيامهم من النوم . وكان الجرماني يعتبر الاستحمام رياضة يومية ويذكر (قيصر) ان الجرماني كان يستحم بالرغم من قسوة البرد في الانهار كما كان الجنسان يستحمان معاً دون خجل . ولما زار الطرطوشي بلاد الفرنج لاحظ شيئاً آخر . فكان وهو المسلم يتوضأ قبل كل فرض من فروض الصلاة الخمسة يستنكر حال القذارة التي يحياها الشعب. لذلك صور هذه الحالة بقوله « انه لم يشاهد في حياته

اقذر منهم لا يغتسلون الا مرة او مرتين كل عام وبالماء البارد . اما ملابسهم فلا يغسلونها بعد ان لبسوها لكي لا تتمزق » . والسر في هذا التحول العظيم في عادات الشعب الجرماني هذه التعاليم الجديدة التي تقول ان تجريد الجسد من الملابس مدعاة لاثارة الغرائز الجنسية والفوضى الخلقية . لذلك عدلوا عن الاستحمام وخلع الملابس ولجأوا الى غرف صغيرة لتغيير ملابسهم فاتهمتهم التعاليم الجديدة بالفسق والدعارة ، بينما القذارة مظهر من مظاهر العفاف . ولما اندلعت نيران الحروب الصليبية واقبل الصليبيون على الشرق شاهدوا الحمامات في كل مكان . فنحن نعلم مثلاً ان بغداد وحدها كان فيها في القرن العاشر الميلادي آلاف الحمامات الساخنة والحمامون والمدلكون والحلاقون للرجال والنساء للعناية بالجسد لا اسبوعياً فقط بل يومياً بما فيها من وسائل الراحة والنظافة والزينة فهاموا بها كما هام اولئك الغربيون الذين شاهدوها في اسبانيا وصقلية فالحوا جميعهم في ادخالها الى اوربا بالرغم من المعارضات الشديدة وصرخات الاستنكار التي دوت في كل مكان . وهكذا اخذت قلاع الدفاع التي شيدتها اوربا المسيحية في وجه العرب والاسلام والحضارة العربية تستسلم الواحدة بعد الاخرى وذلك بفضل القنطرة التجارية التي اقامتها الجمهوريات الايطالية مع العرب وبفضل التجار والمسافرين والصليبيين واندفع تيار الحضارة العربية يكتسح ما امامه من عوائق فأفاقت اوربا من نعاسها وادركت اثر الجهالة التي تغط فيها ونهضت بفضل العرب والعروبة والحضارة العربية »(١) .

وليس ادل على تغلغل الاثر العربي في اوربا من النظر الى الملابس التي يرتديها الاوربيون حتى يومنا هذا سواء اكانت تلك الملابس شعبية قديمة متوارثة عن العصور الوسطى أم حديثة كما اوحى بها الذوق الحضاري وتقول الدكتورة سيجرد هونكه في ذلك :

« لبس الاوربيون في عصر الحروب الصليبية الملابس العربية المصنوعة من اقمشة عربية الخامات ، عربية الشكل ، عربية الذوق ، عربية الاسم ، عربية الوطن. وفضل العرب على المرأة الغربية في زينتها واناقتها يتجلى ايضاً ليس في ملابسها فحسب بل ايضاً في المساحيق والعطور . فشهرة الشرق في البخور والعطور قديمة . ولم تقف وسائل الزينة والتبرج عند النساء بل تعدتها الى الرجال فالرجل المسلم قد اقتدى برسول

(١) هونكه سيجرد ، شمس الله على الغرب ، فضل العرب على الغرب ص ٥٢

الله (صلعم) وتزين باطلاق اللحيـــة . ثم اتصلت اوربا بالمسلمين في الحروب الصليبية فأقتبسها الرجال واصبحت حتى اليوم من العادات المستحبة عند الغربيين»(١).

اما الالعاب الرياضية فكانت كالفنون الجميلة اثراً من آثار المدنية الهندية الاوربية اكثر مما هي من المدنية السامية اذ ان ممارستها توجب اجهاد الجسم وابن الصحراء يرى انه في غنى عن ممارسة الرياضة لمجرد اجهاد جسده بسبب ميله الفطري الى العمل الذي ينتج نفعاً وبسبب حرارة جو الصحراء الحارق غير ان العرب مارسوا بعض الالعاب المنزلية كلعبة الشطرنج والنرد . وكلمة الشطرنج مأخوذة عن اللغة السنسكريتية وهي لعبة من اصل هندي . ومن الألعاب التي مارسها العرب خارج منازلهم سباق الخيل ولعب السيف والترس والجريد والصولجان والرماية وفوق كل هذا الصيد الذي كان اهم تسلية عند العرب وخاصة زمن الخلفاء العباسيين اذ كان الامين مولعاً بصيد السباع وكان له اخ مولع بصيد الخنازير وذكر انه وقع عن دابته اثناء الصيد فمات ويروى ان ابا مسلم الخراساني والمعتصم كانا مغرمين بصيد الفهود .

وتعلم العرب تربية البزاة والبواشق من فارس حيث ادخلوها الى الجزيرة العربية واهتموا بتربيتها وتدريبها . واصبح الصيد في زمن الحروب الصليبية الوسيلة الرئيسية لتسلية فرسان الفرنجة في اوقات فراغهم في فترات السلم الطويلة التي كانت تلي فـــترات القتال والنزال في ميادين الحرب ، اذ كان فرسان الفرنج وامراء المسلمين يعقدون حلقات الصيد المشتركة ويتبادلون الرخص للصيد في الاراضي المجاورة لكل منهم . وكانت الحجلان والارانب وطيور الماء والظباء موفورة العدد . . وكانت الثعالب والذئاب والضباع هدف الصيد الرئيسي ، وكانت الدببة والاسود تطارد وتنازل احيانا . وكانت الاقواس والرماح الاسلحة التي تستعمل في الصيد ، غير ان الصيد بوساطة البزاة والصقور المدبة والشواهين والكلاب السلوقية كان اكثر شيوعاً . وكانت البزاة غالية الثمن واعتبرت هدايا ذات قيمة تذكر اذ ارتفع سعر البازي فبلغ سبعة جنيهات بينما كان سعر الحصان مائة وخمسين جنيها .

لقد دخلت تربية البزاة والبواشق الى الجزيرة العربية كما يذكر الدكتور فيليب حتي ، من فارس كما تشير الالفاظ المستعملة لها وشاع استعمالها في اواخر الخلافة

---

(١) هونكه سيجرد ، شمس الله على الغرب ، فضل العرب على الغرب ص ٥١

العباسية وفي عصر الحروب الصليبية ولا يزال الصيد بوساطة البازي والباشق معروفاً في فارس والعراق ومنطقة دير الزور وجبال العاويين بسورية وعند بدو سورية والعراق . وكان يستعان بهذه الطيور على صيد الغزلان والارانب والحجلان والاوز البري والبط والقطا كما كان يستعان معها ايضاً بكلاب الصيد لا سيما في قنص الغزلان وغيرها من الحيوانات البرية التي كانوا يصطادونها . وكان اول ما يقوم به الصياد المسلم عند التقاطه طريدته ذبحها والا فقد حرم عليه اكلها . وفي بعض الاحيان كانت فرق الصيادين تطوق البقعة التي تلجأ اليها الطريدة ثم في تضييق الحلقة حتى تتمكن من حصر الحيوان وصيده »(١) .

اما الالعاب الرياضية والمباريات التي كانت تجري على قدم وساق في سورية اللاتينيـــة فكانت سبباً من اسباب تقوية الصداقة بـــين امراء الصليبيين وامراء المسلمين وكان شيء من الخشونة يتخلل احياناً المباريات الرياضية وحفلات السبق عند الصليبيين . فيحدثنا اسامة بن المنقذ بقوله :

« حضرت بطبرية في عيد من اعيادهم (الصليبيين) وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح وخرج معهم عجوزان باليتان(كذا) اوقفوهما في رأس الميدان وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سمطوه وتركوه على صخرة ، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن (كذا) سرية من الخيالة يشدون منها والعجائز يقمن ويقعدن على كل خطوة وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن فأخذت ذلك الخنزير في سبقهـــا »(٢)

(كتاب الاعتبار ص ١٣٨)

ويقول الدكتور النقاش ايضاً :—

« اما سباقاتهم على ظهور الخيل فأشبه ما تكون بألعاب الجريد عند الشاميين (تراث الاسلام ص ١٦٥) وكان العرب السوريون بارعين بالرماية والمسابقـــة واللعب (بالصوالجة على حد قول ابن جبير) فأستحسن امراء الفرنجة العابهم الرياضية واخـــذوا يرتاضون بهـــا وينسجون على منوالهم فيها ، ولذلك دخل (الجريد) وغيره المبـــاريات الى اوربا . ولقـــد حفظ لنا المؤرخون تذكارات من

---

(١) حتي فيليب ، تاريخ العرب المطول ص ٤١٧

(٢) النقاش زكي ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ص ١٤٩

الاجتماعات التي كان يجتمع فيهـا فرسان الفرنجة بفرسان المسلمين ليباروهم في هذه الالعاب تحت سماء سورية » (١) .

وتشير المصادر العربية الى ان المعتصم كان مغرماً بلعب الكرة ولعبة الطبطاب وهي خشبة عريضة يلعب بها وليس غريباً ان تكون هذه لعبة التنس في شكلها البدائي .

واستعمل الصليبيون الآلات الموسيقية الشرقية كالعود والارغن والمزمار والقيثارة والربابة كما قلدوا العرب والمسلمين في الاحتفاء بأعيادهم وافراحهم وفي حفلات لهوهم وفي مجلس الطرب والشراب عندهم وفي الاستماع الى المغنيات في افراحهم كما استدعوا الندابات في المآتم ايضاً واستعملوا الحمامات والصابون كما استعملوا السكر في اطعمتهم وفي ذلك يقول آرسي سميل :

"They had dancing girls at their entertainments; professional mourners at their funerals; took baths; used soap; ate sugar" (2)

وقد تعلم الفرنجة استعمال الرنوك والشارات من السوريين وادخلوا كثيراً من النباتات الشرقية الى بلادهم مثل البطيخ والثوم والارز والسمسم والليمون وقصب السكر بالاضافة الى انواع كثيرة من التوابل والاصباغ والعقاقير الشرقية .

ثالثاً : — المؤثرات الانسانية :

لقد كان من نتائج الحروب الصليبية التي لم يستطع المؤرخون المنصفون التغاضي عن ذكرها الشرور والمساوىء التي عانت منها البشرية الشيء الكثير ذلك لانها شجعت على اعنف انواع التعصب وعلى اقتراف ابشع انواع التقتيل والتعذيب والفظاعة في ارتكاب اشد انواع الانتقام وكشفت عن احلك غيوم الجهل والاعتقاد بالخرافات بين صفوف الصليبيين . ولكن الشرور والمساوىء تأثر بها الناس في حينها ولم تتجاوز عصرها الا بالقدر الضئيل . والصورة الحقيقية لتلك الحروب واضحة في اساليبها كما اوضحنا في فصول سابقة من هذا الكتاب .

اما الفوائد التي جنتها الشعوب المسيحية من الحروب الصليبية فأنها ترجح من غير شك على سيئاتها فحجاج الصليب تعلموا دروساً كبيرة من رؤية الحياة كما

(١) النقاش زكي ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ص ١٤٩
2 — R. C. Smail, Crusading Warfare, P 43

كانت لا كما صوّرتها لهم التعاليم الدينية والتقاليد الموروثة واحتقروا ذلك الاعتقاد الذي كان يصوّر لهم أن اوربا والمسيحية كانا كل العالم. فالصليبيون الذين قدموا الى البلاد السورية ليقاتلوا « الكفرة » على حدّ زعمهم بعد ان سممت البابوية افكارهم واخرجتهم عن طبيعتهم الإنسانية بالمخدرات النفسية وجدوا انفسهم وجهاً لوجه امام بشر مثلهم ولكنهم كانوا يفوقونهم ثقافة وعلماً واكتشفوا رجالاً ماهرين نشطين منصرفين للدين وشجعان وشرفاء. وبعبارة اخرى ارقاء الجانب، دروس مثل هذه لابدّ ان تكون قد اثارت في انفسهم اسئلة كثيرة.

لم يفشل الاختلاط الذي كان لابد من حصوله بين الفرنجة والمسلمين إذ ادى الى اعترافهم بالمثل الأخلاقية والفضائل التي تحلّى بها المسلمون والعرب وهي الأمور التي أثّرت في أخلاق الكثيرين من الناس وفي آرائهم الدينية. فالغربيون الذين استقروا في الأراضي المقدّسة في عصر الحروب الصليبية قلدوا الشرقيين في كثير من طبائعهم وعاداتهم ووسائل معيشتهم وكان من مظاهر ذلك التأثر روح التسامح التي اظهرها فرسانهم نحو الدين الإسلامي الأمر الذي استنكرته الكنيسة اكبر استنكار. وبالرغم من ذلك الاستنكار فقد ترجم بطرس الموقر Peter the Venerable رئيس دير كلاني Clunny القرآن الكريم ليتمكن من قراءته كما يقول مونرو(١).

ومما لا شك فيه أنّ حبّ الأوربين للشرق وإعجابهم بطبائع رجاله وطرق معيشتهم كان عظيماً في ذلك الوقت. ويظهر انّ اخلاق صلاح الدين النبيلة وحياته الحافلة بالبطولة قد سحرت عقول المسيحيين في ذلك العصر حتى ان بعض فرسانهم هجروا دينهم وقومهم وانضموا إلى المسلمين. هذه هي الصيورة التي خلدها الشرق في عقول الصليبيين.

الفصل الخامس

المؤثرات الحضارية عن طريق التجارة

كان الصراع عنيفاً والنزاع شديداً بين المسيحية والاسلام في عصر الحروب الصليبية اذ بلغت المذابح البشرية اشد ما عرف التاريخ ضراوة ووحشية غير ان مصالح

1 — R. C. Smail, Crusading Warfare P. 43

الجمهوريات الايطالية التجارية والاقتصادية التي حرصت على المحافظة عليها مع البلاد السورية وعلى دعمها وتقويتها كثيراً ما اخرجت ذلك الصراع المرير عن مجراه الطبيعي . فمطامع الغزاة المستعمرين ومصالحهم التجارية والاقتصادية كانت تتعارض مع الحماسة الدينية التي اثارها البابوات ورجال الدين في صدور القادمين من الغرب للاستيلاء على الاماكن المقدسة ولانشاء الامارات اللاتينية في بلاد الشرق العربي والتمتع بثروات الشرق وخيراته فاقتضت تلك المصالح اقامة علاقات تجارية واقتصادية وصداقات ودية مع جيرانهم العرب والمسلمين ، خاصة بعد انشاء الامارات الصليبية في مناطق اشتهرت بخصوبة اراضيها الزراعية وبثرواتها الطبيعية . غير ان العلاقات التجارية بين العرب والمسلمين من جهة والاوربيين من جهة اخرى لم تكن حدثاً تاريخياً جديداً اقتضته علاقات الجوار في عصر الحروب الصليبية فحسب بل كانت هنالك علاقات تجارية قائمة بين الجانبين ايضاً قبل اندلاع نيران الحروب الصليبية بقرنين من الزمان . فمدينة بغداد كانت سوقاً تجارية عظيمة في العصر العباسي . وتجارة العرب والمسلمين مع آسية وافريقية واوربا كانت قد اخذت في النمو والازدهار والامتداد الى اقاصي الارض . والتجار العرب والمسلمون كانوا يجلبون العطور والاصباغ والمعادن من الهند والخزف والحرير والمسك من الصين والياقوت واللازورد والمنسوجات من بلاد الاتراك في اواسط آسية والفرو والعسل والشمع من اسوج ونروج وروسية والعاج والتبر من شرق افريقية . وكان التجار العرب يحضرون الحنطة والارز والكتان من مصر والزجاج والادوات المعدنية والفواكه من دمشق والاسلحة واللؤلؤ والحرير المقصب من جزيرة العرب وكانوا يحضرون الى بغداد ايضاً المنسوجات والجواهر والمرايا المعدنية والخرز الزجاجي والعطور وغير ذلك وينقلون هذه البضائع في بواخرهم الى سائر انحاء بلدان الشرق الاقصى واوربا وافريقية .

وعندما اندلعت نيران الحروب الصليبية كانت بضائع الشرق الاقصى تنقل عبر المحيط الهندي فالبحر الاحمر الى مصر . وبعد نجاح الحملة الصليبية الاولى في انشاء الامارات الصليبية في بلاد الشام اخذت هذه الامارات تتحكم في الطرق التجارية ويعود الفضل في احراز النصر الذي حققه الصليبيون في الحملة الصليبية الاولى الى المساعدات القيمة التي قدمها التجار الايطاليون والفرنسيون ، عن طريق نقل الحجاج والمحاربين واسلحتهم وعتادهم ومؤنهم في اساطيلهم البحرية واستيفاء اجور باهظة

لقاء هذه الخدمة . إذ ان شهوة الكسب والتطلع الى الغنى والثراء كانا قد دفعا طبقة التجار البورجوازية في جمهوريات البندقية وجنوة وبيزا الايطالية وفي مرسيليا الفرنسية الى المشاركة في الحروب الصليبية عن طريق وضع سفنهم تحت تصرف القوات الصليبية المتجهة نحو الشرق لمحاربة العرب والمسلمين في عقر دارهم ، وهي الحروب التي كانت دينية في ظاهرها وسياسة استعمارية استيطانية في حقيقتها . اما بالنسبة للتجار الايطاليين فكان الدافع الحقيقي لهم في تقديم المساعدة للحملات الصليبية الغنم التجاري قبل كل شيء والاستيلاء على الموانىء السورية لضمان السيطرة البحرية وسلامة الطرق التجارية والملاحة في حوض البحر الابيض المتوسط التي تمكن تلك المدن من الاستمرار في مد القوات الصليبية بالجيوش والمؤن والذخائر والاسلحة وكل ما تحتاج اليه في حربها ضد العرب والمسلمين . وبعد ان تحقق نجاح الحملة الصليبية الاولى واستقرت اوضاع الصليبيين في الامارات الصليبية اخذت مدن الجمهوريات الايطالية ومدينة مرسيليا الفرنسية تزيد من مساعداتها للصليبيين بهدف تحقيق مزايا مالية واقتصادية وتجارية عن طريق نقل الحجاج والجنود والمحاربين واسلحتهم وذخائرهم ومواد تموينهم وادوات الحصار عندهم على سفنها الى بلاد الشام وعن طريق توسيع علاقاتها التجارية والمالية مع بلدان الشرق العربي واقامة علاقات تجارية واقتصادية جديدة مع سكان الامارات اللاتينية ومع المدن العربية والاسلامية المجاورة لها كما اخذت هذه المدن تساهم في تنظيم الامارات اللاتينية وفي ادارتها مقابل حصولها على امتيازات تجارية واعفاءات من الضرائب والرسوم الجمركية مقابل تخصيص حي خاص لكل مدينة من هذه المدن في مدن الامارات اللاتينية بحيث يخضع لنفوذها وادارتها ، بالاضافة الى استعمال الموانىء السورية مرافيء لصفقاتها التجارية تشحن منها ما تحضره من منتوجات صناعية وزراعية من بلدان الشرق الاقصى والشرق الادنى الى جنوة والبندقية وبيزا ومرسيليا وتوزعها في داخل اوربا وفي شرقها وغربها . وبذلك ازدادت حركة التجارة زيادة فاقت كل ما عرف عنها في العهود السابقة . وفي الوقت الذي تمكنت كل من الامارات اللاتينية من انشاء اسطول خاص بها فان الاسطول الذي انشأته مملكة القدس كان صغيراً ولم يف بحاجتها العدوانية ولهذا كان لزاماً عليها ان تعتمد على قوة بحرية اخرى من اوربا تهب لمساعدتها في كل حملة صليبية جديدة اما للاستيلاء على المدن الساحلية الاسلامية او لغزو الديار المصرية ولم تجد هذه المساعدة

في غير الجمهوريات الايطالية . فلم تعتمد في المساعدة على البحرية البيزنطية لان الامبراطورية البيزنطية كانت دوماً موضع شك وريبة عندها . ولم تعتمد على اسطول صقلية البحري لان صقلية ايضاً كانت موضع شك وريبة عندها . ولهذا لم يبق امامها سوى الاعتماد على مدن الجمهوريات الايطالية ومدينة مرسيليا التي كانت تسرع دوماً لمساعدتها ومدها بالجيوش والمحاربين وبالاسلحة والذخائر والمؤن في محاربة القوات الاسلامية وفي محاربة مصر خاصة .

اما الرخاء في بلاد الشام فلم يعد اليها الا بعد ان اقام نور الدين محمود الوحدة بين المسلمين في سورية ومصر وهي الوحدة التي قويت عراها في زمن صلاح الدين الايوبي فأزدادت المنتجات المحلية الواردة من فارس والعراق بسبب سلامة الطرق المؤدية الى حلب فحمص فدمشق ومنها الى موانيء البحر الابيض المتوسط حيث كانت تصدّر الى اوربا . وكانت السويدية واللاذقيـــة مينائي حلب بينما كانت طرابلس والطرسوس مينائي حمص . اما عكا فكانت ميناء دمشق .

اما الحافز الاقتصادي الذي أثار كثيرين من الناس في اوربا وحملهم على الاشتراك في الحملات الصليبية فكان بسبب شراهة صغار النبلاء في فرنسا وهولندا ورغبتهم في الحصول على اقطاعات جديدة لهم ورغبة الفلاحين في التخلص من قيود نظام الاقطاع والفرار من بلدانهم الفقيرة وهرباً من المجاعات والفيضانات التي كانت تسبب الموت والدمار للناس ولمساكنهم ومزارعهم وحباً في الهجرة الى بلاد تنتج السمن والعسل وتعج بالثروات الزراعية والخيرات الاسطورية . وبالرغم مما اشتهرت به مدن الشرق في الحضارة وارتفاع مستوى المعيشة فقد خابت آمال الصليبيين القادمين الى الديار الشامية اذ توقعوا أن يجدوا مدناً يكسوها الذهب وتفيض باللبن والعسل ، الا انهم لم يجدوا ما توقعوا غير شعوب متحضرة ورجال اشداء نذروا انفسهم للدفاع عن انفسهم وبلدانهم الى آخر قطرة من دمائهم .

وقد وجد سكان مملكة القدس في الايطاليين وفي فرنسيي الجنوب خير حليف لهم والتمسوا مساعدتهم في المحافظة على الطرق البحرية وابقائها مفتوحة الى الغرب وفي نقل الحجاج والمحاربين في سفنهم الى الشرق العربي مقابل اجور كانوا يتقاضونها . واصرت جمهوريات المدن الايطالية على الحصول على تسهيلات وحقوق تجارية وعلى تخصيص أحياء خاصة لكل جمهورية في كل مدينة كبرى تقع تحت سيطرة

الصليبيين فيكون هنالك مثلاً حي للبندقيين وحي للبيزيين وحي للجنويين وحي للمرسيليين الفرنسيين مع التمتع بالاعفاء التام او الجزئي من رسوم المكوس . وكانت المنافسة شديدة بين المدن الايطالية بعضها مع بعض وبينها وبين مرسيليا الفرنسية . وكانت هذه المدن تحرص على مصالحها التجارية اكثر مما تحرص على مصالح العالم المسيحي فنظرتها العامة كانت تتجه نحو احراز كسب تجاري ، فإذا تعارضت مصالحها التجارية مع مصالح العالم المسيحي ومع الحركة الصليبية بوجه عام رجحت مصالحها التجارية على غيرها . وكانت هذه المصالح تستلزم قيام علاقات ودية مع العالم العربي والاسلامي . وقد اقامت الجمهوريات البحرية الايطالية صلات تجارية قوية مع المسلمين وذهبت بعضها بعيداً في صداقتها اذ تولى بعض بحارتها قيادة السفن الحربية الاسلامية . فسلطان مراكش مثلاً طلب مرة مساعدة من جمهورية جنوة فأسرعت هذه الى تقديم ثماني عشرة سفينة حربية لمساعدة السلطان في القضاء على اعمال القرصنة التي كان يقوم بها الصليبيون .

فالحروب الصليبية سببت نشاطاً عظيماً اذ نشأ عن تجهيز الجيوش الكبيرة التي قذفت بها أوربا إلى الشرق العربي والاسلامي ونقل هذه الجيوش ومواصلة تموينها ومدها بالأسلحة والذخائر والرجال بين اونة واخرى حركة بحرية عظيمة صحبتها حركة تجارية واسعة . وقد نقلت البندقية وحدها ما بين عشرين الى اربعين الف محارب صليبي تجمعوا في ميدان القديس بطرس لنقلهم الى عكا ودمياط . اما مرسيليا فقد نقلت في سنة ١١٩٠ كامل جيش ريكاردوس قلب الاسد إلى الارض المقدسة .

وكانت الحروب الصليبية ايضاً سبباً في انتشار الثراء والرخاء ورفع مستوى المعيشة في اوربا فالتجارة بين آسية واوربا كانت صفة من صفات العالم اليوناني والروماني القديم وكانت قائمة حتى القرن الخامس الميلادي فقضت عليها غزوات البرابرة ثم انتعشت في القرون الوسطى وخاصة في العصر العباسي وعجلت الحروب الصليبية في ذلك الإنتعاش والازدهار ذلك لأن تأسيس سوق اوربية جديدة للحاصلات الشرقية الزراعية والبضائع الصناعية والحاجة الى نقل الحجاج والصليبيين قد زادت في النشاط الملاحي والتجارة العالمية وفي رفع مستوى المعيشة في اوربا ، كما استلزمت

سن قوانين للملاحة وفتح اسواق جديدة للبضائع الشرقية ونبهت الى ضرورة تأسيس علاقات دولية لاول مرة في التاريخ وقدمت للعالم اختراع المبادلة عن طريق تأسيس المصارف واستعمال النقد واتساع مدى المعرفة الجغرافية فأنتجت حاجات جديدة وعرّفت الأوربيين بطرق جديدة وامم جديدة لتتجر معها وشجعت على الارتياد وفتحت العيون لاكتشافات جديدة وبمائة وسيلة اخرى ادخلت عصراً تجارياً جديداً .

بيد ان التجارة بدأت في النمو مع ابتداء الحملة الصليبية الاولى وحتماً انها كانت ستستمر في النمو والتقدم حتى لو لم تطأ اقدام الصليبيين المسلحين الارض المقدسة ، غير ان الحروب الصليبية عجّلت في رقي الحضارة وازدهارها بقرن قبل اوانها عن طريق نهضة الآداب والعلوم Renaissance التي ظهرت في ايطاليا . وبسبب موقع كل من البندقيـــة وجنوة وبيزا المناسب تمكنت هـــذه المدن من تزويد الصليبيين بوسائط النقل وسد حاجاتهم . وبالنتيجة ارتبطت المدن الايطالية بعلاقات تجارية وثيقة مع اليونانيين والمسلمين وبدأت مدينة مرسيليا الفرنسية تنافس مدن الجمهوريات الايطالية بوصفها مركزاً مهماً للملاحة واشتركت معها في جمع ثروة طائلة . وفي الشمال اصبحت راتسبون ونيرمبرج والمدن التجارية في شمال فرنسا مراكز لتوزيع واردات ايطاليا . وقد أثرت مدن ايطالية كثيرة ولكن البندقية فازت عليها بالزعامة. ففي عصر الحروب الصليبية حظيت البندقية بأمتيازات كبيرة في القسطنطينية فوضعت بذلك الحجر الاساسي في بناء امبراطوريتها البحرية .

لقد كانت العلاقات التجارية الطيبة التي اقامتها البندقية مع العرب سبباً قوياً في نجاحها التجاري وفي ثرائها وتقدمها وفي فتح اسواق جديدة لتجارتها . فلولا مهارتها التجارية وقدرتها على الإحتفاظ بتلك العلاقات ودعمها وتركيزها على الاتجار بالتوابل والبهارات والقرفة والكمون ومختلف انواع الأصبغة بما فيهـــا النيلة لما استطاعت ان تجمع ثروة طائلة وان تترعم النهضة الإقتصادية الأوربية التي كانت من أهم العوامل في ازدهار الغرب وتقدمه . ولم يقتصر نشاطها على الاتجار مع العرب بل ساهمت مساهمة فعالة في نقل المحاربين الصليبيين في اساطيلها البحرية الى بلاد الشرق . وتعدّ انتصارها على الامبراطورية البيزنطية في سنة ١٢٠٤ انتصاراً لاوربا . فأعمال التنكيل التي اقترفها البندقيون ضدّ بيزنطية لم تر له مثيلاً على يد المسلمين اذ نهبوا كل ما استطاعوا نهبه في القسطنطينية من كنوز ومجوهرات وآنية ذهبية وفضية ودنسوا المقدسات وحطموها وخربوها ومزقوا الكتب واحرقوها .

وقد امتدت تجارة البندقية الى اوربا فتخطت جبال الالب وشملت فرنسا والمانيا وهولندا وبريطانيا واسكندناوية حيث نقلت الى تلك الديار الخامات والاقمشة العربية المطرزة .

وكانت جنوة منافسة قوية للبندقية ولو ان موقعها كان اقل ملاءمة من موقع البندقية اذ انها كانت قادرة على اثارة حسد الجمهوريات البحرية الاخرى. وكانت بيزا اكبر منافس لجنوة وكانت فلورنسة منافسة اخرى لهما وقد جمعت ثروة طائلة من تجارتها كرستها مختارة لتقدم الثقافة والفنون الجميلة .

من هذا يتضح ان الحروب الصليبية كانت سبباً في نشاط تجاري عظيم . ولم يحصر البندقيون علاقاتهم التجارية بالقسطنطينية وبالعرب والمسلمين في سوريا وفلسطين فحسب ولكنهم وسعوها ايضاً حتى وصلت الى بلاد الفرس والعراق ومصر . وفي هذا يقول توماس اركار :

« وهكذا تأسست تجارة قوافل مع بلاد الفرس مبتدئة من ترابيزوند في الوقت الذي دخل البندقيون في علاقات ودية مع المسلمين في الاسكندرية وبذلك امنوا التجارة الرابحة مع النيل والبحر الاحمر . وفتحت بعض المدن الساحلية في سورية لتجارة القوافل في وادي الفرات . وبجانب هذه التجارة الواسعة كانت التجارة الحقيقية مع المستعمرات اللاتينية في سورية ضعيفة نسبياً وهذا الامر يفسر كيف ان فقدان هذه المستعمرات وانقطاع الصليبيين لم يكونا قاتلين للتجارة الايطالية ».

"Thus was established a caravan trade with Persia from Trebizond whilst about the same time the Venetians entered into friendly relations with the Saracens of Alexandria, and thus secured the profitable trade of the Nile and the Red Sea. The caravan trade of the Euphrates valley had already been tapped from the parts of the Syrian Coasts. By the side of this wider commerce the actual trade with the Latin colonies of Syria was of comparatively slight importance and it is this which explains the fact that the loss of those colonies and the cessation of the Crusaders were not detrimental to Italian commerce" (1)

ويذكر توماس اركار في مؤلفه انه ظهرت في القرن الثاني عشر في البحر الابيض المتوسط اساطيل فلمنكية وانكليزية والمانية ودنماركية ونروجية . والى هذه

1 — Archer, Thomas Andrew, The Crusades P. 437

التجارة القارية يعود الفضل في ثراء المدن الالمانية والفلمنكية ونجاح الحلف الهانزي Hanseatic League المؤلف من المدن الالمانية الهانزية للحماية التجارية .

أما الطرق التجارية الداخلية في عصر الحروب الصليبية فأهمها :—

أولاً — : الطريق الممتدة من انطاكيــة فحلب فالرقة فالموصل فبغداد فالبصرة على شط العرب ومنها كانت المراكب العربية تبحر الى مدن الشرق الاقصى .

ثانياً : — الطريق الممتدة من حلب فحماة فحمص فدمشق ومنها الى مدن شرق الاردن فالحجاز أو الى المدن الفلسطينية فمصر .

وكانت هنالك حركة تجارية بحرية نشطة في مدن عكا وصور وبيروت الساحلية فمن دمشق كانت القوافل تخرج براً الى عكا وهي محملة بالبهارات والتوابل والعطور والاصباغ والنيلة والعقاقير والمصنوعات المعدنية والسجاد والخزف والابسطة والفراء والحرير المقصب والزجاج ومن هذه الموانىء كانت تنقل الى البندقية ثم توزع في اوربا عبر ممر برنر الى كولونيا في الداخل ثم الى الموانىء النهرية على الراين والمرافىء على بحر الشمال . وكانت المنافسة شديدة بين البندقيين والجنويين والبيزيين والفرنسيين من تجار مرسيليا وذلك طلباً لاكتساب رضى مملكة القدس والامارات اللاتينية في بلاد الشام بهدف التوصل الى عقد المعاهدات التجارية واحتكار نقل الجيوش والمؤن والاسلحة والذخائر والسلع التجارية وغيرها في اساطيلها البحرية دون غيرها .

واستمرت تجارة الافرنج تتقدم بأطراد منذ تأسيس مملكة القدس والامارات اللاتينية الاخرى في بلاد الشام في سنة ١٠٩٧ حتى افل نجمها بعد موقعة حطين في سنة ١١٨٧ . وفي خلال الفترة الزمنية ١٠٩٧ — ١١٨٧ نمت تجارة الفرنج نمواً كبيراً وغدا كبار التجار ذوي نفوذ كبير الامر الذي دفعهم الى التدخل في الشؤون السياسية وفي شؤون الحكومات طمعاً في الحصول على امتيازات خاصة بهم . ولكن ما لبث ذلك النمو ان اعتراه التراخي والانحسار بعد معركة حطين . اما اهتمام الجمهوريات الايطالية التجاري فكان منصباً في الدرجة الاولى على مصر ، وكانت البندقية تتزعم تلك الحركة ولهذا لم تساهم عسكرياً في الحملة الصليبية الاولى حرصاً منها على المحافظة على علاقاتها الطيبة مع المسلمين ، ذلك لانها كلما بذلت العون لاية حملة صليبية كانت

تعتبر ذلك بمثابة مخاطرة منها بضياع حقوق تجارية لها في الاسكندرية . ومع ذلك فأنه لولا تعاون المدن الايطالية لما استولى الصليبيون على المدن الساحلية .

اما الجنويون فقد ساهموا في الحملات الصليبية بعد وصول رجال الحملة الصليبية الاولى الى انطاكية .

واما البيزيون فقد قدموا مساعدتهم قبل الاستيلاء على بيت المقدس .

وعلى العموم فأن الجمهوريات الايطالية قد اثرت ثراءً كبيراً من خلال الحروب الصليبية بسبب نقلها الحجاج والمحاربين واحتياجاتهم الى بلاد الشام في سفنها البحرية وحصولها على امتيازات تجارية في بلاد الشام ومصر وتأسيس علاقات تجارية مع المدن الاسلامية واللاتينية سواءً بسواء والاتجار بالسلع الاوربية في بلاد الشرق والاستفادة من اثمانها في شراء السلع الشرقية والمنتوجات الزراعية التي كان الاوربيون يتهافتون على شرائها بأثمان عالية . والمعروف ان اهم سلعة كان يصدرها البنادقة هي الرقيق الذي كانوا يجلبونه من اوربا الوسطى في اواخر القرن العاشر ، غير ان تحول الصقالبة والمجريين الى المسيحية قضى على هذه التجارة . وقد خفت تجارة الرقيق في خلال الفترة الواقعة بين القرنين العاشر والثالث عشر غير ان الجنويين احيوا هذه التجارة في اواخر القرن الثالث عشر فكانوا ينقلون الرقيق من الترك والتاتار الى مصر ليبيعوه الى المماليك . وبالاضافة الى تجارة الرقيق. وكانت المعادن والاخشاب اهم السلع التي كان يصدرها الغرب الى الشرق .

اما التجارة في الشرق الفرنجي فقد بلغت ذروة نشاطها في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر اذ بعد ان اتحد العالم الاسلامي وعمه الرخاء اكتشف التجار الايطاليون ان نجاحهم التجاري كان يعتمد على عقد الصداقات مع جيرانهم المسلمين وعلى ابقاء العلاقات التجارية قائمة بين الطرفين . وكانت عكا انشط الموانىء الساحلية اذ انها كانت الميناء الطبيعي لتصدير صناعات ومنتوجات دمشق ومنتوجات اراضي حوران الخصيبة وتجارة اهل اليمن القادمين بقوافلهم التجارية على امتداد ساحل البحر الاحمر الى الاراضي الاردنية فدمشق ومنها الى عكا . وكان التجار يفضلون استعمال ميناء عكا للابحار منها واليها على ميناء يافا ذات المرسى المكشوف . وبالرغم من ان ميناء صور كان اكثر اتساعاً وامناً من ميناء عكا فقد كانت الحركة

البحرية في ميناء عكا اشد مما كانت عليه في ميناء صور . ومع ذلك فقد كانت اللاذقية في شمال سورية خير ميناء نظراً لكونها صالحة لكل مناخ وطقس .

اما تجارة المغول فقد سلكت الطريق البري القادم من الصين مجتازة تركستان ومتوجهـــة الى شمال بحر قزوين ومنه الى الموانيء الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الاسود واما الى جنــوب بحر قزوين مخترقة ايران الى ترابيزون على الساحل الجنوبي للبحر الأسود او الى اياس في مملكة كيليكية في ارمينية. وكان التجار يفضلون هذا الطريق البري على طريق البحر عبر المحيط الهندي المحفوف بالاخطار . وبعد استيلاء المغول على العراق كان الجزء الاكبر من التجارة الهندية يصل الى الغرب بحراً عن طريق الخليج العربي وكان الجزء الاخر يجتاز دمشق او حلب الى موانيء الفرنج في عكا او صور او بيروت على ساحل البحر الابيض المتوسط .

اما التجارة الهندية فكان معظمها ينقل براً عن طريق افغانستان وفارس . وكانت البندقية وجنوة تقومان بنشاط تجاري واسع في تلك الديار ، وكان التنافس بينهما شديداً وقد استطاعت البندقية ان تسيطر على الملاحة في البحر الاسود نظراً للسيادة التي بسطتها على الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية في سنة ١٢٠٤ ولكن البيزنطيين استطاعوا دحر البندقيين وتخليص عاصمتهم من ايديهم في سنة ١٢٦١ بمساعدة الجنويين الاقوياء . وبذلك ابعدوا البنادقة عن البحر الاسود واستطاعوا احتكار تجارة آسيا الوسطى وتجارة الرقيق بين سهوب روسية ومصر وكانت تجارة الرقيق تجارة مربحة ذلك لأن المماليك كانوا يشترون الرقيق الذين كان يحضرهم الجنويون من قبائل القبجاق وما يجاورها من القبائل التركية عبر ميناء الاسكندرية ولهذا قوي مركز الجنويين ولم يستطع البندقيون طردهم منها ، غير ان البندقيين عوضوا عن الاسكندرية بطرد الجنويين من ميناء عكا . ولكن الجنويين لجأوا الى صور التي لاتقل عن عكا في اهميتها التجارية والسياسية ذلك لأن عكا كانت عاصمة الصليبيين في سنوات حكمهم الأخير وكانت حافلة بنشاط تجاري عظيم . وبسبب المنافسة الشديدة بين جنوه والبندقية فقد جنت جنوة ارباحاً طائلة من تجارتها مع الامبراطورية المغولية . اما البندقية فقد حثت حكومة الصليبيين في عكا على مساعدة المماليك ضد المغول . ومهما بلغت المنافسة بين جمهوريات المدن الايطالية فأن المردود التجاري كان يعود على اوربا في جميع الحالات فيزيد في رخائها .

حرية استعمال الموانيء السورية :

بالرغم من احتلال الفرنج اجزاء كبيرة من البلاد السورية نتيجة للحملة الصليبية الأولى فقد بقي معظم المدن السورية متصلاً اتصالاً وثيقاً بجسم المملكة الاسلامية . ومن الادلة على انتشار التجارة بين دمشق وحمص وحماة وحلب من ناحية وبين المدن الاخرى من ناحية ثانية ان تاجرين تركيين غنيين من دمشق سويا حساباتهما مع الفرنج في المدن الساحلية في سنة ١١٨٤ وكانت عكا مركز الحاكم العسكري وقد نظمت القوافل التجارية التي كانت تذهب وتجيء بين دمشق وعكا وكانت هنالك علاقات ودية قوية بين حكام دمشق وحكام القدس . وكان للقوافل القادمة من عكا الى دمشق منظر ملفت للأنظار حين وصولها إلى دائرة الجمرك ويصفها الرحالة المسلم ابن جبير الذي رافق إحدى هذه القوافل نقلاً عن ستيفنسن بقوله :

« يذكر هذا الرحالة المسلم بصورة خاصة ضباطاً لاتينيين ارقاء الجانب ، يستطيعون تكلم العربية وقد جلسوا حول مائدة عليها اقلام ومحابر كبيرة من خشب الأبنوس متهيئين لتدوين البضائع المستوردة والجمارك المدفوعة في سجلاتهم وكانت جميع المستوردات الى المدينة والى البلدان المجاورة خاضعة للرسوم » .

"He specially mentions, this Moslem traveller, courteous Latin officials, who could speak Arabic and sat at a table, with pens and great ink-pots of ebony, ready to enter in their books the goods imported and customs paid, all imports into the city, even from the surrounding country, were liable to duties." (1)

ويلفت هذا الرحالة النظر الى وجود حمامات عامة في طرابلس الشام التي اعجب بها الزائرون الأوربيون أيما اعجاب . ومن هذا يتضح ان روح العداء التي اثارتها الحرب بين العرب والفرنج لم تمنع الاتصال بين الطرفين طول عصر الحروب الصليبية ، إذ كان معظم سكان الامارات الصليبية من المسلمين وقد تركت للفلاحين الوطنيين الأصليين الحرية الكافية لاستغلال اراضيهم كيف شاؤا . وكما ان المسلمين كانوا متسامحين مع المسيحيين في اثناء الحكم العربي كذلك كان المسيحيون متسامحين مع المسلمين في اثناء الحكم اللاتيني . وقد الف المسيحيون في المقاطعات الاسلامية والمسلمون في المقاطعات المسيحية حلقة اتصال قوية بين

1 — Stevenson W. B. **Universal History of The World** Vol V P. 2807

المسلمين والحكومات اللاتينية ولم تكن هنالك وقتئذ قوة قادرة على اضعاف التعامل التجاري او فصم عرى العلاقات الودية التي توثقت بين الطرفين فكان مثل هذا الاختلاط بين السكان وهذه الصلات الطيبة بين المدن الساحلية اللاتينية والمدن الداخلية الاسلامية من اعظم العوامل التي اخضعت الغرب الاوربي لمؤثرات الشرق العربي .

ومن الواضح ان العلاقات الودية التي كانت قائمة بين السكان الوطنيين والمستوطنين الصليبيين قد استفادت منها اوربا الغربية فوائد جمة فالحجاج الذين عادوا الى بلدانهم من الشرق العربي قد احضروا معهم الى اوربا معلومات قيمة عن المنتوجات الشرقية الجديدة التي لم يعرفوا عنها شيئاً من قبل غير انهم عرفوها في عصر الحروب الصليبية ابان وجودهم في بلاد الشام فتذوقوا طعم الاطعمة الشرقية اللذيذة النكهة وتمتعوا بأقتناء الصناعات والملابس العربية فأدخلوا الى اوربا سلعاً تجارية ومنتوجات زراعية وطرقاً تجارية جديدة عن طريق تجارتهم مع المسلمين فخلقت تلك التجارة مطالب جديدة واسواقاً جديدة في الغرب ويستدل على ذلك من الكلمات التي استعارها الاوربيون في عصر الحروب الصليبية من اللغة العربية. فكلمة قطن العربية هي في الانكليزية Cotton وفي الالمانية Kattun وفي الفرنسية Coton وكلمة مصلين هي في الانكليزية Muslin وقد استعملت للقماش المصنوع في الموصل من القطن الناعم وهي في الالمانية Musselin وفي الفرنسية Mousseline وفي اللاتينية Mussoline وقد اشتقت كلمة (Musilnet) من كلمة Muslin لتدل على القماش الخشن المصنوع في الموصل . وكلمة Damson Damask الانكليزية التي كانت تدل على القماش المصنوع من الحرير الدمشقي والآن يصنع من الكتان او القطن او الصوف . وغالباً ما كان القماش الدمشقي ذا لون احمر يشبه الورد الدمشقي وكلمة Damason, damask مأخوذة من Damascus اي دمشق وهي في الالمانية Damast ومن الكلمات التي استعارتها اوربا في تجـــارة الخضار كلمة رز وهي في الانكليزية Rice وفي الفرنسية Riz وفي اللاتينية Riso وفي الالمانيـــة oryza و Reiz, وكلمة سكر في العربيـــة هي في الانكليزية Sugar وفي الفرنسية Sucre وفي اللاتينية Zucara وفي الالمانية Zucker وفي اللاتينية Sakkarin و Sakkarum ويرجح ان يكون اصل الكلمة هندي أو فارسي وهي مشتقة من الكلمة ساكار (Schakar) وكلمة ليمون في العربية يرجح ان يكون اصلها فارسي وهي في الانكليزية Lemon وفي الالمانية Limonade وفي الفرنسية Limon وفي الفارسية Limun وكلمة البرقوق في العربية

هي يونانية الأصل بريكو ، وقـد حرّفت واصبحت في الانكليزية Apricot أي المشمش الذي هو من فصيله البرقوق وهي في الفرنسية Abricot وقد استعملها الفرنسيون لحصولهم على البرقوق من ميناء البريقو Port-Albricoque وهي في الالمانية Praikokion و apricosen وفي اللاتينيـة Praecom, Praecoqux وكلمة Garlic في الانكليزية تعني الثوم في العربية وهي مأخوذة من كلمة Shallot اي بصل عسقلان الصغير (little onions of Ascalon) وهي في الفرنسية Scallion وهـذه التسمية تخليد لاسم المدينة العربية عسقلان .

ويقول في ذلك ريتشارد نيوهول .

"Pilgrims who returned from the East brought back a knowledge of new products, which they had learned to enjoy during their stay in foreign parts. In this way new demands and new markets were created in the West of which enterprising merchants sought to avail themselves. The introduction into Europe of new articles of commerce, new natural products and new commercial practices by way of this muslim trasde is clearly marked by the words borrowed from Arabic which appear during the crusading epoch. Cotton, muslin (cloth of Mosul) and damask (cloth of Damascus) became recognized and important articles of commerce.New vegetables and fruits known among the Muslim peoples, appeared, susch as rice, sugar, lemons, apricots (sometimes called Damascus plums), and garlic (shallots, that is, little onions of Ascalon) (1)

وبسبب نمو التجارة فقد ظهرت في عصر الحروب الصليبية طرق تجارية جديدة في البر والبحر وخاصة في البحر الابيض المتوسط فأستطاع الصليبيون انتزاع السيادة البحرية للمسيحية في هذا البحر وهي السيادة التي كانت للعرب في خلال المدة الواقعة بين القرن التاسع وآخر القرن الحادي عشر ، فتجرأ الملاحون الاوربيون على التوغل في شواطيء شبه جزيرة البلقان ناقلين معهم تجارتهم المحدودة مع القسطنطينية وعلى الابحار ايضاً الى سورية ومصر وشواطيء شمال افريقية . فأكتسبوا بذلك خبرة واسعة ساعدتهم على تعلم فن الملاحة في مياه البحر الابيض المتوسط وتمكن البريطانيون بشكل خاص من القيام برحلات بحرية على نطاق اوسع في عهد الملك ريكاردوس قلب الاسد مما كانوا يقومون به في السابق للوصول الى الامبراطورية البيزنطية وللاتصال بالمسلمين والايطاليين من اجل التعرف على اساليبهم في الملاحة وفي بناء السفن .

1 — Newhall, Richard, The Crusades P. 101

الملاحـــة :

قلما استعملت الدول الواقعة على سواحل البحار في اوربا وآسية بحارها للملاحة في القرن الثاني عشر بأستثناء البحر الابيض المتوسط . اذ عندما بدأت الحروب الصليبية لم يكن لمماكة فرنسا الا ميناءان او ثلاثة موانىء على ساحل نورماندیا ومیناء واحد على ساحل المحيط الاطلسي ولم تكن انجلترا اكثر تقدماً في هذا الشأن ، وقامت في ذلك العصر بعض المدن الواقعة على سواحل بحر البلطيق وهولنده والفلاندرز واسبانيا بغزوات بحرية لا تستحق الذكر في تاريخ الحروب الصليبية غير ان روح التضحية الممزوجة بحب الاتجار شجعت الاوربيين في عصر الحروب الصليبية على القيام برحلات بحرية طويلة فظهر الدنمركيون على سواحل سورية وتمكن النرويجيون من احتلال صيدا ونقلت السفن من سواحل اوربا الغربية والجنوبية الحجاج والذخائر والاسلحة الى مملكة القدس والامارات الصليبية الاخرى . وهكذا التقت في بحار الشرق السفن القادمة من جميع البلدان في غرب اوربا . وفي مطلع القرن الثاني عشر اشترك اسطول بيزي مع اساطيل ايطالية في مساعدة الاراجونيين على فتح جزائر البليار وفي ذلك يقول تشارلز ملز :

« كان ملاحو ايطاليا يجهلون بحار اسبانيا الى حد انهم ظنوا سواحل الاراجون بلاد المغرب . وكان هذا اول تحالف بين امم متباعدة نتيجة لحرب صليبية بشر بها البابا باسكال الثالث » .

The navigators of Italy were so little acquainted with the seas of Spain, that they took the coasts of Arragon for the the country of the Moors. This first alliance between distant nations was the work of a crusade preached by Pope Pascal III."

وفي هذا العصر شقت الملاحة لنفسها طريقاً جديدة واتسع المجال امام جهودها المثمرة . وقد ساعد على نموها ونجاحها تنظيم المواصلات بين بحر البلطيق والبحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي وبحر الشمال فأكتسبت خبرات عملية في فن الملاحة وعينت اشكال السواحل ومواقع الرؤوس والموانيء والخلجان والجزر الخ .. وقيست اعماق المحيطات ولوحظ اتجاه الرياح والتيارات والامداد وعرف

1 — Mills, Charles - The History of the Crusades, Vol. II, P. 195

الشيء الكثير عن الهيدوغرافيا وهو في وصف البحار والبحيرات والأنهار للاغراض التجارية ولغايات وضع خرائط بحرية وسرعان ما انقشع الجهل الذي كان مخيماً على العقول في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر . وفي عصر الحروب الصليبية جرى تحسين على فن الملاحة الهندسي فزيد في حجم السفن لتحمل اكبر عدد من الحجاج . وفي ذلك يقول ريتشارد نيوهول :

« احتاجت التجارة الى سفن كبيرة ذات قوة دافعة الى الامام رخيصة الثمن فكانت النتيجة ان بنيت سفن شراعية كبيرة استطاعت ان تحمل من ثمانمائة راكب الى الف راكب ولكنها كانت بطيئة جداً لإنها اعتمدت اعتماداً كلياً على الريح . وكانت احدى هذه السفن تحتاج الى ثمانية اسابيع في القرن الحادي عشر لتقوم برحلة من سواحل البلدان الشرقية للبحر الابيض المتوسط الى سواحل اوربا الغربية بينما تستطيع باخرة عادية في العصر الحاضر ان تقوم بنفس الرحلة في خمسة ايام » .

"Trade required vessles of large capacity and cheap propulsion. The result was the development of sailing ships large enough to carry eight hundred to a thousand persons, but very slow moving because they depended entirely upon the wind. One of these in the thirteenth century would require eight weeks to make a trip from the Levant to the Western Europe which an ordinary steamer now makes in five days"(2)

ومهما يكن من امر فأن طريقة نصب عدة سواري للسفينة الواحدة وزيادة عدد الشراع لكي تتمكن السفينة من الإبحار ضد الريح كانتا نتيجتين من نتائج الحروب الصليبية الطيبة اللتين لولاهما لظلت عبقرية الملاحة غير قادرة على التغلب على الأخطار الجمة التي كانت تفصل بحري البلطيق والمتوسط عن المحيط الهندي كما كانت تفصل العالم القديم عن العالم الجديد . وعلى الاقل يمكننا القول ان حملات الصليبيين البعيدة ورحلاتهم المحفوفة بالأخطار الجمة هي التي مهدت الطريق للمجازفات المتأخرة وذلك بفتحهم طرقاً جديدة للصناعة في كل مكان وحرصهم على تقدم التجارة ورعايتها .

ومن الخبراء العرب الذين اشتهروا بالملاحة في أعالي البحار شهاب الدين ابن ماجد الذي كان ربان سفينة فاسكودي جاما في رحلاته الاستكشافية وهو الذي ارشد

2 — Newhall, Richard Ager, The Crusades, P. 74

فاسكودي جاما في وصوله الى الهند . ومن المؤكد ان فاسكودي جاما كان قد استعان بالمعارف الملاحية العربية بعد اطلاعه على كتب ابن ماجد التي استولى عليها في سفينة هندية . وشهاب الدين بن ماجد هو اقدم من الف في علوم البحار اذ كتب فيها ثلاثين كتابا كان اهمها كتابه « الفوائد في اصول البحر والقواعد . وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسي جبرائيل فيران (١٩٢١–١٩٢٣) ويعد هذا الكتاب اهم ما كتب عن الملاحة والجغرافيا الفلكية في اية لغة من اللغات في العصور الوسطى . وتتميز كتب ابن ماجد بكونها رائدة في موضوعها . وابن ماجد يعد مبتكر علم البحار بلا منازع وهو العلم الذي تطور فيما بعد فأصبح يعرف بعلم الاوشيونغرافيا (Oceangraphy) ومؤلفات ابن ماجد في علم البحار فريدة في نوعها لانها عصارة افكاره وخلاصة خبراته الملاحية التي اكتسبها من خلال رحلاته الواسعة فوصف البحار واعماقها وشطوط المرجان فيها وجزرها وموانئها والرياح التي تهب عليها . وتحتوي مؤلفاته معلومات قيمة تهم الملاحين عن البحر الاحمر والمحيط الهندي وبحر الصين وقد اشار في هذه المؤلفات الى الاجهزة العلمية الدقيقة التي اخترعها العرب او نقلوها عن غيرهم كالابرة المغناطيسية (البوصلة) والمزولة الشمسية . وقد اثبت في مؤلفاته معرفة العرب بالنجوم واسمائها ومطالعها ومغاربها وكيفية استخدام مجموعاتها في التعرف على الجهات في عرض البحار . واستمرار الغرب في استعمال الاسماء العربية لعدد كبير من النجوم الكبيرة المشهورة حتى الوقت الحاضر لاكبر دليل على مدى تأثر الغرب بالمعارف العربية في علم الفلك .

ومن الكلمات والمصطلحات العربية المستعملة في الملاحة التي تسربت الى اللغات الاوربية كلمة (فُلوكة) و (فلوقة) التي يرجح ان يكون اصلها العربي (فلك) بضم الفاء وتسكين اللام . فهذه الكلمة انتقلت الى عدة لغات اوربية فهي في اللغة الانكليزية felucca وفي اللغـة اللاتينية feluca وفي اللغـة الفرنسية felouque وفي اللغة الالمانيـة feluke وعبـارة (دار الصناعة) العربية هي في اللغة الانكليزية arsenal وفي اللغة الالمانية arsenal واستعملته البندقية بلفظة arsenale واستعملته جنوة بلفظة darsena وعبارة (امير البحر) العربية انتقلت الى اللغة الانكليزية بلفظة admiral والى اللغـة الفرنسية بلفظة amiral كلمة (الميزان) وهو الشراع الخلفي للسفينة الذي يحافظ على توزيع ثقلها بالنسبة للريح هي في اللغـة الانكليزية mizzen اي السفينة ذات السواري الثلاثة وهي في الفرنسية misaine وفي

الايطالية mezzana وفي اللاتينية medius وفي الالمانية besahn وكلمة حبل العربية هي في الانكليزية cable وفي الفرنسية cable وفي اللاتينية caplum وفي الالمانية kabel وقد انتقلت الى اوربا في سنة ١٢٠٥ وكلمة (عوراية) العربية اي شيء يصيب السفينة في البحر من عوار او عيب او خلل هي في الايطالية avaria وفي الالمانيـــة havraia وكلمة (داو) الهندية الاصل انتقلت الى الفارسية ومنها الى العربية ويقصد بها السفينة التي كانت تمخر عباب البحر الاحمر من جدة الى السويس ثم انتقلت هذه اللفظة الى الانكليزية بلفظة dhau او dhow وكلمة الكرخ العربية اي السفينة الكبيرة وفعلها كرخ أي ساق الماء الى مواضعه هي في الانكليزية carack وفي الفرنسية caraque وفي الاسبانية carraca وفي اللاتينية carica ويرجح أن يكون انتقال هذه الكلمة الى اللغات الاوربية قد تم في سنة ١٣٨٦م.

الابرة المغناطيسية (البوصلة) The Compass

البوصلة اختراع مهم ولها علاقة كبيرة بنشاط الملاحة في عصر الحروب الصليبية ويرجح ان يكون الصينيون اول من اكتشف خاصة الابرة المغناطيسية بينما استفاد العرب منها في أغراض عملية ، غير ان المؤرخين اختلفوا حول مخترع البوصلة فقال بعضهم انها من مخترعات الصينيين وقال آخرون انها من مخترعات اليونانيين ، غير ان غوستاف لوبون يذكر على الصفحة ٤٨٣ من كتابه « حضارة العرب » انها اختراع صيني ولكنه لم يقم الدليل على استخدامهم لها في الملاحة لانهم كانوا من ضعاف الملاحين ولا يوجد برهان تاريخي واحد يؤيد ان الصينيين استعملوا البوصلة في الملاحة بينما العرب لم يستفيدوا منها في الرحلات البحرية فحسب بل ايضاً في اسفار القوافل في الصحراء . وبالاستعانة بالبوصلة عين المسلمون سَمْت القبلة ، وهي الجهة التي يتجهون نحوها في الصلاة اي قبالة الكعبة في مكة المكرمة . . والصينيون لم يبتعدوا في اسفارهم البحرية عن الشواطىء لذلك كانت البوصلة قليلة النفع لهم بينما كان العرب من أعاظم الملاحين وكانت صلتهم ببلاد الصين الواسعة كبيرة جداً ولهذا يرجح ان يكونوا اول من استخدم البوصلة في الملاحة ، غير ان هذا لايخرج عن حدود الافتراض ولا يجوز الاصرار عليه لعدم قيامه على دليل . فالقول ان البوصلة اختراع عربي اصيل قول ان اعجزته ادلة الجزم فلا تعوزه أدلة الترجيح . وتقول سيجرد هونكه حول هذا الموضوع :

« وفي اوربا فكرة سائدة تقول ان مخترع البوصلة هو فلافيو جيوبا وهو احد ابناء امالقي. والواقع ان فلافيو هذا ليس هو مخترعها وليس هو اول من جاء بها. فأصحاب الفضل في ايجادها هم العرب وحقيقة اتجاه ابرة البوصلة المغناطيسية الى الشمال قد عرفها الصينيون في اواخر القرن الاول قبل الميلاد. ويقرر الصينيون فيما جاءنا من وثائق ان استخدامهم للملاحة اخذوه عن اجانب وكان ذلك في القرن الحادي عشر الميلادي، وهو العصر الذهبي للاسطول العربي التجاري واسفاره وبخاصة في المحيط الهندي ودولة الصين فيتبادر الى اذهاننا انهؤلاء الاجانب الذين اخذ الصينيون عنهم استخدام البوصلة في الملاحة كانوا العرب لا سيما وان بعض المصادر العربية التي ترجع الى تلك العصور تؤكد استخدام العرب للبوصلة في هذا الغرض. وعن العرب اخذها الصليبي (بطرس فون ماريكورت) الذي توجه الى فرنسا حيث كان قد ألم بالمغناطيسية والبوصلة وادخلهما الى اوربا وكان ذلك في عام ١٢٦٩م وذلك عن طريق رسالته عن المغناطيسية. وبعد ذلك بنحو ثلاث وثلاثين سنة اي حوالي ١٣٠٢م بدأ هذا الايطالي من ابناء امالقي يهتم بالبوصلة. والشيء الجدير بالذكر ان امالقي هي اول ثغر بحري بجوار البندقيـــة وكانت تقوم بدور هام في تجارتها مع اصدقائها العرب كما كان لهذا الثغر الايطالي جاليات كبيرة في مختلف الموانيء العربية شرقاً وغرباً. وكان فلافيو جيوبا قد نجح في الحصول على هذه المعلومات من العرب ومن الشرق. ولكن الاوربيين يحرصون على نسبة اختراع البوصلة الى هذا الايطالي. ولما اعجزهم الدليل وثبت للعيان انه جاء بالبوصلة من العرب قال ذلك النفر المتعصب من الاوربيين ان فلافيو هذا ادخل على هذه البوصلة بعض التعديلات وبعد ذلك قدمها لاوربا لاستخدامها في الملاحة ولا يستغنى عنها في البحار العالية والشواطيء الجديدة »(١).

والذي لا ريب فيه أن الاوربيين اخذوا هذا الاختراع المهم عن العرب وكانوا وحدهم ذوي صلات بالصين. وقد تكلم (الادريسي) عن البوصلة في اواسط القرن الثاني عشر بأنها كثيرة الشيوع بين بني قومه ولكن الاوربيين لم يستخدموها قبل القرن الثالث عشر ذلك ان الملاحين الايطاليين تعلموا استعمال البوصلة من العرب الذين كانت لهم تجارة ناجحة مع جزيرة سيلان وجزائر صندا والصين. واستعملوا ايضاً ابراً مغناطيسية مثبتة بشظايا وقطع من القش عائمة على الماء كطريقة لتعيين الجهة. ويذكر الدكتور فيليب حتي ان استعمال الابرة الحقيقي اقدم من مراجعها التاريخية

(١) هونكه شيجرد، شمس الله على الغرب — فضل العرب على الغرب ص. (٤٦)

ويرجع اول مرجع كتابي لها الى سنة ١٢٣٠م. وفي هذه السنة جمع مؤلف مسلم حكايات فارسية في كتاب ذكر فيه انه كان ملاحاً ضلّ طريقه ثم عثر عليها بوساطة سمكة مشحوذة بمغناطيس .

وأهمية هذه الآلة البسيطة في تقدم فن الملاحة لا تحتاج الى اثبات اذ لولا البوصلة لربما كانت الرحلات البحرية البعيدة في القرن الخامس عشر امراً مستحيلاً .

الإكتشافات الجغرافية وعلم الجغرافية :

لقد حصل الرواد الأوربيون على معلومات جغرافية وملاحية قيمة في اثناء رحلاتهم التجارية وسفراتهم الطويلة في البلدان الشرقية ، ذلك لان الجغرافيين الشرقيين كانوا اكثر تقدماً من الرواد الغربيين بالخرائط الجغرافية التي عملها الاوربيون في عصر الحروب الصليبية والتي تبين شكل الكرة الارضية او مساحات البلدان ولم يكتب عليها الا اسماء غامضة للاشياء التي استرعت انتباههم كالغرائب والحيوانات والابنية والازياء التي شاهدوها . اما اسماء الجهات الاربع الاصلية فلم تكتب عليها غير انهم كتبوا عليها اسماء الرياح الرئيسية التي بلغ عددها اثنتي عشرة ريحاً . وكانت القدس كما ظنوا ، واقعة في الوسط بين اجزاء العالم الثلاثة المعروفة في ذلك الزمان .

فتأثير الحروب الصليبية على العالم الغربي من الناحية التجارية قد خلف آثار باقية حتى زماننا الحاضر وان كانت تلك الآثار قد حدثت بصور غير مباشرة من عدة وجوه . ~~ولا نكون مغالين اذا قلنا ان الاكتشافات التي حدثت في القرن الخامس~~ ولا نكون مغالين اذا قلنا ان الاكتشافات التي حدثت في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر كانت نتيجة لنشاط الملاحة الذي بعثته الحروب الصليبية . ومهما يكن من امر فأن هذه الاكتشافات كان لابد من التوصل اليها بعد زمان طويل متأخرة عن اوانها لو ان تجارة اوربا اتبعت في القرون الوسطى طرقاً اخرى خاملة الحركة راكدة الريـــح .

والجدير بالذكر ان اكتشافات جغرافية جديدة قد ظهرت في خلال الثلاثين سنة التي مضت قبل انتهاء الحروب الصليبية . ففي سنة ١٢٧٠ اكتشف الجنويون جزائر كناريا . ويقال ان سفينتين جنويتين قد ابحرتا في سنة ١٢٩١ لتجدا طريقاً الى الهند ثم عادتا وهما تحملان سلعاً تجارية قيمة غير انه لم يسمع عن مثل هذه السفرات

فيما بعد ولكنها كونت حلقة ارتباط بين عصر الحروب الصليبية وعصر الاكتشافات فغزو البرتغاليين لافريقية في سنة ١٤١٥ ما كان الا امتداداً لحرب مقدسة صليبية ضد المغاربة . وقبل ذلك بوقت طويل كان الصليبيون يطمحون لفتح شمال افريقية بقيادة لويس السابع كخطوة ضرورية لاستعادة فلسطين . ويقال ان كرستوفر كولومبوس كان عازماً في سنة ١٤٩٢ على تخصيص ارباح رحلتـه للاعداد لحرب صليبية جديدة من اجل استعادة القبر المقدس .

ومما لا ريب فيه ان علم الجغرافية قد استفاد فائدة كبيرة من الحملات الصليبية لان هذا العلم لم يكن معروفاً كعلم مطلقاً بل كان مجهولاً جهلاً تاماً ولم يكن هنالك اتصال داخلي حتى بين البلدان القريب بعضها من بعض . فأهل باريس كانوا يجهلون برغندية واهل برغندية كانوا يظنون باريس مكاناً بعيداً جداً . وكان الصليبيون الذين تبعوا بطرس الناسك يجهلون اسماء المدن الالمانية والمجرية التي مروا بها ، وهو الامر الذي ساعد على انكسارهم في معركة ميرزبرج .

فاذا كان الفرنجة يجهلون بلدانهم الخاصة فكم كان جهلهم لبلدان الشرق . لهذا وبحكم الضرورة اختاروا ادلاءهم من بين اليونانيين ، ولا غرابة اذا هلكت جيوش كثيرة في الطريق قبل ان تصل الى الاراضي المقدسة لجهلها طبيعة الاراضي التي مرت بهـا . وكانت معرفة المؤرخين لا تزيد على معرفة الصليبيين انفسهم وهذا يشكل صعوبة قوية في تتبع خطواتهم في آسية الصغرى وسورية ويقول في ذلك تشارلز ميلز :

« من ادهش الحالات حقاً انه من بين نيف ومائتي كتاب تاريخي تتحدث عن مصر لا نستطيع ان نعثر الا على كتاب واحد بينها يذكر الاهرام . اننا نكاد لا نقدر على ضبط انفسنا من الضحك من تصديق جوينفيل الساذج الذي يخبرنا جاداً في مذكراته « ان اشجار الفردوس الارضي تنتج القرفة والزنجبيل والقرنفل وان هذه البهارات تستخرج من النيل لان الرياح نقلتها اليه » (١) .

"One of the most remarkable circumstances is, that out of more than two hundred chronicles that speak of Egypt, we have not been able to find more than one that makes mention of the pyramids. We can scarcely forbear laughing at the simple credulity of Joinville, who tells us gravely, in his memoirs, that the trees of the terrestial paradise produce cinnamon, ginger, and cloves, and that these spices are fished out of the waters of the Nile, whither they have heen carried by the winds." (1)

(١) ملز تشارلز – تاريخ الحروب الصليبية ص ١٨٤

1 — Mills, Charles, History of the Crusades, P. 184

ولا شك في ان الجغرافية مدينة كثيراً للحروب الصليبية ، غير ان الصليبيين الذين كانوا في قتال مستمر لم يخطر ببالهم ان يتعرفوا على البلدان التي سقطت بأيديهم ودانت لسلطانهم ، وهم الذين تجمعوا من مختلف بلدان اوربا ولم يعرف بعضهم بعضاً الا تحت لواء الصليب . ويعود الفضل في اول نجاح لاقته الحروب الصليبية للنشاط التجاري بين الاوربيين والقسطنطينية بصورة خاصة وبين الاوربيين وبلدان الشرق بصورة عامة . وكانت التجارة من اقوى العوامل التي حفزت الايطاليين على ركوب الاخطار والتوغل في وسط آسية ويقول نيوهول :

« سلك التجار الايطاليون طريق سورية الساحلي ثم انحرفوا الى الداخل صوب بغداد التي كانت اعظم مركز في غرب آسية وعرف الاوربيون البحر الاحمر ايضاً والطريق الى الشرق الاقصى من خلال علاقاتهم التجارية مع المصريين . ويعدّ فتح البندقيين للقسطنطينية في سنة ١٢٠٤ بمساعدة الفرنسيين حدثاً مهماً في تاريخ الحروب الصليبية لأن الاوربيين لم يعرفوا التجارة في البحر الاسود قبل هذا الفتح . غير انهم بعد أن ادركوا اهمية موقع البحر الاسود التجاري ثبّتوا اقدامهم على شواطئه ومنها مضوا في زحفهم الى روسيا والتوغل وسط آسية » (١) .

"Italian merchants followed the route of the Syrian coast into the interior towards Baghdad, which was the greatest centre of Western Asia. Europeans also came to know the Red Sea and the route to the Far East through their commercial relations with the Europeans. The conquest of Constantinople in 1204, by the Venetians with the help of the French, was an event of great importance in the history of the Crusades. Trade in the Black Sea was never known to Europeans before this conquest. Now they realised the effectiveness of its commercial location, and, therefore, established themselves on its shores. From these points they resumed their push into Russia and central Asia" (1)

ويمضي نيوهول ايضاً فيقول :—

« تكررت الاشاعات التي افادت ان الخان الكبير كان يود اعتناق المسيحية فأرسل الملوك والبابوات رسلهم الى التتر عن طريق البر في روسيا وتركستان وتوغل التجار البندقيون الذين اتخذوا البولنديين مثلهم الاعلى في التوغل في الامبراطورية المغولية

---

(١) نيوهول ريتشارد ايجر ، الحروب الصليبية ص ٧٦

1 — Newhall, Richard Ager, The Crusades, P. 76

طلباً للتجـــارة وسعت الإساليات المسيحية من مذهب الماندليكانت Mandecant Orders لنشر الانجيل بين هولاء الوثنيين البعيدين » .

"It was repeatedly rumoured that the Great Khan desired to be converted to Christianity. Consequently, kings and popes sent envoys to the Tartars by the overland routes through Russia and Turkestan. Venetian merchants, of whom the Poles are the oustanding examples, penetrated the Mongol Empire in search of trade, and Christian missionaries drawn from the Mandecant Oıdeıs sought to spread the Gospel among these distant heathen" (1)

ومن المؤكد ان هذه الارتيادات كانت السبب في كشف مناطق واسعة في آسية كانت مجهولة للاوربيين بالإضافة إلى أنها خلقت رغبة عند الكثيرين منهم في تأسيس علاقات تجارية مع الشرق الاقصى على نطاق واسع ، الامر الذي زودهم بمعلومات جمة عن البلدان الشرقية .

فالجغرافيون العرب هم الذين اغنوا هذا العلم بمعلومات قيمة هي اقرب الى الصحة من معلومات الجغرافيين الاوربيين بسبب ربط الجغرافيين العرب معلوماتهم الجغرافية بعلوم الرياضيات والفلك . اما عناية العرب بعلم الجغرافية في جاهليتهم فكانت وليدة ظروف بيئتهم الى حد كبير ، اذ لم يكن بوسعهم ان يقوموا برحلاتهم السلمية والحربية في صحاريهم الواسعة الارجاء الا اذا عرفوا الشيء الكثير عن النجوم والكواكب يهتدون بها ويتخذون منها ادلتهم . ولم يكن سهلاً عليهم الانتقال بأبلهم واغنامهم وهي اغنى ما كانوا يمتلكون الا اذا عرفوا موارد الماء ومنابت العشب . واما عنايتهم بعلم الجغرافية في اسلامهم فكانت وليدة رغبتهم الجامحة في نشر الاسلام في اقاصي الارض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، بالاضافة الى العوامل الدينية الاخرى التي دفعت المسلمين الى دراسة الجغرافية : منها فريضة الحج وضرورة توجيه المساجد عند بنائها نحو مكة المكرمة وتعيين القبلة عند الصلاة ، بالاضافة الى ان علم التنجيم كان يتطلب تعيين خطوط الطول والعرض لكل مكان في الارض . ونتيجة لاتساع رقعة الدولة العربية فقد كانت هنالك ضرورة للوقوف على احوال البلاد ومعرفة الطرق والمسافات . ويقول في ذلك الدكتور فيليب حتي « ان تجار الاسلام كانوا قد بلغوا بين القرن السابع والتاسع الصين في الشرق براً وبحراً وانتهوا الى جزيرة زنجبار

1 — Newhall, Richard Ager, The Crusades, P. 76

واقاصي شواطيء افريقية جنوباً وبحر الظلمات (الاطلنطي) فكان للاخبار التي عادوا بها تأثيرها في إثارة اهتمام القوم للاطلاع على اسرار البلدان القصية والشعوب الغريبة ونقلت جغرافية بطليموس الى العربية مراراً من اليونانية مباشرة ومن الترجمات السريانية. وعليها اعتمد الخوارزمي في رسم خريطة دعاها (صورة الارض) ساهم في رسمها تسعة وستون عالماً وهي اول خريطة في الاسلام تظهر السموات والارضين». (١) لقد ادرك العرب بفطرتهم السليمة اهمية الخريطة كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية وكان الخوارزمي من اسبق الكتاب العرب عناية بهذه الناحية فقد اضاف مجموعة من الخرائط الى كتابه (صورة الارض) « الذي اصبح نموذجاً للابحاث الجغرافية التي وضعت فيما بعد فنبهت الناس لاهمية الدراسات الجغرافية وحركت اهتمام الباحثين للقيام بكتابات مبتكرة. ويقول المستشرق الايطالي نالينو عن كتاب الخوارزمي (صورة الارض) « انه لا يوجد شعب اوربي واحد يستطيع ان يفخر بمصنف يمكن موازنته بهذا الكتاب الذي يعتبر اقدم اثر في الجغرافية العربية » ولكن الخوارزمي لم يشتهر في اوربا كجغرافي وانما قام صيته العريض على مؤلفاته في الرياضيات حتى ان سارتون يعتبره واحداً من اكبر رياضيي جميع العصور على الاطلاق اذا اخذنا في الاعتبار اختلاف الظروف » (٢).

ويقول الدكتور فيليب حتي عن تاريخ الجغرافية العربية « ان اقدم بيان جغرافي موثوق عن روسية كتبه احمد بن فضلان بن حماد الذي أنفذه المقتدر سنة ٩٠١ الى ملك البلقار وكان هذا الملك يقيم حول نهر الفولكا. وقد حفظ اكثر هذا البيان في الموسوعة الجغرافية التي صنفها ياقوت المعروفة (بمعجم البلدان) واشار المسعودي الى تجار مسلمين بين القبائل السلافية في الدبر ولعلها منطقة قرب البريبت وهو فرع من فروع الدنيبر » (٣).

ويقول الدكتور فيليب حتي ايضاً :

كانت اول الرسائل العربية في الجغرافية شبه دليل او بيان للطرق والمسافات وكان اول من نشط لتأليفها ابن خرداذبه (المتوفى نحو ٩١٢) الفارسي الاصل وكان

---

(١) حتي ، فيليب ، تاريخ العرب ص ١٤٧ – ١٤٨

(٢) منتصر عبد الحليم ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٣١٢

(٣) حتي فيليب – تاريخ العرب المطول ص ٤٦٧

يتقلد شؤون البريد والأخبار في منطقة الجبال (مادي) فبدأ هذه الابحاث بكتاب سماه كتاب (المسالك والممالك) .

وظهرت أول نسخة منه حوالي سنة ٨٤٦ وكان هذا الكتاب ذا فائدة خاصة بسبب ما فيه من المعلومات الطوبغرافية التاريخية وقد استعان به ابن الفقيه وابن حوقل والمقدسي وكتّاب الجغرافية المتأخرون . وفي سنة (٨٩١–٢) وضع ابن واضح اليعقوبي الشيعي العباسي الذي عاش في ارمينية وخراسان (كتاب البلدان) فنهج فيه منهجاً جديداً ملتفتاً بنوع خاص الى التفاصيل الطوبغرافية والاقتصادية . ثم ظهر قدامه (وهو مسيحي المولد) وكان قائماً بأمر حسابات الدخل في الادارة المركزية ببغداد فأنهى بعد سنة ٩٢٨ كتاب (الخراج) الذي عالج تقسيم اراضي الخلافة الى ايالات او امصار وتنظيم مصلحة البريد والضرائب في كل مقاطعة . ثم قام جغرافي عربي آخر من اصل فارسي اسمه ابن الفقيه الهمذاني فوضع (كتاب البلدان) وهو كتاب شامل في الجغرافية اقتبس عنه كثيراً المقدسي وياقوت » (١) .

وظهر في القرن التاسع للميلاد الجغرافي ابن خرداذبه المنحدر من اصل فارسي وقد توفي في سنة ٩١٢م وهو واضع كتاب (المسالك والممالك) الذي يسمي فيه المقاطعات والاقاليم السورية ويشير الى الطرق والمسافات التي تفصل بين المدن ويعتمد في بيان حدود الارض ومسالكها وممالكها على كتاب المجسطي لبطليموس .

واهتم العرب في عصر المأمون بعمل نوع من الخرائط التي سميت (الصورة المأمونية) ويذكر المسعودي في مؤلفاته الجغرافية ان الارض قد صورت في الخرائط على طريقة بطليموس المصري . وقد اجتمع لوضعها عدد من علماء العصر فصوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الامم وغير ذلك فجاءت احسن مما تقدمها من جغرافية بطليموس وجغرافية مارينوس وغيرهما .

ويقول الدكتور عبد الحليم منتصر عن دور العرب في خدمة علم الجغرافية « بلغت الدراسات الجغرافية القديمة ذروتها حينما وضع جغرافي مصري هو كلوديوس بطليموس الاسكندري كتابيه المعروفين (المجسطي) (والمدخل الى الجغرافيا) . وليس من المبالغة ان نقول ان قصة الكشف القديم انتهت بظهورهما وعاشت اوربا طول العصور الوسطى يخيم عليها الجهل حتى غدت اللغة اليونانية وهي لغة العلم والحضارة

١ — حتي فيليب — تاريخ العرب المطول ص ٤٦٩

القديمة مجهولة في معظم جهات اوربا . ولكن العرب حافظوا على التراث الاغريقي وكان من بين الكتب التي اهتموا بها كتاب كلوديوس بطليموس الاسكندري Claudius Ptolemoius الذي عرفوه بأسم بطليموس القلوذي وركزوا على كتابه الجامع في الفلك وقد قام بترجمته الحجاج بن يوسف بن مطر (٧٨٧–٨٣٥) تحت عنوان المجسطي (معناها الكتاب الاعظم) ثم اصلح من ترجمته ثابت بن قره الحراني (٨٣٤–٩٠١) وضاع الأصل اليوناني للكتاب وبقيت الترجمة العربية . فلم تعرف اوربا الكتاب الا في القرن الثاني عشر الميلادي حينما نقله الى اللاتينية من العربية جيرارد القرموني Gerard De Cremona في سنة ١١٧٥ (اي في عصر الحروب الصليبية) . ومع أن هذه الترجمة كانت احدى آيات فخار القرموني فأنها لا تمثل الا جانباً من عمله العظيم الذي يتصل بجميع العلوم وجميع المؤلفين الاغريق تقريباً الذين عرفتهم النصوص العربية . اما كتاب بطليموس الآخر (المدخل الى الجغرافيا) والذي عرفه العرب بأسم (جغرافيا) فقد ترجم الى العربية اكثر من مرة واشهر ترجماته الترجمة التي عملها ثابت بن قرة ثم ترجمه محمد بن موسى الخوارزمي (٨٥٠ م) الذي استفاد منه في وضع كتابه (صورة الارض) (١) .

ومن الجغرافيين العرب الذين لمعوا في القرن العاشر الاصطخري واضع كتاب (مسالك الممالك) الذي زينه بالخرائط الملونة بكل بلاد على حده واعتمد في وضعه على الاصول الجغرافية التي وضعها البلخي المتوفى في سنة ٩٢٤م وقد اشار فيه بعد المسعودي الى وجود مطاحن هواء في سجستان . والبلخي هو واضع اول اطلس عربي وقد الحقه بكتابه (صورة الاقاليم) .

اما ابن حوقل المتوفى في سنة ٣٨٠هـ فقد وصف في كتابه (المسالك والممالك والمفاوز والمهالك) رحلته التي قام بها من العراق الى الشام فجزيرة العرب فمصر فالمغرب فالاندلس فصقلية . وقد نقح خرائط الاصطخري واصلح جغرافيته بناء على طلب منه ثم كتبها ثانية وانتحلها لنفسه بعنوان (المسالك والمهالك) .

ويقول الدكتور جورج سارتون في مقدمته عن تاريخ العلم حول شكل الارض وابعادها : « لقد اعتبر القديس اوغسطين في القرون الوسطى كروية الارض من المسائل التي لا يمكن التسليم بها » (٢) ذلك لأن الفكر الاوربي كما يقول الدكتور

---

(١) منتصر عبد الحليم ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٣١٢

2 — Sarton George, Introduction to the History of Science P. 46

عبد الحليم منتصر قـــد سيطرت عليه جهالة القرون الوسطى فكان غـــير مستعد لقبول فكرة كروية الارض في الوقت الذي كان فيه الجغرافيون العرب يجمعون على هذه الحقيقة فيكتب ابن خرداذبه ان الارض مدورة كتدوير الكرة وهي موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة ويقول ابن رسته المتوفى في سنة ٩٠٣ نقلاً عن عبد الحليم منتصر « ان الله عزوجل وضع الفلك مستديراً كأستدارة الكرة اجوف دوراً والارض مستديرة ايضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك » (١) .

ويقول المسعودي المتوفى في سنة ٩٥٦ نقلاً عن عبد الحليم منتصر وهو يتحدث عن جزر الاقيانوس :ـ

« ان الشمس اذا غابت في هذه الجزائر كان طلوعها في اقصى الصين وذلك نصف دائرة الارض. ولم يلق العرب الكلام على عواهنه بل اقاموا البراهين على ما ذهبوا اليه والدليل على ذلك ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الارض في وقت واحد بل يرى طلوعها على المواضيع المشرقية قبل غيبتها عن المغربية » (١) .

ويقول ايضاً :ـ

« ولو لم يشع العرب نظرية كروية الارض التي قال عنها الاغريق الوثنيون من قبل لما خطر ببال رحالة مثل كريستوفر كولمبس ان الاتجاه نحو الغرب يمكن ان يؤدي الى الهند ولما كان في استطاعته ان يكشف عن الدنيا الجديدة . فالعرب لهم فضل كبير في الكشف عن نصف الكرة الغربي لما اشاعوا من نظريات مدعمة بالادلة والبراهين » (٢) .

ومن الجغرافيين العرب الذين اشتهروا في التاريخ المقدسي الذي فاق من سبقه ابتكاراً وقد ولد ببيت المقدس فسمي المقدسي وكتابه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » مزين بالخرائط وفيه وصف للعالم الاسلامي الذي زاره ما عدا الاندلس وسجستان والهند وقد طبعه في سنة (٩٨٥ــ٩٨٦) وضمنه اسفاره التي دامت عشرين حولاً فجاء حافلاً بالحقائق المفيـــدة ومميزاً بالطريقة . كما تضمن احسن تصنيف للمعلومات المناخية واعتمد المقدسي في وضع كتابه على مشاهداته وملاحظاته وخبراته

(١) منتصر عبد الحليم ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٣٢٢
(٢) « « « « « « « « ص ٣٢٣

الشخصية التي دونها ولم يعتمد على ما ورد في الكتب الاخرى والى مؤلفات المقدسي وغيره من الجغرافيين المعاصرين يعود الفضل في وقوفنا على مدى التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي بلغ اقصى درجات الازدهار في سورية في القرن العاشر ويقول الدكتور فيليب حتي .

« لم يترك أي جغرافي لاتيني او يوناني او سامي اية مادة يمكن موازنتها بهذه المادة العربية كماً ونوعاً . فالمقدسي يقدم مسحاً للتجارة والزراعة والصناعة والتربية العامة . وهو يذكر الحديد الخام في جبال بيروت من جملة ما يذكر والاشجار وصوامع العبادة الكثيرة في لبنان ومنتوجات صور من السكر والاواني الزجاجية ويذكر الجبن والبضائع القطنية في القدس وحبوب عمان وعسلها . وهو يصف سورية (بالاقليم المبارك) وبموطن الاسعار الرخيصة وموطن الفواكه والشعب المستقيم العادل » (١) .

"No Latin, Greek or Semitic geographer ever left us material comparable to this Arabic material in quality and quantity. Al-Maqdisi surveys trade, agriculture, industry and general education. He refers among other things, to iron ores in the mountains of Beirut, the abundant trees and hermits in Lebanon, the sugar and glassware products of Tyre,the cheese and cotton goods of Jerusalem and the cereals and honey of Amman. He characterizes Syria as, a blessed region, the home of cheap prices, fruits and righteous people" (1)

وفي عصر الحروب الصليبية ظهر جغرافيان من اشهر جغرافيي العرب هما الادريسي وياقوت الحموي .

اما الادريسي فقد صنع كرة من الفضة للملك صقلية النورماندي وهي ما تزال محفوظة في برلين حتى اليوم . والخريطة التي وضعها في سنة ١١٥٤ هي الاثر الوحيد الهام في الكارتوغرافيا الاوربية في القرن الرابع عشر الذي روعي فيه الاسلوب البطليموسي وكتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) مترجم الى اللغات الالمانية والايطالية والاسبانية والفرنسية وطبعت منه خريطة ملونة باللاتينية في سنة ١٩٣١ ونسخة بالعربية في سنة ١٩٥١ ويقول عنه المؤرخ غوثه نقلاً عن قصة الحضارة في الوطن العربي الكبير اعداد دار الفكر :

---

(١) حتي ، فيليب تاريخ سورية ص ٥٧١

1 — Hitti, Philip, History of Syria, P. 571

« ان الشريف الادريسي الجغرافي كان استاذ الجغرافيا الذي علّم اوربا هذا العلم ودام معلماً لهـا مدة ثلاثة قرون ولم يكن لاوربا مصور للعالم الا ما رسمه الادريسي » ويقول د/وسان « ان كتاب الادريسي لا يمكن ان يوازن به اي كتاب جغرافي سابق له وان بعض اجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الامور المتعلقة بها ———— وتعتبر دائرة المعارف الفرنسية هذا الكتاب اعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى » (١) .

اما ياقوت بن عبدالله (١١٧٩–١٢٢٩م) فيعتبره المؤرخون اعظم الجغرافيين على الاطلاق ذلك لانه اول من صنف البلدان تصنيفاً مبتكراً ورتب اسماءها حسب الحروف الابجدية ووضع المعلومات الفلكية المتصلة بكل بلد وذكر تاريخ نشأته والمسافة التي تفصل بينه وبين غيره من البلدان كما وصف ميزاته وخصائصه وما اشتهر به ، بالاضافة الى تصحيح المعلومات التي اختلف عليهـا العلماء من قبل واضافة اسماء جديدة اليها . وقد سمي قاموسه الجغرافي (معجم البلدان) . ووضع ياقوت ايضاً قاموساً في الادب سمي (معجم الادباء) . وقاموسه (معجم البلدان) الذي يصف فيه احوال البلدان يعد من امهات الكتب التي يعتمد عليها في معرفة مواقع البلدان الوارد ذكرها في التاريخ وهو يتحدث عن اهمية علم الجغرافية في التاريخ وعن ضرورة هذا العلم للناس على اختلاف مستوياتهم ودرجاتهم . ويشدد ايضاً على اهمية علم الجغرافية بالنسبة للدين والفقه الاسلامي وعلى ارتباط علم الجغرافية بعلم الفلك . وكتاب (معجم البلدان) « ليس بكتاب بلدان فحسب بل انه كتاب تاريخ امم وتراجم رجال وعادات اقوام وتقاليد شعوب. واحتوى من الادب درراً، نثراً وشعراً ومن القصص طرائف بعضها المضحك وبعضها المبكي وبعضها نقتبس منه العبرة الهادئة » (٢) .

ولد ياقوت في آسية الصغرى في سنة ١١٧٩م وكان والده عبدالله قد وقع اسيراً في يد الروم وعاش في آسية الصغرى سنوات طويلة وتزوج عبد الله وانجب اطفالا وكان ياقوت احدهم وفي معركة دارت بين العرب والروم وقع ياقوت في يد العرب

(١) دار الفكر سنة ١٩٧٣ ، قصة الحضارة في الوطن العربي الكبير منذ فجر التاريخ حتى العصور الحديثة ص ٤٨٩

(٢) دار الفكر سنة ١٩٧٣ ، قصة الحضارة في الوطن العربي مالكبير منذ فجر التاريخ حتى العصور الحديثة ص ٤٨٩

فأشتراه تاجر حموي غني في بغداد اسمه عسكر بن ابي نصر الحموي ومن هنا عرف بالحموي .

ومن مشاهير الرواد العرب (ابن بطوطة) واسمه الحقيقي شمس الدين محمد ابن عبدالله غير ان العالم عرفه باسم (ابن بطوطة المولود في طنجة في سنة ١٣٠٤) . وقد اشتهر ابن بطوطة برحلاته الواسعة على مدى ثلاثين عاماً زار في خلالها اغلب بلاد العالم القديم فمر بمكة المكرمة وزار الهند وسيلان والصين وجزر اندونيسيا وتركستان وروسية ، وبعد عودته الى بلاده سجل ملاحظاته عن هذه الرحلة التي اغنت علم الجغرافية بمعلومات قيمة عن البلدان التي زارها فوصف البيئة الطبيعية والتضاريس والسكان والعادات والف كتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » ويعرف هذا الكتاب « برحلة ابن بطوطة » .

ومن الرواد الذين عاصروا الحروب الصليبية (ابن جبير) الرحالة الاندلسي الذي وصف رحلاته بطريقة علمية وبأسلوب ادبي شائق .

ان الجغرافية هي احد المواضيع التي اهتم الصليبيون اهتماماً كبيراً بها اذ حفزت الفرنج على دراسة مؤلفات الفلكيين والجغرافيين وكل ما يتصل بأحوال الرواد والملاحين . والخرائط التي وضعت في خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر المعروفة بالسنوتية Senutines انما هي اولى ثمرات القرون الوسطى في هذا العلم وكانت نتيجة للمعلومات التي اكتسبها الفرنجة من الشرق في عصر الحروب الصليبيـــة وهنالك مخطوطات لاتينية تتضمن خارطة لنصف الكرة الارضية وخارطتين اثنتين للارض المقدسة يرجع عهدها الى اوائل القرن الرابع عشر وهي موجودة في المكتبة الوطنية في باريس . وقد دونت على هذه الخرائط المسافة بين كل موقع واخر ويوجد ايضاً اطلس في متحف البندقية وضعه ليبرتو فيسكونتي يحتوي تسع خرائط ، ويعود في تاريخه الى سنة ١٣١٨ . وهذا الاطلس يتضمن تفاصيل عن الساحل السوري وجزيرة قبرص ومعلومات هي غاية في الدقة . وجميع هذه الاعمال هي نتيجة اتصال الغرب بالشرق من خلال الحروب الصليبية وعن طريق الاطلاع على كتب الجغرافيين العرب بالرغم من انكار هيسكتنز لفضل العرب على الغرب في هذا المجال .

مما تقدم يتضح ان العرب والمسلمين خدموا علم الجغرافية خدمة لن ينساها التاريخ مدى الحياة فقد كانوا حلقة الوصل بين القديم والحديث فأخذوا عن القديم

اروع ما فيه وحافظوا عليه واضافوا اليه اضافات جديدة مبتكرة ويقول الدكتور عبد الحليم منتصر عن دور العرب في خدمة علم الجغرافية :

« ما كان للكشوف الجغرافية لتتم لولا ما وقف عليه الغرب من كتابات العرب ومصنفاتهم ولولا ما وصل اليهم من الأجهزة والادوات التي سهلت عليهم الانتقال بسفنهم عبر المحيطات . عرف العرب اوربا جميعها فيما عدا الاطراف الشمالية منها التي لم يكتشفها الاوربيون انفسهم الا في عصر متأخر وكانت معرفتهم بالنصف الجنوبي والشرقي من آسية معرفة دقيقة وقد عرفوا افريقية الشمالية حتى حدود المنطقة الاستوائية واوغلوا ابعد من ذلك في ساحلها الشرقي حتى وصلوا الى قرب مدار الجدي ووصف العرب في دقة وتفصيل العالم الممتد من كوريا حتى سواحل بحر الظلمات (المحيط الاطلنطي) . واهتموا بكل الجوانب الجغرافية لهذه المنطقة الواسعة . فيتحدث المسعودي مثلاً عن الرياح الموسمية في المحيط الهندي ومواعيد هبوبها واثرها في الملاحة ويستنتج البيروني ان سهول شمال الهند كانت قاع بحر ردمته الرواسب ويفرق بين الخليج والمصب الخليجي فيذكر ان الاول ذراع من البحر يتوغل في اليابس وان الآخر جزء من نهر غمرته المياه، ثم هو يفسر حركة المد والجزر ويربط بينهما وبين اوجه القمر .

ويتحدث الجغرافيون المسلمون عن الجغرافية الاقتصادية للبلاد التي عرفوا ثروتها المعدنية وانتاجها الزراعي وطرقها ومسالكها ويتحدثون عن السكان وحياتهم الاجتماعية وانماطها ومراكز الاستقرار البشري وعلاقتها بما حولها من الارض » .

ويمضي الدكتور عبد الحليم منتصر فيقول :-

« وقد اثبت البحث العلمي الحديث اهمية المعلومات التي جمعوها عن بلاد نائية مثل ارخبيل الملايو وداخل افريقية وقد استفاد من هذه المعلومات الرحالة والرواد الاوربيون في عصر النهضة . ومن الثابت ان اوربا لم تعرف داخل افريقية الا عن طريق الكتابات العربية . فقد وقفت الظروف الطبيعية لسطح القارة حائلاً امام توغل الاوربيين فيها فاقتصر علمهم على سواحلها في حين كان الجزء الاكبر من النصف الشمالي للقارة معروفاً للعرب وظلت كتاباتهم هي المرجع الوحيد عن جغرافية هذه المناطق حتى القرن التاسع عشر . ويكفي هنا ان نشير الى ان واحداً من الجغرافيين العرب هو الحسن بن محمد الوزان الزياتي الذي عاش في اوربا فترة طويلة من حياته

باسم ليو الافريقي (Leo Africanus) قد وضع كتاباً بأسم (وصف افريقية) عالج فيه بالدراسة المفصلة جغرافية النصف الشمالي من القارة ثم قام هو نفسه بترجمة كتابه الى اللغة الايطالية في اثناء اقامته بالفاتيكان في خدمة البابا ليو العاشر » (١) .

الدين والمالية :

من ابرز نتائج نشاط التجارة العظيم بين الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية ان اصبح استعمال النقود امراً لا غنى عنه اذ كانت النقود قبل الحروب الصليبية نادرة الوجود ذلك لان طبيعة النظام الاقطاعي لم تستدع استعمال النقود بسبب شيوع نظام المقايضة . غير ان نظام الاقطاع الذي كان سائداً في اوربا ما كاد يميل الى الافول حتى استلزمت حاجة الامراء والفرسان والحجاج التي ظهرت فجأة وجود نقود جاهزة فأقترن فجر الحروب الصليبية بظهور عملية تسليف النقود وتبادل المصالح على اساس استعمال النقود . وما ان بدأت حركة الحج تزداد في عصر الحروب الصليبية حتى ظهرت طبقة من الصيارفة في مدن الجمهوريات الايطالية ، فعمل الصيارفة على سد حاجات الامراء والفرسان عن طريق حوالات او كمبيالات قابلة للصرف في مراكز وكالاتهم في المدن الخاضعة لحكم الفرنجة في الشرق واستطاع البارونات والامراء الذين رغبوا في الاشتراك في الحملات الصليبية الحصول على النقود التي احتاجوا اليها اما بالاقتراض او ببيع املاكهم . ونتيجة لهذه الحاجات الملحة للنقد نشطت حرفة الاشتغال بأعمال الصرافة ، غير انه ظهرت صعوبة كان لابد من مواجهتها وايجاد حل لها وهي ان يحمل المرء نقوده مسافات شاسعة من نهر الراين حتى نهر الاردن فيعرض نفسه لانواع المخاطر ولكنه تغلب على هذه الصعوبة عن طريق انشاء نظام الصرافة العالمية International Banking الذي مكن الحاج اوالمسافر من ايداع نقوده في باريس مثلاً واخذ حوالة تمكنه من قبض مقابلها من طائفة الداوية في القدس Temple Order in Jerusalem واصبحت الفرق الحربية الدينية وخاصة فرقة المعبد (الداوية) مصارف للايداع والتسليف وكان الفرسان الفرنسيون سباقين في هذا الميدان وسرعان ما قلدهم التجار الايطاليون في هذه المهنة المربحة التي نستطيع ان نعتبرها بداية نشوء نظام الصرافة العالمية .

---

(١) منتصر عبد الحليم — اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٣١٦ — ٣١٧

وفي ذلك تذكر لجنة الجامعيين لنشر العلم :

« ولقد دعت الحاجات المالية للتجارة الشرقية النائمة ولشؤون الحجاج والفرسان المتنقلين او المقيمين وراء البحار الى نشوء نظام الاوراق المالية الخاصة بتقييد ما للعميل من حساب في المصارف Credit - notes وتأسست البيوت المالية في جنوة وبيزا ومسينا وانتشرت فروعها واعمالها في شرق بحر الروم وصارت الهيئات العسكرية ولا سيما الداوية مصارف للايداع والتسليف » (١) .

النقد وثروة الأمراء الغربيين في بلاد الشام :

من اهم نتائج الحروب الصليبية اشتداد الطلب على النقود التي احتاج الصليبيون الى قدر كبير منها للانفاق على انفسهم في طريقهم الى الشرق ، الامر الذي اضطرهم الى بيع الكثير من ممتلكاتهم واراضيهم والاستعاضة عنها بنقود يستفيدون منها في حملاتهم الصليبية . وعندما بدأت الحروب الصليبية لم تكن النقود الذهبية معروفة في اوربا باستثناء صقلية واسبانية العربية ، فالفضة كانت اكثر المعادن استعمالاً في اوربا كما ان الامارات الإسلامية في سورية لم تكن قد صكت وقتئذ نقوداً من الذهب ، بالرغم من وفرة النقود الذهبية في بغداد مركز الخلافة العباسية والقاهرة مركز الخلافة الفاطمية .

كان الذهب في القرون الوسطى نادر الوجود وغالي الثمن وكانت الاعمال مقتصرة على الحرف والصناعات المحلية ولم تنشأ وقتئذ اية صفقات تجارية كبيرة تحتاج الى قطع من النقـــود غالية الثمن غلاء الذهب ولما بدأت الحروب الصليبية واستقرت الامارات اللاتينية في البلاد السورية وبلغت التجارة درجة عالية من النشاط اصبحت النقود المؤثر المباشر على الجاليات اللاتينية التي استقرت في سورية ، ذلك لان الاعمال كانت كثـــيرة والتعامل بين المسلمين والصليبيين كان من اقوى مظاهر العلاقات الودية التي كانت قائمة بينهم في اوقات السلم . اما البارونات والامراء الصليبيون فما كادوا يصلون الى الاراضي المقدسة حتى شرع ملك بيت المقدس وامير انطاكية وكونت طرابلس بضرب نقود ذهبية لها قيمة نقود المسلمين وحجمها فسموها في العربية دنانير وسموا واحدها ديناراً . اما اللاتينيون فسموا واحـــدها

(١) لجنة الجامعيين لنشر العلم ، تراث الاسلام – الجزء الاول ص. ١١٩

بيزنطة Bezant وكانت تعرف ايضاً باسم الدنانير الاسلامية Saracenate Bezants . وقد نقشت كلمات وتواريخ بالعربية على ظهرها تحت اسم السلطان المسلم وآية قصيرة من القرآن الكريم واشارة موجزة للنبي محمد (صلعم) . ولتمييز النقـود بعضها عن بعض نقش عليها في بعض الحالات صورة للصليب او اسم ضاربها اللاتيني وذكر عليها احياناً مكان ضربها . ولم تكن تلك النقود الا تقليداً للدنانير الفاطمية . ودنانير بيت المقدس لم تحو من الذهب الا ثلثي ما تحويه الدنانير الفاطمية . وكانت تعرف باسم الدنانير الصورية أي (دنانير صور) . وقد انتشر تداولها في انحاء الشرق الادنى .

واستمرت الحالة على ذلك الى ان احتج عليها البابا انوسنت الرابع احتجاجاً كبيراً حين زيارته فلسطين مع الملك لويس التاسع في سنة ١٢٤٨م اذ اعتبر هذا الامر اكبر حدث مهين لكرامة الدول المسيحية فتغير شكل النقود الذهبية منذ ذلك الحين بالرغم من احتفاظها بحجمها الأصلي والنقش عليها بحروف عربية بالاضافة الى نقش التاريخ الميلادي وقانون الايمان المعبر عن الاعتقاد بالثالوث الاقدس والوهية المسيح .

كانت طرابلس وصور وعكا هي المراكز الرئيسية لصك النقود الذهبية . وفي هذه المدن صكت ايضاً النقود الفضية والنحاسية وكان المسك في عكا يقع تحت اشراف البندقيين الذين كانوا يدفعون للملك نسبة مئوية من الارباح لمنحه هذا الامتياز لهم. وقد وجدت في فلسطين نقود من الفئات الصغيرة تشبه في شكلها النمط الفرنسي ووجدت في ادسا وانطاكية نقود تشبه النمط اليوناني ويقول ري E. Rey

« ان اكبر مضرب للعملة للامارات الافرنجية انما كان في صور وعكا وطرابلس وانطاكية حيث كانوا يسكون النقود كالدينار الاسلامي تقليـداً للدينار الفاطمي ، وما لبث هذا الدينار ان حمل الشعار النصراني بالاحرف العربية ؛ وكان البندقيون السابقين الى ذلك في صور ، لذلك فقد عرف دينارهم بالدينار الصوري . وقد كان الشوام والعراقيون يتعاملون به تسهيلاً لصفقاتهم التجارية . وكان انتشار التداول به في جميع اسواق الشرق . ولعل هذا كان اول عهد الاوربيين بالنقود الذهبية . وكان الايطاليون مع منظمتي الداوية والاسبتالية اصحاب اكبر المصارف المالية في عكا

وقيسارية وطرابلس . وفي القرن الثاني عشر استعمل البندقيون الاوراق النقدية في المدن الساحلية من الديار الشامية » (١)

وتقول في ذلك لجنة الجامعيين لنشر العلم :

« ومن النتائج الغريبة المتصلة بالنقد والتي ادت اليها الحروب الصليبية والتجارة الشرقية التي شجعتها هذه الحروب ان ضرب البنادقة عملة للتداول في الارض المقدسة كانت تعرف باسم Byzantini Saracenati العمـلة البيزنطية العربيـة وهي عمـلة ذهبية (ربما كانت أقدم عملة ذهبية ضربها اللاتين) يتعامل بها مع البلاد الاسلامية البعيدة عن الشاطىء وكانت على هذه القطع نقوش عربية وبعض آيات صغيرة من القرآن الكريم وإشارة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وتاريخ هجري ، حتى عام ١٢٤٩ (حينما احتج على ذلك البابا انوسنت الرابع) بل انه يمكن العثور على قطع من هذه العملة في جنوب فرنسا يمتد عهدها الى القرن الثالث عشر » (٢) .

وتوجد في الوقت الحاضر أنواع كثيرة من النقود محفوظة في عدد كبير من متاحف العالم عثر عليها في تربة الاراضي المقدسة وهي اكبر شاهد على اختلاف النقود التي استعملت في عصر الحروب الصليبية وتبين هذه النقود كيف ان التجار في ذلك الزمن استطاعوا حماية انفسهم من طغيان النقود المزورة اذ ابتكروا انواعاً من النقود كانت مقبولة لدى كل من المسلمين واللاتينيين سواء بسواء ولم ينسوا ان ينقشوا عليها اسم الجلالة والتاريخ الهجري .

ومن الصعب ان نعرف من أين حصل الفرنج على الذهب . فالفدية الذهبية قليلة اذا ما قيست بكميات الدنانير الذهبية المسكوكة في الامارات اللاتينية ، وكميات الذهب المسلوبة من المسلمين في اثناء المعارك لا تشكل الا نسبة ضئيلة جداً من الذهب المتوافر لدى الفرنج ، وكانت السودان المصدر الرئيسي للذهب في ذلك الوقت وكان المغاربة يتجارون به فيستبدلونه بالفضة التي كانت متوفرة في اوربا بكميات كبيرة وكان اللاتينيون يدفعون في الذهب ثمناً باهظاً من الفضة . ولم ترتفع نسبة الذهب في الدنانير الذهبية المسكوكة في الامارات الصليبية الا في القرن الثالث عشر . وكان حق صك النقود الذهبية في الامارات اللاتينية بأيدي ملك بيت المقدس وامير انطاكية وكونت طرابلس.

(١) رى (اي) نقلا عن النقاش، زكي، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية ص. ١٩١–١٩٢

(٢) لجنة الجامعيين لنشر العلم تراث الاسلام الجزء الاول ص ١١٩–١٢٠

اما الجاليات الايطالية ورؤساء الطوائف الدينية العسكرية والاسبتالية والتيتون فلم يملكوا حق ضرب النقود الذهبية بل كان بوسعهم ان يضربوا نقوداً برونزية لسد حاجاتهم المحلية ، غير ان مصدر ثروة الطوائف الدينية العسكرية كان مستمداً من نشاطاتهم المصرفية ومن ممتلكاتهم الواسعة الانتشار في العالم المسيحي الاوربي ، الامر الذي مكنهم من المساهمة مساهمة فعالة في تمويل الحملات الصليبية . فالداوية (الفرسان الهيكليون) هم الذين دفعوا مبالغ ضخمة لملك فرنسا لويس السابع لتمويل حملته الصليبية الثانيــة وجرى تسديدها لهم في فرنسا . وما كاد القرن الثــاني عشر ينتهي حتى اصبحت طائفة الداوية تمارس عمليات اقراض الاموال وتتقاضى عن ذلك فائدة مرتفعة وانتشر صيتهم كرجال اعمال حتى ان المسلمين كانوا يتعاملون معهم في اوقات السلم ومارست طائفة الاسبتالية وطائفة التيتون اعمالاً مماثلة ولكن على نطاق اقل . ولم يفق عليهم في عمليات الاقراض واستيفاء الفوائد المرتفعة الا اليهود في اوربا الذين استغلوا فرصة قيام الحملات الصليبية كغريزتهم فقدموا القروض الى من يطلبها بربا فاحش . فأستاء الاوربيون من سلوكهم وحقدوا عليهم حقداً شديداً . وهذا يفسر سبب تعرضهم لاضطهاد الاوربيين لهم زمن الحروب الصليبية والفتك بعدد كبير منهم .

بالرغم من نشاط التجارة بين الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية فأن الحكومة المركزية في مملكة القدس لم تستفد من الارباح الطائلة للتجارة التي جنتها مدن الجمهوريات الايطالية جنوة والبندقية وبيزا الا قدراً ضئيلاً . فالملك الذي له حق رسمي في استيفاء عشر المكوس كان قد باع نسبة كبيرة من حصته الى الطوائف الدينية العسكرية والى الكنيسة وبعض اتباعه ولم يبق له الا قدر ضئيل من ذلك العشر فكان امراء انطاكية وطرابلس يفوقونه في الثروة لان نفقاتهم في انشاء الاقطاعات النقدية كانت اقل من نفقاته . ومع ذلك فقد كان بين السادة الاقطاعيين في مملكة القدس اغنياء حصلوا على ثروات طائلة مكنتهم من العيش في بذخ امثال اسرة مونتفرات سادة صور الذين كانوا يملكون مصانع السكر واسرة الابليين الذين كانوا يملكون مناجم الحديد بالقرب من بيروت . غير ان ثراء مدن الشرق الفرنجي يعدّ سطحياً اذا ما قيس بثراء المدن العربية الداخلية ولكنه يعدّ ثراء عظيماً اذا ما قيس بما كانت عليه حالة المدن في غرب اوربا . فالمدن في الشرق اللاتيني كانت تفوق المدن في غرب اوربا في نظافتها وفي جودة بنائها وكان بوسع سكان المدن في الشرق اللاتيني

شراء الثياب الحريرية الفاخرة والعطور والتوابل بأثمان رخيصة اذا ما قيست بأثمانها في غرب اوربا . فلم يستطع شراء الثياب الحريرية والعطور والتوابل في غرب اوربا الا التاجر الغني ، وامثال هذا التاجر كانوا قلة في غرب اوربا .

الفصل السادس

المؤثرات الحضارية عن طريق الصناعة

عرف العرب والمسلمون في سورية والشرق الادنى الصناعة منذ زمن بعيد ، وكانت لهم صناعات معروفة قبل ابتداء الحروب الصليبية ، اذ فاقوا العالم في اتقان الصناعة وفي جمال تصويرها. وقد تمت الصناعة السورية بسبب وفرة المواد الخام فيها وكثرة معادنها وبسبب نشاط الشعب السوري ومهارته في الصناعة. وكانت الصناعة بمختلف انواعها من اختصاص العرب واليهود ابان الحروب الصليبية .

وقد اشتهرت سورية بصناعة المعادن التي عرفوها كالذهب والفضة والنحاس والبرونز والحديد والفولاذ .كانت صناعات العرب المعدنية في دمشق والمدن المصرية اكثر اتقاناً واشد احكاماً من صناعات الاوربيين في الغرب . وظهرت في دمشق وصور وبيروت ويافا والبلاد السورية الاخرى صناعة الخزف والزجاج وصناعة المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية والديباج والاطلس والنسيج الموشى المستعمل للتعليق على الجدران وحياكة السجاد ،كما يستدل على ذلك من مؤلفات المؤرخين الصليبيين والشرقيين . ومن المخلفات المحفوظة في المتاحف العامة والمجموعات الخاصة . وكان شغلهم في الزجاج والفخار والخزف لا يضارع في الجودة والاتقان. وقد انشئت مصانع الزجاج في صور وصيدا وغيرهما من المدن السورية . وكان الرمل الصوري الذي امتاز بالشفوف قد اكسب صناعة الزجاج السورية جمالاً واتقاناً ليس له نظير في سائر البلدان . وقد حافظ السوريون على هذه الصناعة منذ ايام الفنيقيين الذين كانوا اقدم من مارس هذه الصناعة بعد المصريين . واشتهرت سورية بصناعة الزجاج المخطط والمطلي بالميناء والزجاج الملون . وامتاز الزجاج السوري بصفائه ونقائه ورقته وجمال الوانه . وتعلم الفرنج من السوريين صناعة الزجاج

الملون والمخطط والمطلي الذي استعمل في عصر الحروب الصليبية في تزيين كنائسهم وكاتدرائياتهم وقصور ملوكهم وامرائهم . وعن مَدينة صور نقل البندقيون صناعة الزجاج الجميلة التي اشتهرت في القرون الوسطى .

ويقول الدكتور زكي النقاش عن صناعة الزجاج نقلاً عن راي :

« ولعله من الخير تخصيص صناعة الزجاج بكلمة اشتهرت بها مدن عديدة ، منها صور وانطاكية والخليل وطرابلس ودمشق وعكا . ويذكرغليوم الصوري ان هذه الصناعة قد ارتقت الى الغاية القصوى في القرون الوسطى وان من معاملها أخرجت تلك المصابيح البديعة والاكواب الجميلة والزجاجات المذهبة والمطلية بالميناء . وتحتفظ متاحف اوربا بنماذج منها . وان ننسى فلن ننسى تلك الآنية المعدنية البديعة الحسن بأنواعها واشكالها ونخص بالذكر منها النحاسية. فكم ازدانت بها قصور الملوك وبيوت الامراء من مسلمين وافرنج . ولم يكن ما يصنع منها للافرنج ليحمل رسوماً بشرية فحسب ، بل كان ينقش عليها ايضاً مشاهد دينية ويحفر على جوانبها حكم واشعار بأحرف ذهبية مع احتفاظها بطابعها النصراني » (١) .

ويقول النقاش ايضاً عن صناعة النسيج نقلاً راي :

« ومما خلفه لنا الادريسي الجغرافي الشهير بشأن صناعة نسيج الحرير ما يلي : « وكذلك فأن صور وطرابلس وانطاكية وطرطوس ، فقد حازت جميعها شهرة واسعة في الشرق والغرب بمصنوعاتها الحريرية ،وكانت مصنوعات صور ،على حد قول الادريسي ،من افخر الاجناس، فتمتاز بجمالها على غيرها من منتجات الشام ، وكان مرغوباً فيها جداً في الخارج ، كما كانت طرابلس تفاخر ايضاً بمنسوجاتها المبرقشة . وقد قدّر Burcharde De Mont Sion لدى زيارته للمدينة في سنة ١٢٨٣ ان عدد نساج الحرير ووبرالجمل لم يكن يقل عن اربعة آلاف عامل. ويمضي في القول :

وبالرغم من تعدد الحكام ، على مدينة انطاكية في خلال العصورفقد احتكرت — على حد قول غليوم الصوري— في عهدها الصناعات الميكانيكية التي كانت دائماً من اختصاص الشاميين من سكانها ، ودونك ما يلاحظه الادريسي بشأن صناعة

(١) النقاش ، زكي ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ص. ١٨١–١٨٤

الحرير فيها « يصفون في هذه المدينة اقمشة جميلة بالوانها المنسجمة . ومن ابدع منسوجاتها الحريرية المبرقشة والديباج » (١) .

وفي دمشق كان يصنع القماش الصوفي المخملي المعروف بأسم الحمل ويباع للفرنج. والكلمة الانكليزية Camlets مأخوذة عن الكلمة العربية (الحمل) وهو قماش خشن كان يصنع من وبر الابل، اما الآن فهو يصنع من صوف وقطن او شعر وحرير متموج . ويقول عنه راي نقلا عن النقاش « ومن المنسوجات الفاخرة المخملية Les Camelots وهي اقمشة كانت تصنع في مدن الشام كلها وخاصة في طرابلس وطرطوس . وكانت على اربعة انواع ١ — منها ماهو مصنوع من وبر الجمل ٢ — او وبر الماعز ٣ — او من صوف الغنم ٤ — او من الحرير . والظاهر ان هذه المنسوجات كان يرغب فيها الاوربيون كثيراً بدليل ان جوانفيل لدى زيارته لمدينة طرطوس حاجا كلفه الملك لويس التاسع ان يبتاع له كمية كبيرة من المخامل ليقدمها لبعض المؤسسات الدينية » (٢) .

وكلمة (الحمل) هي في الايطالية Camelotum وهي في اللاتينية Camelus وفي الالمانية kamelott اي الجملي او القماش المصنوع من وبر الجمال . ويقول ستيفن رنيسمان :

« وكانت بلاد الشام تصدر مختلف انواع القماش الى اوربا عن طريق التجار الايطاليين . اذ توافرت تربية دودة القز حول بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس ، على حين ان الكتان كان ينمو في سهول فلسطين . وكانت المنسوجات الحريرية تباع من اجل التصدير . وجرت صناعة الحرير الشامي في عكا وبيروت واللاذقية ، بينمااشتهرت صور بالمنسوجات المعروفة بأسم صندل. وكان لكتّان نابلس شهرة عالمية وكان لصبغ الارجوان purple الذي عرفت به صور شهرته في الوان الملابس . على ان الايطاليين استطاعوا ايضاً ان يشتروا المنسوجات الحريرية والكتانية من اسواق سورية ومصر لوفرة الكميات بها وانخفاض اسعارها عادة وكذلك كان شأن الايطاليين فيما يتعلق بالزجاج » (٣) .

---

(١) النقاش ، زكي ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ص ١٨١ .

(٢) « « « « « « « « « « « « ص ١٨٢

(٣) رنسيمان ، ستيفن تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص. ٦٠٤

واشتهرت دمشق ايضاً بصناعة الفسيفساء والقاشاني الذي هو نوع من القرميد المصقول (السداسي الشكل وقد رسمت عليه صور زهور مألوفة وكان يستعمل لتزويق الابنية والجدران من الداخل والخارج) ومن ابرز الوانه الازرق النيلي والازرق الفيروزي والاخضر ثم الاحمر والاصفر احياناً . وكان معروفاً في الزمن القديم عند الميلاميين والآشوريين . وظل مألوفاً في دمشق حتى اواخر القرن الثامن عشر » (١) .

كانت صناعة الزجاج من اختصاص اليهود في صور ويافا . اما صناعة الخزف فقد امتازت بها دمشق وصور واشتهرت صناعة الخزف في اوربا باسم (فخار دمشق) ، وهي من النوع القيشاني او الفخار المطلي بالميناء البديع الصنع والزاهي الالوان. وهنالك قطع من هذا الخزف لا تزال موجودة في المتاحف الكبرى وخاصة في دمشق وحلب وغيرهما من المدن الاخرى . ويذكر راي ان قطعة منها موجودة في متحف سيفرس »(٢) Sevres .

ويقول الدكتور زكي النقاش عن صناعة القشاني نقلاً عن راي :

« ولا عجب اذ علمنا ان هذه الصناعة الجميلة ، صناعة الخزف ، قد بلغت اوج تقدمها ابان القرن الثالث عشر اي في عصر (الحروب الصليبية) وظلت محتفظة بمكانتها في دمشق ، حتى غزوة التتر للبلاد ، عندما قضى عليها تيمور بنقله صناعتها الى عاصمته سمرقند في مطلع القرن الخامس عشر » .

ويقول ايضاً نقلاً عن راي :

« وقد جاء في معجم الاثاث في القرون الوسطى ما يلي : ان للقيشانيات الشامية اثرها البين في تقدم صناعة الخزف الفرنسية في اواخر القرن الثاني عشر. وقد كانت هذه القيشانيات نفسها نماذج احتذيت في جنوب فرنسا ايضاً » ويقول ايضاً :

« مما يذكر على سبيل المثال ، صفائح مطلية بالميناء الصفراء والخضراء مزدانة برسوم عربية ، انزلت تلك الصفائح في واجهة بناية بلدية سان انطوان المشيدة في القرن الثاني عشر ، ويلاحظ انها نسخة من فخار قد استورد عبر البحار ، وآية

---

(١) حتي فيليب ، تاريخ العرب المطول ص. ٤٢٤ .

(٢) Bey, E. Colonies Franques en Syria aux XII et XIII Siecles Paris 1883

ذلك ما فيها من مظاهر الصنعة العربية وما يزخرفها من الخطوط الكوفية مع احتفاظها بطابع القيشاني القديم المصنوع اما في الشام او ببلاد العجم » (١) .

لقد انتج الصناع العرب في دمشق ومصر مجموعة ضخمة من التحف الزخرفية الفخارية والخزفية والزجاجية والمعدنية والخشبية والعاجية بأشكال والوان مختلفة منها المزهريات والاباريق والصحون والزمزميات والمنابر والصناديق والمباخر وغير ذلك وانتجوا الاقمشة الثمينة والسجاد الفاخر وكانت جميعها محلاة بأنواع الزخارف المطبوعة بالطابع الاسلامي المنبثقة عن الخيال العربي . ويقول الدكتور محمد محمود الصياد في ذلك :

« وانتشرت التحف الاسلامية العربية في اسواق اوربا في العصور الوسطى ولقيت فيها رواجاً كبيراً واقبل على شرائها الملوك والامراء والاثرياء بل رجال الدين ، فأثارت الغيرة عند الصناع الاوربيين وحفزتهم على محاكاتها سواء من حيث اساليب الصناعة او طرز الزخرفة. والذي لا شك فيه ان وفرة استيراد اوربا للتحف الاسلامية من مختلف المواد ومنذ بداية الحروب الصليبية قد فتح الطريق امام تطور الفنون والصناعات الاوربية تطوراً كان من نتيجته نموها نمواً باهراً بحيث اصبح انتاج التحف الفنية ضرورة من مقتضيات عصر النهضة الاوربية » ويقول ايضاً :

« كانت المحاكاة اول حلقة من حلقات التطور ، ثم اخذ رجال الفن الاوربي يكتشفون اساليب جديدة في الصناعة ويصوغون الزخارف بروح مجددة ويلبسونها صبغة اوربية ولكنها ظلت تشف عن مصادرها الاسلامية العربية. ولعل ابرز مثل لذلك هو نابغة عصر النهضة ليوناردو دافنشي Leonardo de Vinci فقد اقبل على دراسة الزخرفة الاسلامية اقبالاً يبرهن على مدى الاهمية التي كانت تلك الزخرفة مكتسبة لهـا في ذلك العصر . وفي كراساته نماذج عديدة من زخرفة التوشيح العربي او الارابسك Arabesque . ومثل هذا الفنان الايطالي فرنسسكو بالجرينو Francesco Pelligrino الذي الف كتـاباً في اوائل القرن السادس عشر يوازن فيه بالرسم بين الزخارف الايطالية والزخارف العربية ويبرز فيه الاهمية التي كانت تحظى بها هذه

---

(٣) النقاش ، زكي ، العلاقات الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ص. ١٨٠-١٨١

الزخارف في الاوساط الفنية . وانتشرت بعد ذلك مراجع النماذج الزخرفية بفضل الطباعة . واخذ رجال الفن في اوربا يستلهمون الزخارف حتى استطاع المصـــور هولباين Holbein ان يبتكر اسلوباً زخرفياً مشبعاً بالروح العربية الاصيلة . وهكذا ظهرت في القرن السابع عشر في انجلترا واوربا لفظة الارابسك وهي التي تعبر عن نوع خاص من الزخارف التقليدية قوامها الفروع النباتية المنقوشة القليلة البروز مستمدة اسمها من مصادرها الاصيلة ومحتفظة به حتى وقتنا هذا » (١).

فالخزف السوري كان من السلع الهامة في تجارة المستعمرات اللاتينية كما يتضح من مراجعة مجموعات قوانين مملكة القدس ومن نصوص المعاهدة المعقودة بين امارة بيروت وجمهورية جنوة في سنة ١٢٣٣ اذ وردت فيها الاشارة التالية : « ان المصنوعات الفخارية المختلفة هي من السلع المعفاة من الرسوم الجمركية » (٢) .

وفي مجال صياغة الجواهر فيحدثنا الدكتور فيليب حتي بقوله :

« وكان لصياغة الجواهر دورها ايضاً . فقد كان اللؤلؤ والياقوت الازرق والاحمر والزمرد والماس من الجوهر التي يرغب فيها الملوك وذووهم . اما طبقات الشعب الدنيا فكانت تعتاض عن هذه الجواهر الثمينة بالفيروز والجزع . واهم الجواهر في تاريخ العرب حجر من الياقوت الاحمر كبير الحجم كان قد تنقل بين عدد من ملوك الاكاسرة وقد وقع الى الرشيد فأشتراه بأربعين الف دينار ونقشوا عليه اسمه. قالوا «كان يضيء بالليل كضياء المصباح» . اذا وضع في بيت لا مصباح فيه اشرق»(٣) .

ويقول ايضاً :

« وكان الذي ساعد على ترويج هذه الصناعة غنى الدولةبالمعادن واهمها الذهبوالفضة من خراسان ، وكذلك الرخام والزئبق ثم الياقوت واللازورد وحجر الباز من وراء النهر ، والرصاص والفضة من كرمان ، واللؤلؤ منالبحرين ،والفيروز من نيسابوروالتي بلغ التزام معادنها في اواخر القرن العاشر ٧٥٨٧٢٠ درهماً ، والعقيق الاحمر من صنعاء ، والحديد من لبنان . ومن المواد المعدنية الاخرى كان الصلصال والرخام من تبريز

---

(١) الصياد محمد محمود ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ، ٤٣٧-٨ .

(١) حتي فيليب تاريخ العرب ص.٢٠٢

(٣) حتي فيليب تاريخ العرب المطول ص ٤٢٦

والصلصال والاثمد (معدن الكحل) من اصبهان، والقير والنفط من بلاد الكرج، والزئبق والزفت والقطران من فرغانة، والرخام والكبريت من سورية وفلسطين، وحجر الفتيلة من وراء النهر » (١) .

ولم يجار العرب احد في صناعة المعادن. اذ تعلموا فيه الحفر وتلبيس هذا الحفر وابتكروا طريقة ماهرة لجعل الفولاذ يسطع لمعاناً ورونقاً كالذهب والفضة . وقد بلغت الزينة الفنية التي ظهرت في الهيكل في القدس من خلال توشية الجدران والاعمدة بالمعادن الكريمة حد الروعة والاعجاب . ولما عاد الصليبيون الى اوربا حملوا معهم اكثر من خمسماية آنية من الاواني المكرسة لخدمة النبي (صلعم) . وقد تعلموا من الشرق اشياء اخرى كما يقول وليام دانتون .

« بلغت عملية طلي المعادن بالميناء وصبغها بالاصباغ اللامعة الثابتة حد الاتقان عن طريق مشاهدة صناعات العرب الفنية. وقد احضروا معهم من الشرق ايضاً كمية من الياقوت الاحمر والاحجار اليمانية واللؤلؤ والزمرد والياقوت الازرق والماس . واكتشفوا طريقة تجليسها بالذهب والفضة لتكسبها سحراً لا يفنى من خلال الذوق في تركيبها وتجليسها » (٢) .

"The process of enamelling metals and the use, in painting, of solid bright colours may have been brought to perfection by the sight of these Arabian works of art. They also brought from the Orient a quantity of rubies, hyacinths, pearls, emeralds, sapphires and diamonds, and they found out how to set them in gold and silver so as to give undying charm through the taste of their mounting and their setting" (2)

كان السكان المسلمون والمسيحيون عماد هذه الصناعة التي ازدهرت في سورية وفلسطين في عصر الحروب الصليبية . وكان السكان الايطاليون في الشرق وسطاء التجارة . وكانت سفنهم تبحر في قوافل منتظمة مرتين او ثلاث مرات في كل سنة في الاوقات التي يكون الجو معتدلاً . وكانت هذه القوافل تحضر معها من اوربا الى الشرق اسلحة وجلوداً واقمشة واخشاباً ومعادن لاستعمال اللاتينيين بصورة خاصة.

---

(١) حتي فيليب تاريخ العرب المطول ص ٤٢٦

1 — Denton William, The Value of the Crusades in the Light of Modern History, The Historians History of the World, Vol. VIII P. 475

وقد جملت الكنائس والكاتدرائيات في اوربا وزينت بالحلل الثمينة والشمعدانات البرونزية والقناديل الزجاجية والآنية الفضية المصنوعة في سورية . وروى الصليبيون العائدون الى بلدانهم قصصاً غريبة عن ترف الشرقيين وبذخهم وثرائهم . وحملوا معهم الى اوربا جواهر ثمينة واسلحة فخمة كانوا قد سلبوها من قتلى اعدائهم في سورية وفلسطين . ولم يكن الشرق مدخراً للجواهر الثمينة وادوات الزينة الفخمة فحسب بل كان ايضاً مصنعاً للبضائع الدقيقة العجيبة الصنع والرفيعة الذوق التي لم يستطع الغرب محاكاتها ومنافستها .

غير ان صناعة التكفيت بالمعادن بدأت في الاضمحلال منذ اواخر القرن الرابع عشر ، ذلك لان غارة المغول على سورية ونهب تيمورلنك لمدينة دمشق في سنة ١٤٠١ قد جلبا الخراب للمراكز الصناعية الكبيرة ، كما ان فتح العثمانيين لمصر في سنة ١٥١٧ قد فرق الصناع القليلين الباقين في القاهرة . وفي الوقت الذي كانت الصناعة آخذة في الضعف والافول في الشرق كانت تباشير بعض الصناعة قد بدأت تظهر في اوربا ويقول السير ثوماس ووكر ارنولد في كتابه تراث الاسلام .

« ففي القرن الخامس عشر ازدهرت التجارة الشرقية التي بدأتها المدن الايطالية ابان الحروب الصليبية ازدهاراً كبيراً واصبحت منتجات الشرق معروفة لدى الامراء الايطاليين المتحددين الذين كانوا يعشقون الابهة والفخامة . وكان عمال هؤلاء الامراء يتخذون هذه المنتجات نماذج لهم يقلدونها عاملين على انتاج ما يفوقها في الاتقان . ففي البندقية اثّرت صناعة المعادن الشرقية تأثيراً عميقاً على الصناع الايطاليين حتى نشأت مدرسة بندقية شرقية وفّق فيها بين الصناعة الاسلامية والموضوعات الزخرفية الاسلامية وبين الذوق الايطالي في عصر النهضة . وتجد مثالاً من هذا التطور طبقاً (صينية) من النحاس يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر . وفيه تكفيت بالفضة على شكل خطوط متعرجة متقاطعة تذكرنا بالزخارف القاهرية في العصور الوسطى الاولى ، وفي وسطه زخرفة رئيسية تتألف من مجن عليه زخرفة بالميناء تمثل شارة (رنك) اسرة اوكي دي كاني Occhi di cani ، وهي اسرة نبيلة من فيرونا Verona . وهناك تحف اخرى صنعت تقليداً لتحف فارسية كان يقوم بعملها في ذلك الوقت صناع فارسيون مقيمون في مدينة البندقية نفسها » (١) .

---

(١) لجنة الجامعيين لنشر العلم – تراث الاسلام الجزء الثاني ص ٣٣

ويقول السير توماس ووكر ارنولد ايضاً :

« والتكفيت بالذهب والفضة – كما استعمله المسلمون في القرون الوسطى – كان الى حد ما مقابلاً لصناعة المعادن المزخرفة بالميناء وهي الصناعة التي عرفها الصناع الاوربيون المعاصرون الذين كانوا يستطيعون بطريقة الحفر عمل زخارف من عجينات زجاجية ملونة يزخرفون بها التحف التي كان المسلمون عادة يزينونها بتكفيتها بالمعادن النفيسة متبعين في ذلك طريقة الحفر نفسها » (١) .

وبالاضافة الى فن التكفيت بالذهب والفضة فقد اشتهر العرب ايضاً بصناعة الحفر في الحجارة . فالصناع الشاميون كانوا يحفرون للنبلاء الافرنج صور بعض الحيوانات لها علاقة بشعاراتهم على حجارة قاسية ، كما كانوا يصنعون لهم ما كانوا يحتاجون اليه من حلي ، فضلاً عن الآنية الكنسية التي كانت ترصّع بالذهب والفضة او تدق فيها الحجارة الكريمة او تنزل فيها اللالىء الغالية والعاج الثمين .

واشتهر الشاميون بصناعة الاسلحة وكانت لهم صناعات حاذقة في جميع المعادن . وكان مسيحيو الافرنج يسافرون احياناً من فلسطين الى دمشق ليبتاعوا الاسلحة منها . وكان الحديد الذي يستعمل في معظم الاسلحة يستخرج من الجبال المجاورة لبيروت . وقد امتدح الادريسي الحديد اللبناني لصلاحه لصناعة الاسلحة التي اشتهرت بها دمشق .

ومن السوريين تعلم الافرنج صناعات كثيرة منها صناعة البسط والسجاد التي دخلت شمال بلاد الشام ثم انتقلت منها الى فرنسا في القرن الثاني عشر ، وصناعة الاصباغ التي احتكرها اليهود واشتهرت بها اللاذقية وطرابلس ثم انتقلت الى الخليل والقدس ، وصناعة الصابون التي اشتهرت بها نابلس وعكا وطرطوس وانطاكية ثم انتقلت الى اوربا في القرن الثالث عشر ، وصناعة السكر ، وقد اقيمت معاصره قرب اريحا ، وصناعة المشروبات الروحية كالجعة التي كانوا يصنعونها من الذرة والشعير .

واشتهر السوريون في صناعة الورق والتطريز والحياكة واستعملوا طرقاً علمية لاستثمار اراضيهم وابتكروا انظمة جديدة للري وعرفوا قيمة الاسمدة والمركبات الضرورية التي تناسب التربة واكتشفوا طرقاً حاذقة لانتاج انواع جيدة من الاثمار

---

(١) لجنة الجامعيين لنشر العلم – تراث الاسلام الجزء الثاني ص ٣٤

والازدهار وبعبارة موجزة مهروا في مئات الاشياء في ميدان الصناعة مما كان لها اكبر الاثر في حياة الافرنج .

وفي مدن الشرق تعلم الصليبيون صناعة الورق. والعرب كانوا اول من احل هذه الصناعة محل الرق. وقد تعلموا هذه الصناعة من الصينيين الذين كانوا يصنعون الورق من شرانق الحرير منذ أقدم العصور عن طريق سمرقند التي فتحها العرب في سنة ٧٠٤م وتقول سيجرد هونكه حول انتقال هذه الصناعة الى العرب :

« وحدث ان انزل العرب في عام ٧٥١ م عدداً كبيراً من اسرى الحرب الصينيين في مدينة سمرقند وخيروا الاسير بين العتق او الرق وجعلوا ثمن العتق مباشرة خرقة من الحرق فأتضح ان عدداً كبيراً من اولئك الاسرى الصينيين كان يجيد صناعة الورق فأعتقهم المسلمون وشيدوا لهم المصانع الضرورية ونشروا صناعة الورق في العالم الاسلامي ، ومع مضي الزمن تقدمت هذه الصناعة باستخدام الكتان والقطن في صناعة الورق الابيض الناعم الجميل جداً الذي وجد اسواقاً رائجة في مختلف انحاء العالم الاسلامي وخاصة في عاصمة الدولة العباسية بغداد ،ومن ثم اقتبست اوربا هذه الصناعة كما اقتبست غيرها من العرب . فالورق صفحة من صفحات الفخار للعرب والعربية » (١) .

وقد ادخلت صناعة الورق الى سمرقند في اوائل التاريخ الهجري كما يقول غوستاف لوبون فلما فتحها العرب وجدوا فيها مصنعاً للورق الحريري . ولكن اختراعاً مهماً كهذا لم يكن لينفع اوربا التي لم تعرف الحرير تقريباً الا باستبدال مادة اخرى بالحرير وهذا ما اتاه العرب حين اقاموا القطن مقامه . ولم يلبث العرب ان بلغوا في اتقان صناعة الورق من القطن شأوا لم يسبق له مثيل ،كما دل عليه البحث في مخطوطات العرب القديمة . ومن الثابت ايضاً كما يقول غوستاف لوبون ان العرب اخترعوا من الاسمال صناعة الورق الصعبة الكثيرة التراكيب .

ظهر اول مصنع للورق في بغداد في اوائل القرن التاسع ، وفي مصر في اوائل القرن العاشر ، وفي مراكش في اوائل القرن الثاني عشر ، وفي اسبانيا في اواسط القرن الثاني عشر. وقد دخلت صناعة الورق الى اوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

---

(١) هونكه سيجرد ، شمس الله على الغرب ، فضل العرب على الغرب . ص ٤٥

عن طريق ايطاليا واسبانيا وليس عن طريق الحروب الصليبية ، غير انه لا يستبعد ان يكون الصليبيون قد تعرفوا على الورق في بلاد الشام. ذلك لان العرب في مكة المكرمة فكروا في استعمال القطن بدل الحرير في سنة ٧٠٦ في صناعة نوع من الورق عرف عند المؤرخين اليونانيين بالورق الدمشقي . Damask Paper ، وكان الناس يستعملون ورق البردي المصري ، غير ان هذا النوع من الورق كان نادر الوجود . ولضرورة الاقتصاد فأنهم كثيراً ما كانوا يضطرون الى محي ما كان على الورق القديم لاعادة استخدامه ثانية . وصناعة الورق كانت من اختصاص العرب. وقد ظهرت انواع مختلفة للورق منها الابيض والملون . وينسب الفضل الى المعتصم في تنشيط صناعة الورق وفي انشاء مصانع الصابون والزجاج . وتقول سيجرد هونكه حول انتقال الورق الى اوربا :

« وفي القرن الثاني عشر عاد نفر من الحجاج المسيحيين من زيارة لقبر الرسول يعقوب في اقصى شمال غرب اسبانيا ومعهم اول ورقة الى اوربا جاؤا بها من الاندلس العربية. وذكر اولئك الحجاج ان العرب يستخدمون الورق للكتابة الجميلة وتدوين الكتب المقدسة » :

وتستمر في الحديث فتقول :

« وحدث في ذلك الوقت ان غزت اوربا توابل ممتازة وروائح عطرية قوية وثياب انيقة من القطيفة والحرير وسرعان ما غمرت هذه البضائع اسواق الغرب وقلوب الغربيين ، لان مثلها قوّى الرغبة في حياة الابهة والترف ودفعها الى الامام بخطوات واسعة سبقت الاقبال على العلم والحرص على تحصيله . كان الناس يستعملون ورق البردى المصري ،وتحريم الاتجار مع الشرق استنفد جميع هذه الكميات. فأضطر الناس الى الاقتصاد في استخدام ما تحت ايديهم . وكثيراً ما كانوا يمحون ما على الورق القديم لاعادة استخدامه ثانية. وما كاد القوم في اوربا يرون الورق العربي حتى تهافتوا على استيراده فسافرت وفود تجارية من نورنبرج وبازل وكونستنس الى برشلونة ومنها الى بلنسية حيث تقوم في ضواحيها اكبر واحسن مصانع للورق. وقد قال فيه الرحالة العربي الجغرافي الشهير الادريسي (انه لا يوجد في العالم ورق يضارعه جودة) . والجدير بالملاحظة ان صناعة طواحين (مصانع) الورق كانت من اختصاص العرب وعنهم اخذها الغرب ،كما اخذت اوربا طواحين الماء والهواء وغيرها . كانت اسعار الحرير الصيني الذي ظل زمناً طويلاً مستعملاً للكتابة خيالياً مما اضطر المفكرين

الى ايجاد حل لهذه المشكلة . ففي عام ١٠١٠م وفّق (تساي لون) مدير المصانع الحربية القيصرية الى حل هذا اللغز . ولعل سرجاً من اللباد او شعر الماعز او البقر والذي تخصص فيه الاتراك الرحل الشرقيون هو الذي اوحى الى (تساي لون) فكرته الجديدة وشرع توا في تنفيذها فأستغل قشور الشجر والحلفاء والخرق وشباك الصيادين القديمة فقطعها ارباً فكان له هذا الورق الذي استغنى به عن الحرير الغالي الثمن »(١) .

ومما يدل دلالة قوية على مؤثرات الشرق الثقافية على الحضارة الغربية في مجال الصناعة ان هنالك عدداً من الكلمات التي تنم عن اصلها الشرقي ولا تزال مستعملة في اللغة الانكليزية وغيرها من اللغات الاوربية مثل Chinaware الخزف الصيني و ,Persian rugs اي السجاجيد العجمية و Cashmire shawls اي الشالات الكشميرية. وكان الصليبيون قد ادخلوا هذه المصنوعات الى بيوتهم الخاوية من اي شيء عند رجوعهم الى بلدانهم .

وانتقلت من بلدان حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي الى الغرب صناعات كثيرة في عصر الحروب الصليبية ، وشاعت صناعات الازياء القديمة كالموسلين المصنوع في الموصل ، والبلدكان المصنوع في بغداد ، والدمقس المصنوع في دمشق ، والاقمشة الحريرية الثقيلة المعروفة باسم Samites والاقمشة القطنية المتينة البيضاء والمعروفة باسم dimities والاقمشة الكتانية المعروفة باسم diapers وهذه الانواع الثلاثة انتقلت الى الغرب من بيزنطية وانتقل الاطلس العربي atlas الى الغرب وهو نسيج من الحرير الاسود الناعم. والكلمة من اصل سرياني » وانتقلت صناعة الابسطة والسجاد والمغلفات كما ورد في تراث الاسلام من الشرق الادنى ووسط آسية ، كما انتقل دهان الصقل Laquers والوان جديدة مثل القرمزي والليلق (الكلمتان عربيتان) والاصباغ والعقاقير والتوابل والعطور مثل حجر الشب والقرنفل واللبان والنيلة والصندل وادوات اللبس والزينة كالكاملت والجوب (مأخوذة من جبة في العربية) والمساحيق والمرايا والقطع الفنية المصنوعة من الفخار والزجاج والذهب والفضة والمينا وحتى المسبحة التي قيل انها اتت من البوذيين في الهند الى غرب اوربا عن طريق سورية » (٢) .

(١) هونكه سيجرد شمس الله على الغرب فضل العرب على الغرب ص ٤٣-٤٤ .

(٢) لجنة الجامعيين لنشر العلم ، تراث الاسلام ج ١ ص ١١٨

ومن المنسوجات القطنية التي اعتبرت في عداد الصناعات المهمة التي اتجرت بها المدن الشرقية المظلات المصنوعة من القطن والمعروفة باسم (بلدشين) و (بلدكان). وكانت هذه الكلمة تطلق ايضاً على القماش المزخرف الذي يستخدم في مختلف الاغراض الهامة وتضعه الكنيسة على المذبح ووطنه الاصلي بغداد . وكان يطلق على هذه المدينـــة في الايطالية لفظ بلدشو Baldacco ثم اطلق لفظ بلدشينو Baldecchino على القماش القطني المزخرف المصنوع من القطن في بغداد (Baghdad) وهي في الالمانية Baldachin ويعرف في الانكلـيزية بلفظ Baldaquin, Baldachin . وفي دمشق كان يصنع القماش الحريري الفخم المعروف بلفظ اطلس (atlas) وهو في الالمانية atlas والكلمة من اصل سرياني. وكان العرب يجلبون نوعاً من الحرير من مدينة صينية فنسبوا اليها ذلك الحرير الاملس المغزول المعروف بلفظ ساتان . وهذه الكلمة في الانكليزية (satin) وفي الايطاليـــة (Setino) وفي اللاتينية setinus وفي الالمانية satin . ويرجح ان هذه الكلمة انتقلت من العرب الى الاسبان ومنهم الى الفرنسيين وعرفت عندهم satin وعنهم انتقلت الى مختلف اللغات الحية (١) .

واما لفظة (قطن) العربية فقد شقت طريقها الى اوربا في عصر الحروب الصليبية في القرن الثالث عشر فكان ثوب القطون المصنوع من القطن يعرف بالالمانية بلفظ Kattun . ثم تطور الى cotoin و Kittel وفي وسط المانيـــا كان يعرف بلفظ Kietel والقطن في الفرنسية coton وفي الانكليزية cotton وفي الالمانية Koton

ومن اسماء الاقمشة التي انتقلت الى الغرب البركان المعروف في الالمانية بلفظ Berkan او Barchent وهو نسيج خشن من شعر الماعز او صوف الضان او وبر الجمال واللفظ فارسي الاصل وعن العربية انتقل الى مختلف اللغات الاوربية . وقد يتصل به لفظ بركال perkal لهذا النوع من القماش المنتشر اليوم (٢) . وهو في الانكليزية Volcan .

وانتقلت الى اللغات الاوربية كلمة (تافتة) وهي فارسية الاصل وكانت تطلق على نوع من القماش الحريري الناعم الاملس وقد اشتقت من كلمة (تافتن) التي تعني في الفارسية النسيج والفتل وعن العربية انتقلت هذه الكلمة الى مختلف اللغات

---

(١) هونكه سيجرد ، شمس الله على الغرب ، فضل العرب على اوربا
(٢) « « « « « « « « « «

الحية فهي في الانكليزية (Tafetta) وفي الايطالية Tafetta وفي الفارسية Tafts وفي الفرنسية taftas وفي الالمانية taft

وانتقلت لفظة الشف والشيفون الى اللغات الاوربية. والشف هو الثوب الرقيق الذي يشف عما تحته وهي في الانكليزية chiffon وفي الالمانيــة chiffon وفي الفرنسية chiffon وتطلق هذه الكلمة ايضاً على الشاش او الخرق .

وانتقلت لفظة مخيّر التي حرفت فأصبحت موهير فيما بعد وتعني القماش المصنوع من شعر الماعز الحريري المعروف باسم انجورا في آسية الصغرى . وهو مخيّر بين الحرير والصوف . وهذه الكلمة معروفة في الانكليزية باسم mohair وفي الفرنسية moire وفي الالمانية mohair وعن العربية انتقل هذا اللفظ الى البلاد الصقلبية ثم عاد الى المانيا .

وقد حلّت المرايا الزجاجية المغشاة بطبقة رقيقة من المعدن محل الفولاذ المصقول. وقبل ادخال المرايا الزجاجية الى الغرب كانت السيدة الاوربية تستعمل سطحاً لامعاً من المعدن . وبعد ادخالها الى اوربا انتشر استعمالها انتشاراً سريعاً حتى اصبحت مصدر ثروة لتجار كثيرين. واشتهر العرب في فن الطلاء وهندسة جنائن الورود التي انتقلت الى اوربا من الهند — كما يظن — عن طريق سورية . وادخلت الى اوربا في عصر الحروب الصليبية الاصباغ والعقاقير والبهارات والروائح العطرية . وفي ميدان الاصباغ نذكر كلمة ليلك وهي من اصل فارسي وقد اطلقت على اسم لشجيرة هندية ذات ازهار جميلة ثم استعير اللفظ للتعبير عن اللون الليلكي وهي في الانكليزية lilac وفي الالمانية lila وفي الاسبانية liliaceous . وكلمة قرمزي معناها اللون الاحمر القاني المنسوب الى الدود الذي يقع على شجر البلوط في شهر آذار. ويستخدم للصباغة وهذه الكلمة معروفة في اللغات العربية والفارسية والتركية باسم (قرمز) . ويقال ان اصلها ارمني او فارسي . ولفظها في الفارسية يعني الدودة الجميلة او الدودة الحمراء وهي في الانكليزية (Crimson) و (carmine) وتعــني اللون الاحمر القاني المائل الى الزرقة وهي في الفرنسية (cramoison) وفي الايطالية (carmesino) وفي الالمانية Karmin

وكلمة (ازور) واصلها فارسي تدل على اللون الازرق الباهت او الازرق السماوي او السماء وهي في الانكليزية (azure) وفي الفرنسية (azur) وفي اللاتينية (lazur) و (lazulum) و (azulum) اي الازرق .

وكما اشتهرت بلاد الشام بعدة صناعات يدوية فقد اشتهرت آسية الاسلامية ايضاً بحياكة السجاد وصناعة الاثاث واواني المطبخ. ففي مدينة الكوفة كانت تصنع المناديل الحريرية التي تلبس على الرأس وتعرف بالكوفية. وفي مدينة شيراز الفارسية كانت تصنع العباءات الصوفية المخططة والاقمشة الناعمة والديباج المقصب. وفي بخارى كان يصنع السجاد الفاخر. وقد اشتهرت بلاد فارس ايضاً بصناعة الالبسة الفاخرة الموشاة بالذهب والمخصصة لاستعمال الملوك والامراء. ومن بلاد فارس كان يصدر الى اوربا القماش المصنوع من الحرير المعروف بالتافتة والذي كانت السيدات تتهافت على شرائه.

ومن هذه الصناعات كلها يتضح ان التجارة كانت قد انتعشت في عصر الحروب الصليبية. فسار التاجر الايطالي جنباً الى جنب مع الفارس الفرنجي. وازدهرت التجارة الشرقية التي بدأتها المدن الايطالية ازدهاراً كبيراً واصبحت منتجات الشرق معروفة لدى الامراء الايطاليين المتعددين الذين كانوا يعشقون البذخ والابهة والفخامة. وكان الصناع والمزارعون يتخذون من منتجات الشرق نماذج لهم يقلدونها ويعملون على انتاج ما يضاهيها في الاتقان. ولم تقتصر تجارة المدن الايطالية على منتجات سورية وبضائعها بل شملت كذلك منتجات فارس والهند والصين وجزائر البهار وبضائعها. وهذه التجارة كان من الممكن ان تنشأ وتوتي ثمارها حتى لو لم تنشب الحروب الصليبية، غير ان الحروب الصليبية عجّلت في انتعاش التجارة وازدهارها قبل اوانها. فالبندقية كانت قد شقت طريقها الى الاسواق الشرقية عن طريق بيزنطية قبل الحرب الصليبية الاولى ببضع سنوات. وعلى هذا يقول ايرنست باركر «لا يمكننا ان نرد للحروب الصليبية او ننسب لها وحدها على اية حال كل الخيرات الشرقية التي وردت الى اوربا في اثناء العصور الوسطى او كل الانتعاش الذي شمل طرق التجارة القديمة واسواقها عقب ورود هذه الخيرات، كما انه لا يمكننا ان ننكر الدافع على الانتعاش الاقتصادي الذي خلقه قيام المملكة اللاتينية في سورية مع ما حوت اسواق دمشق من جهة وبغداد من جهة اخرى» (١).

وقد انسابت كلمات عربية اخرى كثيرة الى اللغات الاوربية في عصر الحروب الصليبية من خلال الاتصال المباشر بين الفرنج والعرب في بلاد الشام ومصر، غير

(١) لجنة الجامعيين لنشر العلم نقلا عن ايرنست باركر، تراث الاسلام الجزء الاول ص ١١٦–١١٧

ان هنالك صعوبة فيلولوجية في تحديد نسبة ما انساب منها الى اللغات الغربية في عصر الحروب الصليبية او عن طريقها وما انساب منها عن طريق اسبانيا وصقلية وغيرهما ، ذلك لان بلاد الشام ومصر لم تكونا وحدهما المكانين اللذين اتصل فيهما الغرب الاوربي بالشرق العربي بل كان الاتصال في اوقات متفاوتة ومن خلال معابر مختلفة ؛ غير ان نسبة ما انساب من الكلمات العربية في عصر الحروب الصليبية الى اللغات العربية المستعملة في صناعة العطور والاتجار بها وفي تجارة التوابل والاصباغ والبهارات وادوات الزينة والادوات المنزلية والمواد الغذائية والفواكه والخضراوات والالبسة والالوان والشؤون الحربية والموسيقى وعلوم الملاحة والجغرافية والفلك تزيد على نسبة ما انساب من الكلمات العربية الى اللغات الغربية المستعملة في هذه الامور كلها من خلال الطرق الاخرى. بينما نسبة ما انساب من الكلمات العربية الى اللغات الغربية عن طريق اسبانيا وصقلية المستعملة في العلوم والكيمياء والطب والصيدلة تزيد على نسبة ما انساب منها عن طريق الحروب الصليبية .

ومن الكلمات العربية التي انسابت الى اللغات الاوربية كلمة (قميص) qamis (لباس نسائي) وهو في الانكليزية chemise او camise وفي الفرنسية chemise وفي اللاتينية camisia ويعرف في اليونانية بلفظة بوكاميسو وكلمة فستان في العربية القماش الخشن المخطط المبروم المصنوع من القطن وقد استمدت هذه الكلمة اسمها من بلدة الفسطاط احدى ضواحي القاهرة حيث كان يصنع ذلك القماش وقد انتقلت الى اللغات الاوربية في سنة ١٢٠٠ وهي في الانكليزية fustian وفي الفرنسية القديمة fustaine وفي الفرنسية الحديثة fustaine وفي الايطالية fustagno وفي اللاتينية fustaneum وفي اليونانية فستاني وكلمة (جاكيت) في العربية مأخوذة من كلمة (الشلك) او (شكة السلاح) اي ما يلبس من السلاح(١) . وقد انتقل هذا اللفظ من العربية الى الالمانية باسم شكيت ثم تحول الى جاكيت jagette و jackett وهو في الانكليزية Jack بمعنى درع بينما المعنى الحديث في اللغة الانكليزية لكلمة جاكيت هو Jacket ويعني السترة بدون اكمام وهي في الفرنسية القديمة Jaquette وتعني السترة الحربية Jaque وهي في اليونانية معروفة بلفظة تساكيا وكلمة (بلوزة) في العربية مشتقة من المدينة المصرية القديمة بلوزيوم التي اشتهرت بصناعة نوع من

---

(١) هونكه سيجرد – شمس الله على الغرب – فضل العرب على اوربا ص ٤١٥

المعاطف المصبوغة بالنيلة وقد ذاع هذا اللباس فأستخدمه رجال الحروب الصليبية وارتدوه فوق ملابسهم . وهو في الانكليزية Blouse ، وفي الفرنسية Blouse ، وفي اللاتينية Pelusie . وفي سنة ١٨٢٧ انتقل هذا اللفظ من فرنسا الى المانيا معبراً عن ثوب جديد من ثياب النساء ثم انتقل الى الدنمرك بلفظة bluse والى السويد بلفظة blus . وهذه الكلمة معروفة في اليونانية بلفظة بلوزة . وكلمة (جبة) في العربية تعني الثوب العربي الفضفاض وقد استعارته ايطاليا بلفظة guippa ومنهـــا انتقل الى المانيا بلفظة Juppe ثم انتقل الى الانكليزية بلفظة Jupe في سنة ١٢٩٠(١). وكلمة (البرد) و(البردة) وهو الثوب الذي يقي الجسم من التقلبات الجوية ويحفظ له حرارته الطبيعية . وكلمة البرد في العربية (بضم الباء) هو الثوب المخطط وجمعه البرود . وقد انتقل هذا اللفظ الى اسبانيا واصبح يعني الدرع والسرج ثم انتقل الى الفرنسية بلفظة barde والى الانكليزية بلفظة bard والى الالمانية بلفظة barde . وكلمة (برنس) في العربية هي القلنسوة الطويلة التي كانت تلبس في صدر الاسلام وتعني كل ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به . وقد انتقل هذا اللفظ الى المغرب وكان يسمى برنس الاستحمام وهو في الانكليزية .burnous, burnoose

وفي الشؤون المنزلية تسربت كلمات كثيرة من اللغة العربية الى اللغات الاوربية الحية منها لفظة (الصفّة) وهي الاريكة او المقعد وكانت هذه اللفظة تطلق على الوسادة او الحشية التي توضـــع في السرج وهي في الانكليزية sofa وفي الفرنسية suffa و soffa وفي الالمانية sofa . ولفظة (طاسة) مأخوذة عن الاصل الفـــارسي الطشت وهي في الانكليزية tass اي جرعة من الكنيـــاك او طاس من الكنياك وفي الفرنسية tasse وفي الايطالية tazza وفي الالمانية tasse . ولفظة (غرّافة) كانت تستعمل لقارورة الماء التي توضع عـــلى الطاولة وهي في الانكليزية carafe وفي الفرنسية carafe وفي الايطالية carrafa . ولفظة (القبة) هي سريانية الاصل وقد استعملت في البناء في اسبانيـــا بلفظ alcoven وهي في الانكليزية alcove وتعني الساحة او المنتجع المظلل وفي الايطالية cupola, alcova وفي الالمانية kuppel وفي الفرنسية couple . ولفظة (كوب) اي القدح الذي يشرب به هي في الانكليزية cup وفي الفرنسية coupe وفي الايطاليـــة coppa وفي اللاتينية cupa و cuppa وفي الالمانية Koppchen . ولفظة (قفّة) تعني في العربية الصندوق او الوعاء الذي توضع

(١) تعني صنما خلوصي – عن بحث للدكتور وولت تيلور – العربي العدد ٢٢٨ نوفمبر ٩٧٧

فيه الكنوز ثم تحول الى الوعاء الذي يستعمل في نقل الاتربة وقد انتقلت هذه اللفظة من العربية الى اليونانية بلفظة kofinos ومنها الى اللاتينية cophinus وهي في الانكليزية coffer وفي الالمانية koffer وفي الايطالية coffa وفي الاسبانية cofe او cofa . ولفظة (جلا) اي نظّف لدرجة اللمعان ثم اصبحت هذه اللفظة تطلق على الاحتفال او العيد او الوليمة وهي في الانكليزية والايطالية والفرنسية gala ومنها اشتقت الكلمة الانكليزية gallant اي الشهم السامي الاخلاق واصبحت هذه الكلمة في الالمانية galant . ولفظة (كفن) وهي غطاء الميت اي ما يكفن به وهي في الانكليزية coffin . وكلمة (ديوان) تعني في العربية مكان الاجتماع او المقعد الطويل ذا المتكأ المحشو وتعني في تركيا مجلس الوزراء او قصر العدل وهي في الانكليزية والفرنسية والروسية والمجرية divan وفي الالمانية douane, diwan . وكلمة (ليفة) العربية هي في الانكليزية loofa وفي الالمانية Luffaschwamm اي ليفة الاستحمام الشامية وكلمة (جرّة) في العربية هي في الانكليزية Jar وفي الفرنسية Jarre وفي الفارسية Jarrah . وكلمة (المطرح) في العربية (الفرشة المحشوة بالصوف) هي في الانكليزية (Mattress) وفي الفرنسية Matelas وفي الفرنسية القديمة Materus . وكلمة (حقّة) في العربية تعني الوعاء او الجرة الصغيرة هي في الانكليزية Hookah وكلمة (حمام) في العربية هي في الانكليزية Hammam . وكلمة (سراي) هي (من اصل فارسي) وهي في الانكليزية Seraglio, Serai وتعني في الاصل مكان السلطان التركي . وكلمة (شاش) في العربية هي من اصل عبري وتعني الشال او القماش الناعم وهي في الفارسية شاش وتدل على العمامة وهي في الانكليزية sash . وكلمة غزّي في العربية النسيج الحريري الناعم الشفاف المصنوع في غزة وهي في الانكليزية gauze وفي الفرنسية gaze نسبة الى غزة في فلسطين حيث كان يصنع هذا النسيج . وكلمة (حلبي) تطلق على القماش المنسوب الى حلب وهي في الالمانية Aleppin . وكلمة(فندق) في العربية هي في الالمانية Fondaco . وكلمة (راحة) اي راحة اليد هي في الانكليزية racket وتعني مضرب الكرة للشبه بينه وبين راحة اليد وفي الفرنسية raquette وفي الالمانية rakete و rakett . وكلمة (طاقيّة) في العربية اي(القبعة) هي في الالمانية tocke . وكلمة (الغزل) اي الشعر الذي يغزل لاستعماله في النسيج هي في الالمانية Gasel . وكلمة (الترصيع) بالجواهر والاحجار الكريمة هي في الالمانية Intarsia . وكلمة (جلفاظ السفينة) في العربية هي في الالمانية Kalfaterun . وكلمة (مخزن) في العربية انتقلت الى

اللغات الحية لتعني المكان الذي تخزن فيه المواد الحربية او غرفة البارود في السفينة وهي في الانكليزية magazine وفي الفرنسية magazin وفي الايطاليــة magazzino وفي الالمانية magazin . وكلمة (شطرنج) في العربية هي اسم للعبة هندية قديمة نقلها الفرس الى المسلمين ومن ثم استعارتها اوربا المسيحية (١) .

وترجع كلمة شطرنج العربية الى اصل سنسكريتي . ويرجع كثير من الاصطلاحات المستعملة في الشطرنج الى اصل فارسي كقولهم الشيخ مات او الشاه مات Checkmate . وانتقلت كلمة الرخ Rokh الى الانكليزية بلفظة Rook وهي في الفرنسية Roc. . وقد استعمل المسلمون هذه الكلمة بمعنى عربة Chariot وهذا يفسر ما امتاز به الرخ في الشطرنج الحديث من استقامة وعنف في الحركة .

ومن هذا كله يتضح ان العرب مهروا في كثير من الصناعات فأنتجوا مختلف الاصباغ والالوان واستخرجوا اللون الازرق والسماوي من حجر اللازورد واللون القرمزي من دودة القز واستخلصوا الذهب بطريق الغسل وقطّروا الزئبق من الزنجفر وصنعوا الحبر العادي والحبر الذهبي والحبر السري واستخرجوا العطور بتقطير الورد وبرعوا في صناعة تقليد الاحجار الكريمة واللآلىء الصناعية وهم اول من عرف القهوة لاول مرة في التاريخ وكان استعمالها منتشراً في شبه جزيرة العرب وفي اليمن بشكل خاص ثم انتقلت الى القسطنطينية ومنها الى فرنسا وسائر اوربا وامريكا .

الفصل السابع

المؤثرات الحضارية عن طريق الزراعة

من المؤكد ان المؤثرات الشرقية الثقافية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية في الزراعة لا تقل عن مؤثراتها في الصناعة . فالزراعة في الشرق الاسلامي كانت نشطة منذ العهد العباسي . وقد استمرت في النشاط في عصر الحروب الصليبية حيث اشتد الطلب على الحاصلات الزراعية والمتاجر الشرقية ، وكانت المنتوجات الزراعية كالحنطة والارز والتمر والسمسم والقطن والعنب والجوز وانواع الفواكه كالبرتقال

---

(١) نقلا عن تراث الاسلام . الجزء الاول ص ٦٣
H. J. R. Murray, A History of Chess (Oxford)

والليمون والتفاح والرمان والتين والعنب والخضروات والبقول والسكر والزهور والرياحين كالورد والبنفسج من اهم الحاصلات . وعن طريق التجارة النشطة التي ازدهرت في عصر الحروب الصليبية انتقل الكثير من النباتات والمحاصيل الزراعية والاشجار من بلدان الشرق العربي الى بلدان الغرب الاوربي . فالمشمش الذي كان يطلق عليه اسم برقوق دمشق احضره الى اوربا دوق انجو بعد زيارته للقدس . والبساتين الاوربية مدينة للحروب الصليبية بالشقيق النعماني ranunculus الذي اهتم الشرقيون بزراعته. وكان البصل الاخضر الصغير المعروف باسم shallots من المحاصيل التي انتقلت الى الغرب . واصل هذه الكلمة the onions of Ascalon اي بصل عسقلان. وهكذا تخلد اسم هذه المدينة بهذه التسمية. والى الحروب الصليبية يعود الفضل في معرفة الاوربين للزعفران واستعمالاته ،وهو نبات من النوع الكركمي ذو ازهار صفراء غامقة اللون ،وقد انتقلت زراعة الزعفران مع اسمه العربي الى جنوب ايطاليا ومنها الى فرنسا والمانيا وانتشر الاسم فيما بعد في مختلف اللغات الحية ،فهو في الانكليزية saffron وفي الفرنسية safron وفي الايطالية safferano وفي الالمانية safran . وعن العرب عرفت اوربا حجر الشب alum ، والنيلة aniline ، وأصل هذه الكلمة هندي . وقد انتقلت الى العربية ومنها الى اللغات الحية . والنيلة عبارة عن مادة ملونة زرقاء اللون تستخدم في الصناعة وتستخرج من نبات الانديجو الهندي فسميت بالانكليزية indigo . واهتم القوم بزراعة هذا النبات في وادي الاردن على حد قول الادريسي ، وهو في الالمانية anilin . ومن المحاصيل الزراعية التي انتقلت الى الغرب (السمسم) وهو في الانكليزية sesame وهو من البقول السنوية التي كانت تزرع في جنوب آسية ويستخرج منه الزيت المعروف بزيت السمسم ويرجح انه انتقل اول ما انتقل عن طريق المانيا باسم sesame . (والخروب) carob هو في الفرنسية carobe ، والقطن cotton ، والسكر sugar ، والارز rice ، والدخن او ذرة العبيد millet ، والليمون lemons ، والذرة الشامية maize ، التي تعرف احياناً باسم الذرة الهندية او القمح الهندي ، والبطيخ melons . وانتقلت حاصلات شرقية كثيرة الى الغرب عن طريق بلاد الشام هي من أصل هندي او يمني منها (التمر الهندي) وهو في الانكليزية tamarind وفي الالمانية tamarinde وفي اللاتينية tamarindus . (والافاوية) aromatic spice ،و (القرفة) ، cinnamon و cinnamum وهي عبارة عن قشر

عطري لنوع من اشجار الغار التي تنبت في سيلان وهي في اللاتينية cinnamomum وفي العبرية kinnamon وفي الالمانية القديمة sinamin ثم اصبحت زاينمين Zinemin او Zinement او Zimt .

كانت البلاد العربية بوجه خاص والاسلامية بوجه عام مكمل بعضها بعضاً . وكان انتقال الحاصلات بين هذه البلدان يتم بسهولة . فالفواكه والخضار والبقول التي كانت تنتج بأوقات مبكرة في قطر ما يصدر ما يفيض منها عن حاجة السكان المحليين الى الاقطار الاخرى . والحصلات الزراعية التي تنتج في اوقات متأخرة في قطر ما يصدر ما يفيض منها الى الاقطار الاخرى التي تكون قد نفدت منها امثال تلك الحاصلات . واشتهرت غوطة دمشق بأنواع الاشجار المثمرة والبقول والازهار كالتفاح والبرقوق (المشمش) والدراق والخوخ والليمون والبرتقال والتين والعنب والزيتون واللوز والرمان والباذنجان والفجل والبطيخ والقثاء والورد والريحان . واشتهرت بلاد الشام بزراعة قصب السكر وبمعامل تصفيته التي اقيمت في الساحل الشامي على غرار المعامل المعروفة في فارس والاهواز . ومن بلاد الشام تعلم الصليبيون زراعة قصب السكر وادخلوا هذه الزراعة الى اوربا. والسكربنغالي الاصل على الارجح وقد اصبح مادة اساسية في طعام الانسان لا يمكن الاستغناء عنها . وقد اقبل الفرنجة في مملكة القدس على زراعة قصب السكر في المناطق الساحلية وفي وادي الاردن وتعلموا من السكان العرب كيفية استخراج السكر من القصب ويقول ستيفن رنسيمان نقلاً عن راي لي :

« كانت بعكا معصرة ضخمة للسكر فضلاً عن مصانع السكر في معظم مدن الساحل وتعتبر صور المركز الرئيسي لصناعة السكر ومعظم ما كان يستهلك من السكر في اوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر جاء من الشرق الافرنجي (١) .

وقد لعب قصب السكر دوراً كبيراً وهاماً في اقتصاديات اوربا وقد كان يزرع في سهول البلدان الواقعة في شرق البحر الابيض المتوسط وكان السكر من اهم وسائل الترف التي انتقلت الى الغرب . ولم يكن هنالك شيء اكثر متعة الى نفوس الاوربيين وابعث الى سرورهم من السكر . ومن بلاد الشام كانت تصدر مقادير

---

(١) رنسيمان ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ص ٦٠٤ .

كبيرة من الاعشاب الطبية والتوابل اذ اشتد الطلب في اوربا في العصور الوسطى على المتاجر الشرقية كالتوابل والاصباغ واخشاب العطور والحرير والخزف فضلاً عن المتاجر من البلاد الاسلامية المجاورة . والمحاصيل الزراعية في بلاد الشام كانت سبباً لثروة ضخمة نتجت عنها حركة صناعية تجارية كبرى . فمنطقة انطاكية مثلاً كانت كثيرة الغابات. وكانت غابات الارز والبلوط والفستق الحلبي والصنوبر تكسو جبال النصيرية والجبل الاسود . وفي هذا يقول وليام الصوري نقلاً عن راي « اما جبال عكار فكانت تغطيها فضلاً عن الصنوبر غابات العرعر وغيره من انواع السنديانة المختلفة » ويقول جاك دوفري : « ان خشب العرعر في لبنان كان يعتبر من الخشب الذي لا يتطرق اليه الفساد. وكانت بيروت في ايام وليام الصوري تنعم بالغابات الصنوبرية وقد ذكرها الادريسي اكبر جغرافيي ذلك العصر وحدد سعتها باثني عشر ميلاً بما في ذلك غابات الجبال المجاورة .

وقد اهتم السوريون بزراعة الشجيرات ذوات الازهار العطرية (كالورد) roses والازهـــار blossoms (والاكاسية) السمغ العربي acacia (والكشمش) اي الزبيب البناتي او الرومي المسمى currant, sultana . ومن الكلمات العربية التي انتقلت الى اللغات الاوربيـــة (القرنفل) الذي يستخرج منه زيت عطري وهو في الالمانية Jeroffel وفي الفرنسية girofle وفي الايطالية garafolo وفي الانكليزية clove اي كبش القرنفل وهو من حاصلات ملقا . (والمسك) وهو طيب شديد الرائحة يستخرج من قرن الغزال الذكر الذي ليس له قرون والذي يعيش فـــي بلاد التيبت ونيبال ويسمى غزال المساك وهو في الفرنسية musk وفي اللاتينية muscus وفي الالمانية muschos وفي الفـــارسية musk . (والعرق) هو نوع من الخمر المستخرج من العنب او التمر وقد اطلقه العرب على كل مسكر وخاصة المصنوع من جوز الهند او الارز والسكر ويطلق هذا اللفظ ايضاً على كثير من المشروبات الروحية المستعملة في امريكا ومنغوليا وهو في الانكليزية arrack وفي الالمانيـــة arrak . (والزنجبيل) هو لفظ سنسكريتي انتقل الى اللغة الارامية ومنها الى العربية ثم الى اللغات الاوربية الحية فهو في الانكليزية ginger وفي الانكليزية القديمة gingiber وفي الفرنسية gingibre وفي اللاتينية zingiber وفي الالمانية zingiberis, ingwer وهو نبـــات شرقي ويزرع في جزائر الهند الغربية . (والكمون) هو نبـــات بذوره ثمينة وتستخدم في طرد الريح في حالات الانتفاخ . وهو في الانكليزية cummin, cumin

وفي اللاتينية cumimum وقد انتقل اليها من الالمانية kyminon وهو في اليونانية kaminon وفي العبرية kammon . (والكافور) هو عصير ابيض جامد يستخرج من بعض اشجار الغار في الهند والصين واليابان وله طعم مر ورائحة ذكية وهو في الانكليزية camphor وفي الفرنسية camphre وفي اللاتينية camphora وفي الملايو kapur وموطنه الاصلي جزر فرموزا . واسم الشجرة في اللاتينية camphora وفي الهندية القديمة كارفورا وانتقلت هذه الكلمة الى العربية باسم كافور. (والعنبر) هو نوع من الطيب ذو لون اصفر يستعمل في الزينة وهو في الانكليزية amber وفي الفرنسية amber وفي الالمانية amber و ambra . وانتقلت كلمة (يانسون) في العربيـــة الى اللغات الحية . فهي في الانكليزية anis وفي الالمانية anison وكلمة (كاميليا) في العربية تطلق على شجيرة دائمة الاخضرار موطنها الصين واليابان وهي في الانكليزية camellia .

كان الاوربي في القرن الحادي عشر يتناول طعاماً بسيطاً وعلى وتيرة واحدة ولم يعرف الفواكه والخضروات وقلما استعمل الحلويات . وكان اللحم الذي يأكله قاسياً عديم الطعم .

ويقول كارلتون هيز :

« فكانت البهارات هي الشيء الوحيد الذي اكسب طعام الاوربي نكهة ولذة وبدونها كان الشهواني في القرن السادس عشر تعيساً حقاً » .

"Spices were the very thing to add zest to such a diet, and without them the epicure of the sixteenth century would have been truly miserable" (1)

ولما اكتشفت البهارات وبدأ استيرادها من الشرق في عصر الحروب الصليبية لحسن حظهم – بهر الاوربيون كل شيء اكلوه وشربوه حتى البيرا والنبيذ . ويقدر ان البندقيين استعملوا نيفاً واثنين واربعين رطلاً (باوند) من الفلفل في كل سنة . ولا شك في ان هذه البهارات قد احضرت من جزيرة سيلان وسومطرة ومن غرب الهند . ويقال ان من جملة غنائم البندقيين عندما فتحوا قيصرية caesarea في سنة ١١٠١ ستة عشر الف رطل (باوند) من الفلفـــل . وكانت (البهارات العطرية) aromatic spices والفلفل pepper والقرنفل cloves (وجوز الطيب) nutmeg ، وهي حبات كبيرة ذات رائحة طيبة قوية تخرجها شجرة هندية تستورد من جزائر

1 — Hays Carlton, A Political And Cultural History of Modern Europe Vol I P.62

البهار في شبه جزيرة الملايو ، من الاشياء المحببة عند الاوربيين. ولم تعتبر المأدبة كاملة في القرن الثاني عشر ما لم تكن اصناف الطعام مبهرة . وكان الزنجبيل ginger يستورد من شبه جزيرة العرب والهند والصين. (والكافور) camphor (والكبابة الصينية) ، وهي نوع من التوابل cubebs يستوردان من جزيرة سومطرة وشبه جزيرة بورينو. وكان (المسك) musk يجلب من الصين ،(وحجرالشب) alum من آسية الصغرى . وكانت (النيلة) indigo (وخشب الصندل) sandal wood (وعود النـــد) Aloeswood ، وهو عود ذو رائحة بخورية ويستخرج منه الصمغ ويستورد من الهند . وبعبارة موجزة كانت اسواق سورية تغص بجميع اصناف الروائح والعطور والبهارات والتوابل والحلويات وحاصلات شبه جزيرة العرب والهند الاستوائية . وكانت (الزيوت الطيـــارة) volatile oils (وعطور الورد) attars تستورد من بـــلاد فارس واصبحت الوردة الدمشقية Damask rose وعطر شبه جزيرة العرب incense of Arabia من الاشياء المحببة في الغرب .

ومن خلال الحروب الصليبية عرفت اوربا كثيراً من حيوانات آسية وافريقية. ويقال ان المماليك ارسلوا الى الملك لويس التاسع فيلا وهذا اهداه بدوره الى ملك انجلترا وارسلت الى اوربا خيول من اصول تترية بعد حملة لويس التاسع بوقت قصير . واهدى السفراء المصريون الى ملك صقلية (زرافة) من جملة الخاصلات الشرقية ،وهي حيوان لم يكن معروفاً في اوربا قبل الحروب الصليبية. وهي في الفرنسية girafa وفي الالمانية graffe وفي الانكليزية giraffe .

ومن الكلمات العربية التي تسربت الى اللغات الاوربية الحية (القهوة) التي تستخرج من شجرة البن الذي ينبت في شبه جزيرة العرب وسيلان والهند وغيرها . وهي في الانكليزية coffee وفي التركية kaveh وفي الالمانية bone اي حبة البن وفي اليونانية كافيه . وكلمة (القند) اي السكر هي في الانـــكليزية candy وفي الفرنسية candire وفي الالمانية kandis وفي الايطالية candy . وكلمة (شراب) (وشربات) هي الماء المحلّى بالسكر. وقد انتقلت هذه الكلمة الى التركية ومنها الى سائر اللغات الحية . وهي في الانكليزية sherbet و sirup وفي الفرنسية sirop وفي الالمانية sirup وفي اللاتينية sirupus . وكلمة (نارنج) فارسية عربية وقد انتقلت الى الاسبانية باسم نارنجا naringa والى البرتغالية باسم laringa . وهي في الفارسية naranj

وفي الفرنسية والايطالية arancio وفي الانكليزية orange وفي الالمانية orange . وكلمة الخرشوف انتقلت الى الاسبانية باسم alcarchofa وهي في الانكليزية artichoke وفي الفرنسية artichaut وفي الايطالية articiocco وفي الالمانية artichok . وكلمة (سبانخ) في العربية هي في الانكليزية spinach, spinage وهي في الايطالية spinace وفي اللاتينية spinaceus وفي الفرنسية القديمة espinache وفي الالمانية spinat . وكلمة (الكراويا) التي رائحة بزرها في قوتها اقرب الى رائحة الانيسون او اليانسون ويستعمل كمقو ومطيب للطعام. وهي في الانكليزية caraway وفي الاسبانية alcaravea وفي الالمانية karon . وكلمة (كبار – وكبر) هي نوع من التوابل وقد انتقل هذا اللفظ من العربية الى الفرنسية capre ومنها الى الالمانية kaper, kaparis واصل الكلمة فارسي kabar, caper . وكلمة (ياسمين) في العربية هي من أصل فارسي وقد انتقلت هذه اللفظة الى العربية ومنها الى سائر اللغات وهي في الانكليزية jasmine, jessamine . وكلمة (الحنا) انتقلت من العربية الى اللغات الحية فهي في الانكليزية henna وفي الالمانية alkanna . وكلمة (القربان) في العربية هي من أصل عبري وقد انتقلت هذه اللفظة الى اللغات الحية فهي في الانكليزية corban . وكلمة (زيزفون) في العربية هي نوع من الشجر ينقع زهرة بالماء ويتداوى به وانتقلت هذه اللفظة الى اللغات الحية فهي في الانكليزية jujube وفي الفرنسية واللاتينية zizphus وفي الالمانية zizphon وفي الفارسية zizfun . وكلمة (جلاب) في العربية وهو عبارة عن شراب حلو يمزج به الدواء. وقد انتقلت هذه اللفظة الى اللغات الحية فهي في الانكليزية julep وفي الفرنسية julab وفي الفارسية gul وفي الالمانية julep ؛ وكلمة (اللوزينج) في العربية تطلق على نوع من الحلواء شبه القطايف ويؤدم بدهن اللوز وهي في الانكليزية lozenge وفي الفرنسية losange . وكلمة (مانجو) او (مانجا) هي اسم لفاكهة هندية الاصل وربما اتت من جزائر الهند الشرقية وهي في الملايو manga وفي الانكليزية mango . وكلمة (سماق) تطلق على نبات ثمرة شديد الحموضة وهي في الانكليزية sumac, sumach وفي الالمانية sumach . وكلمة (المر) في العربية تطلق على نوع من الغراء الشفاف ذي الرائحة العطرية المر المذاق ويستخرج من قشر لشجيرة تنبت في شبه جزيرة العرب ويعرف بالحنضل. وهي في الانكليزية myrrh وفي الفرنسية myrrha . وكلمة (ناردين) او النرد في العربية تطلق على سنبل الطيب الرومي المعروف باسم نبات الناردين. وهي في الانكليزية nard وفي الفرنسية

واللاتينية nardus وفي الالمانية mardus وفي الفارسية nard . وكلمة (رب) في العربية تطلق على عصير الفاكهة الناضجة الممزوج بالعسل او السكر وهي في الانكليزية rob وفي الفرنسية robb . وكلمة (البنان) اي الاصبع وقد اطلقت لفظة بنانا في اسبانيا على الفاكهة المعروفة عندنا اليوم باسم (الموز) للشبه القوي شكلاً بين هذه الفاكهة واصبع اليد . (بنانا) وهي لفظة غانية كانت تطلق في غانا على هذه الفاكهة ويقال ان الاسبانيين احضروا هذه الفاكهة من غانا واحضروا اسمها معهم . اما لفظة (موز) فهي هندية الأصل وقد احضرها العرب من الهند مع اسمها الهندي . غير ان هذه الكلمة قد انتقلت الى اللغات الحية عن طريق اسبانيا . وهي في الانكليزية banana وفي الالمانية bananen . وهنالك اسماء عربية اخرى للنباتات انسابت الى اللغات الاوربية والى اللغة الانكليزية وقد وردت في بحث للاستاذ المستشرق وولت تيلور[1] منها (الخروبة) algarroba و(الحلفاء) alhalfa (والحناء) alhenna (والحنضل) alhandal (والفستق) pistachio (والحشيش) hasheesh (والحرمل) hamala (والعصفر) safflower (والطرفاء) tarfa (والمن) manna . وكلمة almanac في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (المناخ) اي التقويم او الرزنامة الموضوعة لتسهيل سلوك السفن في البحار وهي في الالمانية almanach

وقد انسابت اسماء عربية للحيوانات والطيور الى اللغات الحية منها لفظة (الرخ) وهو طائر وهمي كبير ورد ذكره في القصص الشعبية الفارسية وهي في الانكليزية roc وفي الفارسية rukh . ولفظة (غزال) هي في الانكليزية gazelle و Gazel . ولفظة (القطرس) او (القاروس) (طير بحري) هي في الانكليزية albatross وفي الالمانية albatros وفي الاسبانية alcatraz . وكلمة (الغول) (وهو حيوان خيالي لا وجود له يشبه المارد) هي في الانكليزية ghoul وفي الالمانية algol وفي الفرنسية Goul . وكلمة (اليربوع) وهو نوع من القواضم يشبه الفأر قصير اليدين طويل الرجلين وله ذنب طويل وهي في الانكليزية Jerboa . وكلمة (زبراء) مؤنث ازبر وهو حيوان عظيم الجسم قويه ويطلق على حيوان افريقي مخطط هو في الانكليزية Zebra ويعرف في العربية باسم حمار الوحش . وكلمة (الباز) او البازي او صقر الصيد وهي في الانكليزية Busard وفي الفرنسية Busard وفي الايطالية Buteo . وكلمة (الجمل)

---

(١) قامت بطبعه مطبعة جامعة اوكسفورد ونشره صفاء خلوصي في مجلة العربي العدد ٢٢٨ تاريخ نوفمبر سنة ١٩٧٧

في العربية وهو حيوان اسيوي وافريقي ذو سنام واحد في ظهره او سنامين وهي في الانكليزيـــة Camel وفي الفرنسية Camel وفي اللاتينيـــة Camelus وفي الالمانية Kamelos وفي العبرية gamal . وكلمة (قط او قطة) هي في الانكليزية cat وفي التركية واللاتينية cat . وكلمة (البكة) وتطلق على حيوان يشبه اللاما الذي هو من فصيلة الجمل كما تطلق على صوفه الناعم وهي في الانكليزية Alpaca . وكلمة (بلبل) في العربية وتعني الطائر الفارسي المعروف بالعندليب الهزاز وهي في الانكليزية Bulbul . وكلمة (الببغاء) في العربية تطلق على الطير الذي يتكلم . وقد تسربت هذه الكلمة الى اللغة الالمانية بلفظة Papagei ثم حرفت واصبحت تعرف بلفظة Parrot في الانكليزية .

الفصل الثامن

المؤثرات في اللغة

من المؤكد ان عدد الكلمات العربية التي تسربت الى اللغات الاوربية الحية في العصور الوسطى اكثر بكثير من عدد الكلمات من اصول اوربية مما تسربت الى اللغة العربية . ومن الكلمات العربية التي تسربت الى اللغات الاوربية الحية غير الكلمات المذكورة في الفصل السابق والمستعملة في امور التجارة والصناعة والزراعة او ذات صلة بها فكلمة (كروان) التي هي من أصل فارسي وتعني قافلة من الجمال هي في الانكليزية caravan وفي الفرنسية caravane وفي الفارسية Karwan ومنها اشتقت كلمة caravansary اي الخان او النزل الذي ينزل فيه قائد القافلة . وكلمة (حشّاشين) في العربية تعني الباطنية (احدى فرق الاسماعيلية) التي ظهرت في العصور الوسطى وقد سمي افرادها بالحشاشين لأنهم كانوا يستعملون نوعاً من الحشيش الذي يخدرهم قبل اقدامهم على قتـــل اعدائهم او اغتيالهم . وكلمة assassin في الانكليزية كانت تطلق على السفاح الذي يقتل عدوه غدراً وغيلة وهي مأخوذة من كلمة الحشاشين . وكلمة (ترجمان) في العربية هي في الانكليزية dragoman وكلمة caramel في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (كالرماد) التي كانت تطلق على السكر المحروق . وكلمة castle في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (قصر)

وكلمة masquerade في الانكليزية تعني اللبس التنكري وهي مأخوذة عن الكلمة العربية (مسخرة) بسبب الضحك الذي يتلو مشاهدة اللبس التنكري وهي في الفرنسية masque وفي الاسبانية mascare . وكلمة ream في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربيـــة (رزمة) وهي في الفرنسية reim و rame . وكلمة razzia في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (رزية) اي المصيبة التي تعقب الغزو او تسببها الغارة وهي في الالمانية razzia . وكلمة refuse في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (رفض) وهي في الفرنسية refuser وفي اللاتينية refuto . وكلمة emerald في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (زمرد) وهو حجر كريم اخضر اللون وهي في الفرنسية emeraude وفي الفرنسية القديمة esmeralde وفي اللاتينية smaragdus وفي الالمانية smaragdos . وكلمة theodolite في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية ثيودوليت وهي آلة استعملها العرب لقياس الزوايا الافقية والعمودية . وكلمة canal في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (قناة) في العربية وهي في اللاتينية canalis . وكلمة cabob في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (كباب) في العربيـــة اي اللحم المشوي . وكلمة calibre في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (قالب) في العربية وتعني العيار او القطر الداخلي لماسورة وهي في الفرنسية calibre وفي الايطالية calibro . وكلمة ghoul في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (غول) في العربية . والغول هو حيوان خيالي لا وجود له يشبه المارد واصل الكلمة فارسي . وكلمة guide في الانكليزية مأخـــوذة عن كلمة قائـــد في العربية وهي في الفرنسية guider . وكلمة hazard في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية هزرد وهي ضرب من لعب النرد يعتمد على رمي الزهر وعلى الحظ او المخاطرة ويرجح ان تكون هذه الكلمة مأخوذة عن كلمة (هازارت) وهو احد القصور في سورية حيث اكتشفت هذه اللعبة في عصر الحروب الصليبية . وكلمة hashish مأخوذة عن الكلمة العربية (حشيش) اي القنب الهندي واوراقه سامة . وكلمة carat في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (قيراط) في العربية وتعني وحدة وزن للذهب والحجارة الكريمة وهي في الفرنسية Qirat وفي الالمانية keration . وكلمة cave في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (كهف) في العربية وهي في اللاتينية cavus, cavea . وكلمة down وفي الانكليزية مأخوذة عن كلمة (دون) في العربية اي اسفل . وكلمة candle في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (قنديل) في العربية اي الشمعة المضيئة وهي في اللاتينية candela . وكلمة mosque في الانكليزية

مأخوذة عن كلمة (مسجد) في العربية وهي في الفرنسية mezquita . وكلمة minaret في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (منارة) في العربية . وكلمة mountain في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (المتن) في العربية وهي ما ارتفع عن الارض . وكلمة mummy في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (المومياء) في العربية اي الجثة المحنطة وهي في الفرنسية والايطالية mummia وفي الفارسية mumayin . وكلمة simoom او simoon مأخوذة عن الكلمة العربية (سموم) وهي الريح الجافة المثقلة بالغبار التي تهب في شمال افريقية وشبه الجزيرة العربية من قلب الصحراء . وكلمة typhoon في الانكليزية مأخوذة من كلمة (طوفان) في العربية وهو الاعصار الاستوائي في منطقة الفلبين او بحر الصين ويشبه الطوفان . وكلمة volcano في الانكليزية مأخوذة من كلمة (بركان) في العربيـــة وهو الجبل الذي يتفجر منـــه الدخان واللهب والحمم البركانيـــة وهي في الايطالية volcano وفي اللاتينية volcanus او vulcanus, . وكلمة saracens في الانكليزيـــة تعني المسلمين وكانت تطلق هـــذه الكلمة في العصور الوسطى على مسلمي شمال افريقية بشكل خاص وهي مأخوذة عن كلمة (شرقي) التي كانت تطلق على بعض افراد قبائل البادية في شرق شبه الجزيرة العربية ثم اتسع استعمالها فأخذت تطلق على المسلمين عامة . وكلمة sherry في الانكليزية هي تحريف لاسم مدينة شريش الاسبانية ثم اخذت تطلق على الخمر الاسباني المصنوع من شراب الشري والماء والسكر .

وهنالك كلمات عربية اخرى مستعملة في الموسيقى انتقلت الى اللغات الاوربية الحية منها كلمة bugle في الانكليزية المأخوذة عن كلمة (بوق) في العربيـــة وهي في الفرنسية buculus . وكلمة tambour في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (طبل) في العربية اي الدف الصغير وهي في الانكليزية ايضاً tembler, tambourine . وكلمة farfane في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (فرفر) اي الضرب في البوق وهي في الفرنسية farfane . وكلمة violin في الانكليزية مأخوذة عن كلمة فيولا العربية وهي في الفرنسية viola . وكلمة cithara, guitar في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية قيثارة وهي في الفرنسية guitare وفي اللاتينية cithara وفي الالمانية Quitarra, kithara . وكلمة rebeck, rebec في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (رباب) في العربية وهي في الفرنسية rebele . وكلمة (العود) في العربية هي في الانكليزية lute وفي الفرنسية luth وفي الايطالية luit وفي الالمانية laute . ومن الكلمات

العربية المستعملة في الرياضيات والعلوم والكيمياء والصيدلة والفلك والتي تسربت الى اللغات الاوربية الحية كلمة Algebra في الانكليزية وهي مأخوذة عن كلمة (جبر) في العربية التي تعني نقل الكميات السالبة الى الطرف الآخر من المعادلة. وكلمة Algorism منسوبة الى العالم العربي الرياضي والفلكي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي الذي عاش في القرن التاسع للميلاد. وكلمة algorism و algorithm اصبحت تعني نظام العد العربي او العشري. وكلمة cipher في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (صفر) في العربيـــة وهي في الفرنسية القديمة cifre وفي الفرنسية chiffre. وكلمة almagest في الانكليزية مأخوذة عن كلمة المُجستي والمِجسطي وهذه الكلمة مؤلفة من آل التعريف العربية ولفظة مجسطي اليونانية ومعناها الاعظم او الاسمى وهي اسم كتاب في الهندسة والفلك وضعه الجغرافي الفلكي بطليموس الاسكندري الشهير وهي في الالمانية almagest . وكلمة alembic في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (الانبيق) في العربية التي هي اداة كيميائية للتقطير وهي في الالمانية ambiks . وكلمة alcohol في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (كحول) في العربية وتعني السبيرتو. وكلمة amalgam في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (الملغم) في العربية وهو خليط من معدن وزئبق وهي في اللاتينية والالمانية malagma . وكلمة arsenic في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (زرنيخ) وهو مادة كيميائية معروفة بسم الفأر وهي في الالمانية arsen . وكلمة aldehyde في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية الدهيد وهي عبارة عن كحول متأكسد يختلف عن الكحول العادي (السبيرتو) حيث ان هيدروجين الدهيد اقل من هيدروجين الكحول العادي بجوهرين. وكلمة alkali في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (القلي) في العربية اي المادة القلوية في الكيمياء التي تتحد مع الحامض فتعادله ويصبح لا حامضاً ولا قاعدياً وهي في اللاتينية alkalies وفي الالمانيـــة alkali, alkald . وكلمة alchemy او alchymy في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية الخيمياء اوالكيمياء القديمة وغايتها تحليل عام للمواد واكتشاف حجر الفلاسفة الذي يشفي من جميع الامراض ويطيل الحياة الى الابد ويحول المعادن الخسيسة الى ذهب. وكلمة elixir في الانكليزية مأخوذة عن كلمة اكسير العربية اي حجر الفلاسفة او المادة التي زعموا انها تطيل الحياة. وكلمة Balsam في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (بلسم) وهي مادة زيتية راتنجية عطرة تسيل من بعض الاشجار اي انها مستحضر راتنجي عطري الرائحة شاف ومسكن وهي في اللاتينية

balsamum وفي الالمانية balsamon . وكلمة antimony في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (انتيمون) في العربية وهي معدن لماع سهل الانسحاق ازرق اللون مع ميل للابيضاض. وكلمة nitre او niter في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (النترون) في العربيــة او ملح البارود او نترات الصوديوم او البوتاسيوم وهي في الفرنسية واللاتينية nitrum وفي الالمانية nitron . وكلمة naphtha في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (النفط) في العربية وهي في الالمانيــة واللاتينية والعربية naft . وكلمة talc في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (طلق) في العربية وهو حجر الطلق او المعدن الطري الذي يستعمل في تجميل الوجه ومنها اشتقت كلمة talcum اي مسحوق الطلق .

وكلمة borax في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (البورق) اي الملح المعدني المستعمل في اللحام وفي الطب وهو مسحوق ابيض يسمى ملح الصاغة او لزاق الذهب وهو في الفرنسية buraq . وكلمة tartar في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية الدردى اي ملح الطرطير او الحامض الذي يتسرب على الجدران الداخلية لبرميل الخمر وهي في الفرنسية tartre وفي اللاتينية tartarum . وكلمة talisman في الانكليزية مأخوذة عن كلمة (طلسم) في العربية وهي تعويذة تحمل خطوطاً واعداداً سحرية يزعم انها تدفع الشر او تجلب الحظ السعيد وتكون عادة منقوشة على حجر او معدن . وهي في الالمانية telesma وكلمة benzoin في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (بنزوين) اي البخور الجاوي او اللبان الجاوي او العطر الجاوي الذي يستعمل كبخور ويستخدم في الطب وفي صناعة العطور ويستخرج من شجيرة تنبت في جزيرة سومطرة . وكلمة benzine, benzene في الانكليزية مأخوذة عن الكلمــة العربية (بنزين) وهو السائل الملتهب المشتق من البترول ويستخدم كمنظف وكوقود للمحركات والاسم مأخوذ اصلاً عن كلمة (بنزوين) . وكلمة senna في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (سنا) وهو نبات من فصيلة القرفة تستعمل اوراقه في الطب كمسهل . وكلمة rhubarb في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية الراوند وهو عشب يستعمل ساقه في الطبخ وجذوره في الطب وهو في الفرنسية rhubarbe وفي اللاتينية rha-barbarum . وكلمة theriac في الانكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية ترياق وهو دواء يدفع السموم .

ومن الكلمات العربية المستعملة في الفلك والاسماء العربية للنجوم التي تسربت الى اللغات الاوربية الحيــة كلمة zenith في الانكليزية اي نقطة سمت الرأس

التي تلاصق السماء اي نقطة من الفلك ينتهي اليها الخط الخارج من مركز الكرة الارضية على استقامة قامة الشخص . وكلمة azimuth في الانكليزية تعني في العربية السمت او زاوية السمت . ومن الاسماء العربية للنجوم التي تسربت الى اللغات الاوربية الحية اسم (vega) في الانكليزية اي النسر الواقع ،وهو في الالمانية wega . وكلمة rigel في الانكليزية اي رجل الجبار او رجل الجوزاء اليسرى في العربية ،وهي في الالمانية rigel وكلمة achernar في الانكليزية ، اي آخر النهار في العربية ،وهو في الالمانية acarnar . وكلمة betelgeuse في الانكليزية ، اي منكب الجوزاء او بيت الجوزاء في العربية وهي في الالمانية beteigeuse . وكلمة altair في الانكليزية اي الطائر في العربية وهو نجم ثابت من الحجم ½ ١ وهي في الالمانية altair . وكلمة aldebaran اي الدبران في العربية وهو نجم ثابت من الحجم الأول اشد تألقاً من جميع النجوم التي بجواره ، احمر اللون وهي في الالمانية albebaran . وكلمة antares قلب العقرب في العربية وهو نجم ثابت من الحجم الاول . وكلمة fomalhaut اي فم الحوت في العربية . وكلمة Deneb اي ذنب في العربية وهي في الالمانية denab . وكلمة regulus اي رجل الاسد في العربية . وكلمة centaurus اي قنطورس في العربية. وكلمة algol اي الغول في العربية. و algebar اي الجبار في العربية و alphard اي الفرد في العربية العربيـــة وهو نجم ثابت من الحجم الثاني . وكلمة alpherayz اي الفرس في العربيـــة وهو نجم ثابت من الحجم الاول . وكلمة algenib اي الجانب في العربية وهو نجم ثابت من الحجم الثاني . وكلمة alcaid اي القـــائد في العربية وهو النجم الاول من بثات نعش الصغرى . وكلمة taurus اي الثور في العربية . وكلمة benetnasch اي بنات نعش في العربية .

وهنالك اسماء عربية اخرى كثيرة للنجوم وردت في اللغة الالمانية وورد ذكرها في مؤلف سيجرد هونكه غير انني لم اجد ما يقابلها في الانكليزية منها achleis chemali اي الاكليل الشمالي و albajoth اي البعاث و alchabor اي الخابور و algedi اي الجدي و algomeiza اي الغميصاء و algorab اي الغراب و alkor اي القر و alpheta اي الفتى و aridid اي الردف و arioph اي الردف و ascheree اي الشـــراع و ayuk اي العيوق و baten kaitos اي بطن الحوت و denebola اي ذنب العلى و dubbe اي الدبه و etanin اي التنين و forcadin اي الفرقدان و kalbehasit اي قلب الاسد و kalbelazguar اي الكلب الازور و kalbolacrab اي قلب العقرب و kochab اي الكوكب و markab اي المركب و rasalgue اي

رأس الجو و rasalgethi اي رأس الجدي و raslgeuse اي رأس الجوزاء و scheat اي الساعد .

مما سبق يستدل على ان الحضارة الغربية استمدت اصولها من الحضارة العربية وتأثرت بها تأثراً بالغاً ظهرت آثارها في مختلف ميادين المعرفة والنشاط الانساني. وكان من نتيجة ذلك التأثر تسرب عدد كبير من الكلمات العربية او الكلمات التي تسربت عن طريق العربية وهي ليست عربية الى اللغات الاوربية الحية في مختلف العصور وبوجه خاص عن طريق اسبانيا وصقلية والحروب الصليبية كما رأينا. والمرجح ان الكلمات العربية التي دخلت مباشرة عن طريق اللغة الفرنسية والالمانية والايطالية كان معظمها قد تسرب الى هذه اللغات من خلال الحروب الصليبية وهي لا تقل في مجموعها عن ٢٥ ٪ من مجموع الكلمات .

ومن المؤكد انه لا يمكن تحديد وقت معين لتسرب الكلمات الا ما وجد منها مدوناً في بعض المراجع والكتب التاريخية والعلمية . فالاستاذ والت تيلور يورد في بحث له عدداً من الكلمات العربية التي تسربت الى اللغة الانكليزية ويحدد تاريخ انتقال بعض الكلمات كما ان معجم اكسفورد يورد اصول هذه الكلمات التي انتقل معظمها الى اللغة الانكليزية عن طريق اللغة اللاتينية . ويذكر والت تيلور في بحثه انه يوجد في اللغة الانكليزية حوالي الف كلمة من اصل عربي وعدة آلاف من مشتقاتها وان اكثر من ثلثي هذه الكلمات اصبح مهجوراً او نادر الاستعمال ، بالاضافة الى عدد آخر من الكلمات التي تسربت عن طريق العربية وهي ليست عربية ، ذلك لان العربية شأنها شأن سائر اللغات قد تبنت كلمات اجنبية كانت قد تسربت اليها من اصول فارسية او هندية او غير ذلك .

الفصل التاسع

المؤثرات في اللغات الشرقية والادب والتاريخ والموسيقى

١ – اللغــات الشرقية :

كان شغف الاوربيين بالشرق في عصر الحروب الصليبية عظيماً خصوصاً بعد مشاهدتهم مدنية العرب الزاهرة واعجابهم بلغتهم الغنية . ولم يقتصر هذا الشغف على حبهم للسلع التجارية والاشياء المادية فحسب بل تجاوزه ايضاً الى دراسة اللغات

الشرقية . « ففي سنة ١٣١١ صمم مؤتمر فينا على انشاء ست مدارس لتدريس اللغات الشرقية في اوربا على حد قول ايرنست باركر . وكان ريموندلاس سلاس اول من سعى لتقدم الدراسات الشرقية كأداة لاعلان حرب صليبية سلمية تكون جميع اسلحتها روحية . وفي سنة ١٢٧٨ اسس كلية للاخوة الفرير لدراسة اللغة العربية في ميرامار . ونتيجة لمساعيه المتواصلة صمم مؤتمر فينا الآنف الذكر على انشاء ستة كراسي في سنة ١٣١١ للدراسات الشرقيــة في عدة جامعات في اوربا في اللغتــين العربية والتترية » (١) .

"Earnest Barker mentions : That in year 1311 the Council of Vienna decided on the creation of six schools of oriental languages in Europe. Actually, such a study started and was stimulated in connection with the Christian missions of the East. Raymundus Sullus was the first who attempted to promote the development of oriental studies as the instrument of a pacific crusade in which the arms should be entirely spiritual. In 1278, he founded a college of frairs for the study of Arabic at Miramar. In 1311, at his investigation, the Council of Vienna which we have just mentioned, resolved on the creation of six chairs of oriental languages (in Arabic and Tartar) at several universities in Europe" (1)

وبالرغم من المؤثرات الشرقية الثقافية في الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية التي لا تزال آثارها باقية حتى زماننا هذا في امور تتعلق باللغة والادب والعلم والفلسفة فالصليبيون لم يبرهنوا على انهم كانوا دائماً متأهبين للاستفادة من كنوز الشرق الثمينة . فجهلهم كان لا يفوقه جهل . ويخبرنا التاريخ انهم بعد استيلائهم على القدس زحفوا الى طرابلس واحرقوا مكتبتها مع ما كانت تضم من اثمن مخلفات الادب الشرقي . وكذلك عندما فتحوا القسطنطينية في سنة ١٢٠٤ جعلوا ايضاً كنوز اليونانيين والشرق الادبية طعمة للنيران ، الامر الذي يحز في النفس . فالحروب الصليبية تركت اسوأ الاثر في مستهلها على الحركة الفكرية عامة والعلمية خاصة .

٢ — الادب :

ما لبثت الامور ان تغيرت بعد ان استقر الصليبيون في مملكة القدس والامارات الصليبية الثلاث الاخرى واخذت العلاقات الاجتماعية تقوى وتشتد بين الصليبيين والشاميين في الداخل والساحل . واخذ الصليبيون يتذوقون ما عند العرب من ادب وفن

(١) باركر ، ايرنست ، دائرة المعارف البريطانية المجلد السادس ص ٧٩٥

وعلم فتطورت نظرتهم نحو الشرق وشعوبه واخذت ثورتهم تخبو. وكانت التجارة من اهم العوامل التي جعلت الثقافة العربية تتسرب الى اوربا بحكم الواقع واتصال الصليبيين بالعرب ، وبذلك فقد قامت الحروب الصليبية مقام التعليم الحر لاوربا ويقول في ذلك الدكتور زكي النقاش عن راي « لم يستطع النبلاء من الافرنج اذن ان يقفوا بنجوة من الانجراف بهذا التيار القوي ، للحركة العلمية ، فراحوا بادىء ذي بدء يعبّون من مناهلها جميعاً ،وخاصة من الشرائع والانظمة فنبغ منهم حقوقيون عدة نسمّي منهم يوحنا الابليني Iblin وجيرار المونريالي وسواهما ، ثم ما لبثوا ان تقدموا من الحركة العلمية فراحوا يساهمون فيها ، وقد اتسعت عند العرب في سورية ومصر في خلال القرن الثاني عشر ، وقد كان للسريان بحكم الرابطة الدينية، اكبر الفضل في تعريف الافرنج بتلك الحركة الثقافية . ولا عجب فقد كانوا من قبل حفظتها ومذيعيها . ويسمي الاب لامنس بعض السريان الذين قصدوا الى اوربا واستقروا في بلاط بعض الملوك كما كان البعض الآخر منهم يتوسطون بين العلماء من العرب والافرنج » (١) .

اما شعر القرون الوسطى في اوربا فكان من نظم الفرنسيين في بلادهم ومن نظم الصليبيين في بلاد الشام ما عدا انشودة واحدة منسوبة الى رولاند Roland ترجع حوادثها الى تاريخ اقدم من تاريخ الحروب الصليبية . ولكن منذ ان بدأت الحملات الصليبية بعث معها عالم الخيال الى الحياة فظهرت قصائد جديدة روت الحروب الصليبية اما على شكل قصة تاريخية او انشودة شعرية بروح حرة طليقة من كل قيد . وعندما تطورت نظرة الفرنجة نحو العرب وهدأت ثورتهم راحوا يقلدون ما عند العرب من مظاهر اجتماعية ويأخذون ما عندهم من انظمة ادارية وعناصر فكرية . وقدكانت الحماسة الدينية والاندفاع الحربي وغموض الشرق كل هذه مجتمعة توحي الى الشاعر المعاني التي تعينه على نظم انشودته كما يستدل على ذلك من الاناشيد الصليبية الماثلة امامنا والموجودة في قصور فرنسا واديرتها ومكتباتها وغيرها من البلدان الاوربية . وقد كتبت هذه الاناشيد باللغة الفرنسية القديمة ونظمها الفرسان والمحاربون اما في مضارب الخيام في سورية او على قمم جبال لبنان حيث السحر وجلال الطبيعة وجمال المنظر . قد ايقظت في نفس الشاعر اسمى درجات الخيال والفكر . وكتب بعضها في

---

(١) النقاش زكي ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ص ١٩٥ — ١٩٦

ارض الوطن ليلة الفراق . وما هي الا سجل خالد لأحاسيس الانسان وخياله الواسع وصفحة في تاريخ الفرسان الذين اشتركوا في تلك المغامرة الكبيرة التي حدثنا تاريخ القرون الوسطى عنها واغلب ناظمي هذه القصائد كانوا من الشعراء ورجال الدين المدفوعين بحوافز دينية واهواء هي مزيج من حب وفروسية . ومع ذلك فان باركر يدعي تعصباً ان الحروب الصليبية قد اسدت للافرنج منـــافع اكبر بفضل اتصالهم بالقسطنطينية مما اسدته لهم باتصالهم بالمسلمين في الشرق دون ان يورد الدليل على ذلك . والحقيقة هي ان عصر الحروب الصليبية كان عصر خيال وشعر. ويمكننا ان نعتبر الحروب الصليبية تكملة لسلسلة من المغامرات الخيالية التي انجذب اليها المحاربون بحماسة شعرية ، ذلك لان الشعر كان قوة محركة فعالة ساعدت على استمرار جذوة الروح الصليبية طول مدة الحروب . وكان الشعر في ذلك العصر – كما نتوقع صدوره – من قوم سذج صدر عنهم في مستهل نهوضهم من سبات عميق ومن حالة تشبه البربرية . ولكنه كان على اي حال شعراً بسيطاً ومؤثراً ومثيراً للعواطف . وكانت مادته مستقاة من ظروف العصر وكلماته منظومة بحيث تعكس روح العصر. ومن المسلم به ان الحرب المقدسة والامل في تخليص فلسطين من ايدي المسلمين كانت من جملة الامور التي كونت مادة الشاعر .

كان الشعر الوسيلة الوحيدة لتسلية الشاعر وبعث السرور في نفسه لانه كان يعكف اليه في آخر النهار بعد قتال عنيف في حومة الوغى . وقد مارس فن الشعر الخلاب كل من الملوك والامراء والفرسان والنساء والشعراء الرسميون وكانت المواضيع التي عالجها الشعراء مزيجاً من اناشيد الحرب والحب والغزل والفروسية .

ففي عصر الحروب الصليبية بعثت الروح الادبية الى الحياة بأجل مظاهرها بعد سبات طويل. وظهرت في اوربا قصائد غزلية واناشيد كانت تنشد على نغمات القيثارة حاملة معها طابعاً شرقياً ومعبرة عن عواطف تجيش بها النفس واحساسات تنبعث من الاعماق مجردة من كل تكليف . ويشاهد مثل ذلك في القصص الغزلية المنسوبة الى انطاكية كانشودة انطاكية وقد ظهرت في فرنسا طبقة من الشعراء في عصر الحروب الصليبية عرفت باسم التروبادورز troubadours اي الشعراء الجوالون الذين كانوا يتنقلون من مكان الى آخر منشدين قصائدهم في مدح الفروسية وشجاعة الفرسان والامراء والنبلاء . وعالجت هذه الاناشيد مواضيع عربية واحتفظت بأسلوبها العربي اكثر

من قرنين . وقد كان للآداب العربية تأثيرها في بعض شخصيات الصليبيين مثل جودفري وتانكرد اللذين اتخذ الشعراء الجوالون من قصص بطولاتهما مواضيع لشعرهم بأسلوب عربي .

فعصر الحروب الصليبية كان العصر الذهبي لرواية القصة . وقد ساهم في هذا النوع من الادب كل من الشرق واسكندناوة وايرلنده وبريتاني. والقصص المعاصرة هي اكبر شاهد حي على تأثير الشرق في معــاهد الفروسية كمعرفة فن شعار الاسرة وانسابها. ولاريب في ان القصص الخرافية عن الكأس المقدسة The Holy Grail من أصل شرقي ، كذلك قصص كليلة ودمنة والف ليلة وليلة قرأها وقلدها كتاب القصص الاوربيون . وتأييداً لهذا الكلام فان قصة الوجيه The Squires Tale للكاتب الانكليزي تشوسر هي من قصص الف ليلة وليلة . ولابد ان يكون بوكاشيو Boccaccio قد اقتبس قصصه الموجودة في مجموعة الديكاميرون Decameron من مصادر شرقية .

ومما يلفت النظر ان توسع الشعراء الاوربيين في الشعر كان بسبب الحروب الصليبية . فقد نظمت قصائد عديدة في وصف الحروب الصليبية وسرد تاريخها كأغنية انطاكية The Chanson of Antioch وقصيدة امرواز الانكليزية التي تصف الحمــلة الصليبية الثالثة. وكانت اللغات الاوربية الحية هي اللغات المستعملة في مملكة القدس والامارات الصليبية الاخرى . فاللاتينية كانت اللغة الرسمية للدولة والكنيسة ، والفرنسية كانت لغة الامراء والبارونات . والايطالية كانت لغة التجارة . وكانت هنالك ايضاً اللغة الانكليزية واللغة الالمانية واللغة اليونانية ولغة الدول الاسكندنافية وغيرها . وبعد انشاء مملكة القدس والامارات الصليبية اخذ الفرنجة يتعلمون اللغة العربية بعد ان توطدت العلاقات الاجتماعية والتجارية بين الصليبيين والعرب . واخذ عدد كبير من الكلمات العربية يتسرب الى هذه اللغات كما رأينا في فصول سابقة . وهكذا انتقل جزء كبير من معارف الشرق الى الغرب عن طريق الحروب الصليبية ، اي في خلال الفترة من اواخر القرن الحادي عشر وحتى القرن الرابع عشر .

ومن الشخصيات الفرنجية التي اقبلت على دراسة اللغة العربية والاطلاع على تاريخ العرب رينو الصيداني (نسبة الى صيدا) والامير همفري سيد تبنين الذي كان يقوم بالترجمة للملك ريتشارد الاول في المفاوضات التي دارت بينه وبين الملك العادل قرب يافا في سنة ١١٩٢ . ومنهم ايضاً بلدوين الابليني الذي قام بالترجمة للملك

لويس التاسع ايام اسره في مصر. ومن الشخصيات الشامية التي تضلعت في اللغة اللاتينية تادري الانطاكي اليعقوبي الذي كان يتقن اللغة اللاتينية بالاضافة الى اتقانه اللغة السريانية .

٣ — التاريـــخ :

بالرغم من مساوىء الحروب الصليبية وما صاحبها من اعمال التدمير والتقتيل وما خلفته من التعصب الذميم فقد كانت نافعة كل النفع للعالم الغربي لان اوربا خطت بسببها خطوات واسعة في مضمار التقدم. ويؤيد هذه الحقيقة كتاب كثيرون منهم جيبون نقلاً عن كتاب نشرته مؤسسة دينية في لندن اذ يقول :

« ان مد المدنية الذي انحسر منذ امد بعيد قد بدأ يفيض بسرعة وفي اتجاه مستمر. وقد ظهرت لعزائم الاجيال الناهضة وآمالها الكبيرة مطامح هي اكثر استبشاراً من سابقتها. كثيرة هي الزيادة وسريع هو التقدم اللذان حدثا في خلال المئتي سنة من الحروب الصليبية » .

"The tide of civilization which had so long ebbed, began to flow with a steady and accelerated course, and a fairer prospect was opened to the hopes and efforts of the rising generations. Great was the increase, and rapid the progress, during the two hundred years of the crusades".

لقد ساهم في كتابة تاريخ الحروب الصليبية عدد من المؤرخين المعاصرين من عرب وافرنج ومن المؤرخين العرب الامير السوري اسامة بن منقذ (١٠٩٥—١١٨٨) الذي ولد في شيزر (شمال حماة) وتوفي في دمشق . وهو احد فرسان العرب. وكان له اتصال بالصليبيين. فخاصمهم احياناً وصادقهم احياناً اخرى. واشتهر كمؤرخ واديب. ومن مؤلفاته التاريخية كتاب (الاعتبار) الذي هو عبارة عن تاريخ القرن الثاني عشر كله. ومنهم ابن الاثير واسمه الكامل عز الدين ابو الحسن علي بن الاثير (١١٦٠—١٢٣٤) وكتابه (الكامل في التاريخ) يعدّ من اهم المصادر التاريخية في القرون الوسطى. ومن مؤلفاته (تاريخ اتابكة الموصل) و(اثر الغابة في معرفة الصحابة) . ومن المؤرخين العرب بهاء الدين بن شداد الذي الف كتاباً في تاريخ صلاح الدين الايوبي.

اما المؤرخون الفرنج فمنهم النورمندي الذي آثر ان لا يعلن عن اسمه . وقد وصف الحرب الصليبية الاولى في كتابه (حركة الفرنج) Gesta Francorum . ومنهم

فوشيه دي شارتر Fulcher of charters الذي وصف مملكة القدس حتى عام ١١٢٧ في كتابه (تاريخ مملكة القدس) Historia Hierosolymitana . ومنهم وليـــام الصوري William of Tyre (١١٣٠ — ١١٨٤) اسقف صور الذي يعـــد اشهر المؤرخين الغربيين . ولد وليام الصوري في بيت المقدس من ابوين ينتميان الى اسرة فرنسية اشترك رجالها في الحملة الصليبيةالاولى ودرس اللغتين العربية واليونانية في فلسطين وقرأ المؤلفات التاريخية العربية وتأثر بها وافاد منها في وضع مؤلفاته . وقد ارسله ذووه الى باريس حيث اتم دراسته وعاد الى القدس في سنة ١١٦٢ وعينه الملك عموري الاول مشرفاً على تربية اولاده ثم عين سفيراً عنه لدى امبراطور بيزنطية . وقد الف كتابه الشهير الذي سماه (تاريخ ما حدث فيما وراء البحار) History of things done in the parts overseas . ويقع في ثلاثة وعشرين مجلداً ويتناول الحوادث التاريخية حتى عام ١١٨٣ . ويعد هذا الكتاب المرجع الرئيسي لقصة الحروب الصليبية وخاصة بعد ترجمته الى اللغة الفرنسية باسم Historia Transmarina ويعده ايرنست باركر اهم كتاب صدر في القرون الوسطى . ويقول ايرنست باركر « لم يكتف الصوري بالكتابة عن اعمال اللاتين بل انه الف ايضاً (تاريخ الامراء المسلمين منذ ظهور النبي History of Mohammadan Princes from the Appearance of the Prophit وهو تاريخ الحكام المسلمين وانجازاتهم منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان لا بد لوليام من الرجوع الى المصادر التاريخية العربية وقد ساعده في انجاز مهمته معرفته للغة العربية.

ويقول الدكتور محمد محمود الصياد :

« وقد وضع عموري بين يدي وليام مجموعة كبيرة من المراجع والمؤلفات التاريخية العربية بعضها مما بقي في مملكة بيت المقدس بعد استيلاء الصليبيين عليها وبعضها — فيما يقال — كان من مجموعة كتب الفارس العربي اسامة بن المنقذ التي صادرها الملك بلدوين الثالث بعد ان غرقت السفينة التي كانت تحملها من مصر على شاطىء مدينة عكا »(١) .

---

(١) الصياد محمد محمود — اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٣٩٤

خرجت السفينة من مصر في طريقها الى الشام تحمل نفراً من اسرة اسامة بن منقذ واتباعه واربعة آلاف مجلد عربي فاخر — هي مكتبته الخاصة — وقدرا من ذخائره . ولكن السفينة غرقت قرب شاطىء عكا فاستولى الملك بلدوين الثالث على ما بها واستهان اسامة بما فقد ولكنه تألم الالم كله لفقد الكتب وعبر عن حسرته في كتابه الاعتبار بقوله « فان ذهابها حزازة في نفسي » .

ويقول ايضاً :

« وقد صرح وليام نفسه في كتابه انه استعان بالمراجع العربية وافاد منها ولكنه لم يشر الا الى اسم مؤرخ عربي هو سعيد بن البطريق المشهور بأوتيخوس او اوثينوس .... ولم يكن غريباً ان يكون معظم اعتماد وليام — وهو اسقف مسيحي — على مؤلف عربي مسيحي مثله — بل لعل هذا كان الامر الطبيعي . فسعيد بن البطريق مصري من الفسطاط وقد عين في سنة ٣٢١هـ . بطريركاً على الاسكندرية وفيها الف كتابه وفيها مات . ولعل رجال الدين من مسيحيي الشرق هم الذين قدموا هذا الكتاب لوليام وزكوه لديه » (١) .

ولا تزال هنالك آثار باقية من كتاب وليام الصوري عن تاريخ امراء المسلمين في كتاب لوليام الطرابلسي اسمه (بحث في حال العرب) تناول فيه عبقرية الاسلام ومميزاته. ولوليام الصوري كتاب آخر اسمه (اعمال الملك عموري) Gesta Amalrici Regis .

ويصف جيزوت Guizot تقدم التاريخ في اثناء الحروب الصليبية وصفاً رائعاً اذ يلقي على الموضوع ضوءاً أسطع مما يلقيه اي مؤرخ آخر فيقول :

« يرى تقدم الاوربي بكل وضوح وجلاء بالموازنة بين المؤرخين المعاصرين للحروب الصليبية الاولى وبين المؤرخين الذين عاشوا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . اذ بالموازنة بين هاتين الطائفتين من الكتاب لابد ان نعجب من سعة المسافة التي تفصلهم . فالكتاب المعاصرون للحروب الصليبية الاولى علماء نشيطون مملؤون بالخيال الحي ، يذكرون احداث هذه الحروب بعواطف حية ولكنهم في نفس الوقت رجال ذوو عقول ضيقة وبصائر قصيرة لا يتجاوز تفكيرهم عصرهم الذي عاشوا فيه ، غرباء عن جميع العلوم ، متحيزون اشد التحيز ، وغير قادرين على ابداء اي حكم على الحوادث التي رأوها او مرت بهم . افتحوا على النقيض من ذلك — تاريخ الحروب الصليبية لوليام الصوري Willam of Tyre تعجبوا حينما ترون تقريباً مؤرخاً من العصور الحديثة ذا عقل متقدم حر وتفكير ناضج واسع وفهم قليل للحوادث السياسية وصواب في وجهات النظر وحكم مبني على اسباب ونتائج .

---

(١) الصياد محمد محمود — اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٣٩٥

وجيمز دي فتري James de Vitry مؤرخ آخر من المؤرخين المتأخرين يزودنا بمثل آخر عن تقدم التاريخ فهو بحاثة لا يهتم بما له علاقة بالحروب الصليبية فحسب بل ايضاً بالعادات والجغرافية وفن السلالات البشرية والانساب والتاريخ الطبيعي . وهو يلاحظ البلاد اولاً ثم يصفها بعد ذلك. وصفوة القول يوجد بون شاسع بين مؤرخي الحروب الصليبية الاولى ومؤرخي الحروب الصليبية المتأخرة ، الامر الذي يدل على حدوث ثورة عقلية صحيحة » (١) .

European progress is strikingly seen in a comparison of the contemporaneous chroniclers of the first crusades, with those of the twelfth and thirteenth centuries. When we compare these two classes of writers, it is impossible not to be struck with the distance which separates them. The first are animated scholars, full of vivid imagination, who recount the events of the crusades with passion. But they are at the same time men of very narrow minds, without the idea beyond the time in which they have lived, strangers to all science full of prejudice, and incapable of forming any judgement, whatever upon what passes around them, of the events which they relate. Open, on the contrary, the History of the Crusades, by William of Tyre; you will be surprised to find almost an historian of modern times; a mind developed, extensive and free; a rare polotical understanding of events, completeness of views, a judgement bearing upon causes and effects. James de Vitry, another of these later historians, affords an example of a different kind of development. He is a scholar, who not only concerns himself with what has reference to the crusades, but also with manners, geography, ethnography, and natural history; who observes and describes the country. In a word, between the chroniclers of the first crusades, and the historians of the last, there is an immense interval, which indicates a veritable revolution of mind". (1)

ومن هذا يتضح انه من بين الاثني عشر مؤرخاً من مؤرخي الحروب الصليبية الاولى والاخيرة يظهر اسم وليام الصوري في طليعة الاسماء . ولم تكن مؤلفاته العظيمة مجرد سرد للحوادث . وقد طغت شهرته على الآخرين واذا كان هيرودوتاس Herodotus يسمى ابا التاريخ على الاطلاق. فطبيعياً يحق لوليام الصوري ان يسمى ابا التاريخ الحديث . ولا جدال في انه جدير بهذا اللقب ، لانتظام تفكيره ومعالجته الموضوع معالجة جامعة محكمة . وقد اكسبه حكمه الصائب وسرده الواضح للاحداث التاريخية التي وقعت تحت علمه شرفاً ومجداً كمؤرخ حقيقي .

---

(١) جيزوت – نبذة الهيئة الاجتماعية الدينية ، الحروت الصليبية والكنائس اليونانية الشرقية ص ١٧٣

(1) Guizot, The Religious Tract Society, The Crusades and the Greek ane Eastern Churches, P. 173

٤ — الموسيقى :

اهتم العرب بالموسيقى وارسلت اوربا البعوث الى عواصم البلدان العربية لتنهل من علوم العرب وفنونهم في جامعاتها ومعاهدها التعليمية . وكانت الموسيقى من جملة العلوم التي وفدت تلك البعوث لدراستها ولترجمة مؤلفات العرب في الموسيقى كمؤلفات الفارابي واخوان الصفا وثابت بن قره وزكريا الرازي وابن باجه وصفي الدين عبد المؤمن . ويعد الفارابي اعظم علماء الموسيقى العربية النظريين بل يعد بلا نزاع اكبر موسيقي ظهر في الاسلام . فقد بحث في الموسيقى في كتابين من كتبه التي لخص فيها العلوم وزاد على ذلك في انه خصص لها ثلاثة كتب كبرى اهمها كتاب (الموسيقى الكبير) وادخل على الموسيقى اليونانية اضافات جديدة (١). وقد ذكر عن الفارابي انه حضر مرة مجلس سيف الدولة فأخرج عيداناً لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم ضرب بها لحناً آخر فبكى كل منهم ، ثم غير ترتيبها وضرب ضرباً ثالثاً فنام كل منهم حتى البواب ، ولا يزال اصحاب الطريقة المولوية ينشدون بعض الالحان القديمة المنسوبة اليه » (٢) .

ولقد كان للحروب الصليبية التي امتدت قرنين كاملين (١٠٩٦—١٢٩١) اثرها الكبير في تدعيم الصلات الثقافية بين الغرب والشرق . وقد عرفت اوربا لاول مرة مظهر الموسيقيين المتجولين troubadours الذين نشطوا في اثناء الحروب الصليبية،وهم يعرضون اغانيهم ورقصاتهم الشعبية مرددين فيها ملاحم البطولة وما سبق ان نقلوه عن عرب الاندلس وغيرهم من قصص الف ليلة وليلة وامثالها . وقد ظهر الجوالون الموسيقيون اول ما ظهروا في اواخر القرن الحادي عشر في جنوب فرنسا وفي المانيا . وكانوا يتغنون بأوزان جديدة من الشعر استمدوها من الوان الموشحات والازجال والاغاني الاندلسية. وكانت مواضيعها التغني بجمال الطبيعة وبأمجاد البطولة والحث على الفروسية والمدح والحماسة على غرار الوان الشعر العربي في الغناء والوصف والفخر . وكانت قصائد التروبادورز تشبه في ترتيبها انماط الموشحات الاندلسية . ويرى علماء اللغة ان كلمة (تروبادور) محرفة عن الكلمة المركبة طروبادور اي طرب دور واصلها دور طرب فقدمت الصفة على الموصوف وتقول سيجرد هونكه في كتابها (شمس الله على الغرب فضل العرب على اوربا) (٣) .

---

(١) القنعطي ، تاريخ الحكماء ص ٢٧٨ — ٢٨٠
(٢) حتي ، فيليب تاريخ العرب المطول ص ٣٥٣
(٣) الصياد محمود ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٤٥٧-٤٥٨

« ان موسيقى الغناء القديم لا تعرف الايقاع المستقل بل تعتمد على مجرد الاوزان التي تنحصر في مقاطع طويلة وقصيرة . وان اقدم موسيقى كنسية على وحدات من النغمات متصلة لا يدخلها التوزيع الموسيقي وذلك على نمط تقسيم الجمل الكلامية على طريق التنقيط والفواصل وما اليها » .

وتقول ايضاً : « اما البناء الايقاعي فهو شرقي اصيل والايقاع يساعد على خلق الموسيقى محدودة الزمن Mensural notation ويؤدي مباشرة الى نظام المازورة وقد يكون هذا اهم تراث موسيقي قدمه العرب لاوربا ، اعني الموسيقى محدودة الزمن التي ادت مباشرة الى ايجاد المازورة . اما نظريات الموسيقى في المؤلفات الاسبانية العربية فلم تظهر الا في المصنفات اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر » .

ويقول الدكتور الصياد : « وتدين اوربا للعرب في اكثر آلاتها الموسيقية . فقد انتشرت منذ القرن التاسع في ممالك اوربا ولا سيما في البلاد الغربية والجنوبية بأسماء تنم عن اشتقاقها من اصلها العربي كالعود lute ومعناه الخشب . فقد انتقلت التسمية العربية بلفظها الى جميع اللغات الاوربية . ويمضي فيقول وما كاد العود ينتقل من الاندلس الى فرنسا حتى اصبح في القرن الثاني عشر عصر الحروب الصليبية من آلاتها الشائعة كما لاقى رواجاً كبيراً في المانيا ثم في ايطاليا ثم في بقية البلاد الاوربية. وانتقلت من العرب الى اوربا آلات كثيرة باسماء عربية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر القيثارة Quiterra — الجيثار Quitar والنقارة naker, nacaire والدف aduf والصنوج sonajus والنفير anafir وجمعه انفار fanfare والطبل taber والقرن horn, horno والشقير echiquier الذي يقرر الاوربيون انه كان في بداية حلقات تطوير آلة البيانو . وكان اول تعرف اوربا بالآلات الوترية ذات القوس حوالي القرن الحادي عشر حين انتقل اليها الرباب العربي. وقد ظهر اقدم آلات الرباب عند العرب في القرن الاول بعد الميلاد . وكانت ذات وتر واحد ثم ذات وترين ثم اربعة وتنوعت اشكالها فعرفت منها رباب الشاعر والرباب العادي الذي يعرفه االاوربيون باسم كمنجة عجوز والرباب التركي المعروف باسم الارنبة والرباب المغربي » (١) .

---

(١) الصياد ، محمود ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٤٦٠–٤٦١

لقد انتقلت الربابة العربية الى ايطاليا باسم rebec , rubecca والى فرنسا باسم rubele, rubella . وهذه الاسماء مأخوذة عن الاسم العربي رباب . واخذت اوربا عن العرب الدسادين المثبتة على رقبة الآلات الوترية كالعيدان والطنابر وآلات القيثارة التي تساعد على اعطاء النغمات المطلوبة في الاداء وعلى استخراج نسب صوتية جديدة في السلم الموسيقي لم تعرفها اوربا من قبل .

الفصل العاشر

فن البناء الهندسي والفنون الحربية

١ ـــ فن البناء الهندسي :

كان التركيز في فن البناء الهندسي في القرن العاشر على بناء القباب والمتاريس والحصون . كما ان قصور الامراء والعظماء قد اعدت بحيث تكون صالحة للسكن وللدفاع ضد العدو في آن واحد. ولم تبن تلك القصور للراحة او للظهور. اما مساكن عامة الناس فكانت بسيطة تكاد لا تدرأ عنهم عوارض الطبيعة القاسية وتقلبات الطقس الشديدة. وقد تميز فن البناء الهندسي في اقامة الاضرحة وبناء الانصاب التذكارية تخليداً لذكرى الجدود ورمزاً للوفاء والاخلاص . وقبل ان يفكر الامراء والاغنياء في بناء قصور فخمة او في تشييد منازل صالحة للسكن انشئت بنايات للعبادة . وعدد الكنائس والاديرة التي بنيت في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر يكاد لا يحصى ، ذلك لان الناس في عصر الحروب الصليبية كانوا يعتقدون ان الطريقة المثلى للتكفير عن الذنوب هي ببناء كنيسة . ولهذا السبب كثر بناء الكنائس وانشاء الاضرحة والانصاب التذكارية ذات الفن الهندسي الخاص تلبية لنداء التوبة وتحقيقاً للاماني الدينية .

وقد نذر الناس في كل مدينة وبلدة نذوراً بتجميل كاتدرائياتهم وتزيينها . وكانت هنالك حماسة منقطعة النظير في غيرتهم الدينية . لان الكنيسة الابوية كانت في نظرهم انبل صورة محسوسة . ولم يبدُ غريباً ان تشاهد صليبياً يبني كنيسة او ديراً فور رجوعه الى الغرب . ولا تزال ماثلة في مدن كثيرة في اوربا عمارات وكنائس كثيرة بناها الصليبيون بعد عودتهم الى بلدانهم من الارض المقدسة . ففي لندن توجد كنيسة الهيكل temple church التي بناها الهيكليون (الداوية) على طراز كنيسة القيامة في القدس . وفي باريس بنى لويس التاسع كنيسة لاسنت تشابل La Sainte Chapelle

على طراز الكنائس التي شاهدها في فلسطين والتحصينات القوية في كراكاسون في فرنسا caracassone تدل على ان فن بنائها الهندسي يشبه فن البناء الذي شاهده الصليبيون في سورية ، على ان الصليبيين نقلوا معهم الى الشرق العربي معلومات قيمة عن فن البناء الحربي من ايطاليا ونورمانديا . وتسربت هذه المعلومات الى العرب كما يستدل على ذلك من فن البناء الهندسي لقلعة القاهرة(١) واهم ما تركه الصليبيون وراءهم الحصون والقلاع مثل حصن الاكراد وحصن المرقب وحصن الشقيف التي لا تزال ماثلة حتى الآن .

اما فيما يتعلق بفن البناء الهندسي العربي فان الاساليب المحلية مأخوذة من اصول مسيحية سواء اكانت سورية ام بيزنطية ام قبطية واستعملت كأساس في بناء الجوامع الكبيرة. ولم يكن فن البناء الهندسي الاسلامي فنا يعتمد على نظام عمراني كبير ولكنه كان فناً الفت زينة السطوح والسقوف فيه ابرز عنصر مؤثر استهوى الانظار وبدت اقسامه المحلية المختلفة وحدة متماسكة الاجزاء . يقول ايرنست باركر :

« لا يوجد اسلوب عام لفن البناء الهندسي الاسلامي لانه اختلف من بلاد الى بلاد تبعاً لشكل البناء المحلي الذي وجده العرب الفاتحون . وكان الانسجام الوحيد لديهم في الزخرفة والزينة . وقد استعمل العرب شكلاً ذا قوس مدببة اختلفت هندسة بنائه عن هندسة البناء الغوطي العربي في طوره الهندسي فيما يسمى Trefoil وهو ضرب من النقش على هيئة قوس يتضمن ثلاث اقواس صغيرة Cinquefoil وهو ضرب من النقش على هيئة قوس تتضمن خمس اقواس صغيرة » (٢)

There is no general style of Saracenic architecture. It varied from country to country according to the type of indegenous building which the conquering Arabs found, and the only uniformity was that of decoration and ornament. The Arabs used a form of pointed arch, but it differed from that of the Gothic architecture; they used geometrical designs and influenced the trefoil and cinquefoil of Western Gothic in its geometrical stage" (2)

وفي الوقت الذي كانت اوربا في القرن الثامن لا تزال في العصور المظلمة كان المسلمون قد مهروا في فن بناء الاضرحة والانصاب التذكارية واتقنوا فن الزخرفة

---

1. Hitti, Philip Khuri, History of the Arabs P. 62.

2. Arnold, Sir Thomas Walker, The Legacy of Islam P. 62

الذي تميز بطلاء الجدران بجبس ناعم ابيض وبتزيينها بالخزف الملون اللامع . وبما ان الديانة الاسلامية قد حرمت رسم الاشكال الطبيعية وجسم الانسان فقد انصرف الرسامون العرب الى ابتكار نظام جديد أنيق ذي زينة هندسية صرفة تكونت في الغالب من خطوط كثيرة التشابك . وفي القرن السابع بنيت اهم الجوامع مثل جامع عمرو في مصر القديمة والجامع الكبير في القيروان في شمال افريقية وقبة الصخرة في القدس . اما الجامع الكبير في دمشق فيرجع الى القرن الثامن . ولما اسس الفاطميون القاهرة في سنة ٩٧١م اصبحت مصر مركزاً لنشاط عظيم في فن البناء الهندسي . ومنذ القرن الحادي عشر بدأ استعمال القبة في مصر على نمط فن بناء الانصاب التذكارية في بلاد فارس . واذا ما ذكرنا فنون البناء الهندسية الاسلامية في عصر الحروب الصليبية نرى وليام دانتون يصفها وصفاً رائعاً بقوله :

« ان كثيراً من الاضرحة والانصاب التذكارية التي يتجلى فيها فن البناء الهندسي والتي لا تزال تثير اعجابنا ماهي الا ثمرة من ثمار الدافع الفني الذي اقتبسه الغرب نتيجة الاختلاط بأمة كانت اكثر تكريساً لثقافتها وكانت تتصف بصفة الغيرة المتزايدة للتضحية . وعن طريق مشاهدة الاضرحة والانصاب التذكارية اليونانية والعربية دخل الى الغرب ذوق جديد وصل من خلاله فن البناء الهندسي السوري او العربي او الاسلامي — عن غير حق سمي غوطياً — أعلى درجة من درجات الاتقان. فحلت الاقواس المدببة والمحدبة ذات التموجات الدقيقة الصنع محل الفتحات الواطئة القبيحة التي خشي البناؤون الجبناء رفعها وجعلوا نوافذها ضيقة لا تسمح بامتداد الرؤية منها . وكانت تقاس مهارة مهندسي البناء بنسبة مقدرتهم على اثارة الاعجاب بجرأتهم في العمل . ففي بناء الجوامع مثلاً وضعوا مقادير كبيرة من الكتل الثقيلة على اعمدة خفيفة لطيفة فظهرت كأنها مرفوعة على ذراع غير منظورة وقطعوا الحجارة الى الف قطعة مختلفة الاشكال والالوان لها من جمال المنظر وزخرفة الصناعة ما يستهوي الافئدة ويأخذ بمجامع الالباب . ولبسوا هذه الحجارة بالزجاج المطلي بألوان متألقة مستمدة من اشعة الشمس بطريقة عجيبة. ولما كانوا بعيدي النظر تنبأوا ان خلفهم سوف يكونون عديمي المبالاة بأعمالهم الهندسية لذلك جعلوها قوية البناء ثابتة الاساس لتبقى خالدة على الدهر عصوراً طويلة دون حاجة الى اعادة بنائها او تجديدها » (١) .

---

1 - Arnold, Sir Thomas Walker. The Legacy of Islam P. 62

"Several monuments of architecture which still excite our admiration are the fruit of the artistic impulse received from contact with people more devoted to its culture and from the growing fervour of devotion. The sight of Greek and Arab monuments introduced into the the West a new taste by which that Syrian Arab or Saracen type of architecture, inpropely called Gothic, was brought to its highest degree of perfection. Delicately pointed ogive arches replaced the low and ugly openings which timid builders were afraid to raise higher and which presented but narrow outlooks to view. Architects were judged skilful as they were able to astonish by the boldness and daring of their own work. As in the mosques they loaded up light and graceful columns, enormous masses which seemed upheld by the support of an invisible arm. They cut stone into a thousand different and often most fanciful forms, and set into painted glass whose brilliant colours were admirably brought out by the rays of the sun. As if they foreseen the indifference of posterity to their work they gave it a solidity enabled it to go for great lenghts of time without care and restoration" (1)

غير ان ايرنست باركر يعتقد ان البنايات الكبيرة والكنائس الفخمة كانت وليدة لفن البناء الهندسي الغوطي . فمثلاً قبة بيزا المائلة العجيبة وكنيسة القديس مرقس الفخمة في ايطاليا بنيتا على طراز الفنين اليوناني والاسلامي في القسطنطينية وسورية . وقد خصص الصليبيون الكنوز التي غنموها في حربهم ضد المسلمين وضد الامبراطورية البيزنطية لانشاء مثل هذه العمارات . ومن المؤكد ان الاضرحة والانصاب التذكارية في الشرق التي تجلى فيها فن البناء الهندسي الشرقي قد اثارت اعجاب الصليبيين وايقظت الغيرة في نفس الحجاج القادمين مع الحملات الصليبية الى الاراضي المقدسة. وقد اعجب الصليبيون اشد الاعجاب بمشاهدتهم القسطنطينية لاول مرة لانها كانت اعظم واجمل مدينة في اوربا . ويعبر المؤرخ الالماني جنثر Gunther عن اعجابه بها بقوله « لا يمكن تصديق مثل هذه الفخامة لو لم تر » (١) .

ونتيجة للعلاقات التجارية الجيدة التي كانت قائمة بين المدن الايطالية والممالك الاسلامية في الشرق العربي فقد استفادت تلك المدن من فن البناء السوري اليوناني الذي كان بالغاً حد الروعة والجمال . ففي مدينة سانلورينزو San Lorenzo في جنوه يوجد وعاء فخم من الزجاج الاخضر كان الصليبيون قد غنموه في حصار قيصرية في سنة ١١٠١ وحملوه الى ايطاليا غنيمة ثمينة من غنائم النصر . ويوجد في البندقية عمودان من الرخام اخران من حجر الجرانيت . وقد نقلت هذه الاعمدة من سورية

1. Denton, William, The Historians History of the World, Vol VIII, P. 477

في عصر الحروب الصليبية . ويقال ان الخيول الاربعة الجميلة المصنوعة من البرنز عند مدخل كنيسة القديس مرقص هي من غنائم الحرب عندما اقتحم البندقيون القسطنطينية في سنة ١٢٠٤ .

وقد كان للغنى العريض الذي تدفق على المدن الايطالية عن طريق التجارة اكبر الاثر في تزويد الايطاليين بالمال الذي ساعدهم على تشجيع الصناعة والفنون . وهذه بدورها ساعدت على نهضة المدن الايطالية . فالذوق السليم في فن البناء الهندسي الذي ظهر في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر قد غير وجه ايطاليا اولاً ووجه اوربا الغربية بأسرها فيما بعد . وتأكيداً لتأثر فن البناء الغربي بفن البناء الاسلامي يقول الدكتور عاشور :

« وقد تأثر الفن الحربي وفن بناء الحصون والقلاع عند الاوربيين بما شاهدوه من نظم ونماذج اسلامية في زمن الحروب الصليبية فتقدمت حركات الحصار وبدأ استعمال المجانيق والكباش الهادفة واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم وارسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل. وتعلم الصليبيون من المسلمين نظام المشربيات الذي عرفته العمارة الحربية الاسلامية وهي عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن ان تصوب منه السهام الى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون ان يحفروا تحت جدران الحصن او يشعلوا النيران فيه . كذلك يمكن من هذه المشربيات ان يصب الزيت والماء المغليان على رؤوس المحاصرين . وسرعان ما اقتبس الصليبيون فكرة المشربيات عن المسلمين ونقلوها الى الغرب الاوربي فظهرت في قلاع شاتوجيار Chateau Gaittard ونورويتش Northwitch وغيرهما من القلاع التي اقيمت في الغرب الاوربي في القرن الثاني عشر . وهناك ظاهرة اخرى في فن العمارة الحربي استعارها الغرب عن المسلمين في مصر والشام ابان الحروب الصليبية ، وهي جعل المدخل الحربي لباب الحصن او القلعة متعرجاً او على شكل زاوية قائمة حتى لا يتمكن العدو اذا وصل الى قرب الباب من رؤية الفناء الداخلي للحصن او يصوب سهامه الى من فيه . ولم يعرف الاوربيون هذا النوع من المداخل الملتوية الا عن طريق العرب في عصر الحروب الصليبية فطبقوه بعد ذلك في قلاعهم بأوربا وظهرت هذه الظاهرة بوضوح في قلعة بوماريس Beaumaris في انجلترا وفي قلعة كراكاسون في فرنسا » (١) .

---

(١) عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية الجزء الثاني ص ١٢٧٠-١٢٧١

لقد حاول الصليبيون دراسة كل ما شاهدوه من العمارات والقلاع والحصون الحربية في اثناء وجودهم في الشرق العربي ابان الحروب الصليبية . فتعلموا الشيء الكثير من فن البناء العربي . وبما انهم كانوا يفتقرون دائماً الى القوة الضاربة ولم يكن بوسعهم تجهيز تلك القوة بسهولة لبعدهم عن مصادر تمويلها فقد كان لا بدّ من جعل قلاعهم بالغة القوة والمتانة ليسهل الدفاع عنها . ولهذا حرصوا على اختيار مواقع القلاع والحصون بحيث تكون لها صفات دفاعية . فبنوا حصونهم وقلاعهم على رؤوس الجبال والتلال وعلى المنحدرات التي يصعب الوصول اليها وفي الاماكن التي يمكن ان يراقبوا منها تحركات العدو ، وعمدوا الى جعل الاسوار التي يقيمونها بالغة السمك والطول حتى تستطيع مقاومة اي هجوم مباشر تتعرض له .

اما القلعة الصليبية فقد جعلت بالغة الاتساع بحيث تكون مقراً للقيادة ومركزاً للحكومة المحلية يسكنها سيد الحامية وتتوافر فيها الحجرات الكافية لايواء عدة آلاف من رجال الحامية والمستودعات لخزن المعدات الحربية والذخائر والمؤن . والاماكن الكافية لتوفير الحماية والمأوى لقطعان الاغنام والماشية في اثناء الغارات التي يشنها العدو عليها .

ان البرج الذي عرفه الغربيون في اوربا لم يكن كافياً لحاجات الفرنج في الشرق العربي. ولهذا عمدوا الى تقليد البرج البيزنطي العربي المدور لا المستطيل نظراً لان السطح المدور يكون بالغ الصلابة في مقاومة ما يتعرض له من قذف. كما عمدوا الى الاكثار من عدد ابواب القلعة ونزعوا الى تضخيم حجم القلعة حتى اصبحت قلاع الصليبيين مدناً عسكرية لضخامتها . فقلعة الكرك وقلعة عتليت كان باستطاعتهما ان تأويا عدة آلاف من المقاتلين والخدم .

ومن التحسينات التي ادخلت على القلاع الصليبية لتعزيز الاستحكامات استخدام الدائر المزدوج الذي يتوسطه مركز واحد امثال القلاع التي اقامها الاسبتالية في المرقب وحصن الاكراد والقلعة ذات الدائر المزدوج التي اقامها الداوية في صافيتا . اما طائفة التيتون الالمان فقد التزموا الدائر المنفرد في مونتفورت . ومن التحسينات الاخرى التي جرت في القرن الثالث عشر جعل واجهات الاسوار مصقولة حتى يتعذر على السلالم المتحركة الاستقرار عليها . ويقول ستيفن رنسيمان « لقد نقل الصليبيون العائدون الى اوربا معهم الافكار التي سبق ان لقيت تفسيراً لها هناك . فما كان لريتشارد قلب

الاسد من قلاع ، مثل قلعة جايارد ، دل على انه ادخل هذه الافكار الى العالم الغربي ، غير ان للقلاع في الشرق قيمتها الجمالية . فما حوته من كنائس تعتبر من اروع نماذج فن عمارة الكنائس في الشرق الفرنجي. إذ إنّ قاعاتها الكبيرة التي تعتبر اجملها تلك التي في حصن الكرك ، يصح مقارنتها بالقاعات الغوطية المبكرة في غرب اوربا . اما حجرات الاقامة التي لا زالت باقية لتعرض علينا بعض الافكار عن قصور النبلاء في الشرق الفرنجي فأنها تدل على الجمال والذوق . فالحجرة التي تخص المقدم في حصن الكرك والتي تقع الى الجنوب الغربي بأعلى البرج الواقع في الدائر الداخلي بسقفها المعقود البارز ، وبأعمدتها المربعة النحيلة وبشريطها الزخرفي البسيط الدقيق النحت المؤلف من خمس من اوراق الزهور تفوق في الروعة معظم حجرات الحصون الكبيرة . على انه لابد في قلاع وقصور الاغنياء بالمدن ما يضارعها وتنتمي الى طراز العمارة الغوطية بشمال فرنسا في القرن الثالث عشر ، على حين ان ما بالقاعة الكبيرة من زخرفة منحوتة في الحجر تعتبر وثيقة الصلة بما في كنيسة القديس نقولا المعاصرة بريمس من اعمال البناء » (١) .

اما الكنائس فقد اتبع التقليد القديم في بنائها في الشرق العربي . ولم يستعمل المهندسون عروق الخشب لندرة وجوده . وما توفر منه كان يستخدم في صناعة السفن . ولهذا استخدموا الحجارة في بناء السقوف التي كانت عادة مسطحة لاستعمالها شرفات لاستنشاق نسيم الاصيل . ثم جرى تحول جديد وذلك باستخدام العقود التي تسند السقف فالعقد المدبب يتصف بالقدرة على تحمل الضغوط الثقيلة . وكان طراز بناء الكنائس في سورية هو الطراز البيزنطي العربي الذي اكتمل تطوره في عصر الخلفاء الامويين وتأثر بفن العمارة العباسي وبفن العمارة الفاطمي . وكان معظم المهندسين والبنائين من الارمن الذين اشتهروا ببراعتهم الفنية .

وقد اتسمت كنائس القرن الثاني عشر بالثقل والكثافة بالقياس الى الابنية المعاصرة في اوربا ويرجع ذلك تجنباً لاستخدام الخشب خشية من وقوع الزلازل. وبالرغم من ان الصليبيين صحبوا معهم مهندسيهم الذين تشبعوا بالاشكال المعروفة في فرنسا ولا سيما في بروفانس وتولوز فقد استعانوا بخبرة البنائين المحليين وتعلموا استعمال العقود المدببة في الشرق العربي. وقد غلبت البساطة على زخرفة القرن الثاني

(١) رنسيمان ، ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية الجزء الثالث ص ٦٣٤

عشر فأستخدمت الاعمدة المأخوذة من المباني القديمة . غير ان تيجان الاعمدة كانت مختلفة . فبعضها كان قديماً وبعضها جاء مماثلاً للنمط البيزنطي العربي اي باستعمال التيجان التي تشابكت فيها الاضلاع . وشيدها بناؤون وطنيون بمراعاة التصميمات الوطنية. وكان لبعض الكنائس زخارف جصية على الطراز البيزنطي. واستعملت الفسيفساء بكنيسة صهيون في الغرفة التي تنــاول فيها السيد المسيح الفصح مع تلاميذه في بيعة الرقاد Dormition .

اما التصميمات التقليدية لزخارف اوراق النباتات الشوكية او اوراق الكروم فقد جرى استنباطها محلياً . ويقول ستيفن رنسيمان . ويبدو ان طراز الاشرطة المتعرجة في تيجان الاعمدة امتد من الجنوب صوب الشمال حتى في اوربا . اما تيجان الاعمدة التي على هيئة ناب الكلب فكان طرازها معروفاً في الشرق .

وقد بنيت الكنائس على انماط مختلفة . فكنيسة القديس بولص التي بنيت في طرسوس في سنة ١١٠٢ اتخذت نمط الكنائس الرومانسيكية بشمال فرنسا . غير ان عقودها كانت مدببة على النمط الشرقي . وكانت هذه الكنيسة على شكل مستطيل بها جناحان. ثم البناء الرئيسي للكنيسة الذي اصطفت به الاعمدة والساريات على التبادل . وتيجان الاعمدة كتل حجرية ساذجة هذبت زواياها على شكل مثلثات . اما الكنائس التي تزيد عليها ضخامة فقد كانت مستطيلة الشكل ايضاً وذات اجنحة جانبية على امتداد طول البناء ويفصلها عن صحن الكنيسة اعمدة اوساريات حجرية. وبالكنيسة عادة ثلاثة محاريب تختلف عن خارجها في كثافة الجدار .

وخلاصة القول ان فن البناء العربي وفن البناء اليوناني قد اثرا في فن البناء الغربي . فبالاضافة الى استعمال العقود المدببة والطرق المبتكرة في التزيين والتجميل فقد ابتكر العرب فن بناء القلعة ذات الابنية المشتركة في مركز واحد Concentric التي شاع استعمالها في انجلترا في عهد الملك ادوارد الاول . وهذا النمط من البناء مأخوذ عن التعديلات التي ادخلها العرب على القلاع البيزنطية التي اقامها الرومان في بلاد الشام. وتعلم الاوربيون من العرب في عصر الحروب الصليبية فن بناء القوس التي تشبه نعل الفرس والقوس نصف الدائرية التي كانت تتألف من اقواس صغيرة. فأبتكروا ما يسمى بالزهرة المعمارية الثلاثية الاقواس trefoil والزهرة المعمارية الخماسية الاقواس cinquefoil ، وهما يعودان الى اصل الفن الغوطي العربي في طوره الهندسي.

وتميز البناء في العصر الصليبي بالمتانة ، غير ان القلاع والحصون والكنائس لم تبق في صورتها الاصلية . ولم تسلم من التغيير والتفتت بأستثناء اقدس المقدسات التي حافظ المسلمون عليها بوازع من دينهم . فالكنائس التي ما زالت قائمة لم يطرأ عليها من التعديل الا ما يجعلها تصلح لان تكون مساجد بينما هوت كنائس اخرى كثيرة لما اصابها من دمار نتيجة للحروب . اما قلاع الصليبيين واستحكاماتهم فقد اصابها خراب كبير ، الامر الذي ارغم المسلمين على اعادة بناء الكثير منها او ترميمها للافادة منها، لا سيما الاسوار الخارجية والابواب . وما سلم منها من تدمير الانسان لم يسلم من تدمير الزلازال والعوارض الطبيعية . واهم ما اهتم به الصليبيون بناء القلاع والحصون والكنائس التي بنيت على طراز الفن اليوناني العربي .

اما ما يختص بالنحت فأن ما ادخله الصليبيون الى الغرب كان فناً بيزنطياً وليس عربياً، وترجع كثرة استعمال القباب الصغيرة والكبيرة والاقبية الى اصل بيزنطي . وكان استعمال الفسيفساء للزينة ثمرة من ثمار البيزنطيين. ونشاهد امثلة من ذلك الفن العجيب في ما نشاهده في كنيسة القديسة صوفيا في تركيا وفي غيرها من كنائس الشرق وخاصة في كنيسة مادبا وفي غيرها من الكنائس والمعالم الاثرية الاخرى المنتشرة في مدينة مادبا التي تسمى مدينة الفسيفساء . وقد قال عنها خبير الفسيفساء في اليونسكو دكتور برونر « ان الفسيفساء الموجودة في مادبا وخاصة في المخيّط هي اجمل الفسيفساء في العالم .

٢ — الفنـــون الحربيـــة :

أصبح العالم في نهاية الحروب الصليبية أكثر صلاحية للحرب وفي بعض الحالات اشد فروسية مما كان عليه في بدايتها . وبقدر ما اسرعت الحروب الصليبية في انتشار الروح العسكرية ونمو الغيرة الدينية فقد اثرت تأثيراً كبيراً في تصرفات الناس فيما يختص بحمل شعار الاسر وشعار انسابها التي من خلالها عرف الفرسان عائلاتهم وسلالاتهم والتي دونوا اسماءها على اسلحة اسرهم . وفي هذا العصر استعملت الكنى والالقاب . واضاف كل سيد الى اسمه اسم عقاره او لقب الشرف الذي تمتع به . وحفرت على سلاح الاسرة اشارة خاصة لتميز عائلة الفارس ورتبة الشرف التي يحملها . وقد اصبح فن انساب الاسر geneology علماً قوامه التعريف بالعائلات الشهيرة . وقد استعمل العرب هذا الفن ولا تزال تستعمله اسر عربية كثيرة .

اما فائدة هذا الفن فأن اقل ما فيه انه يلقي ضوءاً على تاريخ البلاد وتاريخ القبائل التي تنتمي اليها الاسر .

وعن العرب اخذ الصليبيون ايضاً شعار النسر ذي الرأسين المحفور على النقود ، وشعار المفتاحين وشعار زهرة الزنبق fleur-de-lis . وهو شعار ملوك فرنسا الذي يعد اجمل ما في فن الزينة . واغلب الظن ان النسر كان شعار صلاح الدين . اما شعار المماليك فكان يتألف من اسماء حيوانات نقشت صورها على دروعهم . واستعمل معظم حكام المماليك في مصر اشارات خاصة لتمييز الانساب. واستطاعوا التمييز بين كتيبة من الجنود واخرى برسوم نقشت على دروعهم واسلحتهم واعلامهم. واستعمل السلاطين شعارات خاصة بهم كالاسد والبازي . فالاسد كان شعار ابن طولون والاسد كان شعار برقوق (١) .

اما علم الانساب فقد ابتدأ في اوربا بأبتداء الحروب الصليبية وذلك باستعمال شعار الاسر بأشكالها الساذجة . وفي الوقت الحاضر يستعمل المسلمون الشمس والاسد او النجم والهلال. وهي بقايا علم الانساب في القرون الوسطى . ويرجح ان الشعار وبعض المصطلحات المستعملة في فن الانساب قد استعيرت من الشرق مثل كلمة Azure المأخوذة عن لفظة ازرق العربيـــة وكلمة Gules اي الحلق وربما اخذت من لون فم الاسد المفتوح كما هي مستعملة في شعار الاسر .

وبسبب الحروب الصليبية نشأ كثير من الاساليب الحربية . فالادوات الحربية مثل الطبول والابواق والدروع المشبكة لوقاية الجنود العاديين والنقوش المثبتة تثبيتاً عرضياً على قطعة من الخشب Crossbow والدروع المزردة التي كان يلبسها الفرسان وتغطى بها صدور الخيل والوسائد القطنية التي كانت توضع تحت السلاح ونصب الخيام ، كل هذه الاستعمالات الحربية تعلمها الصليبيون من المسلمين في سهول سورية . وقد ساعدت الحروب الصليبية على تقدم فنون الحصار بما في ذلك فن الهدم وبث الالغام في حفر تحت الارض واستعمال المنجنيق والمواد القابلة للاحتراق والانفجار .

اما البا رود فالمرجح انه اخترع في سورية بدليل أن سور مكة قد هدم في سنة ٦٩٠ باستعمال نوع من القنابل. وفي القرن الثالث عشر استعمل في مصر مسحوق من ازوتات

1. Hitti, Philip, History of the Arabs, P. 664

البوتاسيوم Salt Petre في قذف مقذوفات الى مسافات كبيرة مخرجة صوتاً يشبه الرعد وينسب بعض المؤرخين هذا الاختراع الى الصينيين وهو ادعاء غير صحيح . ويقول غوستاف لوبون حول اختراع البارود ما يلي :

« استعملت امم آسية انواع المركّبات المحرقة في حروبها منذ القرون القديمة. ولكن اوربا لم تعرف هذه المركّبات الا في القرن السابع من الميلاد ، ويظن ان الذي نقلها من آسية هو مهندس معماري سوري اسمه كالينيك . واستفاد البيزنطيون استفادة عظيمة من هذه المركّبات في دحر العرب حينما وضعوا نطاقاً امام القسطنطينية . وامر القيصر قسطنطين بورفيرو جنيت بعدّها من اسرار الدولة . ولم تلبث ان كشفت مباحث رينو وفافية عن القطع بأن هذه المركبات قد وصفت في كثير من المخطوطات القديمة مؤلفة من الكبريت وبعض المواد الملتهبة كبعض الواتنجات والادهان » ويقول ايضاً :

« وسرعان ما عرف العرب تركيب النار اليونانية ،وبلغت هذه النار من الانتشار عندهم ما صارت معهم عامل الهجوم المهم كما قال ذالك المؤلفان. وتفنّن العرب في استخدامها والقذف بها بشتى الطرق ، وليس بمجهول خبر الرعب الذي القته في قلوب الصليبيين فورد ذكره في احاديثهم. ومن ذلك ان اعلن جونافيل انها افظع شيء رآه في حياته وانها ضرب من التنانين الطائرة في الهواء ،ولما اصبح جونافيل في جوار الملك سان لويس السابع ركع ورفع يديه الى السماء وقال باكياً « اي ربنا يسوع احفظنا واحفظ قومنا » .

ويقول ايضاً :

« وعزي اختراع البارود الى روجر بيكن زمناً طويلاً مع ان روجر بيكن لم يفعل غير ما فعله البرت الكبير من اقتباس المركبات القديمة ، ولا سيما ما وصفه منها مركوس غراكوس في مخطوط كتب في سنة ١٢٣٠ بعنوان « كتاب النار لاحراق الاعداء » . والحق ان كثيراً من هذه المركبات يشابه تركيب البارود ،ولكنه كان يستعمل في الاسهم النارية فقط وهو مقتبس من العرب لا ريب ، كجميع المركبات الكيماوية في القرون الوسطى ، والعرب هؤلاء قد عرفوا الاسلحة النارية قبل النصارى بزمن طويل كما سيأتي بيانه » .

ويقول جوستاف لوبون ايضاً حول الموضوع :

« واثبتت مباحث مسيو رينو ومسيو قافيه، وقد سبقهما اليها الغزيري واندره وفيارد انّ العرب هم الذين اختّرعوا بارود المدافع السهل الانفجار الـــدافع للقذائف ، وبيان ذلك ان ذينك المؤلفين رأيا في بدء الامر كما رأى غيرهما ان امر هذا الاختراع يعود الى الصينيين ، وانهما رجعا في مذكرة ثانية نشراها في سنة ١٨٥٠ ، وذلك بعدما اطلعا على ما جاء في بعض المخطوطات التي عثر عليها حديثاً عن رأيهما معلنين ان العرب هم اصحاب الاختّراع العظيم الذي قلب نظام الحرب رأساً على عقب. ومما قاله ذانك المؤلفان ان الصينيين هم الذين اكتشفوا ملح البارود واستعملوه في النار الصناعية وان العرب هم الذين استخرجوا قوة البارود الدافعة. اي ان العرب هم الذين اختّرعوا الاسلحة النارية » (١) .

لقد تعلم الصليبيون من المسلمين انواعاً كثيرة من الحرائق على شكل مقذوفات تشبه قنابل اليد . وترجع عادة حمل اسلحة الاسر في اوربا واقامة المباريات واستعمال الحريد الى اصل شرقي نتج عن اختلاط الفرنج بالعرب . وفي سورية استعمل الفرنجة الدف والطنبور Tabor . كما استعملوا الطبل في فرقهم الموسيقية التي تشتمل في ذلك على نوعين من الابواق Trumpets . وتعلم الفرنجة من العرب طريقة تدريب الحمام الزاجل لنقل الرسائل العسكرية كما تعلموا طريقة الاحتفال بالنصر باستعمال الانوار للزينة واقامة المهرجانات لمشاهدة العاب الفرسان وتعليق السجاد والابسطة على الجدران من النوافذ . وفي فلسطين تعلم الصليبيون استعمال الكفية العربية لوقاية الرأس والرقبة من حر الصيف وقر الشتاء .

وفي فلسطين تعلم الصليبيون طرقاً جديدة لبناء التحصينات وهدمها . فالفن الهندسي الحربي في سورية كان له اثر بارز في الفن الهندسي الحربي اللاتيني . فتحصينات انطاكية المتقنة كانت تعتبر شيئاً غريباً وجديداً عند الفرنجة . وفي سهول سورية تقدم فن الفروسية بسبب شجاعة المسلمين التي لم تجار والتي كانت موضع اعجاب المسيحيين. وعندما كانت تدور رحى القتال بالسلاح الابيض وباستعمال الرمح او السيف . وفي الغالب بنزال فردي . كان الفارس المسيحي يمتدح خصمه الفارس العربي لشجاعته ومهارته النادرة اللتين اعجب بهما ايما اعجاب حتى انه في كثير من الاحيان كان يبدي رغبته في التعارف على خصمه بعد انتهاء النزال .

(١) لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ص ٤٧٨-٤٧٩ .

الفصل الحادي عشر

عصر الترجمة

لقد مرت البشرية في ادوار حضارية مختلفة منذ فجر التاريخ ، اعتمد كل منها على الآخر وكانت اليد الطولى في نشأة حضارة الانسان لعدة شعوب ظهرت في شرق البحر المتوسط وجنوبه. فالحضارة البابلية والحضارة المصرية بدأتا الخطوات الاولى في سلم الحضارة وتميزتا بالابتكار عبر تاريخهما الطويل ، غير ان ما وصلتا اليه لم يكن الا بداية تلاها مزيد من القوة الابتكارية في الحضارة . وقد ظهرت تلك القوة الابتكارية في عبقرية اليونان ، غير انه بعد بلوغ القمة لابد من الانحدار وهذا شيء ملاحظ في تاريخ الحضارات . فالصعود الحضاري لاية دولة لابد ان يعقبه دائماً هبوط حضاري . وهكذا انحدرت حضارة اليونان وكادت تطمس لولا بزوغ فجر الحضارة العربية الخلاّقة بقوة دافعة وحماسة منقطعة النظير ،حاملة مشعلاً حضارياً اسطع نوراً واقوى انارة من مشعل الحضارة اليونانية. فدنيا اليونان الحضارية تضاءلت امام دنيا العرب الحضارية بسبب ما اتصف به العرب من قدرة على الاختلاط بالشعوب التي احتكوا بها اودانت لسلطانهم، بخلاف اليونان الذين ظلوا متمركزين حول انفسهم . اذ بعد بزوغ فجر الاسلام وانتشاره في آسية وافريقية تكونت من مجموع الشعوب الهائلة التي اعتنقت الاسلام امة اسلامية جديدة متميزة نسجت بنسيج واحد فكونت حضارة عالمية تفوق جميع الحضارات التي سبقتها في تاريخ الامم . فالعرب الذين خرجوا من صحرائهم الواسعة يحملون رسالة سماوية استطاعوا ان يستوعبوا جميع الحضارات الماضية . وكانت لديهم القدرة على التجديد والابداع والتطوير .

وعندما فتح العرب الهلال الخصيب كان أثمن ما وجدوه التراث اليوناني الفكري فنقلوا هذا التراث وغيره من الوان التراث العلمي الذي تقدم عليهم في التاريخ الى اللغة العربية التي كانت لغة العلم في ذلك العصر . فعلى امتداد الامبراطورية العربية الاسلامية من مشارف الصين شرقاً الى حدود فرنسا وجنوب ايطاليا غرباً كان كل من اراد ان يكتب علماً يقرؤه الناس لجأ الى اللغة العربية فكتب فيها وألّف. وكانت الثقافة الاغريقية (الهلينية) اكثر الثقافات الاجنبية تأثيراً في الحياة العربية . ويقول الدكتور فيليب حتي :

« فالرها (ادسا) وهي اهم مقر للسريان النصارى وحران مدينة السريان الوثنيين الذين اصبحوا في القرن التاسع وما بعده يسمون انفسهم بالصابئة او الصابئيين ، وانطاكية احدى مستعمرات اليونان القدماء الكبيرة والاسكندرية ملتقى الفلسفة الشرقية والغربية وما لا يحصى من اديرة في سورية وما بين النهرين حيث كانت تقوم الدراسات العلمية والفلسفية علاوة على الدراسات الكنسية المذهبية، كل هذه كانت منائر تشع منها أنوار الثقافة اليونانية (الهلينية) . وقد كان من ثمار الغارات المتوالية على بلاد الروم وخاصة في ايام هارون الرشيد ان غنم الغزاة طائفة من المخطوطات اليونانية كان معظمها في عمورية وانقره . ويعزى الى المأمون انه اوفد الرسل الى الامبراطور ليو الارمني في طلب الكتب اليونانية . وذكر ان المنصور قبله بعث الى ملك الروم في طلب كتب العلم فكان من جملة ما بعث اليه كتاب اقليدس . ولكن العرب لم يعرفوا اليونانية فأعتمدوا في اول امرهم على ترجمات اخرجها لهم اليهود والوثنيون والنصارى ، وخاصة النساطرة من النصارى ، وكانت طريقة هؤلاء ان ينقلوا الكتاب اليـوناني الى لغتهم السريانية . ثم يترجموه بعدئذ من السريانيـة الى العربية . وهكذا اصبحوا اعظم حلقة للاتصال بين الثقافة الهلينية وبين الاسلام. ومن هنا كان السريان اقدم شعب شرقي موّن العالم قاطبة بالثقافة الاغريقية . فالثقافة الهلينية لم تصل الى العقل العربي الا عن طريق اللغة السريانية » (١) .

ونتيجة للتسامح العربي الامثل والخلق العربي النبيل الذي سمح للعرب بالاندماج مع الشعوب التي غزوها صهرت الثقافات المختلفة بثقافة واحدة وعملت جميـع الطوائف في الدولة العربية الكبرى جنباً الى جنب في رعاية كاملة من الخلفاء والامراء ورجال الدولة وفي امن واستقرار ورخاء فأدت كل طائفة دورها الكامل في ازدهار الحضارة العربية التي اصبحت في مقدمة الحضارات العالمية في تاريخ الانسان .

وكانت سياسة الدولة التي عززت الوحدة بين شعوبها تهدف الى نشر العدل والامن ومساواة جميع الرعايا في المعاملة بغض النظر عن معتقداتهم الدينية والوانهم واجناسهم فجميعهم سواسية امام القانون وجميعهم مواطنون لهم من الحقوق ما لغيرهم دون تفريق او تمييز .

---

(١) حتي ، فيليب ، تاريخ العرب المطول الجزء الثاني ص ٣٨٤

لقد بدأ شعاع النهضة العربية يسطع في مجال العلوم في العصر الاموي . ولم يكن الا المؤشر الاول لتلك النهضة. اذ ما فتىء ذلك الشعاع يزداد نوراً حتى بلغ اوج اشعاعه في العصر العباسي ، حيث ورث العرب من الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية عدداً من المدارس بالاضافة الى مدرسة الاسكندرية. فمدرسة جند يسابور التي اسسها كسرى انوشروان في القرن السادس نالت شهرة فائقة خاصة في علوم الطب . ومدرسة نصيبين اسسها النساطرة بدعم من الامبراطور الفارسي فيروز الذي رأى في النساطرة حلفاء موالين له . واسس السريان الوثنيون مدرسة حرّان الوثنية وكانت حران مركزاً للتأثير الاغريقي منذ عصر الاسكندر المكدوني . وقد بلغ التأثير اليوناني القمة في عصر المأمون ،وذلك بسبب نزعة المأمون العقلية التي تميل الى المعتزلة القائلة بوجوب التوفيق بين النصوص الدينية واحكام العقل . وقد عكف المأمون على البحث عما يبرر موقفه ويؤيد آراءه في الفلسفة اليونانية. فأنشأ بيت الحكمة في بغداد في سنة ٨٣٠ التي كانت عبارة عن مكتبة كبيرة ودار علم ومركزاً للترجمة . واصبح بيت الحكمة اهم واعظم معهد ثقافي نشأ بعد المتحف الاسكندري الذي اسس في القرن الثالث قبل الميلاد .

وقد بدأ العرب في بيت الحكمة ينقلون العلوم القديمة الى العربية مستعينين بالنساطرة والسريان في اعمال الترجمة من اليونانية الى السريانية ومن السريانية الى العربية او من الفارسية او الهندية او اليونانية الى العربية مباشرة . وقد اضفى الخلفاء على المترجمين اعظم انواع التشريف والدعم ، الامر الذي شجع المترجمين على نقل مختلف انواع العلوم والمعارف التي كانت للامم التي سبقتهم. فاستفاد العرب منها اكبر استفادة حتى نبغوا بل تفوقوا على غيرهم بعد ان اضافوا الى تلك العلوم مبتكرات جديدة .

وكان التشجيع الذي حظي به العلماء العرب والمترجمون من الرشيد وابنه المأمون من اهم اسباب انتعاش حركة الترجمة ، حيث قامت مدرسة بيت الحكمة بأكبر مجهود في ترجمة العلوم والمعارف والفلسفة . ولم يمض وقت طويل حتى اصبحت جميع معارف الفرس والهنود واليونان في متناول العرب. وكان المأمون قد جعل يحي (يوحنا) بن ماسويه الذي كان طبيباً سرياناً مسيحياً على رأس بيت الحكمة . وابن ماسويه كان قد اشتغل بالترجمة زمن هارون الرشيد وعمل طبيباً للمأمون وقد درس على

يد جبريل بن بختيشوع. ثم اصبح معلماً لحنين بن اسحق. وقلده الرشيد امر الكتب القديمة التي وجدت بأنقرة وعمورية واكثرها في الطب وجعله الامين اميناً على الترجمة.

وبفضل المترجمين امثال ابن ماسويه وحنين بن اسحق وابنه اسحق وثابت بن قرة والحجاج بن يوسف بن مطر وغيرهم اصبح تحت يد العرب مختلف علوم الفرس والهند واليونان ومعارفهم. وما كاد يمضي على ذلك قرنان حتى كان العرب قد استوعبوا تلك العلوم والمعارف استيعاباً كاملاً فعمدوا الى ابتكار معارف جديدة لم يسبقهم اليها غيرهم بعد ان قاموا بتصحيح الكثير من المعارف السابقة ويقول الاستاذ لكلير في تاريخ الطب العربي نقلاً عن جلال مظهر في كتابه اثر العرب في النهضة الاوربية ص ١٥١ « والحق ان فترة نشوء الحضارة العربية قد تميزت بالاصالة العميقة التي صحبت بدايتها. فالشعوب المختلفة التي تناوبت على مسرح العلم، كانت تتبع على وجه التقريب قانوناً واحداً في تنشئة العلوم وتطويرها. ولكن اختلف ذلك عند العرب، اذ كانت طريقة اكتسابهم للعلوم واستيعابهم لها مثلاً فريداً في التاريخ ».

وكان شيخ التراجمة المجلّي في عصره في علم الطب حنين بن اسحق المع المترجمين واكثرهم شهرة. وهو من نساطرة العرب. وكان ابوه صيدلانياً من قبيلة العباديين التي كانت تسكن الحيرة عاصمة اللخميين والمركز التجاري الكبير على نهر الفرات، وملتقى طرق التجارة. وقد ولد في سنة ٨٠٩م وهي السنة التي توفي فيها هارون الرشيد. وقد احب العلم وتتلمذ على يد الطبيب العربي المسيحي يحيى بن ماسويه الذي عمل رئيساً للمترجمين في عصر هارون الرشيد وعصر ابنه المأمون. وقد اراد حنين ان يتعلم الطب فكان يصغي بشغف كبير الى استاذه العالم ماسويه.

ولكن حنينـــا كان يكـــثر من الاسئلة فيقطع على استاذه حبل تفكيره. وذات يوم ثار ماسويه لمقاطعة حنين المتوالية له بأسئلته الكثيرة فصاح به وقال له « اغرب عن وجهي من حيث جئت، انك تستطيع ان تكون صرّافاً للنقود كبقية قومك في الحيرة. اترك مهنة الطب فهي ليست مهنة لعبّادي ». فغضب حنين لهذه الاهانة وترك المنزل باكياً وصمم على مواصلة تعلم الطب ليفوق ماسويه بهذه المهنة. وسافر الى بلاد الروم وتعلم اللغة اليونانية في آسيا الصغرى وساعده في تحقيق هذه الرغبة ابناء موسى بن شاكر الثلاثة طلباً للعلوم القديمة وحباً في الحصول على المخطوطات

اليونانية . ثم دخل حنين في خدمة بختيشوع طبيب المأمون وأخذ يتقدم في علم الطب حتى فاق استاذه ماسويه وعهد اليه المأمون بالاشراف التام على بيت الحكمة وامره بترجمة امهات الكتب اليونانية الى العربية واصلاح ما ترجمه غيره من الكتب اليونانية. وساعده في الترجمة ابنه اسحق وابن اخته حبيش بن الحسن الاصم بعد ان دربهما على الترجمة. وكان حنين بن اسحق يقوم بالترجمة من اليونانية الى السريانية ثم يعهد الى ابنه اسحق وابن اخته حبيش بالترجمة من السريانية الى العربية. ويقول الدكتور فيليب حتي « مثال ذلك ان حنينا الاب نقل شرح ارسطو (هرمنوتيكا) من اليونانية الى السريانية ثم اخرج الابن النص العربي من النص السرياني. وكان فصيحاً بالعربية يزيد على ابيه في ذلك . فأصبح فيما بعد اعظم نقلة كتب ارسطو . ومن الترجمات التي تعزى الى حنين ترجمة كتب لجالينوس وابقراط وديسقوريدس فضلاً عن كتاب السياسة لافلاطون والمقولات والطبيعيات والخلقيات لارسطو. وتعد اهم اعماله ترجمته لجميع مؤلفات جالينوس الى اللغة السريانية فالعربية . وقد فقدت الاصول اليونانية لسبعة من كتب جالينوس في علم التشريح الا انها لحسن الحظ محفوظة في اللغة العربية . اما ترجمة العهد القديم العربية التي اعتمد فيها حنين الترجمة اليونانية السبعينية فقد فقدت » (١) .

كان بنو شاكر يدفعون رواتب خيالية لكبار المترجمين اذ يقال ان راتب كل من حنين بن اسحق وحبيش الاعسم وثابت بن قره خمسماية دينار في الشهر . وان المأمون كان يعطي حنيناً من الذهب زنة ما ينقله من الكتب . وقد بلغ حنين قمة المجد في الترجمة والطب ايضاً . ويقال ان الخليفة المتوكل حبس حنينا سنة كاملة لامتناعه عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدوا وعندما هدده الخليفة بالقتل اجابه « انني لم احسن الا الشيء النافع ولم اتعلم غيره »(٢) وعندئذ افرج عنه الخليفة وقال له « لقد اردنا امتحانك ونريد ان نعرف ما الذي منعك مع ما رأيته من عزمنا ، فأجابه « هما الدين والصناعة » اما الدين فيأمرنا بصنع الجميل مع اعدائنا فما ظنك بالاصدقاء . واما الصناعة فهي موضوعة لنفع الجنس البشري ومقصورة على معالجتهم. وقد جعل الله في رقاب الاطباء عهداً مؤكداً بايمان مغلظة ان لا يعطوا دواءاً قتالاً لاحد »(٣) . وقال عنه لكلير نقلاً عن فيليب حتي :

---

(١) حتي ، فيليب ، تاريخ العرب المطول الجزء الثاني ص ٣٨٧
(٢) « « « « « « « ص ٣٨٨
(٣) « « « « « « « ص ٣٨٨

وكان اعظم شخصيات القرن التاسع .... وكانت له عقلية من افضل العقليات وخلق من احسن الاخلاق التي نعرفها في التاريخ (١) .

اما ثابت بن قرة (٨٣٦–٩٠١) فكان من اكابر المترجمين ورئيس جماعة الصابئة الوثنيين ومركزهم مدينة حران. وكان هؤلاء الوثنيون يعبدون النجوم. ولهذا اهتموا بدراسة العلوم الفلكية والرياضية. وكانت مدينة حران مركزاً للطب والفلسفة بعد الاسكندرية . والى المترجمين الصابئة من السريان الوثنيين يعود الفضل في نقل قسم كبير من كتب اليونان في الرياضيات والفلك منها مؤلفات ارخميدس وابلوينوس. وقام ثابت بتنقيح ترجمة كتاب اقليدس في الرياضيات التي اعدها حنين بن اسحق . وقد اولاه الخليفة المعتضد كل رعاية وقرّبه من مجلسه وتولى الترجمة بعد ثابت ابنه سنان وحفيداه ثابت وابراهيم وابن حفيده المعروف باسم ابي الفرج. واشتهر البتاني من بعد ثابت في علم الفلك اكثر مما اشتهر في الترجمة .

واما الحجاج بن يوسف بن مطر فكان في مقدمة المترجمين للعلوم الرياضية والفلكية . فقد قام بالترجمة الاولى لاصول الهندسة لاقليدس وكتاب الماجستي لبطليموس الاسكندري معتمداً فيه على النص السرياني .

وتقول سيجرد هونكه :

« لقد نشطت حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي نشاطاً مذهلاً فتدفق عدد كبير من المترجمين والنقلة الى العاصمة بغداد ينقلون العلوم والفلسفة عن اللغات اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها من اللغات الى اللغة العربية بغية اغناء هذه الدولة الجديدة فكرياً بايعاز من الخلفاء انفسهم وبتحريض منهم » .

ومن المترجمين من اللغة الفارسية القديمة التي كانت مستعملة في عهد السامانيين الى اللغة العربية عبدالله بن المقفع الذي ترجم كتباً في الادب والمنطق والطب وزكريا ابن يحي بن ماسويه من مدرسة جند يسابور وعلي الطبري من فلكي مسيحيي فارس الذي لمع نجمه في الطب في اواسط القرن التاسع . وكان اول من ترجم كتاب الماجستي لبطليموس .

---

(١) حتي ، فيليب ، تاريخ العرب المطول الجزء الثاني ص ٣٨٨

والعرب فضلاً عن قيامهم بترجمة اهم كتب اليونان والفرس والهنود فقد اسهموا في تطوير علوم الاقدمين ومعارفهم وتجديدها واعطائهاالصورة التي انتقلت بها الى اوربا . ولم يكونوا مجرد نقلة للحضارة اليونانية او الحضارات الشرقية الاخرى بل كان لهم دور ايجابي فعّال في اغناء الحضارة العالمية بحضارة جديدة هي خلاصة الحضارات القديمة المطعمة بابتكارات جديدة .

ويقول في ذلك شارتون نقلاً عن جلال مظهر :

« حقق المسلمون عباقرة الشرق اعظم المآثر في القرون الوسطى . فكتبوا اعظم المؤلفات قيمة واكثرها أصالة واغزرها مادة باللغة العربية . وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري ، حتى كان ينبغي لأي كان اذا اراد ان يلمّ بثقافة عصره وبأحدث صورها ان يتعلم اللغة العربية . ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها (١) .

ويقول نيكلسون نقلاً عن جلال مظهر ايضاً :

« ان اعمال العرب العلمية اتصفت بالدقة وسعة الافق ، وقد استمد منها العالم الحديث — بكل ما تحمل هذه العبارة من معان — مقوماته بصورة اكثر فاعلية مما نفترض » (٢) .

ويقول سيديو نقلاً عن جلال مظهر :

« تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من اكـــبر المعارف الثقافية في التاريخ وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر . وجميع ذلك تأثرت به اوربا بحيث يؤكد القول ان العرب كانوا اساتذتها في جميع فروع المعرفة . لقد حاولنا ان نقلل من شأن العرب ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الارجاء وليس من مفر امامنا الا ان نرد لهم ما يستحقون من عدل ان عاجلاً او آجلا » (٣) .

---

(١) مظهر جلال أثر العرب في الحضارة الاوربية ص ١٧٠
(٢) « « « « « « « «
(٣) « « « « « « « «

ويقول جوستاف لوبون نقلاً عن جلال مظهر :

« كان تأثير العرب في الغرب عظيماً للغاية فاوربا مدينة للعرب بحضارتها ، ونحن لا نستطيع ان ندرك تأثير العرب في الغرب الا اذا تصورنا حالة اوربا عندما ادخل العرب الحضارة اليها » (١) .

لقد انتقلت الحضارة العربية الى اوربا عبر اسبانيا وصقلية كما انتقلت ايضاً عن طريق الحروب الصليبية وعن طريق العلماء الهاربين من القسطنطينية بعد سقوطها بيد محمد الفاتح العثماني في سنة ١٤٥٣ . وكان اول اتصال للعرب باوربا قد تم في اوائل القرن الثامن للميلاد وذلك بعد غزو طارق بن زياد للاندلس وسقوطها بيد العرب في سنة ٧١١م . وكان الاتصال الثاني قد تم بعد سقوط صقلية بيد العرب في القرن التاسع للميلاد. ولو لم يصل الى اوربا ما بقي من مؤلفات اليونان لضاع تراثهم العلمي والفلسفي على جلالة قدره . والترجمة كانت خير وسيلة لربط الثقافات اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية والسريانية والعبرية التي انتقلت الى العرب فأنصهرت بالثقافة العربية مع ما صاحبها من علوم العرب وابتكاراتهم واضافاتهم وتصحيحاتهم لكثير من اخطاء العلماء الذين سبقوهم . وقد شغل العرب بالترجمة ثلاثة قرون اي من القرن الثامن الى القرن العاشر للميلاد . فربطوا جند يسابور وحران والرها ببغداد كما ربطوا بها اثينا والاسكندرية . وشغل المترجمون في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر بالترجمة من العربية والعبرية الى اللاتينية والى اللغات الاوربية الحية . فربط المترجمون بغداد بقرطبة وبباريس واكسفورد . ولا شك في ان الثقافة العربية هي التي دفعت الغرب الى الترجمة والى نقل علوم العرب الى اللغات الاوربية ، ذلك لان نظرة اوربا الجديدة الى الحضارة العربية وتطلعها الى تقليد العرب للوصول الى امجاد تضاهي الامجاد التي رفعت العرب الى القمة هي التي دفعت الدول اللاتينية الى الاهتمام بالترجمة والى تلك اليقظة العظيمة التي نتجت عنها حركة من اهم حركات تاريخ الحضارة . وهي حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية .

واشتهر في الترجمة من العربية الى اللاتينية العالم اديلارد الباثي Adelard of Bath الذي تعلم العربية في طليطلة ومنها انتقل الى سالرنو في صقلية فأستقر فيها وعكف على ترجمة النسخة العربية في الهندسة لاقليدس كما الف مختصراً للعلوم العربية . وسالرنو

---

(١) مظهرجلال ، أثر العرب في الحضارة الاوربية ص١٧٠

كانت الميناء الذي استخدمه الصليبيون في رحيلهم للاراضي المقدسة وغزوهم لها وفي عودتهم منها كما كانت المركز الطبي لهم بل مستشفاهم الكبير . وقد نشر الصليبيون العائدون الى بلدانهم من سالرنو التعاليم والنصائح الطبية التي اقتبسوها من العرب في سائر انحاء اوربا .

وفي صقلية ظهر ملكان عظيمان كان لهما الفضل الكبير في تشجيع العلوم العربية ودعمها والعمل على اقتباسها ونشرها في سائر انحاء اوربا وهما الملك روجر الثاني ملك صقلية (١٠٤٣—١١٥٤) والامبراطور فردريك الثاني (١١٩٤—١٢٥٠) وريث العرش الصقلي وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فيما بعد .

ففي عهد روجر الثاني ازدهرت الثقافة العربية ازدهاراً كبيراً بفضل تشجيعه للعلماء والادباء والشعراء ودعمه لهم . وقد عاش في بلاطه الشريف الادريسي اكبر علماء الجغرافيا العرب . واشهر علماء الجغرافيا في القرون الوسطى قاطبة . وروجر الثاني هو اول من وضع قانوناً حرم فيه مزاولة مهنة الطب على اي طبيب لم يجتز الامتحان الطبي امام طبيبه الخاص سنان بن ثابت بن قره .

اما فردريك الثاني امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ووريث العرش الصقلي فقد تأثر بالحضارة العربية تأثراً كبيراً ذلك لان نشأته الاولى في صقلية وتربيته فيها ، حيث كانت الثقافة العربية منتشرة في الجزيرة ، قد طبعت تفكيره بالطابع الشرقي . وفي ذلك يقول دي ليسي اوليري نقلاً عن جلال مظهر » :

« ان اتصاله بالعرب سواءً في صقلية ام في اثناء حملته الصليبية في الشرق (ولو انه لم يعش في الشرق كثيراً) قد اثمر حتى لقد تعلق بالشرقيين تعلقاً كبيراً فلبس الاردية الشرقية واخذ كثيراً من عادات العرب واخلاقهم . ولقد اتخذ للغرابة زوجات عشن محجوبات في حريم على الطريقة الشرقية. وكذلك فعل عدد من وزرائه المقربين. ويلوح ان افكاره الدينية كانت مثار جدل شديد حتى لقد اتهم في دينه ودخل في منازعات مع الكنيسة بسبب توانيه عن تجريد حملة صليبية ضد العرب ومناوأته للبابا على املاك الكنيسة حتى لقد حرم من الكنيسة مرتين (ولو انه استطاع ان يتحلل من هذا الحرمان عن طريق الكنيسة ايضاً » (١) .

---

(١) مظهر جلال ، أثر العرب في الحضارة الاوروبية ص ١٨٦

ويقول جلال مظهر ايضاً :

« عمل فردريك على اقالة مدرسة سالرنو من عثرتها . وانشأ جامعة نابولي وجعل منها اكاديمية لنقل العلوم العربية الى العالم الغربي . وكان شديد الاعجاب بالفلاسفة العرب الذين كان يقرأ مؤلفاتهم بالعربية ، وكان يجيدها . وشجع العلماء والادباء والشعراء من مختلف الاديان. فاستقدم الى بلاطه مسيحيين ومسلمين ويهوداً. وكان ميشيل سكوت الذي ترجم شروح ابن رشد وليوناردو البيزي (نسبة الى بيزا) الذي عرّف الغرب بالارقام العربية وبعلم الجبر العربي من بين المشاهير الذين استقبلهم في بلاطه وشجعهم . واهم من هذا ايضاً ان بلاطه كان المركز الذي نشأ منه وولّد فيه على الارجح الشعر الايطالي ، كما اشار دانتي الى ذلك . وهذا يهمنا كثيراً ، ذلك ان الشعر الايطالي الجديد الذي ظهر في هذا الوقت كان متأثراً الى حد كبير بالشعر العربي . وهنـــاك في بلاط فردريك كتب بيير ديلافيدا Pier Della Vida اول سوناته (نوع من الشعر الغزلي) كما ان فردريك نفسه الف اناشيد ايطالية لا تزال محفوظة . وبعد فردريك عرفت صقلية عصراً آخر من عصور المعرفة والتقدم تحت حكم شارل انجو Charles Anjou (١٢٢٦—١٢٨٥) وهو شقيق القديس لويس التاسع ملك فرنسا » (١) .

ان الاهمية العالمية للعلم العربي ترجع الى انه نقل كنوز المعرفة والعلم القديمة من المغرب والمشرق الى الشعوب المسيحية في غرب اوربا بعد اخضاع هذه العلوم لتنمية وانضاج هامين كثيراً او قليلاً . ويقول الدكتور عبد الحليم منتصر :

« وقد اتصلت اوربا بالعلم العربي في مناطق ثلاث في سورية حيث دارت رحى الحروب الصليبية وفي صقلية والاندلس حيث قامت للعرب دول اوربية . ففي اواخر القرن الحادي عشر بدأ الصراع بين الغرب والشرق. وحاول الغرب ان يلبس هذا الصراع مسوح الدين ليخفي من ورائها اغراضه الدنيوية واهدافه الاستعمارية .

وكانت جموع الفرنجة الغازية تنتظر ان تلتقي في البلاد العربية بأمّة همجية بعيدة عن الحضارة فهالها ان ترى امة لا تقل في حضارتها عن الدولة البيزنطية التي كانت تنظر اليها على انها المثل الاعلى للتقدم الحضاري . وفتح الغرب عينيه على هذا العالم العربي الاسلامي المتحضر المتقدم في مختلف فروع العلوم فأصبحت الحروب

---

(١) مظهر جلال ، اثر العرب في الحضارة الاوربية ص ١٨٧—١٨٨ .

الصليبية ميداناً للكسب الحضاري ، وبدأت محاولات الغرب المنتظمة للاقتباس من هذا المنهل العذب الجديد الذي وجدوا انفسهم فجأة على ضفافه . ويقول أيضاً :

« وكان العرب قد فتحوا صقلية في القرن التاسع الميلادي . فلما زال عنها النفوذ العربي بغزو النورمان بقيت الحضارة العربية ، اذ وقع الحكام الجدد في أسرها عن طيب خاطر . وهيأ وجود الثقافة الاسلامية في صقلية ورعاية ملوك النورمان للعلم واهله نوعاً من التدعيم الدولي لرقي المعرفة وأدّى وجود اللغتين العربية واللاتينية جنباً الى جنب وقيام صلات ودية بين المسلمين والمسيحيين الى ذيوع المعرفة الجغرافية وغيرها من الوان المعرفة بديار الاسلام على نطاق واسع . وكانت جهود الادريسي في بلاط الملك روجر مثالاً لهذا التعاون العلمي العالمي المثمر » . ويقول ايضاً :

« وكان هنالك مركز آخر لالتقاء الحضارتين العربية والغربية هو اسبانيا العربية التي كانت اهم مراكز هذا الالتقاء وابعدها من حيث النتائج والآثار . فلقد كان الغرب يعرف عنها اكثر مما يعرف الشرق العربي لقربها منه . وكانت تنير بحضارتها وعلومها وفنونها اهتمام الامم الاوربية . وكانت جامعاتها المزدهرة مقصد طلاب العلم من كل مكان » . ويمضي فيقول :

« وفي الوقت نفسه الذي كانت تضطرم فيه معارك الحروب الصليبية في الشرق في خلال القرن الثاني عشر كانت مدارس الترجمة الاندلسية وبخاصة مدرسة طليطلة تقوم بعملها المنظم في نقل ثمار العلوم الاسلامية الى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في سائر انحاء اوربا والتي ظلت لغة التخاطب عند الاغلبية الساحقة من اهالي اسبانية . وان كانت العربية هي لغة العلم والادارة . ومنذ ذلك الحين تبدأ مساهمة الحضارة العربية في تكوين حضارة اوربا وقد امتدت هذه المساهمة نحو ثلاثة قرون وكان لها اثرها الواضح العميق » . ثم يقول :

« ومع ان مدرسة طليطلة لم تبلغ عظمة مدرسة بغداد في نقل العلوم وترجمتها فقد كان لها دورها البارز في اذاعة العلم العربي في البيئات العلمية الاوربية ، وكانت المؤثر الاكثر قوة في المعرفة الغربية في العصر الوسيط » . ويمضي فيقول :

« وهكذا فان التيار الكبير للثقافة الانسانية الذي نشأ في مصر وبابل وأشور وفنيقية ، والذي كان يتجه نحو اليونان عاد من جديد تحت شكل موحد للحضارة

اليونانية التي تبناها العرب واضافوا اليها من المصادر الهندية التي نقلتها فارس وضخموها بجهودهم المبتكرة ثم وجهوها عبر افريقية الى اسبانية ومنها انتشر التيار العظيم من مراكز العلم العربي الى فرنسا والمانيا وايطاليا وانجلترا وسائر انحاء اوربا الغربية والجنوبية ،وكان العرب قد اضافوا الى التقدم الانساني اهم اسهام عرفه العصر الوسيط »(١)

وتقول الدكتورة سهير قلماوي :

« عني اللاتين اولاً بالعلوم فترجموا كتباً في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والنبات والحيوان والسحر والتنجيم وعرفوا كبار علماء الاسلام امثال جابر بن حيان والرازي في الكيمياء والخوارزمي (٨٤٤) وابن الهيثم في الرياضة والبصريات والبتاني (٩٢٩) والبتروجي (١٠٨٥) في الفلك وابن زهر وعلي بن رضوان في الطب عدا الفلاسفة الاطباء » ..

وترجم من كتب الكندي الفلسفية اربع رسائل صغيرة هي ١) العقل ٢) في ماهية النوم والرؤيا ٣) في الحواس الخمس ٤) في البرهان المنطقي .

يتضح من هذا كله ان العلماء العرب كانوا حلقة الاتصال بين القديم والحديث. وانهم لم يكتفوا بنقل علوم اليونان وتراثهم العقلي بل زادوا عليه واضافوا اليه من ابتكاراتهم وقد صدق سارتون بقوله : لولا اعمال العرب لاضطر علماء النهضة الاوربية ان يبدأوا من حيث بدأ هولاء ولتأخر سير المدينة عدة قرون » . والعرب لو لم تصبهم محنة المغول والتاتار والترك الذين اخضعوا العرب لسلطانهم عدة قرون ودمروا حضارتهم فجعلوا الامة العربية تغفو اغفاءة طويلة لم تكد تفيق منها الا مع كابوس الاستعمار الغربي الذي كان اشد وطأة عليها لكانت النهضة التي تفاخر بها اوربا من نصيب الامة العربية . وتقول الدكتورة سهير قلماوي .

« لقد سطع في سماء الحضارة العلمية العربية والاسلامية نفر من اكابر العلماء يقرنون الى اكابر العلماء في العصر الحاضر بل في كل عصر وآن . فقد ظلت كتبهم المراجع المعتمدة في جامعات اوربا حتى اواخر القرن السابع عشر وكان دأب هؤلاء العلماء العرب في تحصيل العلوم من طبيعية وفلكية ورياضية مضرب الامثال . وانه

(١) منتصر عبد الحليم ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٣١٤

لتشهد بذلك اعمال الرازي والكندي وابن الهيثم وابن النفيس وابن سيناء والبيروني وجابر بن حيان والخوارزمي والبتّاني والبوزجاني والصوفي والطوسي والكاشي والانطاكي والبغدادي والخازن والقزويني والغافقي وابن البيطار والدميري والجاحظ والزهراوي وابن طفيل والفارابي وابن العوام وابن يونس وابن حمزة والصوري والجلدكي والمقدسي والادريسي وغيرهم . ولقد كان كل منهم الاعلى كعباً والارسخ قدماً في علمه وفنه. وان كتب العالم منهم لتعد بالعشرات ان لم تبلغ المئات ، وانما اعانهم على هذا الانتاج العلمي الرائع الضخم ما وهبوه اول الامر من عقل راجح جبار وعبقرية فذة ناضجة الى صبر ومصابرة مع علو في الهمة وعشق للمعرفة وعزوف من النزول الى مستوى الدهماء الى زهد في الترف والسلطان واستعلاء بالعلم عن زخارف الحياة ومباهجها » (١) .

الفصل الثاني عشر

مؤثرات الشرق الثقافية في العلوم والفلسفة

١ — الرياضيات

لا يستطيع احد ان يقرر مدى المؤثرات الثقافية على الحضارة الغربية الناجمة عن مغامرة الامم المسيحية الاوربية ضد مسلمي الشرق في العلوم والفلسفة من خلال الحروب الصليبية. فقد سبق ان اوضحنا في فصول سابقة ان اليونانيين من بعض الوجوه والعرب من جل الوجوه كانوا اكثر تقدماً من الصليبيين . اذ بالرغم من عبقرية العرب وسيادتهم الفكرية والعلمية في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والكيمياء والصيدلة والطب والفلسفة فان الصليبيين لم يبرهنوا على انهم كانوا ميالين دائماً للاستفادة من كنوز العرب العقلية كما كانوا ميالين للاستفادة من السلع ووسائل الترف الشرقية . ومع ذلك فأوربا مدينة للمسلمين ديناً كبيراً بسبب كثرة ما استعارته من عناصر المعرفة التي كانت لديهم . غير ان هنالك صعوبة لابد من مواجهتها وهي اننا لا نستطيع ان نرسم خطاً فاصلاً بين التأثيرات التي نجمت عن اتصال الاوربيين بالعرب عن طريق

---

(١) سهير قلماوي ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ١٦٨ — ١٧٦

اسبانيا وصقلية وبين التأثيرات التي نجمت عن طريق اتصالهم بهم من خلال الحروب الصليبية . غير ان الشيء الذي يمكن الجزم به هو ان الحروب الصليبية اثرت في اوربا تأثيراً عظيماً وكانت معبراً من اعظم المعـــابر التي تسربت منها حضارة اليونان وفلسفتهم المطبوعة بطابع الحضارة العربية بعد اضافة ابتكارات جديدة كثيرة اليها . فحروب دامت زهاء قرنين من الزمان كان لابد ان تخللتها فترات سلم طويلة ، الامر الذي جعل اوربا على صلات ودية مع العرب فأقتبست من حضارتهم واخذت من علومهم . وفي الفصول التالية سنبين مدى تقدم العرب والمسلمين في العلوم والفلسفة ومدى ما اخذته الشعوب الاوربية من هذه العلوم والفلسفة سواءً اكان ذلك عن طريق اسبانية وصقلية ام عن طريق الحروب الصليبية ام عن كليهما معاً. يقول ايرنست باركر :

« لقد نالت الرياضيات دفعاً من العرب في اسبانيا الى حد كبير ونالت دفعاً ايضاً من الشرق من خلال الحروب الصليبية ويقول ايضاً :

« ان فوبوناشي اول عالم مسيحي في الجبر كان قد سافر الى سورية ومصر . وربما يعود الفضل في انتشار الاعداد العربية والحساب الى التجارة الحية التي كانت قائمة بين الموانىء الايطالية وسورية ويقال ان اديلارد الباثي الذي درس علم الفلك العربي وعلم الهندسة العربية قد سافر الى آسية الصغرى ومصر وسافر ايضاً الى سورية واسبانيا في النصف الاول من القرن الثاني عشر » (١) .

"Mathematics received an impulse, largely, it is true, from the Arabs of Spain, but also from the East through the crusades". Earnest Barker states also;

Fibonacci, the first Christian algebraist, has travelled in Syria and Egypt. The diffusion of Arabic numerals and arithmetic may have owed something to the lively trade between the Italian ports and Syria. Adelard of Bath, who studied the astronomy and geometry of the Arabs is said to have travelled in Asia Minor and Egypt as well as in Syria and Spain in the first half of the twelfth century". (1)

اما مدى النجاح الذي احرزه العرب في علوم الرياضيات فقد كان كبيراً ، ذلك لانهم نبغوا في مختلف فروع الرياضيات والفلك واثبتوا للعالم انهم رياضيون وفلكيون من الطراز الاول. درسوا علوم اليونان والفرس والهنود ونصّبوا انفسهم

---

(١) باركر ، ايرنست ، دائرة المعارف البريطانية المجلد السادس ص ٧٩٥

1. Barker, Earnest, Encyclopaedia Britannica, Vol. VI P. 795

مراجعين ومصححين للاخطاء التي اكتشفوها في علوم اليونان وغيرهم . واضافوا اليها ابتكارات جديدة من عندهم وزاوجوا بينها وبين الحضارات السابقة فأعطوها صورة جديدة مطبوعة بطابع حضارتهم الخاص من خلال انجازاتهم الكثيرة القيّمة . ولعل اول ما ينبغي ان يذكر للعرب في مجال العلوم الرياضية والفلكية هو استعمالهم لنظام الترقيم بدلاً من حساب الجمل الذي كان سائداً في العصور القديمة . فقد اخذوا مبادىء الرياضيات من اقليدس والنظام العشري من الهنود في القرن التاسع . وتعلموا الصفر الذي كانت له الاهمية الكبرى فأدى ذلك الى ابتكار ما يسمى بحساب المواضع . فقبل ان يدخل العرب الاعداد الهندسية واستعمال الصفر الى الرياضيات كانت الحروف الهجائية اليونانية او الاعداد اللاتينية I II III IV V هي المستعملة . وبداهة ان مثل هذا الاستعمال جعل الحساب علماً صعباً وجعل العد بأرقام كبيرة بأستعمال الحروف الهجائية اليونانية او الارقام اللاتينية امراً مستحيلاً . فالعالم الغربي اذن مدين للعرب بالاعداد العربية التي استعاروها من الهنود .

كانت عند الهنود اشكال كثيرة للارقام فهذبوها واختاروا سلسلتين منها عرفت احداهما بالارقام الهندية وهي المستعملة في الاقطار الاسلامية والعربية وتكتب بالارقام العربية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . . . الخ واستعملت النقطة فيها لتدل على الصفر الذي يحتل منزلة او خانة. وعرفت الثانية باسم الارقام الغبارية. واستعملت فيها الدائرة لتدل على الصفر وهي الارقام المنتشرة في بلاد المغرب العربي والاندلس ومنها الى اوربا وسائر العالم الغربي . وتعرف هناك باسم الارقام العربية . وسميت غبارية لان الهنود كانوا ينثرون الغبار على لوح خشبي ثم يرسمون عليه الارقام .

والارقام العربية هي التي سهلت عمليات الحساب وادت الى تقدم العلوم الرياضية. ولولا الصفر لما استطاع العلماء حل كثير من المعادلات الرياضية بالسهولة التي تحل بها الآن . واهمية الارقام العربية انها تقوم على النظام العشري الذي ابتكره العرب بدلاً من النظام الستيني الذي كان شائع الاستعمال قبل ابتكار العرب للنظام العشري.

وابتكر العالم الرياضي غياث الدين جمشيد الكاشي علامة الكسر العشري . وقد استعملها قبل العالم الرياضي ستيفن بأكثر من ١٧٥ سنة. وان كان بعض المؤرخين ينسبون زوراً وتعصباً اول استعمال للكسر العشري الى ستيفن .

ويرجع الفضل في نقل الارقام الهندية واستعمالها الى العالم العربي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي. فهو اول من اورد الارقام الهندية في مؤلفاته وكتبه في الحساب. وكان كتابه في الحساب الاول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة. وقدترجم الى اللاتينية وظل مرجعاً للعلماء والرياضيين كما بقي علم الحساب نفسه قروناً معروفاً باسم الغوريثمي AL Gorithmi نسبة الى العالم العربي الخوارزمي .

لقد كان من حسن حظ العرب ان قدم الى بلاط الخليفة المنصور في عام ٧٧٣ عالم فلكي من الهند اسمه كانكا واعتبر قدومه الى بغداد حدثاً عظيماً، ذلك لانه كان عالماً في طرق الحسابات الهندسية المعروفة باسم (سند هند) . وقد اهتم بحركات الكواكب ،وكان كانكا يحمل معه كتاباً اخذه من المجموعة التي تحمل اسم الملك فيجار.

وتقول سيجرد هونكه :

« امر المنصور بترجمة هذا الكتاب الى العربية ، كما امر بأن يؤلف كتاب على نهجه يشرح للعرب سير الكواكب. وعهد بهذا العمل الى محمد بن ابراهيم الغزاري الذي الف على نهجه كتاباً يعرفه الفلكيون باسم (السند هند الكبير) « واعاد محمد بن موسى الخوارزمي كتابته واضاف اليه عدة زيجة (*) اشتهرت في البلدان الاسلامية . واعجب الفلكيون الذين اخذوا بكتاب (سند هند) اعجاباً شديداً وعملوا على نشره » (١).

ومن هذا الكتاب القيم عرف العرب نظام الارقام والاعداد الهندية . وتقول سيجرد هونكه ايضاً :

« وقد الف الخوارزمي كتاباً بيّن فيه ذلك النظام الهندي وطريقة استخدامه وضرب من الامثلة على ذلك ليسهل على رجال المال والتجار والموظفين عملهم كما قدم العديد من الامثلة المعقدة التي كانت شائعة » (٢) .

---

(١) هونكه ، سيجرد ، شمس العرب تسطع على الغرب – أثر الحضارة العربية في اوربا

(٢) « « « « « « « « « « «

(*) الزيجة جمع زيج وهو عند العرب صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما ادى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في افلاكها لاي وقت فرض من قبل حسبان حركتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة . . . موضوعة في جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين تعرف بالزيجة .

وبالرغم من ان بعض المتعلمين كانوا يعرفون الاعداد الهندية فان الاغلبية الساحقة من الرياضيين والفلكيين في الغرب كانوا ميالين الى اهمال استعمال هذا الاختراع الهندي الحاذق . كما ان تفوق الاعداد العربية على الاعداد الرومانية كان ضئيلاً عند المسيحيين في اواخر القرون الوسطى . وقد تطلب التحول الى النظام الهندي العربي جهداً كبيراً ليترك الناس النظام القديم الذي الفوه على الرغم من صعوبته وليدركوا معنى الخانات وقيمتها والصفر والدور الذي يمثله . ولم تكن العملية مجرد احلال هذه الارقام محل تالك وإلاّ لهان الامر. بل كانت تحولاً كاملاً في طرق الحساب والتفكير مما استلزم جهداً لنشرها بين المتعلمين والتجار .

والعالم مدين للعرب ايضاً بالطريقة التي ابتكروها لاستخراج الجذر التربيعي بنفس الطريقة المعروفة في الوقت الحاضر فهم الذين طبقوا علم الحساب على حساب المساحات والحجوم وفي اغراض تجارية . وتقول الدكتورة سهير قلماوي :

« وقد وضع العرب مؤلفات كثيرة في الحساب ترجمت الى اللغات الاجنبية وكانوا يقسمونه الى ابواب ، منها ما يسمى حساب الصحاح ، ومنها ما يسمى حساب الكسور ، وثمة فصول للجمع او التصنيف واخرى للطرح او التفريق وغيرها في الضرب والقسمة ثم التجذير اي استخراج الجذور . كذلك عرفوا النسب العددية والهندسية والتأليفية. والاخيرة خاصة بتأليف الالحان الموسيقية. وعرفوا موضوعات التناسب واستخراج المجهول بوساطتها ويكبرون المسائل والتمارين التي تلائم العصر من مسائل التجارة والصدقات والغنائم والمواريث . كذلك اتقن العلماء موضوع المتواليات الحسابية والهندسية ووضعوا القوانين الخاصة بجمعها ، كما وضعوا القواعد لاستخراج الجذور وجمع المربعات والمكعبات. واتخذ بعض العلماء العرب من المربعات السحرية رياضة فكرية ومتاعاً عقلياً . ذلك انهم كانوا يكونون مربعاً ذا تسع خانات مثلاً ويضعون في كل خانة رقماً فكيفما عدّت أرقام خاناته كانت الجملة ١٥ وثان ذا ١٦ خانة وكيفما عدت ارقام خاناته كانت الجملة ٣٤ وثالث ذا ٣٦ خانة وكيفما عدت ارقام خاناته كانت الجملة ١٠١ ورابع ذا ٦٤ خانة وكيفما عدت ارقام خاناته كانت الجملة ٢٦٠ .... وهكذا .

ومن هذا يتضح ان العرب كانوا اساتذة الرياضيات بخلاف الرومان الذين لم ينتجوا شيئاً في هذا الحقل الا القليل جداً . اما النبوغ اليوناني الرياضي فكان يقتصر على الهندسة وعلى نظرية المساحات . اما الهنود فقد مهروا في الحساب كما عالجوا

حساب المثلثات اليوناني بالطرق الحسابية والجبرية غير ان العرب امتازوا على غيرهم جميعاً بالجمع بين عظم العدد وعظم المساحة وهذه هبة امتاز بها حسن اصغر ابناء موسى بن شاكر الثلاثة . وتقول الدكتورة سيجرد هونكه . : « وبفضل هذا الاستعداد خلق العرب فروعاً جديدة من العلوم كما طوروا غيرها تطويراً تقدمياً عظيماً ففاقوا بذلك اليونان والرومان . فالعرب وليس اليونان هم اساتذة اوربا في النهضة العلمية الرياضية ، وساعدتهم على النهوض بهذه الرسالة الاعداد الهندية . فقد خدمهم الحظ اذ عرفوا في ذلك الوقت الاعداد الهندية كما ادركوا اهمية استخدام هذه الاشكال الصغيرة التي تزين كتاب (كناه) الى اعجابهم بها والحرص على الاستفادة منها . فالعرب بعقليتهم الرياضية قد ادركوا كيف يستخدمونها اعداداً ورياضة. وبذلك نجح العرب في الاستفادة من هذه المادة الجديدة . وفي فترة قصيرة اصبحت جهازاً طيّعاً للافادة منه . فكل تركيب حسابي وكل عملية حسابية فلكية سواءً اكانت معقدة ام سهلة اخذت تعتمد على الاعداد . واقبل العربي مسروراً على كل عملية حسابية . ثم ان بعض التخطيطات الخاصة بالآلات الفلكية والتي لم تستخدم من قبل تناولها العربي اشباعاً للذته الشخصية الحسابية » (١) .

الخوارزمي

اما علم الجبر فان الفضل فيه يعود الى العرب . ومحمد بن موسى الخوارزمي هو اول رياضي عربي ذائع الصيت . وكان فلكياً ايضاً وعاش في عصر المأمون في القرن التاسع وكتب عن الاسطرلاب Astrolabe . وهو آلة يقيس بها الفلكيون بعد الشمس او النجوم او الكواكب عن سطح البحر . وللخوارزمي مؤلفات في علم التواريخ وتسلسلها وفي الهندسة والجبر . يقول ريتشارد نيوهول « لم تؤخذ اسس علم الرياضيات فحسب من احد مؤلفاته بل ان اسم الجبر ذاته قد اشتق ايضاً . واستعيرت من نفس الكتاب تعابير واصطلاحات دائمة مثل (قوة) و (جذر) ويؤيد كتابه ايضاً وجهة نظر المسلمين العلمية لان الخوارزمي يصف كتابه في الجبر بأنه يبحث في اسهل الطرق الحسابية واكثرها فائدة التي يحتاج اليها الناس في حالات الارث والتركات والوصيات والقسمات والدعاوى القضائية وفي التجارة وفي جميع معاملات الناس بعضهم مع بعض ، كما يبحث في موضوع قياس الاراضي وحفر القنوات واجراء الحسابات الهندسية وفي مواضيع اخرى متعددة من مختلف الانواع » (٢) .

(١) هونكه ، سيجرد ، شمس الله على الغرب ، فضل العرب على الغرب ص. ١٢٠

(٢) نيوهول ريتشارد نيوهول ايجر ، الحروب الصليبية ص ٩١.

"It is from one of his works, says Richard Newhall, that not only the fundamentals of that mathematical science but also the very name "Algebra" is derived, and from the same book other permanent mathematical conceptions such as "root"and"power" have been borrowed. His work also serves to illustrate the practical point of view of the Saracens, for al-Kharismi describes his algebra as a work which seeks to provide the easiest and most useful method of calculation such as men constantly require in cases of inheritance, legacies, partition, law suits and trade and in all their dealings with one another, or where the measuring of lands, the digging of canals, geometrical computation, and other objects of various sorts and kinds are conerned".

والعبارتان (الجبر والمقابلة) هما اصطلاحان اطلقا على طريقة حل معادلات الدرجة الاولى والدرجة الثانية في مؤلفات العرب الرياضية . وطريقة حل المعادلات من الدرجة الثانية التي استعملها العرب هي نفس الطريقة المستعملة الآن في كتب الجبر للمدارس الثانوية . وكلمة (الجبر) معناها اعادة الكميات السالبة او نقلها الى الطرف الآخر من المعادلة . وعبـــارة (المقابلة) معناها ان الحدود المتشابهة على كلي الطرفين من المعادلة قد حذفت مثلاً :

٤ س^{٢} – ٣س^{٢} + ٥ = ٣س + ١٠

وبتطبيق الجبر نحصل على :

٤س^{٢} + ٥ = ٣س^{٢} + ٣س + ١٠

وبتطبيق المقابلة نحصل على :

س^{٢} = ٣س + ٥

ولكي نفهم المعادلة الاولى يجب ان نذكر ان العرب – على النقيض من الهنود – لم يسمحوا بوجود حدود سالبة في المعـــادلة . والمعادلة الثانية واضحة لا تحتاج الى ايضاح .

والعرب لم يسمحوا ايضاً بوجود عوامل كسرية في معادلاتهم إذ ازالوا الكسور بعملية الضرب مثلاً :

$\frac{١}{٥}$ س^{٢} + ٣س = ٤ ،

وبضرب كل حد في ٥ نحصل على :

س^{٢} + ١٥ س = ٢٠

وقد اصبح الجبر غنياً عن طريق العرب بحلهم معادلات الدرجتين الثالثة والرابعة بمساعدة الهندسة. والخوارزمي هو اكبر عالم رياضي ساهم في تقدم هذا العلم. وله منزلة سامية في تاريخ الرياضيات، ذلك لان مؤلفات العرب في الجبر التي الفت بعد الخوارزمي في العصور الوسطى قد بنيت على اساس علم الجبر الذي وضعه الخوارزمي. وعن طريق جبر الخوارزمي ادخل نظام الكسور العشرية العربي او الهندي الى الغرب. وتقول سيجرد هونكه :

« ولا ننسى علم الجبر الذي يعود الفضل فيه الى العرب، وفي طليعتهم الخوارزمي في وضعه وسكبه بقالب ترتيبي نظامي وجعله عاماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى. فمن كتب الجبر للعالم ابي كامل المقيم في مصر ومن مخطوطات البيروني وابن سينا والكرابيسي استمد ليوناردو البيزي معلوماته في المعادلات الرباعية والثلاثية وصنفها في كتابه المشهور (Liber abaci). ولعل عمر الخيام الشاعر الصوفي والملحد في آن معاً، الفارسي الاصل، (وصانع القبة وصاحب الرباعيات) هو الذي طوّر علم الجبر واوصله الى قمة عالية من الازدهار، وذلك بحله مسائل الجبر بأستعمال الهندسة. بل ان من الانصاف وايلاء الحق ذويه ان نقول ان عمراً قد وفق في الارتقاء بعلم الجبر الى ذروة سامقة لم يعرف لها مثيل فيما بعد الا على يد الفيلسوف الفرنسي ديكارت. ولقد تابع الاوربيون تطويرهم لهذا العلم على اساس ما ورثوه عن العرب اكثر مما ورثوه عن ديكارت ذاته. واما ليوناردو البيزي الطائر الشهرة عندنا، فهو بشهادة التاريخ نفسه، مدين للعلامة العربي ابي كامل بالشيء الكثير، كما انه مدين لعلماء عرب آخرين منهم الخوارزمي الذي شاعت دروسه في مدرسة (Algorithmiker). وهكذا قل في النبيل الالماني فون البرشتاين Von Eberstein رئيس الدومينكيين الذي علّم البلاد الاوربية علمي الحساب والجبر فأنه كان يستقي معلوماته من كتابين جزيلي النفع مستخرجين من الكتب العربية. كما انه اعتمد كتاب ابناء موسى وكتاب ثابت بن قرة، اقليدس العرب، كما كان يسمى في تدريسه علم الهندسة » (١).

ترجم العرب كتاب اقليدس اليوناني في الهندسة وسموه الاصول وقد وجد العرب ان الهندسة في كتاب اقليدس قد بلغت غاية الكمال والتمام لان اقليدس جمع فيه بين عامي ٣٣٠ و ٣٢٠ قبل الميلاد خلاصة ابحاث اليونان فلم يترك شاردة ولا

---

(١) هونكه، سيجرد، شمس العرب تسطع على الغرب، اثر الحضارة العربية في اوربا ص ١٥٩

واردة من هذا العلم الا واوردها فيه . وفضل العرب في علم الهندسة لا ينحصرفي ابتكاراتهم الهندسية واضافاتهم الكثيرة القيمة الى هذا العلم بل ايضاً في اهتمامهم بعلم الهندسة اليوناني في الوقت الذي اهمله الاوربيون . وكانت الترجمات العربية للهندسة اليونانية هي المعتمدة في اوربا وعنها اخذ الاوربيون الهندسة اليونانية حتى عام ١٥٨٣ حينما عثروا على نسخة مكتوبة باليونانية من كتاب اقليدس فترجموها فوجدوها طبق الاصل العربي .

وبعد الخوارزمي ظهر ثابت بن قره الذي كان فلكياً ورياضياً ولغوياً . وتتلخص خدمته الرئيسية للرياضيات في ترجمته لمؤلفات اقليدس وابو لونياس (Appolonius) وارخميدس وبطليموس . وقد الف كتباً عديدة كان اهمها كتيباً في الجبر تألف من فصل واحد عن المعادلات المكعبة التي حلها بمساعدة الهندسة . وتقول سيجرد هونكه :

« وعن مبادىء اقليدس عرف العرب الهندسة الصرفة ولهم كتب اصيلة فيها الفها ابناء موسى بن شاكر الثلاثة في سنة ٨٧٣ وتتلخص خدمتهم لهذا العلم في تقديرهم مساحة الدائرة ومساحة المثلث بمعرفة اضلاعه الثلاثة ومساحة سطح المخروط ومساحة سطح المخروط المقطوع ومساحة سطح الكرة وتقسيم الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية . ويعتبر هذا العمل هندسة صرفة لانه خال تماماً من الامثلة العددية او من استعمال الجبر او الحساب »(١) .

اما ما قدمه ابو الوفا البزدنجي للهندسة فأنه لا يقل اهمية عما قدمه ابناء موسى لها . فاليه تنسب معرفة مبادىء الرسوم في هندسة السطوح ورسم زوايا الشكل المنتظم المتعدد الجوانب خارج الدائرة . وعرف العرب بالاضافة الى ذلك طريقة رسم الاشكال المنتظمة المتعددة الاضلاع والزوايا وخاصة المسبع والمتسع ، الامر الذي ادى الى اكتشاف معادلة الدرجة الثالثة . واستطاع العرب تقدير مساحة الشكل الاهليجي Ellipse ومساحة القطع المخروطي parabola ورسم المكعب ذي الشكل المخروطي paraboloid . والى العرب يرجع الفضل في استعمال الحساب والجبر في حل مسائل الهندسة . وقد تفوق العرب على اليونانيين والهنود في هذه الامور . وفي سنة ٩٠٠م حل ابو كامل بن اسلام المصري عشرين مسألة في الهندسة بمعادلات صرفة ومخلوطة من الدرجة الثانية ومعادلات مضاعفة من الدرجة الثانية القابلة للاختزال كما يذكر سوتر في دائرة المعارف الاسلامية وقد اكتشف ان هذه الاعمال داخلة في مؤلفات ليوناردو البيزي .

(١) هونكه سيجرد ، شمس العرب تسطع على الغرب — أثر الحضارة العربية في اوربا ص ١٥٩

"In 900, the Egyptian Abu Kamil Ibn Islam solved twenty problems in geometry with the help of pure and mixed quadratic and reducible biquadratic equations. It has been discovered that these are almost incorporated in the works of Leonarde of pisa" (1)

ويقول جلال مظهر :

قال كاجوري « إن حل المعادلات التكعيبية بوساطة قطوع المخروط من اعظم الاعمال التي قام بها العرب . واذن يكون العرب قد سبقوا ديكارت وبيكر في هذه البحوث . كما انهم حلوا ايضاً بعض المسائل التي يؤدي حلها الى معادلات تكعيبية . وقد ثبت ان ثابت بن قرّه اعطى حلولاً هندسية لبعض المعادلات التكعيبية . واما ابو جعفر الخازن والخيام فقد حلا بعض المعادلات بوساطة قطوع المخروط . وحل العرب ايضاً بعض اوضاع المعادلات ذات الدرجة الرابعة وكشفوا النظرية القائلة إنّ مجموع مكعبين لا يكوّن عدداً مكعباً ، وهذا هو اساس نظرية فرما Fermat . ومن حلولهم هذه يتبين انهم جمعوا بين الهندسة والجبر في بعض الاعمال الهندسية ، كما انهم استخدموا الهندسة لحل بعض الاعمال الجبرية . فهم بذلك واضعو اساس الهندسة التحليلية . ولا يخفى ان الرياضيات الحديثة تبدأ بها وقد ظهرت بشكل تفصيلي منظم في القرن السابع عشر للميلاد . وتبعتها فروع الرياضيات بسرعة فنشأ علم التكامل والتفاضل الذي مهد له العرب كما مهد له من قبلهم اليونان ايضاً » (٢) .

ويقول جلال مظهر ايضاً نقلا عن كاجوري :

« وفي الهندسة نقل العرب كتاب اقليدس (الاصول) والفوا على نسقه ، غير انهم ادخلوا في كتبهم قضايا جديدة لم يعرفها القدماء . ويقول الاستاذ سيديو ان ابن الهيثم وضع كتاباً من هذا الطراز يستحق ان يعتبر واسطة بين كتابي (القواعد المفروضة والبراهين الاستقرائية) لاقليدس و (المحال المستوية السطوح) لابولونيوس وبين كتابي سمسون وستيوارت ، ذلك انه يمثل تلك الكتب كمال الهندسة الابتدائية المعدة لتسهيل حل الدعاوى النظرية . وفي بعض مؤلفات البيروني نظريات ودعاوى هندسية وطرق البرهنة عليها ، وهي طرق جديدة ،فيها ابتكار وفيها عمق وهي تغاير الطرق التي سار عليها فلاسفة اليونان ورياضيوهم . وسخّر العرب ولا سيما ابن الهيثم

1. Suter, Encyclopaedia of Islam Vol. 1, P. 257

(٢) مظهر ، جلال اثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٨٢

الهندسة بنوعيها المستوية والمجسمة في بحوث الضوء وتعيين نقطة الانعكاس في احوال المرايا الكروية والاسطوانية والمخروطية ، المحدبة منها والمقعرة ، وابتكروا لذلك الحلول العامة وبلغوا فيها الذروة »(١) . ويقول ايضاً :

وامتاز العرب في بعض البحوث الهندسية ، فقد تنبه الطوسي مثلاً لنقص اقليدس في قضية المتوازيات ووضع لها برهاناً جديداً فكان لهذا البرهان وللبحوث الاخرى التي وردت في كتاب (تحرير اصول اقليدس) وفي (الرسالة الشافية للطوسي) اثر في تقدم بعض النظرية الهندسية . وقد نشر جون واليس هذه البحوث باللاتينية في سنة ١٦٥١ » (٢) .

والعرب هم المؤسسون الحقيقيون لعلم المثلثات trigonometry . وهو ميدان لم يخضه الاغريق من قبل ولم يعرفوا عنه شيئاً . والى العرب يرجع الفضل في وضع علم المثلثات بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك . ذلك ان البتّاني ادخل لفظة جيب sine ولفظة جيب تمام الزاوية cosine ولفظة مماس tangent ولفظة مماس التمام co-tangent الى علم الرياضيات الذي انتقل الى الغرب عن طريق ترجمات كتبه في العلوم . وربما انتقلت هذه المعارف اليه من الهنود . غير ان الفضل يعود اليه في وضع حساب جداول الجيب التي مكنته من حساب الاعشار في مرتبتها الثالثة . وقد بلغ هذا التطور الرياضي ذروته على يدي نصير الدين الطوسي الفارسي الاصل . ويقول جلال مظهر :

« كذلك فأن الغرب قد اخذ عن العرب فن الحساب في السدس الاعشاري وتقسيم الدائرة الى ستين جزءاً . والواقع ان هذا التقسيم الموروث عن البابليين ، والذي مزجه اليونانيون بالاعداد العشرية ما كان ليأخذ شكله النهائي الا على ايدي العرب بالذات حتى اصبح حساب الفلكيين المفضل » (٣)

ولا يمكننا ان نذكر عصر ريجيمنتانس وكوبرنيكس المتألقين دون ان يذكرانا بأعمال العرب المجيدة في الرياضيات لانهم مزجوا نظرياتهم بأمثلة عملية . ونتيجة لذلك نشأ علم المساحة Geodesy . ووصلت طريقة حساب علو الجبال واتساع

---

(١) مظهر ، جلال ، أثر العرب في الحضارة الاوربية ص. ٢٨٢
(٢) مظهر ، جلال ، أثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٨٣
(٣) « « « « « « « « «

الاودية او المسافة بين جسمين واقعين على سطح مستو درجة قصوى من الاتقان . وطبّق العرب ايضاً مبادىء الميكانيك في بناء آلات الحرب والموازين الكثيرة الحساسية. وفي المثلثات اكملوا معرفة كل ما يتعلق بالمثلث بمساعدة القواعد المكتشفة .

الفلـــــك

كانت دراسة النجوم من اهم الدراسات التي تخصص بها العرب ومهروا فيها . ذلك لان النجوم كانت دليل العرب في صحرائهم الواسعة وسمائهم الصافية التي لا تغطيها غيوم تحجب الرؤية عنها الا ما ندر في فصل الشتاء . وكان البابليون العرب اول ما اهتموا بدراسة النجوم وحركاتها. وربطوا حركات الكواكب وابراجها بما كان يجري على الارض من احداث وحظوظ سعيدة او سيئة فقرأوا المستقبل . ولا تزال العلاقة بين النجوم والتنجيم شائعة عند الكثيرين من ابناء عصرنا . وقد استمر التنجيم يدرّس في بعض الجامعات الاوربية مثل جامعة بادوا وجامعة ميلانو حتى اواخر القرن السادس عشر . ومن الطبيعي ان ينسب بعض الناس للنجوم والكواكب قوى ربانية إلهية . وفي ذلك تقول سيجرد هونكه :

« لم يكن حولهم ما يصوبون ابصارهم اليه،فلا جبل قائم ولا صخر نافر ولا شجرة او بحيرة او آفاق موغلة في البعد . لم يكن امامهم في وسط الصحراء وفي عرض بحر الرمال المتلاطم وكثبانه الا بزوغ الشمس وغروبها وطلوع القمر وافوله. ومواضع النجوم وسيرها وما تخلفه الحرارة من تأثيرات كبيرة على هـؤلاء المثقفين وقطعانهم وما يدعوهم للاهتمام بها . اذن فمن الطبيعي جداً ان ينسب بعض الناس للنجوم والكواكب قوى ربانية إلهية كما نسبوا من قبل للميزان او الدبران Aldabran المتألق احمراراً وسموه الثريا او (الجمل الكبير) الذي كلما بان في قبة السماء نزل المطر على الارض فدفق الخير عليهم . وماذا عن النجم قيس Kais اكثر النجـوم لمعاناً في فم الشعري اليمانية الملقبة بالكلب العبور او الشراع العابر وهي الكلب الاكبر او سيريوس Sirius الذي عبده الناس لانه بمروره في درب التبّان ينير السماء اكثر مما ينيرها اي نجم آخر بسحر وجمال » (١) .

ويعزى اول ظهور لعلم الفلك الى العرب القدماء في بلاد ما بين النهرين ومصر ،

---

(١) هونكه ، سيجرد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية في اوربا ص ١١٦

وعن البابليين العرب اخذ كل من الاغريق والهنود هذا العلم. وقد امتاز البابليون بالبراعة العلمية التجريبية كالرصد الطويل المدى والحسابات الدقيقة المدهشة وهي الاشياء التي كانت مجهولة عند اليونانيين الذين اتصفت اعمالهم بالنظريات البحتة ، ذلك لان علم الفلك اليوناني كان علماً نظرياً عقلانياً بعيداً عن الاسلوب التجريبي الذي ابتدعه البابليون . فالعقل اليوناني كان يعتمد احترام الشكل. والنظام اليوناني كان يخضع للعقلانية اكثر من خضوعه لاي شيء آخر. اما البابليون فقد جمعوا بين النظريات والتجارب وفهموا مظاهر السماء وتأثيراتها المختلفة واعتبروا ان ما كانوا يشاهدونه من حركات في السماء انما كان معطيات طبيعية لا تقبل الجدل . ولم يحاولوا ان ينسبوها الى قوانين طبيعية . وقد توصل البابليون في سنة ٥٠٠ ق.م الى رسم قبة السماء بشكل هندسي صاف ورسم خارطة الكون بشكل كرة تتوسطها الارض في صورة قمع سابح في الفضاء كما تقول هونكه :

وفي القرن الثالث للميلاد جاء ارستارخ فون ساموس Aristarch Von samos فوضع الشمس مكان الارض في وسط خريطة الكون ، فجاءت لوحة اية في الروعة، ومع ذلك رفضتها جماهير الشعب ونبذتها اغلبية العلماء نبذاً قاطعاً تصميماً على عدم الاعتراف إلاّ بالارض قلبا للعالم ووسطا له . ومن هذا يتضح ان التفكير الفذ بمفرده لا يستطيع الوقوف على رجليه بمعزل عن التجارب العلمية والوسائل العلمية التي تعززه كما تقول هونكه . وظلت الارض تعتبر قلب العالم حتى عام ١٥٠ بعد الميلاد حينما جاء هبارك Hipparch فأدخل علم الفلك في مرحلة جديدة بعد ان قضى الليالي في العد واعداد المعلومات الحسابية الفريدة التي كانت حجر الاساس فلقبه بطليموس بالرجل صاحب الضمير اليقظ بعد ٢٦٥ سنة من الزمان .

وبعد هبارك ظهر بطليموس الجغرافي الفلكي الشهير الذي ولد في صعيد مصر وتوفي قرب الاسكندرية وكان كتابه في الفلك والهندسة (المجستي) Almagest يتألف من ثلاث عشرة مقالة . وهو اشهر مؤلفاته الفلكية . وكلمة المجستي مؤلفة من الـ التعريف العربية ولفظة مجستي اليونانية ومعناها الاعظم او الاسمى .

وقد دوّن بطليموس جميع معارف عصره في المجستي واصبح كتابه المرجع الاول والاخير في علم الفلك القديم . وقد طغى على كل ما سبقه من المراجع .

بدأت دراسة علم الفلك في الاسلام تحت تأثير كتاب هندي اسمه في العربية (السند هند). وقد جيء به الى بغداد في سنة ٧٧١م وترجمه الى العربية محمد بن ابراهيم الغزاري واتخذه العلماء بعد ذلك مثالاً يأخذون عنه ويقتدون به . واصبحت لهم رصدات وقياسات كثيرة . وربطوا بين علم الفلك والعلوم الرياضية. ومنهم من ربط بين حركة الاجرام السماوية وحوادث العالم والناس من حيث الحظ والمستقبل والحرب والسلم. وهو ما يعرف بعلم التنجيم . وقد كان الخلفاء يستشيرون المنجمين الذين كانوا يدرسون حركات الكواكب فيعطون ما يتراءى لهم بمقتضى ما يرون . وكان بعض الناس يستشيرون المنجمين في علاج بعض الامراض . وبعضهم كانوا يؤمنون بأقوال المنجمين كأنها احكام منزلة من السماء .

وقد قرّب ابو جعفر المنصور المنجمين واصطحبهم في اسفاره ورحلاته . وهو الذي امر بترجمة كتاب (السند هند) الكبير الى العربية . وهذا الكتاب كان المرجع الاول في علم الفلك الى ايام المأمون . فأختصره الخوارزمي وصنع منه زيجه المشهور الذي هو مزيج من مذاهب الهند والفرس واليونان . والزيج هو الجدول الذي يستدل به على حركة الكواكب .

وحياة العرب في بواديهم وقراهم ومدنهم من بدو وفلاحين وحضر كانت تتأثر اشد التأثر بما كان يحدث في السماء ذلك لانهم حاولوا استنباط الغاز النجوم والكواكب والاستفادة منها في حياتهم العملية . وحاجة العرب الى دراسة حركات الكواكب وظهور النجوم في قبه السماء بدأت تزداد بظهور الاسلام . فعلم الفلك كان ضرورياً لبعض الامور الدينية كمعرفة اوقات الصلاة ومعرفة حركة الشمس والبروج واحوال الشفق وهلال رمضان وتعيين سمت القبلة . ومستلزمات الدين الاسلامي كانت تتطلب رصداً دائماً للقبة الزرقاء، ذلك لان النبي عليه الصلاة والسلام وضع اسساً ثابتة للقيام بواجبات العبادة وحثّ على احترام تلك الاسس لاعطاء المؤمن الضمانة الوحيدة بأن الله قد قبل صلواته. من ذلك يتضح ان اوقات الصلاة والصوم ومواعيد الاذان خمس مرات في اليوم وتحديد اوقات ظهور القمر في أول شهر رمضان وفي نهايته ومواعيد شروق الشمس وغروبها لتحديد مدة الصوم وموعد الافطار، بالاضافة الى تحديد اتجاه مكة المكرمة حيث القبلة كل هذه الامور كانت تتطلب من العرب الاهتمام بدراسة الفلك واستنباط الآلات الفلكية واجراء

الحسابات الدقيقة، الامر الذي ادى الى دراسة كتب الاقدمين في الفلك وخاصة كتاب المجستي لبطليموس، كما درسوا مؤلفات الكلدان والسريان والفرس والهنود واستطاع العرب ان يضيفوا الى تلك المعارف الفلكية التي اقتبسوها عن غيرهم ابتكارات هامة في علم الفلك،وان يبنوا المراصد الجوية في جميع انحاء الدولة الاسلامية. واشهر تلك المراصد مرصد المأمون في كل من بغداد ودمشق،ومرصد عضد الدولة في بغداد، ومرصد الفاطميين في القاهرة، ومرصد ملكشاه السلجوقي في نيسابور، ومرصد هولاكو المغولي في مراغة، ومرصد امير التتر في سمرقند. واول كتاب ترجم في علم الفلك كان من اليونانية الى العربية في زمن الامويين. وهوكتاب مفتاح النجوم لهرمس الحكيم. والجدير بالملاحظة ان علماء الفلك العرب كانوا يرون في علم الفلك علماً رياضياً يقوم على الرصد والحساب. وكان اساس تقدمه يعتمد على ما قاموا به من رصد وما ابتكروا من اجهزة وآلات وادوات وما وضعوا من ازياج وجداول فلكية.

لقد بدأ العصر الذهبي لعلم الفلك ابان خلافة المأمون، اذ انشئت في عصره المراصد في مراكز كثيرة من الامبراطورية. وصنع كثير من الآلات الفلكية التي لا تزال مستعملة في الوقت الحاضر.

وقد اضاف العرب الى معرفتهم الفلكية اصطلاحات علمية كثيرة كانت مقبولة لدى الجميع. ولا تزال مستعملة الى الآن. وبوساطة التقويم الفلكي لبطليموس استطاع العرب تعيين ميلان الشمس وطريقها في منطقة البروج بدقة اضبط، كما استطاعوا تعيين طريق القمر والنجوم السيارة.

لقد بدأ اهتمام العرب بعلم الفلك اهتماماً جدياً في عصر المنصور، اذ اجرى فلكيوه ادق المسائل الجغرافية الهندسية، وهي قياس طول الدرجة الارضية. ويقول الدكتور فيليب حتي :

« كان غرضهم من ذلك تحديد حجم الارض ومحيطها على اساس ان الارض مدورة. وقد ادى القياس الذي اجروه في سهل سنجار شمال الفرات وايضاً قرب تدمر الى نتيجة جعلت درجة الطول ستة وخمسين ميلاً تقريباً وثلثي الميل، وهي نتيجة على غاية ما يمكن من الدقة بحيث انها لا تزيد على طول الدرجة الحقيقي الا بنحو ٢٧٧٧ قدماً (نقلاً عن تللينو) علم الفلك القاهرة (١٩١١). وهذا يجعل محيط

الارض عشرين الف ميل وقطرها ستة آلاف وخمسماية ميل . وكان من جملة العلماء الذين اشتركوا في حل هذه المسألة ابناء موسى بن شاكر وربما ايضاً الخوارزمي المشهور الذي وضع زيجاً لقّحه بعد قرنين العالم الاندلسي مسلمة الجريطي ونقله الى اللاتينيـــة في سنة ١١٢٦ ادلارد اوف باث Adelard of Bath ، واصبحت هــذه التقاويم اساساً لسواها مما ورد في التصانيف الرياضية التي صدرت بعد ذلك في المشرق والمغرب . والخلاصة ان هذه التقاويم الفلكية وغيرها مما انتجه العرب حلت محل ما سبقها من نتاج اليونان وأهل الهند ، فأخذ بها الناس حتى في الصين »(١) .

اما الخليفة العباسي المأمون فقد كان حاضن العلماء والمنجمين والفلكيين . وتقول سيجرد هونكه :

« كان في قصره رجل يدعى موسى بن شاكر . وقد اصاب موسى مكانة عالية لدى المأمون عجز عن نيلها احد علماء الفلك والرياضيات المعاصرين ، ذلك لانه كان صديق الخليفة الحميم واقرب المقربين اليه . وكان محمد بن موسى بن شاكر اكبر ابناء موسى الثلاثة واعظمهم شأناً . وقد خصص المأمون لفلكييه داراً في بغداد لرصد النجوم رصداً دقيقاً واجراء قياسات مثيرة للاعجاب . وكانت تلك القياسات توازن بالقياسات التي تؤخذ بجنديسابور وفي دمشق وتسجل . ويتعاون الفلكيون مجتمعين في وضع جداول الفلك (المجرية) او المأمونية – نسبة الى المأمون – وهي تعد مراجعة لجداول بطليموس الاسكندري . وقد امر المأمون محمد بن شاكر بالسفر في بعثة لقياس محيط الارض مع جماعة من الفلكيين . وقد اجرى محمد واخواه قياسات فاقت ما قام به بطليموس وعبد الله المروزي البغدادي اشهر فلكيي عصره حتى ان البيروني الكبير صرح بعد مرور ١٥٠ عاماً قائلاً" اني ارى انه بوسع المرء ان يعتمد على ما قام به ابناء موسى من ابحاث وملاحظات ، ذلك انهم وضعوا في سبيل البحث عن الحقيقة كل قواهم . وكانوا الوحيدين في عصرهم الذين برعوا في طرقهم وفي حسن استعمالهم لها ، كما انهم تركوا المجال لغـــيرهم من العلماء للتحقق من صحة قياساتهم ووقتها » .

وتمضي فتقول : « انشأ ايضاً ابناء موسى مرصداً خاصاً بهم قرب جسر الفرات وقد وضع محمد بالاشتراك مع اخيه كتاباً في قياس مساحات مسطحة او مستديرة

(١) حتي ، فيليب ، تاريخ العرب المطول ص ٤٥٦ .

ترجمه الى اللاتينية جيرارد الكريموني الذي كان من اقـدم المستشرقين الغربيين » وتقول ايضـاً :

« ووضع احمد بالاشتراك مع اخيه ساعة نحاسية كبيرة الحجم. وقام بأدق الحسابات خاصة فيما يتعلق بطلوع بعض الكواكب الهامة وهبوطها في الدوران النهاري او السكني . ونقل حسابات اخيه الدقيقة المعقدة الى آلات حساسة مدهشة هي بالفعل معجزات فنية تدفع بالبشر الى الاعجاب المدهش » . وتقول ايضاً :

« عندما زار الطبيب الطبري مرصد محمد واحمد في سامراء قال « رأيت آلة بناها الاخوان محمد واحمد ابنا موسى ، وهي ذات شكل دائري تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات في وسطها وتديرها قوة مائية . وكان كلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة واذا ما ظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الافقي من الآلة » (١) .

ويعزى لبني موسى القول بالجاذبية العمومية بين الاجرام السماوية بربط كواكب السماء بعضها ببعض ويجعل الاجسام تقع على الارض . وفي قياسهم لمحيط الارض توصلوا الى تقدير محيط الارض بنحو ٢٤ الف ميل . ويعتبر قياسهم من الاعمال العلمية المجيدة . وقد عول ابن يونس في ارصاده الفلكية على ارصادهم واعترف البيروني بمهارتهم في الرصد وترجمت كتبهم الى اللاتينية .

ومهما يكن من امر فيجب ان لا يغرب عن البال ان العرب كانوا منجمين قبل ان يصبحوا فلكيين لأنهم كانوا يعتقدون بوجود قوانين طبيعية تؤثر في شؤون البشر ومصالحهم . ولهذا السبب سعوا لرصد النجوم بمهارة وحفظوا سجلات دقيقة للحقائق التي تجمعت لديهم لاستخراج القوانين الفلكية. ونتيجة لهذه الدراسة ظهر علم الفلك. ولم يقفوا عند هذا الحد فقد ظهرت علوم اخرى نتيجة بحوثهم العلمية. ويقول ريتشارد نيوهول في ذلك :

« لقد ربط اليونانيون — وهم الذين امتلك العرب نظامهم ليصلوا الى غور علم التنجيم — السماء بآلهة امتهم المتعددة كما ربطوا السماء بحياة الانسان وايام الاسبوع والالوان والمعادن والحيوانات والعقاقير وبالنتيجة ادى علم التنجيم ليس الى دراسة

---

(١) هونكه سيجرد ، شمس العرب تسطع على الغرب — اثر الحضارة العربية في اوربا ص ١١٩ — ١٢٢

علم الفلك فحسب بل ايضاً الى دراسة علم المعادن وعلم طبائع الحيوان وعلم النبات والكيمياء والطب » (١) .

"The Greeks, whose system the saracens appropriated, in their efforts to plump the depth of astrological lore, had associated the heavenly bodies on the one hand with the various gods of their own pantheon, and on the other hand with everything to do with the life of man, days of the week, colours, minerals. animals, plants and drugs. Consequently, astrology led to the study, not only of astronomy but also of mineralogy, zoology, botany, chemistry and medicine".

ويقول غوستاف لوبون :

« ادت مدرسة بغداد الفكلية في زمن هارون الرشيد وفي زمن ابنه المأمون (٨١٤–٨٣٣)على الخصوص الى اعمال مهمة وادمجت مجموعة الارصاد التي تمّ أمرها في المراصد ببغداد ودمشق في كتاب « الزيج المصحح »، الذي نأسف على ضياعه ، ومع ذلك يمكننا ان نعلم صحة الارصاد التي اشتمل عليها هذا الكتاب من الدقة العظيمة التي عين بها انحراف سمت الشمس في ذلك الزمن . فقد كان رقم الانحراف كما حقق فيه ٢٣ درجة و ٣٣ دقيقة و٥٢ ثانية اي ما يعادل الرقم الحاضر . ونشأ عن رصد العرب للاعتدال الشمسي تعيينهم مدة السنة بالضبط » (٢) .

وللبتاني وابن الهيثم والفرغاني والبوزجاني آراء قيمة في تقدير محيط الارض. فقالوا بكروية الارض وتوصلوا الى حساب طول السنة الشمسية وحققوا مواقع كثيرمن النجوم ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي. وشهد سارتون بقيمة اعمال العرب الفلكية بقوله كانت بحوث العرب الفلكية مفيدة جداً اذ هي التي مهدت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى » (٣) .

والبتاني الحرّاني كان من اعظم علماء الفلك على الاطلاق،واعظم فلكيي الاسلام وهو اول من توصل بكثيرمن الدقة الى تصحيح طول السنة الشمسية . اذ حددها بـ ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و ٤٦ دقيقة و٣٢ ثانية بينما حددها ابرخس اليوناني وبطليموس الاسكندري بـ ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٥٥ دقيقة و١٢ ثانية (٤) وهو من الذين ارسوا

(١) نيوهول – ريتشارد – الحروب الصليبية ص ٨٨
(٢) لوبون غوستاف – حضارة العرب ص ٤٥٦
(٣) قلماوي سهير اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٢٢٧
(٤) مظهر جلال ، أثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٨٩

اسس المثلثات الحديثة بإيجاده قيم الزوايا بطرق جبرية تدل على قوة تفكيره وهضمه لبحوث الهندسة والجبر والمثلثات هضماً يدل على الابداع. ولهذا عدّ البتاني في مصاف اعظم علماء الشرق وانبغهم. وتعود شهرته بوجه خاص الى تعميم افكاره ونظرياته حول النسب المثلثية. كما هي مستعملة في الوقت الحاضر. وكتابه المختصر في الفلك ترجم الى عدة لغات ودرّس في كثير من الجامعات في عصر النهضة على حد قول ارنولد في تراث الاسلام(١) وقد حدد البتاني بدقة كبيرة ميل الدائرة الكسوفية وطول السنة المدارية والفصول وفنّد نظرية بطليموس القائلة بثبات الاوج الشمسي.

ومن الفلكيين العرب الذين حققوا اعمالاً وانجازات كبيرة كان لها ابعد الاثر في تقدم علم الفلك ابو الوفا الذي اخذ على عاتقه تصحيح اخطاء الفلكيين السابقين. فألف زيجه الشامل الذي هو خلاصة النتائج التي توصل اليها من ارصاده مصححاً بذلك اخطاء الفلكيين القدامى وخاصة ما يتعلق بسرعة القمر تبعاً لجاذبية الارض. ومنهم الفرغاني الذي حدد قطر الارض وقطر بعض الكواكب. واعتبرت قياساته للمسافات بين بعض الكواكب وحجومها مقبولة بغير تعديل حتى زمن كوبرنيكاس. ومنهم ابن يونس المصري الذي سجل اول كسوفين شمسيين بدقة علمية، واجرى حساباً لميل دائرة البروج لم يفقه دقة الا الحساب الناتج عن استعمال آلات الرصد الحديثة. ويقول جلال مظهر « وابن يونس هو اول من استعمل الرقاص او بندول الساعة الذي نسب اختراعه الى العالم الايطالي الشهير غاليليو (١٥٦٤–١٦٤٢). ومنهم ايضاً نصير الدين الطوسي الذي دخل في خدمة هولاكو وبنى مرصداً في مراغة. وكان عالماً رياضياً نال شهرة فائقة بعد اخراجه كتاباً فريداً في بابه سماه (كتاب الشكل القاطع). وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية والانكليزية واللاتينية وبقي عدة قرون مصدراً يستقي منه علماء اوربا معلوماتهم في المثلثات المستوية والكروية. ويقول الاستاذ جورج سارتون: انه يكفي حتى نقدّر نصير الدين الطوسي حق قدره ان نعرف ان كتابه (الشكل القاطع) كان تقريباً النسخة العربية لكتاب (ريجيو مونتانوس) او بعبارة اخرى كتاب ريجيو مونتانوس النسخة اللاتينية من كتاب نصير الدين الطوسي » (٢).

---

(١) ارنولد تراث الاسلام ص ٣٨٧–٣٨٩.

(٢) مظهر جلال، أثر العرب في الحضارة الاوروبية ص ٢٩٢

ومن علماء الفلك المشهورين ابو الريحان محمد بن احمد البيروني (٩٧٣—١٠٤٨) المولود في غزنة في شمال افغانستان والذي يعد اعظم بحاثة وعالم في العلوم الطبيعية والرياضية واكثر علماء الاسلام تعمقاً وابتكاراً في هذه الميادين ويعده الكثيرون اعظم ظاهرة علمية في الحضارة الاسلامية . ويقول جلال مظهر : « وقد وصفه العالم الشهير سخاو او شاخت Schau بأنه اعظم عقليـــة عرفها التاريخ ، وهذا اعتراف له قيمته وخطره ، كما يقول الاستاذ قدري طوقان ، لانه صادر من عالم كبير يزن كل كلمة يقولها . ويصفه سمث في الجزء الاول من كتاب الرياضيات بقوله ان البيروني كان المع زمانه في الرياضيات وان الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرهم في العلوم » (١) .

ويقول المستشرق الامريكي آرثر ابهام بوب « في اي قائمة لاكابر علماء الدنيا يجب ان يكون للبيروني مكانه الرفيع ، وغير ممكن ان يكتمل بدونه اي تاريخ للرياضيات او الفلك او الجغرافيا او علم الانسان او مقارنة الاديان . لقد كان ابرز العقول المفكرة في كل العصور » .

تميز البيروني في جوانب علمية متعددة فقد كان محققاً ومدققاً ممتازاً في التاريخ والجغرافيا والجيولوجيا. وكان لامعاً في الرياضيات والفلك. وقد سمّى جورج سارتون، اعظم مؤرخ للعـــلوم ، القرن الحادي عشر الميلادي (بالعصر البيروني) بسبب سعة اطلاعه ومعرفته الشاملة وقدرته على التحقيق والتدقيق والاستقراء والاستنتاج والبحث والدرس. وشهد له علماء الغرب والشرق بأنه كان فلكياً ممتازاً ورياضياً بارعاً وجيولوجياً فذاً ومؤرخاً ومدققاً وعبقرياً مبدعاً ذا بصيرة شاملة نفّاذة .

خلف البيروني مائة وثمانين مؤلفاً . ومن ابرزها كتابه الشامل في الفلك وعنوانه « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » قدمه الى ولي نعمته السلطان مسعود بن محمود في سنة ١٠٣٠م وقد خصص في هـــذا الكتاب باباً لمعرفة بدايات فصول السنة . ووضع البيروني سبع طرق مختلفة لكيفية تعيين اتجاه الشمال والجنوب. وقرر في مؤلفاته النظرية القائلة ان الارض كروية وان جميع الاجسام تنجذب نحو مركز الارض . وفرض ان الارض تدور حول محورها مرة كل يوم وتدور حول الشمس مرة كل سنة . وقد حلل نظرياته بفهم وادراك وضبط ابعاد خطوط الطول والعرض

(١) مظهر جلال ، اثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٩٢

بطريقة تدل على المهارة . واستطاع تعيين محيط الارض. وله ابحاث حول كسوف الشمس وخسوف القمر واوج الشمس اي ابعد وضع بين الشمس والارض في اثناء السنة . وهو مبتكر آلة الرصد الاسطرلاب، وهي آلة فلكية تستعمل لقياس ارتفاع الشمس والنجوم .

وفي عصر المأمون الزاهر قدر ابناء موسى بن شاكر محيط الارض بـ ٢٤٠٠٠ ميل وحسبوا ان انحراف سمت الشمس يساوي ٢٣ درجة . والى العرب يعود الفضل في ادخال الرصد الفلكي على علم الفلك الحديث .

وتتضح اهمية الدور الكبير الذي لعبه العرب في اخراج علم الفلك كعلم يقوم على الاختبار. وتخضع حساباته لقوانين وقياسات دقيقة، بالاضافة الى الابتكارات الجديدة التي اعتمدها علماء النهضة الاوربية في بلورة نظرياتهم الفلكية الحديثة ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية على لسان نالينو بقوله :

« ادرك علماء الفلك العرب تمام الادراك ضرورة قيامهم برصد السماء رصداً منتظماً يستمر عدة قرون بدلاً من ان يقدموا للعالم نظريات جديدة عامة ليست اكثر وضوحاً ودلالة من النظريات السابقة، وبذلك استطاعوا تصحيح الارقام الواردة في الماجستي . وقد انتهوا من هذا العمل بسرعة فائقة دون ان يسمحوا لانفسهم بالتأثر بسفسطات بطليموس . وقد لاحظوا ان ابعد مدار لفلك الشمس عن الارض يخضع لحركة الاعتدالين في الوقت الذي كان يعتقد القدماء ان ذلك البعد لا يتغير بسبب مشاهداتهم له من نفس النقطة على خط الطول . وقد لاحظ العرب ان انحراف طريق الشمس في منطقة البروج لم يكن ثابتاً كما اكد ذلك اليونانيون على اساس مشاهدات وهمية ملفقة . بل ان ذلك الانحراف يخضع الى نقص دنيوي بطيء لم يعرف حدوده الطبيعية الا علماء الفلك ميكانيكيو — القرن الثامن عشر — الذين استطاعوا اثبات ذلك . والعرب هم الذين حسنوا معرفتهم للسنة الاستوائية والسنة الفلكية (الشمسية) التي تتم فيها الارض دورتها حول الشمس، كما حسنوا معرفتهم لمسار الاعتدالين بدقة عجيبة . بالاضافة الى تحسينهم تقاويم الكواكب . وقد حاول نصير الدين الطوسي تصحيح نظرية الكواكب بأثباته ان رسومات بطايموس الهندسية كانت شديدة التعقيد . ويجب ان نذكر ان الفلكيين العرب — على النقيض من فلكيي اليونان — قد اعطوا كوكب الزهرة Venus نفس خط الطول من ابعد مدار عن

الارض ونفس الانحراف ونفس المركز لغايات التحويل في شكل الفلك. وبعبارة اخرى جعلوا الزهرة كوكباً يدور حول الشمس، والتقاويم العربية التي لم تكن مجرد كونها مستمدة من تقاويم بطليموس ، بل كانت لها ايضاً اهمية كبرى . واخيراً فاق العرب اسلافهم اليونانيين بمهارة ملحوظة في تطبيق معادلات حساب المثلثات على الاعداد وفي نوعية الاتهم الجيدة التي استعملوها وفي اسلوبهم التكنولوجي في الرصد . والفرق عظيم بين الفلكيين العرب والفلكيين اليونانيين سواءً اكان ذلك في عدد الرصدات ام في الاستمرارية في العمل ام في الدقة في الرصد » (١) .

" The Arab astronomers understood perfectly that instead of advancing new general theories no more demonstrated than the ancient ones, it was necessary to observe the heavens methodically for centuries and thereby to correct the numbers given in the Almagest.This task they speedily performed without allowing themselves to be influenced by the so-called fallacies of Ptolemy. They perceived that the apogee of the sun, to be immovable by the ancients who stated that they had always observed from the same point of longitude, is subject to that movement of equinoxes. They perceived that the obliquity of the ecliptic is not invariable as the Greeks had asserted it to be on the ground of fictious observations, but is subject to a slow secular diminution whose approximate limits only our celestial mechanics of the eighteenth century have been able to determine the length of the tropical and sidereal year, the procession of the equinoxes they improved with marvallous accuracy; they also improved the planetary tables, and Nasir-al-din- Attusi endeavoured to perfect the theory of the planets by rendering the geometrical constructions of Ptolemy more complex.

It ought also to be mentioned that in contrast to the Greeks the Arab astronomers gave to Venus the same longitude of the apogee, the same eccentricity and the same center of equivelent to transforming the orbit, having the sun for the centre, i.e. to making Venus a satellite of the sun. Arab catalogues in so far as they have not been simply derived from the catalogue of Ptolemy, have considerable importance, lastly in the application of trigonometrical formulae in the numbers and quality of their instruments, in technique of their observations, the Arabs have splendidly outsripped their predecessors the Greeks in the number continuity and accuracy of the observations. We mark the most and in striking contrast between Greek and Moslem astronomy" (2)

وقد تكلم الفلكيون العرب لغة لم يسمع بها من قبل . فهناك تعابير واسماء دخلت علم الفلك الحديث ولا تزال مستعملة الى الآن مثل Azimuth اي السمت او

(١) نالينو – دائرة المعارف الاسلامية ص ٥٠٠–٥٠١

2. Nallino, C. A. Encyclopaedia of Islam, P. 500 - 501

سمت الرأس و Nadir اي نظير سمت الرأس ، بالاضافة الى الاسماء العربية التي يزيد عددها على مائتي اسم . وقد جاء ذكر كثير منها تحت موضوع المؤثرات في اللغة . وعلى كل حال لا يستطيع احد ان يعين بالضبط اياً من هذه الاسماء قد نقل عن طريق الحروب الصليبية واياً منها قد نقل عن طريق اسبانيا وصقلية والمترجمين اللاتين في القرون الوسطى .

٢ ـ الكيمياء

اشتهر العرب في العلوم التجريبية وذاع صيتهم في الكيمياء القديمة التي كانت تعرف باسم الخيمياء Alchemy . وهذه الكلمة مأخوذة عن اصل يوناني. وقد تطورت هـذه التسمية حتى عرفت في العلم الحديث باسم الكيمياء Chemistry . ويقول جلال مظهر عن اصل هذه الكلمة :

« قد يكون مأخوذاً من الاصل المصري Kam - It او Kem - it اي الاسود او من الاصل اليوناني خيما Chyma اي المعدن المنصهر ، غير ان الاسم الحديث على اي حال مأخوذ عن العربية » (١)

وقد كانت للكيمياء القديمة ثلاثة اهداف هي :

أولاً : ـ ايجاد محلل عام للمواد .

ثانياً : ـ اكتشاف حجر الفلاسفة الذي يحول المعادن الى ذهب .

ثالثاً : ـ اكتشاف اكسير الحياة الذي كان يظن بأنه يشفي من جميع الامراض ويطيل الحياة ويهب المرء صحة وقوة . وكانت هذه الامور حلماً من احلام البشرية القديمة . وقد حاول قدماء المصريين واليونانيين والفرس تحقيق هذا الحلم واخراجه الى حيز الوجود ولكن جهودهم باءت بالفشل . ويقول ريتشارد نيوهول بهذا المعنى :ـ

« كان العرب ماهرين في العلوم التجريبية وخاصة في الكيمياء القديمة (الخيمياء) . وكلمة (الخيمياء) Alchemy هي كلمة اخرى استعارها الاوربيون من المسلمين

---

(١) مظهر جلال ، أثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٠٤

مع هذا العلم الذي تدل عليه هذه الكلمة . كانت جميع المعادن في الاصل ، حسب معتقدات فلاسفة اليونان ، مركبة من نفس العناصر . واختلاف بعضها عن بعض يعود الى الاختلاف في نسب تركيبها . ونتيجة لهذا فقد كان يظن ان العالم يستطيع تحويل المعادن في مختبره الى اية معادن يريدها عن طريق تحليلها الى عناصرها الاولية ثم اعادة تركيبها بنسب موافقة . وهذا البحث الذي قام به العلماء المسلمون في الكيمياء القديمة في محاولة لايجاد معادلة التحويل التي يستطيعون بها تحويل الرصاص والحديد الى ذهب وفضة قد ادى الى اجراء تجارب واسعة . فقد كان يظن انه توجد مادة يكون تأثيرها المطلوب ليس على المعادن فحسب بل على المرض ايضاً . اذ انها تشفي من جميع الامراض بما في ذلك امراض الشيخوخة .

ولا حاجة الى القول ان الكيمياويين القدماء لم يستطيعوا اكتشاف سر التحول ولا حجر الفلاسفة ولا اكسير الحياة ولكنهم اكتشفوا حقائق علمية كثيرة اصبحت فيما بعد الاساس والقاعدة للكيمياء الحديثة » (١)

Richard A Newhall Says;

"In the experimental sciences the saracens were also proficient, notably in alchemy, another word borrowed by Europeans from the Muslems along with much of the science which it denotes. According to the ancient Greek philosophers all metals are composed fundamentally , of the same elements. Their differences are merely matters of proportion. Consequently, it was assumed that by resolving metals into their elements and by then recombining those elements in the proper Proportions the scientist could produce in his laboratory whatever metal he desired. This search by the Saracen alchemists for the formula for transmutation whereby lead and iron could be changed into gold and silver led to extensive experimentation. It was supposed that a substance existed that would not only have the desired effect upon metals, but would slso completely cure all disease including old age.Needless to say, the alchemists never discovered the secret of transmutation, the philosopher's stone, nor the elixir of life, but they did discover many scientific facts which have become the the basis for modern chemistry" (2)

لقد ادت محاولات العرب لتحويل المعادن الخسيسة الى الذهب والفضة الى اضافة جديدة للمعرفة الانسانية والتقدم الحضاري هي الاسلوب العلمي في البحث . فالتجارب العملية التي انتهجها العرب كانت اعظم عمليات القرون الوسطى ، ذلك

(١) نيوهول ريتشارد ، الحروب الصليبية ص ١١٧ .

2. Newhall, A. Richard, The Crusades, P. 117.

لان العرب لم يقبلوا شيئاً باعتباره حقيقة اذا لم تثبته المشاهدة وتؤيده التجربة . فهم على النقيض من اليونانيين الذين كانت نظرياتهم تبنى على فروض مبهمة .

ان الطريقة التي اتبعها علماء الكيمياء القديمة العرب في خلط المعادن الخسيسة كالحديد والقصدير بالمعادن النبيلة (الثمينة) كالذهب والفضة في محاولاتهم لاستنباط معادلة التحويل قد علمتهم طريقة صنع الخليط والملغم وطريقة استخراج الوزن النوعي لبعض العناصر المهمة . ويقول في ذلك ريتشارد نيوهول :

Richard Newhall Says:

"The mixing of "noble" and base metals in the search for transmutation taught the alchemists how to make alloys and amalgams, and to determine the specific gravity of some of the important elements" (1)

لقد بدأ اهتمام العرب بالكيمياء القديمة Alchemy من الفكرة التي كانت سائدة في العصور الوسطى بين قدماء المصريين والفرس واليونانيين القائلة بأمكان تحويل المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة في عهد خالد بن يزيد بن معاوية الذي أمر بأستدعاء الراهب مريانوس من الاسكندرية وتكليف اسطفان بترجمة كتب الكيمياء القديمة اليونانية الى العربية . وقد ادى هذا الاهتمام الى اجراء التجارب العلمية وعدم الاعتماد على الاسلوب العقلي المنطقي وحده الذي كان سائداً بين اليونانيين . فالعرب هم اول من اتبع الاسلوب العلمي في اجراء التجارب وتسجيل المشاهدات والملاحظات وتجميع البيانات والقرائن والنتائج . فهم واضعو الطريقة العلمية الصحيحة التي تنسب زوراً وبهتاناً الى علماء النهضة الاوربية وخاصة الى روجر بيكن. مع ان العرب سبقوه في اجراء التجارب العلمية الصحيحة وفي اتباع الاسلوب العلمي بمئات السنين .

جابر بن حيان

ان جابر بن حيان (الصوفي ٧٧٦) هو ابو الكيمياء العربية والكيمياء الحديثة على الاطلاق . وقد عاش في اواخر القرن الثامن للميلاد. وقد اوصى تلاميذه كما تقول سهير قلماوي « بالاهتمام بالتجربة وعدم التعويل الا عليها مع التدقيق في الملاحظة والاحتياط الى عدم التسرع في الاستنتاج . ويقول جابر ان المعرفة لا تحصل الا كما يوصي الذين يعنون بالعلوم الطبيعية بأن يعرفوا السبب في اجراء العملية وان يفهموا التعليمات جيداً ، لان لكل صنعة اساليبها » (٢) .

(1) Newhall, A. Richard, The Crusades, P. 117

(٢) قلماوي سهير – أثر الاسلام والعرب في النهضة الاوربية ص ٢١٣

وتمضي سهير قلماوي فتقول :

« ويعترف درابر بأن تفوق العرب في العلوم انما هو شيء ناشيء عن الاسلوب الذي توخوه في بحوثهم . فقد تحققوا ان الاسلوب العقلي وحده لا يؤدي الى التقدم وانه ينبغي ان تجرى التجارب والمشاهدات . هذا ما هيأ لهم هذا الترقي الباهر في الرياضيات والفلك والهندسة والمثلثات والطبيعة وغيرها . فالعلماء العرب هم واضعو اسس البحث العلمي بالمعنى الحديث . فقد تميزوا بدقة الملاحظة والرغبة في التجربة والاختيار . ابتدعوا طرقاً واخترعوا اجهزة وآلات لاستخراج الوزن النوعي لكثير من المعادن والسوائل والاجسام التي تذوب في الماء » (١) .

لقد طبقت شهرة جابر بن حيان الافاق واصبح اسمه بين المسحيين في القرون الوسطى في عداد ابطال القصص الخيالية . ويكفيه فخراً انه صاحب المنهج التجريبي الذي يقوم على اجراء التجارب العلمية وجعلها اساساً للعلم الحقيقي . ويقول الدكتور زكي نجيب محمود نقلاً عن جلال مظهر :

« اما خطوات السير في البحث العلمي فهي خطوات تطابق ما يتفق عليه معظم المشتغلين بالمنهج العلمي اليوم وتتلخص في ثلاث خطوات رئيسية : الاولى ان يستوحي العالم مشاهداته فرضاً يفرضه ليفسر الظاهرة المراد تفسيرها . والثانية ان يستنبط من هذا الفرض نتائج تترتب عليه من الوجهة النظرية الصرفة. والثالثة ان يعود بهذه النتائج الى الطبيعة ليرى هل تصدق او لا تصدق على مشاهداته الجديدة . فان صدقت تحول الفرض الى قانون علمي يركن الى صوابه في التنبؤ بما عساه ان يحدث لو ان ظروفاً بعينها توافرت » (٢) .

والى جابر بن حيان تعزى مجموعة كبيرة من الرسائل التي ترجمت كلها الى اللاتينية. وقد عمرت مدرسته من بعده وعززت التجربة واستخدمت الاجهزة والآلات. فالعلماء العرب هم واضعو اسس البحث بالمعنى الحديث .

---

(١) قلماوي سهير ، اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية ص ٢١٣

(٢) مظهر جلال ، أثر العرب في الحضارة الاوروبية ص ٢٧٠

لقد قال كبار العلماء في جابر بن حيان اقوالاً انزلته في اعلى منزلة في تاريخ العصور الوسطى . ومن مفاخره ان الكندي (القرن التاسع) والرازي (القرن العاشر) وابن سينا (القرن الحادي عشر) وهم من كبار علماء العرب كانوا يعتبرونه استاذهم . ولهذا قال عنه روجر بيكون « ان جابر بن حيان هو استاذ الاساتذة » وليس غريباً ان ينزل اسم جابر بن حيان في تاريخ الكيمياء منزلة اسم ارسطوطاليس في تاريخ المنطق . اما العالم الايطالي كاردان Cardan فقال « ان جابر بن حيـــان يعد من كبار عباقرة الانسانية » . وهو بحق يعد مفخرة للشرق لان عبقريته نسيج وحدها . فهو اول من قرر بجلاء اهمية التجربة ووضع لعلم الكيمياء قواعد تقترن باسمه .

وقد اختلف الناس في اصله فبعضهم كان يظن انه صابيء من حران وآخرون كانوا يظنون انه من اصل فارسي لصلته بالبرامكة الذين كانوا ينتمون الى اسرة فارسية، وكان غرضهم نقل الخلافة الى العلويين . غير ان المصادر العربية تؤكد انه من اصل عربي . فأبوه حيان كان عطاراً يعيش في الكوفه وهو ينتسب الى قبيلة الازد التي كانت تعيش بالقرب من اليمن . وسواء اكان جابر بن حيان فارسياً ام صابئياً حرانياً ام مسلماً عربيـــاً فليس هذا مهماً ما دام انه كان يعيش في وسط عربي وما دامت ثقافته عربيـــة ولغته عربية ونشأته عربية وبيئته عربية . وقد عرف عنه اشتغاله بالسياسة . فكانت له شخصية سياسية مؤثرة في صفوف الاسماعيلية ، اذ كان احد قادتها الروحيين . وكانت له مؤلفات سياسية وضعها بقالب فلسفي علمي يلفت الانظار ، الامر الذي اضطر احد اعداء العرب الى الاعتراف بعظمته بقوله : « كان عالماً عظيماً بالرغم من كونه عربياً » .

كان جابر يعرف تركيب حامض الكبريتيك وحامض الازوتيك وماء الذهب او الماء الملكي Aqua Regia . وهو خليط من حامض النتريك وحامض الهيدروكلوريك. وماء الذهب هو المحلول الذي يذيب الذهب . وكان لاختراع هذا الخليط اهمية تعدينية كبرى . وجابر بن حيان هو العالم الكيماوي الذي توصل الى حل مشكلة الحصول على الذهب على شكل سائل . وهو مكتشف طريقة تنقية المواد بالتبلور والذوبان والترشيح . وفي زمنه عرفت المواد القلوية كما عرفت الصودا الكاوية ونترات البوتاسيوم (ملح البارود) Salt Petre وكلورات الامونيوم (ملح النشادر) والكبريتات وزيوت الزاج Vitriols والبورق او لزاق الذهب Borax وملح الطعـــام النقي .

واستعمل العرب مركبـــات معينة للزئبق مثل السليماني Corrosive Sublimate والراسب الاحمر (الاكسيد الاحمر) Red Oxide وفي ذلك يقول فرانسيس فينابل:

Venable Francis Says;

"Geber understood the composition of Sulphuric acid and nitric acid as well as aqua regia. He discovered the method of purification of substances by crystallization, solution and filtration. The alkaline (Arab alkali ashes) substances were known at the time of Geber, caustic soda was also prepared. Furthermore, saltpetre and ammonium chloride were also known as well as sulphates, or vitriols as they were called, and also borax and purified common salt. Certain compounds of mercury, such as corrosive sublimate and the red oxide were also used".

ويقول الدكتور عبد العزيز عطية استاذ التاريخ في جامعة لندن :

« عرف العرب الكحول alcohol والقلويات وهي مواد مضادة للحوامض alkalis وكلتا الكلمتين مأخوذتان من العربيـــة . واستعملوا الانبيق alembic وهو تعبير عربي آخر . وعرفوا ماء الذهب aqua regia وكبريتات الزئبق وملح البارود saltpetre والشب وزيوت الزاج النقية ومركبات كيماوية اخرى كثيرة. وقـــد فصلوا الكحل (الانتيمون) antimony والزرنيخ (سم الفأر) arsenic عن كبريتاتها. ووصفوا كيفية تحضير الفولاذ وصباغة الاقمشة والجلود واستعمال اكسيد المغنيزيوم في صناعة الزجاج وتقطير حامض الخليك acetic acid من الخل. ومع ذلك وبغرابة استمروا في الاعتقاد بالنظرية اليونانية عن وجود العناصر الاساسية الاربعة في الطبيعة . وهي التراب والهواء والماء والنار وهي النظرية التي اعلنها امبيدوكليس في القرن الخامس قبل الميـــلاد واقتبسها واقرها ارسطوطاليس في القرن التالي » :

Azia Atya Says:

The Arabs knew alcohol and alkalis, both words being of Arabic derivation. They used the alembic, another Arabic term. They became acquainted with the aqua regia, sulphide of mercury, saltpeter, alum, pure vitriols, and numerous other chemical combinations. They separated antimony and arsenic from their sulphides, described the preparation of steel, the dyeing of cloth and leather, the use of manganese dioxide in glass manufacture, and the distillation of acetic acid from vinegar. Yet somehow they strangely continued to believe in the old Greek theory of the four basic elements in nature, that is, the earth, air, water and fire. That theory was first announced in the fifth century B. C. by Empedocles, and it was quoted and approved by Aristotle in the following century" (1)

(١) عطية عزيز ، التجارة والثقافة في الحروب الصليبية ص ٢٢٥

وتقول سيجرد هونكه :

« فرق العلماء الكيماويون العرب بين الحوامض والقلويات وراقبوا ازدياد المعادن وزنا في عمليات التأكسد وعرفوا أن النار تنطفىء بانعدام الهواء وطوروا عمليات اساسية في الكيمياء كالتصعيد والترشيح والتذويب والتبلور والتسامي والتكليس والتقطير. وميزوا بين التقطير المباشر وبين التقطير بوساطة الحمام المائي او بوساطة الحمام الرملي » . وتمضي فتقول :

« كما انهم استعملوا الزجاج الذي صنعه السوريون والمصريون البارعون فجلبوا من حلب الادوات الزجاجية المختلفة الى مختبراتهم . وابتكروا الانبيق alembic . وعن طريق التقطير صفي الخل وعتّقت الخمر واستخرج العرق من البلح وطهر الماء الموبؤ بحيث انه اصبح في متناول الجميع يستعمل كعلاج ضد الالتهابات » (١) .

وتقول الدكتورة سهير قلماوي عن جابر بن حيان :-

« يعتبر جابر بن حيان شيخ الكيميائيين العرب ، ومن قائل انه لم تكن الكيمياء قبل جابر علماً بالمعنى المعروف انما كانت صناعة وخبرة وتحتاج الى دربة ومران تستخدم في التعدين والتحنيط والنسيج والصباغة وصناعة الزجاج وتحضير الزيوت والعطور . ولذلك يعتبر جابر مؤسس علم الكيمياء بالمعنى الحديث . فقد بين اهمية التجارب وكان يوصي بالدقة في الملاحظة والاحتياط وعدم التسرع والتأني في عصر كانت نظرية العناصر الاربعة هي السائدة . وكان القول بتحويل العناصر بعضها الى بعض وتحويل المعادن الخسيسة الى نفيسة وخاصة الذهب هو الشغل الشاغل والهدف الرئيسي للمشتغلين في الكيمياء . وقد رأى جابر ان آراء العلماء الاغريق لا تفسر الظواهر والمشاهدات التي كان قد لاحظها في تجاربه . فقال ان الفلزات لا تتكون من صورتي العناصر وباطن الارض بل انهما تتحولان الى عنصرين جديدين هما الزئبق والكبريت وباتحاد هذين العنصرين في باطن الارض تتكون الفلزات وهو الذي ادخل على الصناعة علم الميزان » (٢) .

ومن الكيميائيين العرب الذين اشتهروا في التاريخ ابو بكر بن زكريا الرازي Razes (٨٦٥ — ٩٢٥) نسبة الى الري في فارس مسقط رأسه وهي بلدة صغيرة

---

(٢) سيجرد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، اثر الحضارة العربية في الغرب ص ٣٢٦

(١) قلماوي سهير ، أثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية ص ٢٣٧

لا تبعد كثيراً عن طهران . وقد اشتهر الرازي في الطب والكيمياء وهو من مؤسسي الكيمياء الحديثة . اهتم بالموسيقى والغناء ونبغ في الطب والكيمياء ويعدّه ادوارد براون اعظم اطباء الاسلام واكثرهم ابتكاراً وانتاجاً . وقد اكتشف زيت الزاج (حامض الكبريت) واستخرج الكحول من مواد نشوية وسكرية وابتكر الفتيلة في الجراحة . ومن اهم ما وضعه في الكيمياء « كتاب الاسرار » الذي نقله الى اللاتينية جيرارد الكرموني المتوفى في سنة ١١٨٧ فأصبح هذا الكتاب مصدراً رئيسياً للكيمياء الى ان خلفته تآليف جابر بن حيان التي ترجمت في القرن الرابع عشر. وكتاب (الاسرار) يشتمل على ثلاثة فصول هي معرفة العقاقير ومعرفة الآلات ومعرفة التدابير اي العمليات الكيماوية. والقائمة الهامة التي تركها الرازي للاجهزة الكيماوية اللازمة لتجهيز معمل كيماوي هي اول عمل من نوعه وتعتبر من اعظم الانجازات التي اداها الرازي لعلم الكيمياء .

لقد ابتكر الرازي اجهزة ووصفها وصفاً دقيقاً كما وصف غيرها اذ وصف اكثر من عشرين جهازاً منها المعدني ومنها الزجاجي. وكان يعنى بوصف التفاصيل. وقد قسم الكيمياء الى اربعة اقسام هي المعدنية والنباتية والحيوانية والمواد المشتقة. وقسّم المعدنية الى ستة اقسام . وقد حضر الاحماض كما تقول سهير قلماوي مثل حامض الكبريتيك وسماه زيت الزاج. وحضّر الكحول بتقطير مواد نشوية وسكرية متخمرة. وكان يستعمله في الصيدليات والادوية. وقدّر الكثافة النوعية لعدد من السوائل مستعملا ميزاناً خاصاً » (١) .

ومن الاعمال الهامة التي خلفها الرازي كما يقول جلال مظهر تركيبة لصنع نوع من الصبغة اللامعة من المرقشيتا المذهب (نوع من المعدن) ليحل محل الصبغة مرتفعة الثمن المصنوعة من الذهب الخالص . وله شرح لاستعمال ثاني اكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج. وهو اول من اشار الى الملح والكبريت والزئبق حيث يمكن وجودها في جميع الاشياء .

وفي اوائل القرن الحادي عشر ظهر ابو منصور موفق الذي استطاع ان يفرق بوضوح بين كربونات الصوديوم (النترون) وكربونات البوتاسيوم التي اطلق عليها اسم قلي Alkali في اللغات الاوربيـــة وهو عبقرية كيماوية اضافت انجازات هامة

---

(١) قلماوي سهير ، أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٢٣٩

الى الكيمياء . وبالرغم من هذه الانجازات العلمية الرائعة التي حققها العرب والتي تفوق كثيراً اية انجازات قام بها اليونان في ميدان العلوم نرى للأسف الشديد انكاراً شديداً من العديد من الغربيين يهدف الى طمس هذه الحقائق الواضحة والثابتة علمياً وتاريخياً .

٣ ـ الصيدلة

نجحت الصيدلة عند العرب نجاحاً باهراً بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر وكان نبوغ العرب في الكيمياء وظهور كيماويين عباقرة امثال الكيماوي جابر بن حيان الذي تتلمذ على جعفر الصادق (٦٩٩م) قرأ جميع الكتب التي امر بترجمتها خالد بن يزيد بن معاوية والطبيب والفيلسوف الكيماوي ابي بكر الرازي الذي تتلمذ على جابر بن حيان وغيرهما من عباقرة العرب سبباً في تحقيقهم انجازات هامة في حقل الصيدلة . فقد خطا العرب في هذه الحقبة خطوات واسعة في استعمال العقاقير للتداوي . فهم اول من انشأ حوانيت خاصة لبيع الادوية واقدم من اسس مدرسة للصيدلة بل اول من وضع الاقراباذين (كتاب في الادوية) وضعه ابن البيطار (١١٩٠ـ١٢٤٨) في اثناء اقامته في مصر . وقد اوضح في مقدمة كتابه الاغراض التي توخاها والمنهج الذي سلكه في التأليف، منها ذكر الادوية والاغذية المستعملة على الدوام والاستمرار في استعمالها عند الاحتياج اليها، ومنها صحة النقل عن الاقدمين والاختيار عن المتأخرين، على ان يطبق ما يثبت لديه بالمشاهدة والنظر والخبرة، ومنها تجنب التكرار الا فيما تمس الحاجة اليه، ومنها ترتيب مواضيعه ابجدياً، ومنها التنبيه الى الادوية الضارة التي وقع في استعمالها اخطاء . ودليله على ذلك التجربة والمشاهدة .

الف العرب كثيراً من الرسائل في الصيدلة كان من ابرزها ما وضعه جابر إبن حيان ابو الكيمياء الشهير . وقد فرض الخلفاء العباسيون على الصيادلة زمن المأمون والمعتصم ان يجتازوا امتحاناً خاصاً . وفرض على الاطباء مثل ذلك. ويقول الدكتور فيليب حتي : « رفع في سنة ٩٣١ امر رجل من العامة جاء يتداوى وقد لحقه ضرر من سوء المعالجة فأمر سنان بن ثابت بن قرة بامتحان الاطباء واجازة من ينجح منهم وان يطرد من الصناعة من اتضح قلة علمه في الامور الطبية . فتقدم الى الامتحان عدد

كبير اجيز منهم اكثر من ثمانماية وستين رجلاً ببغداد وتخلصت العاصمة من الدجالين. واوعز علي بن عيسى وزير المقتدر الى سنان بأن ينفذ جماعة من الاطباء يطوفون البلاد ومعهم خزانة من الادوية والاشربة ويعالجون من يرونهم من المرضى وان ينفذ آخرين لزيارة المرضى في السجون . وتظهر لنا هذه المعلومات اهتمام اولياء الامر بالصحة العامة ، وهو امر لم يكن معروفاً في سائر العالم آنذاك » (١).

والمنصور هو الذي اسس اول صيدلية عامة في بغداد في سنة ٧٥٤ وضم اليها جامعة استطاع الطلاب ان يتعلموا الطب العملي والصيدلة فيها . والى العرب يعود الفضل في ادخال المستحضرات الكيماوية الى الصيدلة . فقد نجح العرب في تركيب السموم والاشربة واستعملوا السكر بدلاً من العسل لانه كان اكثر فائدة . واستخرجوا الكحول واستعملوا العقاقير ذات الاثر الخفيف عوضاً عن العقاقير ذات الاثر الشديد المسببة للاسهال والتي كانت تستعمل في غابر الازمان. وتعلم الغرب من العرب استعمال السنا Senna والراوند Shubarb والتمر هندي Tamarind والمسك musk والقرفة cassia والشمرة fennel والكافور camphor وجوز الطيب nutmegs والقرنفل cloves والقرمز crimson والزعفران saffron وعرق السوس liquorice والصندل sandal والمر myrrh والحنضل colcocynth وجوز القيء nux vomica. وهم الذين اخترعوا الاشربة والكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية، ومنها الورد. وتوصل ابن سينا الى تغليف الحبوب التي يصفها للمرضى منعاً لمرارتها من ان تؤذي اللسان . وتوصل العرب الى عمل الترياق المؤلف من عشرات الادوية وحسنوا الافيون والزئبق . وتوسعوا في استعمالها . وهم اول من استعمل الحشيش والافيون والزيوان للتخدير . والغرب مدين للعرب بادخال الجوز القيء nux vomica في القرن الحادي عشر .

والكتاب الاسلامي لتحضير الادوية Islamic Pharmacopoeia يحتوي على اسم مائتي نبات جديد لا يزال اغلبها مستعملاً الى الوقت الحاضر . والعرب هم الذين علموا الغرب خانق النمر aconite والجمرة ember والقنب الهندي Indian hemp . ويذكر التاريخ ان هارون الرشيد ارسل الى شارلمان من جملة الهدايا التي ارسلها في سنة ٨٠٧م النخيل palms والمراهم unguents والعقاقير والادوية « وفي الواقع فان العرب هم المبتكرون الحقيقيون لعلم الصيدلة » .

(١) حتي فيليب ، تاريخ العرب المطول ص ٤٤٥

كما يقول جلال مظهر :

« ذلك لان اغلب المستحضرات التي كانت لا تزال مستعملة حتى القرن التاسع عشر كالاشربة واللعوق واللزقات والمراهم والدهانات والمياه المقطرة هي من مبتكراتهم حتى انهم تخيلوا طرقاً لتناول الادوية وعاد اليها العصر الحاضر ، بعد نسيانها زمناً طويلاً » (١) .

ويمضي فيقول ايضاً :

« ومن مآثر العرب في هذا الميدان ادخالهم نظام مراقبة الادوية عن طريق الحسبة . والحسبة وظيفة دينية يقتضيها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا من اوجب واجبات ولي امر المسلمين الذي كان ينبغي عليه تعيين محتسب يراه اهلاً للقيام بهذه المهمة الشاقة التي تتطلب في القائم بها صفات كثيرة . ويذكر ابن عبدون ما يجب ان يتحلى به المحتسب من صفات كثيرة : يجب ان يكون المحتسب رجلاً عفيفاً ورعاً نبيلاً عارفاً بالامور محنكاً فطناً لا يميل ولا يرتشي فتسقط هيبته ويستخف به ولا يعبأ به ، ولا يستعمل في ذلك خساس الناس ولا من يريد ان يأكل اموال الناس بالباطل والمهونة لانه لا يهاب الا من كان له مال وحسب » (٢) .

واشتهر صيادلة العرب بالاضافة الى جابر بن حيان والرازي الصيدلاني ابن وافد الذي عاش في طليطلة في القرن الحادي عشر وماسويه المارديني الذي اشتهر في بغداد وعاش في القاهرة في القرن الحادي عشر وابن البيطار الذي ولد في اسبانيا واشتهر في سورية في القرن الثالث عشر .

٤ ــ العلوم الطبيعية والميكانيكية وابن الهيثم

يمكن التحقق من اهتمام العرب بالعلوم الطبيعية من بحوثهم في ميدان البصريات. إذ عرفوا انعكاس الضوء وانكساره . والحسن بن علي بن الحسن بن الهيثم (٩٦٥ــ١٠٣٩) المولود في مدينة البصرة في العراق والمعروف عند الغرب باسم Ibn Alhazem يعد في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور بل اعظم عظماء العلوم الطبيعية قاطبة في القرون الوسطى . فهو من أئمة علماء الضوء، بل العالم العربي الكبير في الطبيعيات والبطل الفذ

(١) مظهر جلال أثر العرب في الحضارة الاوروبية ص ٢٧٦
(٢) « « « « « « « «

في علم الرياضيات وقــد استعمل الهندسة بنوعيها المستوية والمجسمة في بحوث الضوء وتعيين نقطة الانعكاس في المرايا الكروية والاسطوانيــة والمخروطية المحدبة منها والمقعرة . والواقع انه لولا ابن الهيثم لما كان علم الضوء والبصريات عــلى ما هو عليه الآن، بل ان فضل ابن الهيثم يتجاوز حدود علم الضوء والبصريات اذا ما علمنا ان ادوات البحث العلمي في كثــير من فروع العلم الاخرى تعتمد في تقدمها على آلات الابصار التي ترتكز في صنعتها على قوانين ومبادىء تتعلق بعلم الضوء . وقد الّف في علم الطبيعة نحو اربعة وعشرين كتاباً . يقول جلال مظهر :

« وليس ابن الهيثم احد كبار علماء الطبيعة في كل مكان فحسب وانما هو على رأس قائمة علماء البصريات ، وسوف يقترن هذا العلم بأسمه الى آخر المطاف . وكتابه (المناظر) بعيد جداً عن ان يكون له مثيل بين مؤلفات اليونان جميعاً . عارض ابن الهيثم نظرية اقليدس وبطليموس البدائية القائلة بأن العين ترسل الشعاعات البصرية الى الاجسام المرئية وارسى قواعد معرفتنا الصحيحة . واما اذا كانت نظرية ابن الهيثم لا تتضمن كما يقول الاستاذ نظيف فكرة ان العين في جملتها تقوم مقام عدسة لامّة تحدث للمبصر صورة حقيقية مصغرة مقلوبة على الشبكية فان بحوثه في الانعطاف تبين الى اي مدى قرب ابن الهيثم من هذه الفكرة. وعلى اي حال فان الخطوة التي خطاها كانت جوهرية . ارسى ابن الهيثم قواعد الفكرة في ان الضوء هو العامل او المؤثر الخارجي الذي يحدث عنه احساس البصر ، وهي فكرة لم تكن مقررة ولا معتمدة . اذن يكون ابن الهيثم قد قلب الاوضاع القديمة وانشأ علماً جديداً بابطاله علم المناظر الذي وضعه اليونان، وانشاءه علم الضوء الحديث بالمعنى والحدود التي نريدها الآن»(١) .

وقد اعترف العالم الفرنسي الشهير فياردو بأنّ العالم الطبيعي كبلر اخذ معلوماته في الضوء ولا سيما ما يتعلق منها بانكسار الضوء في الجو من كتب ابن الهيثم .

« ومن رأي الاستاذ مصطفى نظيف الذي توفر على دراسة إبن الهيثم ، كما تقول سهير قلماوي ، انه في اخذه بالاستقراء يكون قد سبق بيكون ليضعه في المقــدمة بــين علماء الطبيعة النظرية بما وضع في ظواهر الضوء من نظريات في الابصــار وقوس القزح وانعكاس الضوء وانعطافه (انكساره) كما يضعه في المقدمة بين علماء الطبيعة التجريبية بما اجرى من تجارب في كيفية امتداد الاضواء الذاتية التي تنبعث

(١) مظهر جلال : أثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٩٤-٢٩٥

من الاجسام المضيئة بذاتها كضوء الشمس وضوء النهـار والاضواء العريضة التي تشرق من سطوح الاجسام الكثيفة التي تستضيء بضوء الاجسام المضيئة بذاتها والتي تستضيء بضوء عرضي يشرق من سطح جسم كثيف آخر هـو نفسه يستضيء بضوء ذاتي .

وتمضي سهير قلماوي فتقول :

« وتناولت تجاربه ضوء القمر وضوء الكواكب والضوء المشرق من ضوء ابيض يستضيء بضوء القمر او ضوء النهار . ويقول نظيف ان ابن الهيثم ابطل علم المناظر الذي وضعه اليونان وانشأ علم الضوء بالمعنى الحديث وان اثره في علم الضوء لا يقل عن اثر نيوتن في علم الميكانيكا » (١) .

ومن المؤكد ان عدداً من علماء اوربا مثل روجر بيكون وكبلر قد استفادوا من بحوث ابن الهيثم الامر الذي جعل ماكس مايرهوف يقول : « ان عظمة الابتكار الاسلامي تتجلى لنا في البصريات » ومن المؤكد ان كتاب المناظر لابن الهيثم يعتبر من اكثر الكتب استيفاء لبحوث الضوء وارفعها قدراً . فهو يجري في عرضه للمادة العلمية على احدث الاساليب ان لم يتفوق على بعضها في بحث انكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تكوين الصور على شبكية العين .

« وتشمل نظرية ابن الهيثم في انعكاس الضوء كما تقول سيجرد هونكه ، على المشكلة المعروفة – على وجه العموم – بأسم هذا العربي وهي ما يلي :

افرض دائرة في سطح ، وافرض نقطتين خارجتين عن الدائرة واجعل نقطة على الدائرة بحيث يكوّن المستقيمان اللذان يربطان هذه النقطة بالنقطتين السابقتين زوايا متساوية مع نصف قطر الدائرة،وهذا يسمح بحل المسألة التالية : عندنا مرآة اسطوانية وشيء آخر يمكن اعتباره كنقطة . اوجد الموضع الذي تتخذه العين لترى هذا الشيء في المرآة . ويحتوي الحل على معادلة من الدرجة الرابعة ، حلها ابن الهيثم بواسطة خط تقاطع دائرة وقطاع زائد » (٢) .

ولابن الهيثم بحوث في المرايا الكروية والتلمجية وهو الذي اكتشف طريقة ناجحة لايجاد البؤرة . ولما رجع روجر بيكون الذي توفي في سنة ١٢٩٤ الى اوربا

---

(١) قلماوي سهير – أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٢٣٣-٢٣٤

(٢) هونكه ، سيجرد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة الاوربية في اوربا ص ١٩٧

نقل معه الى الباحثين الاوربيين نتائج اعمال ابن الهيثم . وما نسب لروجر بيكون — خطأ — كان في الواقع لابن الهيثم . والقوانين التي تحكم العدسة المحدبة الوجهين حينما تثبت في موضع ما لتكبر جسماً من الاجسام هي نتيجة دراسات ابن الهيثم . ولولا هذه القوانين لكانت صناعة النظارات — التي هي اساس اختراع المرقب (التلسكوب) والمجهر (الميكروسكوب) — مستحيلة .

كانت لبحوث ابن الهيثم فوائد كثيرة . وقد ترجمت كتبه الى اللاتينية في القرن الثالث عشر . ولكتابه (المناظر) خمس ترجمات لاتينية وعدة ترجمات الى لغات اخرى .

يقول هارفي جبسون عن ابن الهيثم :

« درس ظواهر الانعكاس والانكسار وانتبه الى انحراف الاشعة عند لمسها جو الارض . وبما ان الارض محاطة بطبقة هوائية تقل كثافتها كلما ابتعدت عن سطح الارض . فالاشعة الشمسية يجب ان تنحرف نحو المركز وتنكسر حينما تلمس الطبقة الهوائية ونحن حينما نرى الشمس تهبط اولاً وراء الافق فهي في الواقع تكون قد غربت قبل ذلك بوقت قصير يعادل ثماني دقائق وربع » (١) .

Harvey Gibson says about Ibn Alhazen;

"He studied the Phenomena of reflection, and refraction, drawing attenion to the bending of the solar rays on striking the earth's atmosphere since the earth is enclosed in a sort of shell of air which becomes less dense the farther away it is from the surface, the solar rays, he said must be bent inwards and refracted where they strike the atmosphere so that when we see the sun first sinking below the horizon, it has really set sometime before we know that the interval is about eight and a quarter minutes"(1)

وابن الهيثم هو مكتشف الفرق بين الظل (Umbra) or (Umbrage) والظليل Perumbra . ورسالته عن البصريات ساعدت كبلر Kepler في الرجوع اليها كمرجع في بحوثه . ومن المؤكد ايضاً ان ليوناردو دافنشي عرف مؤلفات ابن الهيثم واستعان بها . ولم يشتهر ابن الهيثم بوصفه اكبر عالم في العلوم الطبيعية في القرون الوسطى فحسب بل يشتهر ايضاً كعالم في العلوم الرياضية وفي الامور الفلسفية والمنطقية وكتابات

---

1. Gibson Harvey, Two Thousand years of Science P. 43

كانت تدل على استقلاله الفكري وعلى وجود الآراء والافكار التي يلتزم فيها بتقليد من سبقه من العلماء منها كتابه (الجامع في اصول الحساب) الذي يبحث في اصول الهندسة والحساب والتحليل الهندسي والتقدير العددي . وفي هذا الكتاب يخالف ابن الهيثم من سبقوه . درس كتاب اقليدس وكتاب ابولونيوس ونظرياتهما الرياضية فرتب هذه النظريات وبرهن عليها ببراهين مختلفة . وفي ذلك يقول عن كتابه :

« جمعت فيه الاصول الهندسية والعددية من كتاب اوقليدس وابولونيوس ونوعت فيها الاصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الامور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاض توالي اوقليدس ابولونيوس».

وكان اهل بغداد يستشيرون ابن الهيثم فيما يخفى عليهم من المواضيع الرياضية والتعليمية . وكان يعرف اوضاع الابنية وكيفية شق الانهار وتنقية القنوات وتنظيم المساكن وبناء المدن والقلاع والاعمال الزراعية .

واشتهر من علماء الاسلام في الطبيعة والميكانيكا ابن سينا (٩٨٠—١٠٣٧) اعظم علماء الاسلام في الفلسفة ومن مشاهير الاطباء . وقد افرد فصولاً في كتابه (الشفاء) لموضوع سرعة الصوت وسرعة النور وقال ان البرق يرى والرعد يسمع ولا يرى فأذا اتفق حدوثهما معاً رؤى البرق اولاً وتأخر سماع الرعد، والنور اسرع من الصوت ومدى البصر ابعد من مدى الصوت . فالبرق يحس به حالاً وبلا زمان واما السمع فيحتاج الى بعض الوقت بسبب تموج الهواء ووجود اجسام صلبة او سائلة فيه . وقال ان السحب تتولد من البخار عندما تلامس طبقة هوائية باردة . وقال ان البخار هو الذي يكون المطر والثلج والجليد والصقيع والبرد وبسبب البخار يتكون قوس القزح والنيازك كما تتكون الشمسيات والهالة التي نراها حول القمر . ولابن سينا ابحاث قيمة عن المكان والزمان والحيز والاجسام والتمدد والحرارة والانارة والفراغ . وقال ان الشعاع يأتي الى العين من الجسم المرئي وان سرعة النور وان كانت محدودة فهي بالغة وتزيد على حد التصور .

وكتب ابو الريحان محمد بن احمد البيروني المولود في سنة ٩٧٣م والذي كان اعظم ظاهرة علمية في الحضارة الاسلامية في الطبيعة ولا سيما الميكانيكا والهيدروستاتيكا Hydrostatics اي علم توازن السوائل . وللبيروني بحوث في تمدد المعـــادن بالحرارة

وانكماشها بالبرودة وله شروح في ضغط السوائل وتوازنها وصعود مياه الفوارات والعيون الى اعلى بالاضافة الى شروحه عن تجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مأخذها من المياه القريبة اليها وتكون سطوح ما يجتمع منها موازية لتلك المياه . وقد اوضح البيروني كيف تفور العيون وكيف يمكن ان تصعد مياهها الى المرتفعات وبهذا يكون البيروني اول من وضع القواعد الاساسية في علمي الميكانيكا والهيدروستاتيكا . وللبيروني دراسات عن الفلزات وعن خواص عدد كبير من المعادن والعناصر وفوائدها التجارية والطبية بدأها ببحث عن الزئبق . وقام بتجربة لمعرفة الوزن النوعي لبعض العناصر وتوصل الى ايجاد الوزن النوعي لثمانية عشر عنصراً ومركباً بعضها من الحجارة الكريمة . وابتكر الجهاز المخروطي الذي يعتبر اقدم مقياس لحساب الكثافة . وابحاث البيروني في سرعة الصوت جاءت متفقة مع ابحاث ابن الهيثم التي وازن فيها بين سرعة الصوت وسرعة الضوء .

٥ ـ الطب

ان الطب اهم العلوم التي ازدهرت عند العرب . وفي الوقت الذي كان العرب يتقدمون بخطوات واسعة في مسير الحضارة كان اليونانيين يرجعون القهقرى لاسباب سياسية ومحلية وعلى الاخص لاشتداد الحوار والجدل حول التفاسير اللاهوتية .

فالطب عند اليونان كان مقصوراً على الدجالين والمشعوذين او معتمداً على حدوث معجزة موهومة لمجرد لجوء مريض الى ضريح قديس . وكان غالبية الناس عند اليونانيين يعتقدون في القديسين ويعتمدون على المشعوذين اكثر من اعتقادهم في الاطباء الحقيقيين ـــ ان وجدوا ـــ واعتمادهم عليهم وفي ذلك يقول الدكتور زكي علي :

« لقد انغمس الاطباء اليونانيون في تعاطي الطب عن طريق التدجيل Empiricism واتباع مذهب الغموض وتصديق اغرب الخرافات ناسين مبادىء ابقراط وجالينوس السديدة . والتاريخ لا يذكر طبيباً يونانياً جديراً بذكر اسمه طول امتداد العصر الاسلامي في الوقت الذي اضطر فيه حكام القسطنطينية ان ينشدوا الاطباء العرب ليكونوا مرشديهم في الامور الطبية . ويمكننا القول ان الطب اليوناني لم يكن ، في الواقع ، موجوداً عندما ظهر العرب على المسرح . واستمرت الحال على هذا المنوال من القرن

التاسع الى القرن الرابع عشر . وفي شخص الاطباء المسلمين اصبح الشرق مرة ثانية استاذ الغرب » (١) .

Zaki Ali States;

"Forgetting the rational principles of Hippocrates and Galen, the Greek physicians sank into empiricism, mysticism and the strangest superstitions. History does not mention a single Greek physician worthy of the same during the entire Islamic period, while the sovereigns of Constantinople were obliged to seek Arabian physicians as their advisers. Indeed, it may be said that Greek medicine was non-existent when the Arabs appeared upon the scene and that this state of affairs continued from the ninth to the fourteenth century. In the person of the Moslem physicians the East was once again the teacher of the West" (1).

وتذكر سيجرد هونكه امثلة عن الطب عند الفرنجة في عصر الحروب الصليبية نقلاً عن كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ بقولها « ان النبلاء الصليبيين كانوا لا يثقون مطلقاً بفن العلاج الشائع عند ابناء جلدتهم بل يؤثرون دوماً في الارض المقدسة الاطباء العرب في مداواة التهاباتهم الجلدية واضطراب معدهم وآلامهم الاخرى . ومن عجيب الطب عند الفرنجة ان كتبوا الى صاحب المنيطرة يطلبون منه انقاذ طبيب يداوي بعض مرضاهم فأرسل اليهم طبيباً نصرانياً يقال له ثابت . فغاب ثابت عشرة ايام ثم عاد فقال له قومه ما اسرع ما داويت المرضى فروى لهم ما صنع وما رآه بقوله » :

« احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دمّلة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شيئاً يداويهم وقال للفارس ايما احب اليك تعيش برجل واحدة او تموت برجلين . قال اعيش برجل واحدة قال احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعة فحضر الفارس والفأس وانا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها فضربه وانا اراه ، ضربة واحدة ما انقطعت ، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات الرجل من ساعته . وابصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان

(١) علي زكي ، الاسلام في العالم ص ١٣٨ .

قد دخل في رأسها فأخذ الموس وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتّى ظهر عظم الرأس حكه بالملح ، فماتت من وقتها . فقلت لهم : بقي لكم الي حاجة ؟ قالوا لا فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم اكن اعرفه » (١) .

وتروي سيجرد هونكه القصة التالية التي وقعت بعد مرور مائتي سنة على القصتين السابقتين فهي قصة رواها احد المؤرخين الأوربيين الثقات عن امير كان يشكوا قصراً في نفسه وسمنه في بدنه .

« استشار الامير طبيباً ليعرف اذا كانت سمنته هذه سترعجه وتتعبه في الرحلة التي ينوي القيام بها الى ابولين الايطالية وما عتّم الطبيب ان تناول موسى حادة شق بها بطن الامير الصغير المسكين ببساطة ، فنزع الشحم الزائد منه وانتزع روحه معه . اجل لقد كان ما حدث طريقة اساسية جذرية في المعالجة تذكرنا بفن الطبابة الغربي في الاراضي المقدسة » (٢) .

« والا ماذا نقول عن القصة التي سمعها الامير اسامة بأذنيه من فم السيد فيلهلم فون بورن في رحلته من عكا الى بحيرة طبرية بل برفقة معين الدين حاكم دمشق وصديق الامير اسامة بن منقذ » ؟

« لقد قصّ فيلهلم على رفاق سفره الدهشين ما يلي :

كان عندنا في بلاد فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت فجئنا الى قسيس كبير من قسوسنا وقلنا تجيء معنا حتّى تبصر الفارس فلاناً قال نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق انه اذا حط يده عليه عوفي . فلما رآه قال : اعطوني شمعاً فأحضرنا له قليل شمع فليّنه وعمله مثل عقد الاصبع وعمل كل واحدة في جانب انفه فمات الفارس فقلنا له . قد مات قال نعم ، كان يتعذب ، سددت انفه حتّى يموت ويستريح».

« ايد توضع وشيطان يطرد وصلاة تقام ، تلك كانت الوسائل المفضلة في المعالجة التي حاول بها اطباء اوربا عن طريق مسوح الكهنوت والرهبان انقاذ الانسانية المريضة وتخليصها من براثن الداء والالم » (٣) .

اننا في الوقت الذي نرى فيه الطب عند الفرنجة وفي بلاد الغرب قد انحدر الى

---

(١) هونكه سيجرد ، شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في اوربه ص ٢١٥-٢١٦
(٢) « « « « « « « « « « « « ص ٢١٦-٢١٧
(٣) « « « « « « « « « « « « ص ٢١٨

ادنى درجات الانحدار وقد غطت عقول الاطباء سحب من الجهل والدجل والاعتقاد بالخرافات ودخول الجن والشياطين عقول المرضى كان العرب في القرن التاسع قد استوعبوا جميع المعارف الطبية التي خلفها قدماء الهنــود والاغريق . ولم يمض الا وقت قصير حتى تربع العرب على عرش الطب وحدهم وحملوا مشعل السبق في هذا العلم واصبحوا الاساتذة المعتمدين فيه في العصور الوسطى العاملين على رقيه وتقدمه . وبالموازنة بين جهل الاطباء الفرنجة ومهارة الاطباء العرب نورد القصة التالية التي تبين بوضوح عبقرية الاطباء العرب ومقدرتهم على تشخيص المرض ووصف العلاج الشافي نقلاً عن سيجرد هونكه اذ تقول :

« يروى ان صبياً يافعاً قد اتى يوماً من الايام الى الرازي يشكو له ، في اضطراب كبير وخوف عظيم ، حالته التي ساءت خلال رحلته وانتهى به الامر الى بصق الدم. فعاينه الطبيب بهدوء كبير دون ان يعثر على سبب . فلم يكن هنالك اي سرطان او اي التهاب رئوي او اي التهاب آخر . فطلب من الفتى ان يتريث قليلاً ويصبر حتى يتمكن من اعادة درس قضيته ثانية لعله يوفق في الكشف عن علته . وهنا تعالى صراخ المريض وانهمرت دموعه وعلا نحيبه قائلاً :

« اذا كان امهر اطباء العالم عاجزاً عن معرفة ما بي . فسلام علي ، وان بوسع الناحبات ان يولولن من ورائي عاجلاً » .

وقلّب الرازي القضية من كل جوانبها وسأله اخيراً :

اي ماء شربت في رحلتك ؟ فأجاب الفتى « لقد شربت هنا وهناك من ماء الآبار والمستنقعات » فقال له « لا ريب انك ابتلعت علقة دموية تثبتت في امعائك . فأرجع لي غداً حتى اجري لك العلاج الخاص . « ولكن اصدر امراً لخدملك حتى ينفذوا تعليماتي » . وتمضي فتقول :

وفي اليوم التالي اتى خدم الفتى بكمية كبيرة من الطحلب (شيبة العجوز): (نبات) فأشار الرازي على مريضه ان يبدأ في أكلها وامعاؤه خاوية . وظل هذا يمضغ منها حتى ضاق ضرعاً بها وشعر بها في حلقه . ثم دعاه الى القيء فخرجت من الامعاء علقة دموية مفزعة وسر الفتى سروراً بالغاً وغمره الفرح لانه خيب آمال الناحبات وانطلق يذيع في الآفاق معجزة (اميرالاطباء) و(ابوقراط العرب) ومنقذ المؤمنين»(١)

---

(١) هونكه سيجرد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية في اوربا ص ٢٤٥

وتقول سيجرد هونكه أيضاً :

كان النصارى والهنود واطباء جنديسابور يحتكرون مهنة الطب طول العصر الاموي والصدر الاول من العصر العباسي . وما ان اكتمل عصر الترجمة واطلع العرب على مخلفات الاقدمين من هنود ويونان في هذا العلم حتى نبغ عدد من الاطباء العرب المسلمين الذين ساهموا في النهضة الطبية جنباً الى جنب مع الاطباء من غير العرب » .

« ويصعب في كثير من الاحيان تعيين الحد الفاصل بين الترجمة والوضع . فقد كان كثير من المترجمين واضعين في الوقت نفسه ، وهذا يصدق على يوحنا بن ماسويه (٧٧٧—٨٥٧) وحنين بن اسحق (٨٠٩—٨٧٣) فالاول كان طبيباً نصرانياً درس على جبريل بن بختيشوع ويذكر عنه انه لما عجز عن الحصول على جثث بشرية للتشريح لما في ذلك من مغايرة لروح الاسلام عمد الى القردة فشرحها. ولم يكن تقدم علم التشريح ممكناً في مثل تلك الاوضاع الا في بعض الفروع كدراسة العين . وكان انتشار امراض العين في العراق وسواه من الاقطار الاسلامية الحارة داعياً الى تركيز جهود الاطباء على هذه الناحية . ورسالة ابن ماسويه في معالجة امراض العين تعد اقدم محاولة علاجية لامراض العين بشكل منتظم . وهنالك (عشر مقالات في العين) لتلميذ ابن ماسويه حنين بن اسحق ترجمت الى اللغة الانكليزية وأعدت على شكل كتاب يعد اقدم كتاب مدرسي في امراض العين بين ايدينا » (١) .

والعصر العباسي هو العصر الذهبي للطب العربي وقد تقدم الطب في هذا العصر على ثلاث مراحل كما يقول عبد الحليم منتصر . المرحلة الاولى كانت على يد رواد الطب الاوائل ويتزعمها بختيشوع ويوحنا بن ماسويه . وقد فطن هارون الرشيد الى الطب الذي كان يمارسه بختيشوع ويدرسه كما يدرسه ابن ماسويه فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب اليونانية والسريانية في الطب وحاول بذلك ان يجعل من بغداد مركزاً لتأصيل الطب وان لا يكون الاعتماد في تعليمه على من يستقدمهم من الاجانب . اما يوحنا بن ماسويه فكان قد ارسله الخليفة الى جنديسابور لتعلم الطب على اهلها . غير انه لم يبلغ من النجاح في العلاج ما بلغه اطباء جنديسابور .

---

(١) حتي فيليب ، تاريخ العرب المطول ص ٤٤٤

والمرحلة الثانية بدأت في عصر الترجمة ايام المأمون وظهر في هذا العصر ثلاث فئات من الاطباء في ثلاث مدن . الفئة الاولى ظهرت في جنديسابور وكان يتزعمها جبرائيل بن بختشوع واصبح آل بختيشوع اطباء البلاط المهتمين بمعالجة الخلفاء والامراء وكان جبرائيل طبيباً كأبيه بختيشوع يهتم بالعلاج اكثر من اهتمامه بالترجمة .

والفئة الثانية كانت تسكن الحيرة ويتزعمها حنين بن اسحق وقد تعلم الطب على يد يوحنا بن ماسويه وكان يتكلم السريانية ويتقنها ورحل الى اليونان وتعلم لغتها وحذقها ثم رحل الى البصرة وتعلم العربية على يد افضل علمائها وقام بترجمة الكتب الطبية اليونانية ترجمة متقنة .

والفئة الثالثة كانت تسكن حران ويتزعمها ثابت بن قره وابنه سنان وكانا طبيبين بالاضافة الى انهما كانا مترجمين وقد ترجما عدداً من الكتب الطبية اليونانية بالاضافة الى ترجمة كتب في الهندسة والفلك .

والمرحلة الثالثة – مرحلة النضوج الطبي وهي المرحلة التي ارتفع فيها شأن العرب في العلوم الطبية وكانت تعتبر العصر الذهبي للطب العربي ويتزعمها ابو بكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٥–٩٢٥) ويقول عبد الحليم منتصر .

« كان موطن العلم السرياني بلدة جنديسابور وقد رحل اليها السريان هرباً من اضطهاد اباطرة بيزنطية واساقفتها للمذهب النسطوري الذي اعتنقوه . وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية في شغل بالخلافات الدينية ومحاربة الهرطقة ووضع اسس العقيدة الصحيحة والفصل في منازعات البطاركة. وقد شغلوا بهذا كله عن العلوم والفلسفة وبقيت الكتب العلمية في مكتبات بيزنطية بعيدة عن متناول الباحثين خوفاً عليهم من الزيغ . واحتفظ السريان بكتبهم المترجمة وحملوها الى منفاهم . ولا نزاع في أن الطب السرياني في جند يسابور كان ارقى كثيراً من طب البلاد المجاورة بما في ذلك بيزنطية وانطاكية والاسكندرية » (١) .

كان ينتظر من الطبيب العربي ان يكون موسوعة لسائر العلوم . وكان يطلب منه ان يعرف – عدا الطب – الكيمياء والصيدلة وان يمارس فنه حسب مبادىء المنطق والعلم والرياضيات . وقد اسست معاهد مختلفة لهذا الغرض وانشئت المستشفيات لمعالجة

(١) عبد الحليم منتصر ، أثر العرب في النهضة الاوروبية ص ٢٦٨–٢٧٠

الاغنياء والفقراء على السواء وبوشر بالابحاث الطبية بصورة واسعة واعطيت للعمليات الجراحية والتجارب العلمية المنزلة الاولى . وقد اعتبر المسلمون المرض ظاهرة طبيعية بينما اعتبره الاطباء الاوربيون ناجماً عن أذى الشياطين او غضب الله . وصف العرب الامراض واعراضها بدقة متناهية ومهارة فائقة وعينوا وصفات طبية للعلاج ؛ ونتيجة لمهاراتهم الطبية اصبحوا اساتذة في التجارب العلمية واختصاصيين في امور الصحة والغذاء كما كانوا اختصاصيين في تركيب العقاقير والادوية . :

« يقال ان اكبر اطباء الخليفة علق قطعاً من اللحم في اطراف مختلفة في بغداد وبعد وقت قصير فحصت هذه القطع فتقرر بناء مستشفى في المكان الذي كان التعفن فيه ابطأ من غيره » (١) .

Richard Newhall States.

"It is said that the Caliph's chief physician hung pieces of meat in different Parts of Baghdad. After some time these were examined and the hospital located at the place where putrefaction had been the slowest" (1)

وفي الوقت الذي كانت الامم اللاتينية تجهل الطب جهلاً يكاد يكون تاماً كان الطب العربي ناجحاً . وكان على الامم اللاتينية ان تأخذه عن العرب . وقد اخذوا ينقلون الطب العربي كله علماً وعملاً الى بلادهم وعرفوا منه القدر الذي سمح به تقدمهم الفكري حينذاك . وكان حتماً ان يسيروا بهذا العلم الجديد سيراً حثيثاً حتى يتقدم وينمو نمواً ذاتياً حثيثاً .

كان الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والعلوم الطبيعية اهم العلوم التي اتم فيها العرب اعظم اكتشافاتهم . فقد اهتموا بها اعظم اهتمام وترجمت كتبهم الطبية الى معظم اللغات الاوربية . وكانت المستشفيات الكبرى بمثابة كليات للطب يتعلم فيها الطلاب العلوم الطبية فيدرسون كتب ابقراط وجالينوس الطبية المترجمة الى اللغة العربية ويستمعون الى اساتذتهم العرب وكبار اطبائهم في باحات الجوامع وفي مدارس خاصة طبية كان يديرها اطباء معروفون .

الــرازي :

امتاز الاطباء العرب بمعارفهم الطبية الواسعة الشاملة التي لم يتوصل الى مثلها احد سواهم منذ عهد جالينوس . وكان ابو بكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٥–٩٢٥) اعظم اطباء القرون الوسطى منذ ابتدأ العصر الذهبي للطب عند العرب .

1. Newhall Richard Ager, The Crusades P. 93

ولد الرازي في مدينة الري بخراسان الواقعة شرق مدينة طهران واشتهر عند الغرب باسم (رازاس Rhazes). وتعلم الطب على يد احد تلامذة حنين بن اسحق رئيس مترجمي شاكر بن موسى . ودرس فنون العلاج المعروفة عند الاغريق والفرس والهند والعرب. كما درس العلوم والخيمياء Alchemy . واصبح طبيباً وكيميائياً ماهراً، بل اعظم الاطباء في العصور الوسطى . ويعده البعض اعظم الاطباء في كل العصور. واشتهر بكونه اعظم معلمي الطب الاكلينيكي وكان مرجعاً لكل الحالات المرضية المستعصية » .

زاول الرازي الطب في بغداد خمسين سنة وقد احصى له ابن النديم مائة وثلاثة عشر كتاباً وثمان وعشرين رسالة منها اثنا عشر مؤلفاً في الكيمياء . وكانت كتبه في بعض الحميات ذات البثور كالحصبة والجدري المرجع المعتمد الوحيد للاطباء عدة قرون .

« كان واسع الاطلاع في علم التشريح وكان كتابه في امراض الاطفال اول كتاب بحث في هذا الموضوع . ويرى في كتبه وسائل جديدة للمداواة كاستعمال الماء البارد في الحميات المستمرة والذي اخذ به علم الطب الحديث وكاستخدام الكحول والفتائل وكاستخدام المحاجم لمعالجة داء السكتة .

والرازي هو أوّل من ادخل التركيبات الكيماوية في العلاجات الطبية . واول من استعمل البنج في الطب. واول من وضع مقالات خاصة في امراض الاطفال . ورسالته عن الجدري والحصبة تعد مفخرة من مفاخر المؤلفات الطبية عند العرب . وقد اكسبته شهرة في انه من اقدر المفكرين المبتكرين ومن اعلام الاطباء السريريين ليس في العالم الاسلامي فحسب بل ايضاً في سائر انحاء العالم في العصور الوسطى . وقد ترجمت رسالة الرازي مع غيرها من مؤلفاته التي يزيد عددها على مائتي مؤلف الى اللغة اللاتينية . وطبعت عدة مرات ولا سيما في البندقية في سنة ١٥٠٩ . واعيد طبع رسالته في الجدري والحصبة في سنة ١٧٤٥ واستمرت جامعات الطب في اوربا في اعتماد كتب الرازي زمناً طويلاً » (١) .

ومن ابرز مميزات الرازي حرصه على نقاوة هواء البيوت وصفاء مائها وضرورة الاغتسال به في الوقت الذي كانت اوربا في العصور الوسطى ترى في الاغتسال

---

(١) لوبون غوستاف ، حضارة العرب ص ٤٨٩

بالماء اثماً شديداً وعاراً كبيراً فحرمته كما حرمت ممارسة الرياضة والقيام بالحركات الجسدية . واهتم الرازي بشكل خاص بانزال المرضى في منازل تتوافر فيها الشروط الصحية من حيث الانارة والنظافة ونقاوة الهواء وصفاء الماء وتعرضها لاشعة الشمس وخلوها من الرطوبة والرياح والتيارات الهوائية .

كان الرازي يجرب كل العقاقير الجديدة قبل ان يصفها للناس . ويفضل النباتات الطبيعية على العقاقير . كان يفكر ويجري التجارب على القردة وبعض الحيوانات ، ويدرس تأثيراتها عليها ويستخرج النتائج منها قبل ان يستعملها للانسان . وكان يعمل بعقلية العالم الذي لا يؤمن الا بالحقائق . درس افكارالصوفيين وشطحات المشعوذين فابتعد عنها ونبذها جانباً واخذ من الصوفيين والخيمائيين صبرهم في محاولتهم تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب وفضة ، وهو الصبر الذي اوصله الى وضع اسس علم الكيمياء الحقيقي القائم على التجربة ، واستخدام علم الكيمياء في الارتفاع بعلم الطب .

كان الرازي انساناً بكل معنى الكلمة ، يحب الناس ويعطف على الفقراء . وقد وضع كتاباً سماه (طب الفقراء) . وهو عبارة عن قاموس طبي شعبي ذكر فيه كل الامراض التي تصيب الفقراء ووصف اعراضها وظواهرها ومؤثراتها وطرق علاجها ووسائل مكافحتها في البيوت .

والرازي هو اول من تحدث عن اوجاع المفاصل والحصى المترسبة واوجاع الكلى وامراض الاطفال كما تقول سيجرد هونكه . ويقول الرازي نقلاً عن سيجرد هونكه ايضاً :

« وحيث المواد الغذائية تشفي وتنفع ، فعليك بها دون العقاقير ، وحيث المواد البسيطة تكفي ، فعليك بها دون المركبة ، هذه نصيحة الرازي لكل طبيب جديد »(١). وتمضي سيجرد هونكه فتقول :

« كان الرازي طبيباً عن اقتناع داخلي ، وكان له اقتناع تام بقدسية مهنته وبرسالته في المجتمع . وشعر بمسؤولياته تجاه طبقة الاطباء ، رأى في الشعوذة وتجار الطب مضار وتدنيساً للرسالة المقدسة ، فحمل عليهم حملة شعواء كشفت النقاب عن وجوههم امام الجماهير . واضطر المسؤولون فيما بعد ، كنتيجة لهذه الحملات ، ان يزدادوا

(١) هونكه سيجرد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية في اوربا

صرامة في تعليم النشيء الجديد . ثم ادخلت الامتحانات واعطيت الاجازات بعد ست سنوات من موته » (١) .

ومن اشهر مؤلفات الرازي الطبية بالاضافة الى رسالتيه في الجدري والحصبة كتابه (الحاوي) الذي يقع في ثلاثين جزءاً، وهو اضخم مؤلف طبي في تاريخ الطب، بل موسوعة طبية جمع فيها كل المعارف الطبية التي توصل اليها العقل البشري منذ ايام ابقراط حتى تاريخ تأليفه . وكان قد قرأ كل ما وصلت اليه يداه من كتب الطب اليونانية والهندية والفارسية والعربية ونقل منها فقرات بكاملها وزاد عليها .

وعندما كان الرازي مقيماً في فارس وضع كتاباً في عشرة اجزاء اهداه الى الامير المنصور بن اسحق حاكم خراسان وسماه (الكتاب المنصوري) . وسبب التسمية هو ان الامير منصور كان احد المحسنين اليه . وقد ترجم هذا الكتاب جيرارد الكريموني الى اللاتينية في القرن الثاني عشر . ويمتاز هذا الكتاب بروح النظام وفيه ان الرازي قد نسب كل شيء قاله الى قائـله . ونشر لاول مرة في ميلان ما بين ١٤٨٠م ١٤٨٩. ونقلت فصول منه الى الفرنسية والالمانية وتبحث اجزاء هذا الكتاب في المواضيع التالية :-

١ - المدخل في الطب وفي شكل الاعضاء والتشريح ٢ - الامزجة ٣ - الاغذية والادوية ٤ - الصحة ٥ - الزينة ودواء البشر ٦ - نظام السفر وتدبير المسافرين ٧ - الجراحة وصناعة التجبير والجراحات والقروح ٨ - السموم ٩ - الامراض بشكل عام من القرن الى القدم ١٠ - الحميات .

لقد ترجمت اكثر مؤلفات الرازي الى اللغة اللاتينية وطبعت عدة مرات وظلت جامعات الطب في اوربا تعتمد كتبه عدة قرون. وكانت كتبه وكتب ابن سينا اساساً للتدريس في جامعة لوفان في القرن السابع عشر للميلاد .

ابن سينا :

هو الشيخ الرئيس ابو علي الحسين بن عبدالله بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) اعظم علماء الاسلام وامير الاطباء وزعيمهم، كما كان يطلق عليه . وقد عدّ اشهر الاطباء واكثرهم حجية في القرون الوسطى ويقول عنه الدكتور فيليب حتي :

(١) هونكه سيجرد ، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في اوربا ص ٢٥٢ و ٢٥١

«كان اسم ابن سينا المع اسم بعد الرازي في تاريخ الطب العربي. وقد لقب لشهرته بالشيخ الرئيس ، غير ان الرازي كان يتفوق على ابن سينا في الطب وكان ابن سينا يتفوق على الرازي في الفلسفة » (١) .

ويقول الدكتور عزيز عطية الاستاذ في جامعة لندن :

« كان ابن سينا اعظم خلف للرازي في حقل الطب ، كان فيلسوفاً وطبيباً . وكان موطنه بخارى . وقد التحق ببلاط السلطان نوح بن منصور الساماني . وكان شديد الولع بالقراءة وكثير الانتاج في الكتابة . وقائمة مؤلفاته تضم تسعة وتسعين موضوعاً في الطب والفلك والهندسة والفلسفة واللاهوت وفقه اللغة . وقد هضم ثمار العلوم العالمية في الطب اليوناني والعربي ومن ضمنها إثنان من مؤلفاته هما كتاب (الشفاء) وكتاب (القانون في الطب) وكل منهما كتاب فخم حجماً واهمية . ويتألف اولهما من ثمانية عشر مجلداً هي عبارة عن موسوعة حقيقية تحتوي كل المعـــارف الضرورية لشفاء الروح — من العلوم الحقيقية الى الانسانيات حتى الاقتصاد والموسيقى — . وكتاب (القانون في الطب) الذي ترجمه جيرارد الكريموني الى اللاتينية في القرن الثاني عشر ويحتوي على مالا يقل عن مليون كلمة. وقد حل محل جميع المؤلفات الطبية السابقة . وتضم هذه الموسوعة في المهن الطبية الشاملة عرضاً كاملاً لعلم التشريح وعلم وظائف الاعضاء وعلم الامراض وعلم الصحة وعلم المعالجات الطبية وعلم تركيب العقاقير في ذلك العصر (علم الصيدلة) وقد احصى سبعماية وستين عقاراً طبياً . واقر باذينه اي دستوره الطبي الذي ظل المعيار المعتمد حتى بزوغ العلم التجريبي في التاريخ الحديث. وقد وصف ذات الجنب والسل . وبين ان الاخير مرض معد وشرح الطريقة التي تنتقل بها بعض الامراض بالتلوث عن طريق التراب او الماء » (٢) .

Professor Aziz Atya States:

"Al-Razis greatest successor in the field of medicine was the Philosopher and physician. Ibn Sina (Avicenna 980-1037) a native of Bukhara, who became attached to the court of the Samanid Sultan Nuh Ibn Mansour. He was a Voracious reader and a prolific writer. His list of known works includes ninety - nine items on medicine, astronomy, geometry, Philosophy, theology, and philology. He assimilated the fruit of both the Greek and Arabic universal and medical scholarship in two works of reference; Kitab Al-Shifa (Book of Healing) and

(١) حتي فيليب – تاريخ العرب المطول ص ٤٤٩
(٢) عطية عبد العزيز ، الحروب الصليبية والتجارة والثقافة ص ٢٣٣

Al - Qanun fi al Tibb (canon in Medicine). Both are monumental in size and importance. The first, in eighteen Volumes, is a veritable encyclopaedia comprising all the knowledge necessary for "healing the spirit", from the exact sciences to the humanities, and even economics and music. The "Canon in Medicine" which was translated into Latin by Gerard of Cremona in the twelfth century, consisted of no less than a million words and superseded all previous works in medicine, al Razis included a comprehensive encyclopaedia of the medical profession.It embodied fullest exposition of anatomy, physiology, pathology, hygiene, therapeutics and pharmacology of the day. His listed drugs number 760 and his pharmacopoeia remained the standard authority until the dawn of experimental science in modern history. He described pleurisy and tuberculosis, showing the latter to be contagious. He explained the way in which certain diseases might be transmitted by contamination through soil or water" (1)

كان ابن سينا من اذكياء العالم بل المع اسم بعد الرازي في تاريخ الطب العربي . كان في مقتبل عمره جابياً ثم ارتقى الى منصب وزير. وكان ابوه اسماعيلياً وتذكر سيجرد هونكه ان ابن سينا كان اول من وصف الجمرة الفحمية المعدية او الجمرة الخبيثة وما يصحبها من حمى تسمى بالحمى الفارسية، واول من وصف الامراض التي تسبب اليرقان،واول من اكتشف ان السرطان الموضعي يعطي اعراض السرطان العام في الجسم،واول من اكتشف التهابات غشاء الدماغ المعدية وميزها عن الالتهابات المزمنة،واول من شخص مرض تصلب الرقبة والتهاب السحايا بشكل واضح يضاهي ما يقوم به اطباء العصر الحاضر، واول من شخص بدقة تامة التهاب الاضلاع والتهاب الرئة وخراج الكبد. وميز بين الالتهاب الرئوي والتهاب السحايا الحاد،واول من فرق بين اعراض المغص المعوي والمغص الكلوي . ووصف شلل الوجه واسبابه وميز بين الشلل الناتج عن سبب مركزي في الدماغ والناتج عن سبب محلي. ووصف تصلب الاعضاء في القفص الصدري،واول من اكد امكانية عدوى داء السل وخطر الاشعة الشمسية على المصابين به وانتقال الامراض عن طريق الماء والتراب .

وابن سينا ايضاً اول من اكتشف اورام المخ وقال بوجودها . وتشخيصاته في اعراض الاورام السرطانية اتصفت بالدقة . وهو اول من اكتشف مرض الانكلوستوما واول من استعمل كيس الثلج في الحميات . وهو اعمق الباحثين في امراض قرحة المعدة واول من استعمل الزوان والشيلم في التخدير في اجراء العمليات الجراحية . وله الفضل في ادخال عدد كبير من الادوية النافعة التي لم تستعمل من قبل .

(1) Aziz, Atiya, The Crusades, Trade and Culture, P. 233

ولابن سينا طرق مشوقة في وصف الامراض العقلية وابتكارات في طرق علاجها . ويروى ان اميراً من بني بويه اصيب في القرن الرابع الهجري بمرض عصبي عجز اطباء عصره عن علاجه وشفائه وقد اخذت حالة الامير تسوء بسبب مرضه وامتناعه عن تناول الطعام فضعف جسمه وهزل بدنه وتوهم انه تحول الى بقرة فكان يقلد صوتها وحركاتها ويصرخ قائلاً اذبحوني واطعموا لحمي للناس . ولما سمع اهله بابن سينا استدعوه ووصفوا له حالته وكان معه بعض اتباعه ويحمل بيديه سكينتين كبيرتين اخذ يشحذهما على مرأى من الناس . ثم صاح اين البقرة التي تريدون ذبحها ؟ فلما سمع الامير المريض الصوت سر كثيراً وانفرجت اسارير وجهه واخذ يقلد صوت البقرة وهو يتقدم نحو مصدر الصوت . ثم امر ابن سينا اتباعه بشد وثاق الامير وطرحه ارضاً . ثم اخذ يتحسس الامير بطرف السكين. ثم صاح في الناس ان هذه البقرة هزيلة وضعيفة لا تصلح للاكل ولا للذبح . اطعموها واعلفوها جيداً حتى تسمن وتصلح للذبح ويصلح لحمها للاكل . ومن ساعتها بدأ الامير يأكل الطعام الذي يقدم له وكان اهله يضعون فيه الادوية التي وصفها ابن سينا خفية عنه . وبدأت صحته بعد ذلك تتحسن واخذ يتماثل للشفاء حتى شفي تماماً من مرضه .

امتاز ، ابن سينا بمواهب باهرة اعانته على تفهم العلوم وحفظها. واستطاع في زمن قصير ان يحظى بشهرة واسعة في الطب مما حدا بنوح بن منصور سلطان بخارى ان يستدعيه لمعالجته على اثر مرض شديد اصابه في الوقت الذي فشل في علاجه كبار اطباء عصره . فنجح ابن سينا في علاجه وشفائه من مرضه وان يلحقه السلطان بحاشيته وسمح له بالاطلاع على مكتبته الكبيرة الزاخرة بشتى المؤلفات العلمية فيقبل على قراءتها ويقول في ذلك :

« رأيت فيها من الكتب مالم يقع اسمه الى الكثير من الناس قط ، ولا رأيته قبل ، ولا رأيته ايضاً من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في عمله » .

وقد اعانته تلك الكتب على تفهم العلوم وحفظها فأستوعب اهم محتوياتها . ولم يكن يبلغ الحادية والعشرين من عمره حتى انس من نفسه استعداداً للشروع في التأليف فأخذ على عاتقه امر تنظيم المعارف الرائجة في عصره وضبطها .

لقد امتازت كتب ابن سينا على انواعها المختلفة من كتب مختصرة الى موسوعات ضخمة ضمت بين دفتيهـا كل معارف العصور السابقة شرقيـة وغربية كأحسن ما يكون التنظيم ومسلسلة كأحسن ما يكون التسلسل ومشروحة شرحاً وافياً كافياً يدلّ على غزارة موهبة واضعها وعبقرية كاتبها .

ولابن سينا عدة مؤلفات اهمها : كتابان هما (الشفاء) و (القانون في الطب) اما الشفاء فهو موسوعة علمية مبنية على تقاليد ارسطو كما تراها الافلاطونية الجديدة وعلى علم الالهيات الاسلامي .

اما (القانون في الطب) فقد اجمعت الامم العربية واللاتينية قديماً على الاعجاب بتأليفه. ولا يزال يتعلم الناس الطب في الباكستان كما جاء فيه. وقد ظل الاطباء يدرسونه في جامعات اوربا حتى منتصف القرن السادس عشر. وهو عبارة عن تركيز لتراث المعارف الطبية اليونانية مضافاً اليها الزيادات العربية. فهو قمة في التأليف. ويعد من الكتب العالمية ككتاب ارسطو في الفلسفة وكتاب اقليدس في الهندسة وكتاب بطليموس (الماجستي) في الفلك . وقد ترجمه جيرارد الكريموني الى اللاتينية في القرن الثاني عشر لما فيه من المعلومات الشاملة والترتيب المنظم والاسلوب الفلسفي. وسرعان ما اعتلى مرتبة عالية في آداب ذلك العصر الطبية واحتل المكانة التي كانت تحتلها كتب جالينوس . وكتاب (الحاوي) للرازي ظل في الطليعة حتى القرن السادس عشر . والدليل على اهلية كتاب (القانون) لابن سينا هو ان فيراريوس الذي عاش في القرن الخامس عشر استشهد بأبن سينا ثلاثة آلاف مرة وبالرازي وجالينوس الف مرة وبأبقراط مائة واربعين مرة . وقد ترجمت كتب ابن سينا الطبية الى معظم لغات العالم. وظلت نيفاً وستة قرون مرجعاً عالمياً في الطب،وخاصة في جميع جامعات فرنسا وايطاليا . وكان طبعها يعاد حتى القرن الثامن عشر ، ولم ينقطع تفسيرها في جامعة مونبليه الا منذ خمسين سنة .

وقد قسم ابن سينا ابواب كتاب (القانون في الطب) حسب ادق المراجع العلمية . وقسم فيه الامراض لاول مرة في تاريخ الطب الى رأسية وصدرية وباطنية وعصبية ونسائية وتناسلية . وقد شرح كل قسم شرحاً دقيقاً وافياً. وتحدث عن كل مرض نشأته واسبابه واعراضه وطرق علاجه . ويقول جلال مظهر نقلاً عن دورانت في كتابه (قصة الحضارة) .

« بلغ الطب الاسلامي عن طريق ابن سينا عميد الاطباء واميرهم اوج عظمته. بدأ مباحثه في الكتاب الاول (القانون في الطب) اولاً : بالامراض المستعصية بحثاً عما وراء اعراضها وتشخيصها وعلاجها . وله فصول في الوقاية العامة والفردية من الامراض وفي علم الصحة وفي العلاج عن طريق الحقن الشرجية والفصد والكي والحمامات والتدليك . ويوصي بالتنفس العميق وحتى بالصياح العالي بين آن وآخر من اجل تقوية الرئتين والصدر والغلصمة (مقدم الرقبة) . لخّص في الكتاب الثاني معلومات اليونان والعرب عن النباتات الطبية وتكلم في الكتاب الثالث عن علم الامراض الخاص . ويشمل بحوثاً ممتازة في التهاب البلورة والدبال والاضطرابات المعوية والامراض الجنسية والانحرافات والاضطرابات العصبية بما في ذلك الحب . وبحث في الكتاب الرابع الحميات والجراحة والعطور والعناية بالشعر والجلد . واما الكتاب الخامس فقصره على المادة الطبية واصفاً بذلك طرق تركيب سبعماية وستين عقاراً » (١) .

ومن عظماء الاطباء العرب علي بن العباس المتوفى في سنة ٩٩٤م وقد اشتهر في الغرب وعرف باسم Hally Abbas ومؤلفه (الكتاب الملكي) جاء جامعاً كل علوم الشعوب في تلك العصور وشاملاً كل المعارف مشروحة شرحاً منظماً . وهو يشتمل على عشرة كتب في الطب النظري وعشرة اخرى في الطب العملي .

وقد بلغت الجراحة العربية ذروتها في القرون الوسطى عن طريق النابغة العربي ابن القاسم الزهراوي المتوفى في عام ١٠١٣م نسبة الى مسقط رأسه الزهراء بالاندلس . كان ابو القاسم نجم الجراحة العربية الساطع في قصر الحكم الثاني في قرطبة . واشهر كتبه كتابه الشامل لكل تجاربه الخاصة (التصريف لمن عجز عن التأليف) . وقد وضع في هذا الكتاب اسس الجراحة وسما بهذا الفرع من الطب الى اعلى الدرجات. ويتألف كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) من ثلاثين فصلاً . واهم فصوله الفصل الاخير الذي يتكلم فيه عن الجراحة ويشتمل على صور توضيحية لالات الجراحة التي تزيد على مائتي آلة جراحية . وقد ادخل تجديدات كثيرة ليس على علم الجراحة فحسب بل ايضاً على طرق مداواة الجروح كتفتيت الحصاة داخل المثانة وفي التشريح واجراء العمليات .

---

(١) مظهر جلال ، اثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٤٢

ومن مشاهير الاطباء العرب ابن زهر الاشبيلي نسبة الى اشبيلية والمتحدر من عائلة عريقة في الطب تمتد فروعها الى ان تصل الى جذورها العربية . عاش ابن زهر في القرن الثاني عشر وتوفي في سنة ١١٦٢ واسمه الكامل ابو مروان عبدالله بن زهر. وقد اخرجت عائلته ستة من مشاهير الاطباء . كان اعظم اطباء عصره واعظم معلم في الطب الاكلينكي بعد الرازي. واهم كتبه (التيسير في المداواة والتدبير) وهو موسوعة طبية يظهر فيها رسوخ قدم ابن زهر في الطب ويقف ابن زهر بين كل الاطباء العرب الى جانب الرازي في ابعادهما الطب عن الفلسفة او التأثر بأية معتقدات موروثة. اخرج ابن زهر كتابه (التيسير في المداواة والتدبير) بناء على نصيحة صديقه الفيلسوف ابن رشد الذي كان يعتبره اعظم الاطباء منذ عصرجالينوس . ومن نظرياته ان في البـــدن قوة كامنة ناظمة للاعضاء كافيـــة وحدها لشفاء الامراض على العموم . وتدين له الجراحة بأول فكرة عن جراحة الجهاز الهضمي . وقد وصف انواعاً مختلفة من الاغذية والادوية البسيطة وعدد فوائدها .

لقد بلغت الجراحة العربية في العصور الوسطى ذروتها من التقدم والمهارة . واصبحت علماً وفناً له قواعد واصول . فقد ارتفع العرب بفن الجراحة فوق مستوى المشعوذين والجهلة والادعياء من الاطباء الغربيين الذين كانوا يقومون بهذه المهنة الشريفة الخطيرة .

واما طب العيون فيكاد يكون طباً عربياً صرفاً. فلم يصل الى مستواهم في طب العيون لا الاغريق من قبلهم ولا اللاتين الذين عاصروهم او اتوا من بعدهم . ومؤلفاتهم في طب العيون ظلت تدرس في جميع جامعات اوربا حتى القرن الثامن عشر بأعتبارها المؤلفات الوحيدة المعتمدة في هذا النوع من الطب .

ومن مشاهير اطباء العيون العرب عمار الموصلي (٩٩٦-١٠٢٠) الذي نشأ في القاهرة وعاش في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم . وصف امراض العين وطرق علاجها بابتكارية واصالة وبأبحاث منظمة تنظيماً دقيقاً. وشرح العمليات الجراحية للعين شرحاً وافياً وخاصة العمليات الخاصة باظلام العدسة البسيطة بوساطة المص وقد ترجم كتابه الى اللاتينية وظل معتمداً في تعليم طب العيون في جامعات اوربا حتى القرن الثامن عشر .

واشهر اطباء العيون في القرون الوسطى علي بن عيسى الذي عاش في القرن العاشر .

ويقول جلال مظهر :

« واما اعظم مطببي العيون في العصور الوسطى برمتها فعلي بن عيسى . في اللاتينية (Haly) ولـــد في اغلب الظن في اوائل القرن العاشر وعلى الارجح في بغـــداد حيث اقام واشتهر بها . و (التذكرة) اعظم مؤلفـــاته . وهو مؤلف في ثلاثة كتب يدل على سعة علم ودقة متناهية . الكتاب الاول في تشريح وعلم وظائف العين يقع في اثني عشر فصلاً وفي هذا الكتاب يشرح ١٣٠ مرضاً من امراض العيون ويعطي استعمال ١٤٣ دواء . واما اهم ما في هذا العمل فتجديداته في عمليات العيون الجراحية، ذلك انه لم يكن كسابقيه من اليونان او كمعارضيه من بني جلدته اذ كان اول من استعمل التخدير في عمليات العيون »(١) .

كان الطب العربي ناجحاً جداً في القرون الوسطى. وكانت الامم اللاتينية تجهل الطب جهلاً يكاد يكون تاماً. وكان حتماً ان يأخذوه عن العرب. فأخذوا ينقلون الطب العربي كله علماً وعملاً الى بلادهم وعرفوا منه القدر الذي سمح به تقدمهم الفكري آنذاك . وكان حتماً ان يسيروا بهذا العلم الجديد سيراً حثيثاً حتى يتأصل فيهم وينمو عندهم نمواً ذاتياً .

اذا كان الصليبيون قد استفادوا من ثقافة الشرق وكنوزه فأنهم لا ريب استفادوا فائدة جلى من الطب الذي هو افيد العلوم للانسان والذي لا شك في انه نال بعض التقدم في عصر الحروب الصليبية . وفي الطب خاصة كانت معرفة العرب اقوى واعظم بكثير من معرفة اللاتين ،ويخبرنا التاريخ ان صلاح الدين الايوبي ارسل اطباءه الى ريتشارد ملك انجلترا ولكنه لا يخبرنا ان ملك انجلترا ارسل اطباءه الى صلاح الدين. حينما مرض .

وفي اول حرب صليبية قام بها القديس لويس التاسع ملك فرنسا لم يعرف الاطباء الذين رافقوا جيش الصليبيين اي شيء عن اصابات الاوبئة الخبيثة التي فتكت فتكاً ذريعاً في صفوف المسيحيين ،وذلك لجهلهم العظيم . ولما وقع القديس لويس التاسع ومن معه من المحاربين أسرى بأيدي المسلمين انحسرت الامراض التي فتكت بهم لانهم وضعوا تحت عناية اطباء عرب وليس تحت عناية اطبائهم .

(١) مظهر جلال ، أثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٤٦

فالشرق اذن قدم لاوربا عدة طرق عملية وعلاجات ناجعة استفاد منهـا الطب الحديث كثيراً ولعدة قرون . فالقرفة والسنا احضرتا من آسيا وعرفتا في الغرب في عصر الحروب الصليبية والترياق الذي لعب دوراً مهماً في الطب في القرون الوسطى احضر الى البندقية من انطاكية .

٦ ـ الفلسفة

لا احد ينكر ان للعرب الفضل في إيصال اعمال الفلاسفة والعلماء القدماء الى العالم الحديث. اذ ان كل ما وصل الى ايدي العرب من مؤلفات ومخطوطات لم يحفظ في المتاحف والاقبية بعيداً عن متناول الباحثين ورجال الفكر بل خرجوا به من عالم النسيان الى النور بعد ترجمته الى اللغة العربية الحية وبعثوا فيه حياة جديدة وجعلوه في متناول جميع الراغبين في الاطلاع عليه والارتواء من معينه .

ولا أحد ينكر ان الامم والشعوب تأخذ المعارف والحضارات بعضها عن بعض . وقد تأخذها كما هي او تعدل فيها او تضيف اليها او تقوم بالاخذ والتعديل والاضافة في آن واحد كما فعل العرب . وكما أخذ الهنود والاغريق من حضارات المصريين والبابليين كذلك أخذ العرب من حضارات الهنود والاغريق والفرس وكانوا وسطاء في نقل حضارة الاغريق وحضارات الشرق القديم الى الغرب بعد تعديل واضافات مبتكرة. وبديهياً ان كل امة من الامم تأخذ معارف الاسلاف وعلومهم ولكن هذه المعارف وتلك العلوم اذا وقعت في أيد مبتكرة خلاقة كايدي العرب فأنها تصنع منها معجزات لا يضاهيهم فيها أحد . ويؤيد هذه الحقيقة ما قاله سارتون:

« حقق المسلمون عباقرة الشرق اعظم المآثر في القرون الوسطى فكتبوا اعظم المؤلفات قيمة واكثرها اصالة واغزرها مادة باللغة العربية وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري ، حتى لقد كان ينبغي لاي كان اذا اراد ان يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها ان يتعلم اللغة العربية ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها » .

فالعرب لم ينقذوا الحضارة اليونانية والعلوم اليونانية من الزوال والدمار فحسب بل نظموها ايضاً ورتبوها واهدوها الى الامم اللاتينية والى اوربا . والعرب هم واضعو

الطرق التجريبية في سائر العلوم وهم مبتكرو طريقة البحث العلمي الصحيحة التي قدموها الى الغرب فمهدت لاوربا الطريق لمعرفة اسرارالطبيعة. وهم مبتكرو القوانين التي تحكم خصائصها وحركاتها وكل ما يتعلق بها .

ولا جدال في ان اليونان هم اساتذة العرب الاولون في الفلسفة وسائر العلوم. غير ان العرب ما كادوا ينتهون من ترجمة الكتب اليونانية الى العربية حتى فاقوا اساتذتهم بسرعة في جميع العلوم التي تقوم على التجربة . وبما ان الفلسفة لم تقم على التجربة فلم يحرز العرب تقدماً ملموساً فيها كما احرزوا في سائر العلوم .

كانت مؤلفات ارسطو اهم المؤلفات التي عرفها العرب واكثرها قيمة . وكان السريان اول شعب ترجم كتبه واوفاها حقها من الشرح والتعليق قبل ان يقدمها للعالم العربي. وكانت عمليتا الترجمة والتعليق قد استغرقتا الشطر الاكبر من القرنين الثامن والتاسع بعد الميلاد فخلقت بذلك رغبة ملحوظة في دراسة الفلسفة والاخذ بها ، الامر الذي اوجد نهضة علمية مباركة في العالم الاسلامي .

وكانت الظروف لدراسة فلسفة ارسطو مواتية، اذ انها ظهرت بعد ان خمدت جذوة الحماسة الدينية عند المسلمين فلم تواجه معارضة تذكر اول الامر مع انها في صميمها فلسفة مادية ومنطقية. غير ان هذه الفلسفة العقلية قد ادت في النتيجة الى التشكيك والتفكير الحر الذي كان في صميمه مناقضاً للمعتقدات الاسلامية الحنيفة . فثار في وجهها رجال الدين وناصبوها العداء وثار بوجهها عامة الناس لأنهم كانوا محافظين بطبعهم .

ولكن تشجيع الخلفاء انفسهم للعلم وحمايتهم للعلماء قد شجعا على دراسة فلسفة ارسطو ودراسة مؤلفاته العلمية ، الامر الذي ساعد العلماء العرب على مواصلة بحوثهم العلمية والفلسفية وعلى الانتعاش من القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر حينما نقلت هذه الفلسفة والعلوم الى الغرب عن طريق العرب والمسلمين .

واهم عمل خطير انجزه العرب في علم الفلسفة هو التوفيق بين فلسفة اليونان والفكر الاسلامي . والفلسفة عند العرب هي معرفة الاسباب الحقيقية للاشياء بمقدار ما يمكن الوصول اليه عن طريق العقل وليست فلسفتهم في الجوهر الا فلسفة يونانية متأثرة بنظريات الشعوب التي غلبوها وببعض المؤثرات الشرقية. وقد وضعت بشكل

يوافق العقلية الاسلامية واتخذت اللغة العربية اداة للتعبير عنها . ومؤلفات ارسطو التي أخذ العرب عنها وتأثروا بها حوت مجمل التراث الفلسفي اليوناني بقدر ما حوت مؤلفات جالينوس مجمل تراث اليونان الطبي .

اما السبب الذي ولّد رغبة عند العلماء المسلمين في دراسة ارسطو فيوجزه ريتشارد نيوهول بقوله :

« كان ارسطو – عند المسلمين – مؤسس جميع العلوم وحاميها . وفي نظرهم لن يستطيع الذكاء الانساني ان يتخطاه . وقد رضي الناس عن تقليده بقبولهم نظرياته الاساسية وتطبيقهم تعليلاته المنطقية عن طريق التعريف والقياس المنطقي . وقد حاولوا – كما حاول ارسطو – ان يفحصوا ويتفهموا جميع العلوم وان يلموا بها وان ينشئوا دائرة معارف ونظاماً عقلياً تاماً . وقد أثار مثل هذا الطموح ، مهما كان نجاحهم الفلسفي ، روح البحث والاستقصاء والشك الذي هو اساس الحياة العقلية . ولهذا السبب كان معظم الفلاسفة المسلمين اطباء وعلماء ومفكرين معنويين » (١) .

What attracted the Moslem scholars to the study of Aristotle is excellently described by Richard Newhall. He says;

"For the Saracens, Aristotle was the founder and protector of all scientific knowledge and speculation. Beyond him the human intelligence could not go. They accepted to imitate him by accepting his fundamental doctrines and adopting his method of logical reasoning by means of definition and syllogism. Like him they essayed to understand all the sciences, to achieve encyclopaedia of knowledge, and to develope a complete rational system. Such ambitions, whatever Philosophical suceess they achieved, vigorously stimulated the investigation of sceptical spirit which is the essence of intellectual vitality.Most Moslem Philosophers,consequently were Physicians and scientists as well as abstract. thinkers" (2)

والواقع ان ارسطو كان النجم اللامع في عالم السماء العقلي الذي انار الطريق المظلمة امام المسلمين في بحوثهم الفلسفية وتحرياتهم العلمية . وكان هؤلاء العلماء يسمون فلاسفة كما يقول دي ليسي اوليري . وقد درسوا المخطوطات اليونانية مباشرة ، اما كمترجمين او بوصفهم تلاميذ للذين درسوا المخطوطات اليونانية الاصلية . وهذه الطبقة من الفلاسفة كانت تتألف من مجموعة مشهورة من الرجال الذين احتلوا مكاناً مرموقاً في التاريخ الاسلامي . واليهم يرجع الفضل في احيـــاء الاحاديث

(١) نيوهول ، ريتشارد ، الحروب الصليبية ص ٩٩

(2) Newhall Richard, The Crusades P. 99

الارسطوطاليسية التي نقلت بصورة خاصة الى المسلمين عن طريق السريان. ومما لا شك فيه ان العلماء المسلمين لم يكونوا مجرد ناقلين للفلسفة اليونانية وعلومهم او مقلدين لها انما كانت لهم اعمال ابتكارية كثيرة وهامة جداً . لقد اقبلوا على الكتب اليونانية مباشرة فدرسوها دراسة وافية وادخلوا عليها من التحسين ما رأوه لازماً ونقدوها نقداً وافياً واستخلصوا نتائجهم على نحو الاسلوب الذي اتبعه ناقدو الافلاطونية الجديدة .

كان يعقوب بن اسحق الكندي اول هذه المجموعة من الفلاسفة . ولد بالكوفة في سنة ٨٥٠ ودرس بالبصرة . وكانت معرفته للغة اليونانية قد مكنته من ترجمة (ميتافيزيك) ارسطو ، اي ما وراء الطبيعة كما مكنته من ترجمة جغرافية بطليموس والنسخة المنقحة من هندسة اقليدس . والواقع ان الكندي كان اول عربي وآخر عربي يمثل الفلسفة الارسطوطاليسية في الخلافة الاسلامية في الشرق . وقد استقى آراءه الفلسفية من شتى المصادر. ثم سعى مثل اصحاب الفلسفة الافلاطونية الجديدة الى المزج بين آراء افلاطون وآراء ارسطو وجعل الرياضيات اساس العلم على نحو ما خلفته مدرسة فيثاغورس المتأخرة . والكندي كما ذكرنا سابقاً لم يكن فيلسوفاً فحسب بل كان رياضياً عالماً في التنجيم والكيمياء والبصريات واصول الموسيقى ايضاً.

وكان الفارابي ثاني فيلسوف مشهور. وهو من اصل تركي. وقد توفي في سنة ٩٥٠ عن عمر يناهز الثمانين عاماً. وقد خدم الفلسفة خدمة جلى . واهم عمل فلسفي قام به هو اعادة كتابة منطق ارسطو وشرحه اهم قواعده الاولية. وقد تأثر بفلسفة ارسطو بدليل تسليمه بأن (لاهوت ارسطو) كان اعظم اعماله الاصلية .

وعملية التوفيق بين الفلسفة الاغريقية والاسلام التي بدأها الكندي العربي قد تابعها الفارابي التركي واكملها في الشرق ابن سينا . وفلسفة الفارابي كما يظهر من رسائله المختلفة في افلاطون وارسطو هي مزيج من الافلاطونية والارسطوطاليسية والصوفية . وقد اكسبته فلسفته لقب المعلم (المعلم الثاني) اي (ارسطو الثاني) . وبالاضافة الى الشروح التي وضعها الفارابي لكتب ارسطو وسواه من فلاسفة اليونان فقد الف كتباً في السياسة وعلم النفس وما وراء الطبيعة . وبالاضافة الى الفلسفة كان الفارابي طبيباً ورياضياً واعظم علماء الموسيقى العربية النظريين .

وكان ابن سينا اعظم فيلسوف مسلم جاء بعد الفارابي . وقد تعلم المنطق وكان شديد الشغف بتعاليم ارسطو . وقد حاول باديء الامر ان يدرس (ميتافيزيك ارسطوّ) ولكنه — لسوء الحظ — لم يوفق لانه عانى مشقة كبرى في فهمه وفي أحد الايام اشترى بطريق الصدفة احد كتب الفـــارابي فتمكن من فهم الشيء الكثـــير من ميتافيزيك ارسطو لذلك يحق لنا ، كما يقول دي ليسي اوليري ، ان نعتبر ابن سينا تلميذاً للفارابي لان كتاب الفارابي كان المرشد الحقيقي الذي كيّف عقله وهداه الى ترجمة ارسطو .

اما الغزالي الفيلسوف المتشكك فأنه يعتبر الفارابي وابن سينا اعظم مترجمين شرقيين لارسطو .

والخلاصة يمكننا ان نقول ان فلسفة ارسطو قد نقلت من اليونانيين الى السريان ومن السريان الى العالم العربي ثم رجعت ثانية الى اوربا عن طريق المسلمين العرب . والآن نعود لنعرف الطرق التي نقلت فيها هذه الفلسفة من مسلمي الشرق الى مسيحيي الغرب .

كان ابن رشد اعظم الفلاسفة المسلمين في الغرب . ولد في اسبانيا في سنة ١١٢٦ ومات في سنة ١١٩٨ . وقد نقلت شروحه لجميع مؤلفات ارسطو الى اوربا المسيحية عن طريق اسبانيا ويعتبر ابن رشد اعظم مثال للمفكرين المسلمين الاحرار لكونه انكر كغيره من الفلاسفة نظرية الخليقة التي كان يؤمن بها علماء اللاهوت المتمسكون بالدين . وابن رشد كان على النقيض من علماء الدين ، كان قد اعتنق مذهب ارسطو في مبدأ التطور وعدم قابلية المادة الى الفناء ورفض فكرة وجود عناية إلهية مقدسة او تدخل الله في شؤون البشر لانه كان يؤمن بوجود قانون طبيعي. وقد رفض رفضاً باتاً جميع النظريات اللاهوتية عن قيامة الجسد وخلود الروح . وفي رأيه ان الانسان يكافأ بنسبة حسناته وفضائله . ولكن الطوائف الاسلامية لم تتسامح مع هذه النظريات .

ويقول غوستاف لوبون عن ابن رشد :

« ابعد فلاسفة العرب صيتاً هو الفيلسوف الشهير ابن رشد الذي كان له تأثير في اوربا ، اجل يعدّ ابن رشد عادة شارحاً لفلسفة ارسطو فقط ، ولكنني ارى

ان هذا الشارح سبق استاذه في بعض الاحيان سبقاً يثير العجب ، وان فلسفته مقبولة في كثير من الامور اكثر من تلك. واذا لم يكن ابن رشد مفكراً حراً بالمعنى العصري على ما يحتمل ، فأنه فكر بحرية عظيمة في بعض الموضوعات .

اما خصائص الفلسفة الاسلامية ومميزاتها فتوجزها سهير قلماوي كما يلي :

« عالجت الفلسفة الاسلامية المشاكل التقليدية الكبرى : مشكلة الاله والعالم والانسان وفصلت القول فيها متأثرة ببيئتها والظروف المحيطة بها ومستعينة بما وصل اليها من دراسات فلسفية سابقة شرقية او غربية » وخصائصها :

١ — هي فلسفة دينية روحية تقوم على اساس الدين وتعول على الروح تعويلاً كبيراً .

هي فلسفة دينية لانها نشأت في قلب الاسلام وتربّى رجالها على تعاليمه واشربوا روحه وعاشوا في جوه وجاءت امتداداً لابحاث ودراسات كلامية سابقة . تبدأ بالواحد وتحلل فكرة الالوهية تحليلاً شاملاً دقيقاً لم يسبق اليه وكأنما كانت تباري المدارس الكلامية المعاصرة من معتزلة واشاعرة » .

« وما من فلسفة دينية الا وللروح فيها نصيب ملحوظ والاديان تخاطب القلوب عادة قبل ان تخاطب العقول ويرى فلاسفة الاسلام ان الروح مصدر الحياة والحركة والادراك ووسيلة البهجة والسعادة » .

٢ — هي فلسفة عقلية . تعتد الفلسفة الاسلامية بالعقل اعتداداً كبيراً وتعول عليه التعويل كله في تفسير مشكلة الالوهية والكون والانسان .

والعقل البشري قوة من قوى النفس ويسمى النفس الناطقة وهو ضربان: عملي يسوس البلدان وينظم السلوك ونظري يختص بالادراك والمعرفة . فهو الذي يتقبل المدركات الحسية ويستخلص منها المعاني الكلية بعون من العقل الفعّال الذي هو من نفوسنا بمثابة الشمس من ابصارنا . وبالعقل نعلل ونبرهن وبه نكشف الحقائق العلمية فهو باب هام من ابواب المعرفة وليست المعارف كلها منزلة بل منها ما يستنبطه العقل ويستخلصه من التجربة .

٣ — هي فلسفة توفيقية توفق بين الفلاسفة بعضهم ببعض . وقد عرف العرب شيئاً من الفلسفات الشرقية القديمة كما عرفوا شيئاً عن السابقين لسقراط والسفسطائيين

والسقراطيين وانصاف السقراطيين والرواقيين والابقوريين وجماعة الشكاك ورجال مدرسة الاسكندرية ولكنهم عنوا عناية خاصة بأفلاطون وارسطو فترجموا لاول اهم محاوراته وهي « الجمهورية » و « النواميس » وغيرهما وترجموا لارسطو مصنفات الكهولة كلهـــا تقريباً من منطقية وطبيعيـــة وميتافيزيقية واخلاقيـــة . عرف العرب افلاطون وارسطو معرفة مباشرة عن طريق مؤلفاتهما الى جانب ما نقله عنهما المؤرخون السابقون»

« واذا كان التوفيق بين افلاطون وارسطو يعد اساساً من الاسس التي قامت عليها الفلسفة الاسلامية فأن اساسها الثاني هو التوفيق بينها وبين الدين . والتوفيق هو تقريب بين جانبين وجمع بين طرفين. وفي الفلسفة نواح لا تتفق مع الدين وفي بعض النصوص الدينية مالا يتمشى مع وجهة النظر الفلسفية. لذلك عني فلاسفة الاسلام بأن يصبغوا الفلسفة بصبغة دينية وان يكسوا بعض التعاليم بكساء فاسفي ».

٤ — هي فلسفة وثيقة الصلة بالعلم تغذيه ويغذيها وتأخذ عنها ويأخذ عنها . ففي الدراسات الفلسفية علم وقضايا عامية كثيرة . وفي البحوث العامية مبادىء ونظريات فلسفية . وفلاسفة الاسلام كانوا يعتبرون العـــلوم العقلية جزءاً من الفلسفة . وقد عالجوا مسائل في الطبيعة كما عالجوا في الميتافيزيقي . ومن اوضح الامثلة على ذلك « كتاب الشفاء » اكبر موسوعة فلسفية عربية وهي في اربعة اجزاء ينصب اولها على المنطق والثاني على الطبيعيات والثالث على الرياضيات والرابع على الالهيات . وفي قسم الطبيعيات يدرس ابن سينا علم النفس والحيوان والنبات والجيولوجيا وفي قسم الرياضيات يدرس الهندسة والحساب والفلك والموسيقى . وفلاسفة الاسلام علماء مبرزون فالكندي عالم قبل ان يكون فيلسوفاً « عني بالدراسات الرياضية والطبيعية وكان يرى كما رأى افلاطون من قبل — ان الانسان لا يكون فيلسوفاً قبل ان يدرس الرياضة واجتهد في تطبيق الرياضيات في الفلك والطبيعة والطب بل والميتافيزيقي حيث حاول ان يبرهن على وجود الله برهنة رياضية وعوّل على التجربة واستخدمها في بعض دراساته الكيميائية وكان في مقدمة الذين ابطلوا دعوى صنع الذهب والفضة من غير معدنيهما » (١) .

---

(١) قلماوي سهير ، أثر العرب في النهضة الاوربية ص ١٤١

ومن ذلك نستنتج ان المسلمين في الشرق والغرب قد اهتموا بفلسفة اليونانيين وعلومهم اشد الاهتمام واعتنوا بها اكبر الاعتناء . وتتلخص خدمتهم للعلم في الحقيقة الراهنة وهي انهم كانوا المخلّصين الحقيقيين لكنوز اليونان من الفقدان والدمار اللذين كان لا مفر منهما . ولانهم نشروا هذه الكنوز عن طريق ترجماتهم الصحيحة وشروحهم القيمة لكتب ارسطو . ولانهم فتحوا عيون الغربيين الى فلسفة اليونانيين وعلومهم . والجدير بالذكر ان الغربيين لم تكن عندهم اية رغبة في فهم مؤلفات اليونانيين الاصلية او الحصول عليها واقتنائها الا بعد ان عرفوا هذه المؤلفات عن طريق ترجمات المسلمين .

كانت اولى نتائج فتح اللاتينيين للقسطنطينية في عام ١٢٠٤ معرفة اللاتينيين مؤلفات ارسطو الاصلية ويؤيد ذلك ريتشارد نيوهول الذي يعتقد ان المخطوطات اليونانية كانت احدى غنائم الفتح التي نقلت الى فرنسا بعد دخول المدينة وحرقها . والدليل على ذلك ان العلماء اللاتينيين بدأوا يعرفون بعد هذا التاريخ قليلاً عن ارسطو في غير المؤلفات العربية .

قاموس الكلمات الاجنبية من اصول عربية او شرقية

بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	بالعربية
A				
Acacia				أكاسيا (صمغ هندي)
Achernar		Acarnar		آخر النهار (نجم)
Admiral	Amiral			أمير البحر
Aduf				الدف (آلة موسيقية)
Albatross		Albatros		القطرس (طير بحري)
Alcaid				القائد (نجم)
Alchemy Alchymy		Chemeia Chymeia		الخيمياء (الكيمياء القديمة)
Alcohol				الكحول (من الكحل)
Alcove	Couple	Kuppel		القبة
Aldebaran		Albebaran		الدبران (نجم)
Aldehyde				الدهيد (كحول متأكسد)
Alembic		Ambiks		الامبيق
		Aleppin		قماش حلبي

بالعربية	باللاتينية	بالالمانية	بالفرنسية	بالانكليزية
الخروبة				Algaroba
الجبار (نجم)				Algebar
الجبر				Algebra
الجانب (نجم)				Algenib
الغول (نجم)				Algol
الخوارزمي				Algorism
الحافاء				Alhalfa
الحنظل				Alhandal
القلي				Alkalie Alkali
المجستي (كتاب في الفلك)				Almagest
المناخ		Almeniehiaka	Almenichiaka	Almanac
الباكه (حيوان يشبه اللاما)				Alpaca
الفرد (نجم)				Alphard
الفرس (نجم)				Alpherayz
الطير (نجم)				Altair
الملغم	Malagma	Malagma		Amalgam

بالعربية	باللاتينية	بالالمانية	بالفرنسية	بالانكليزية
عمبر				Amber
النفير (آلة موسيقية)				Anafir
يانسون		Anison		Anis
النيـــلة		Anilin		Aniline
الشبه				Alum
انثا ريس (قلب العقرب (نجم)				Antares
أنتيمون (معدن لمّاع)				Antimony
برقوق (مشمش)	Praecoqum	Praikokion Praecox	Abricot	Apricot
عرق		Arrak		Arrack
دار الصناعة		Arsenal	Arsenal	Arsenal
زرنيخ		Arsen		Arsenic
ارضي شوكه (خرشوف)			Artichaut	Artichoke
خشّاش (سفاح)			Hashishin	Assasin
أطلس		Atlas		Atlas
سمت			Zenit	Azimuth Zenith
أزرق	Lazur Lazulum		Azur	Azure

بالعربية	باللاتينية	بالالمانية	بالفرنسية	بالانكليزية
الأكليل الشمالي (نجم)		Achileis, Chemali		
البعاث (نجم)		Albajoth		
الخابور (نجم)		Alchabor		
الجدي (نجم)		Algedi		
الغميصاء (نجم)		Algomeiza		
الغراب (نجم)		Algorab		
القر (نجم)		Alkor		
الفتى (نجم)		Alpheta		
الر د ف (نجم)		Aridid		
العيوق (نجم)		Ayuk		
ذنب العلي (نجم)		Denebola		
الدبه (نجم)		Dubbe		
التنين (نجم)		Etanin		
الفرقدان (نجم)		Forcadin		
قلب الاسد (نجم)		Kalbelhasit		
قلب الازور (نجم)		Kalbelazguar		
قلب العقرب (نجم)		Kalbolacrab		

بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	بالعربية
		Kochab		كوكب (نجم)
		Markab		مركب (نجم)
		Rasalgue		رأس الجو (نجم)
		Rasalgethi		رأس الجدي (نجم)
		Rasalgeuse		رأس الجوزاء (نجم)
		Scheat		الساعد (نجم)
B				
Baldachin Baldaquin		Baldachin		قماش بغدادي
Balsam		Balsamon	Balsamum	بلسم
Banana		Bananen		بنان أصبع موز
Bard	Barde	Barde		البردة
Benetnasch				بناث نقش (مجموعة نجوم)
Benzine				بنزين
Bezoin				بنزوين (بخورجاوي)
Betelgeuse		Beteiguse		منكب الجوزاء (نجم)
Blouse	Blouse		Pelusie	بلوزه من مدينة بلوزيام

بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	بالعربية
Borax	Buraq			بورق (ملح معدني)
Bugle	Buculus			بوق (آلة موسيقية)
Bulbul				بلبل (طير فارسي)
Burnous Burnoose				برنس (معطف مغربي)
Buzzard	Buzard		Boteo	البازي
C				
Cable	Cable	Kabel	Caplum	حبل
Cabob				كباب
Calibre Caliber	Calibre			قالب
Camel	Camel	Kamelos	Camelus	جمـــل
Camise Chemise	Chemise		Camisia	قميص
Camlet	Camlots	Kamelott	Camelus	الحمل (قماش)
Camillia				كاميليا (شجرة دائمةالاخضرار)
Camphor	Camphre		Camphora	كافور
Canal	Canalis		Canalis	قنـــال

بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	بالعربية
Candy	Candire	Kandis		القند (عسل قصب السكر المجمد)
Candle			Candela	قنديــــل
Carack	Caraque		Carica	كرخ (سفينة كبيرة)
Carafe				غرّافـــة
Caramel				كالرماد
Carat	Qirat	Keration		قيراط
Caravan	Caravane			قروان (قافلة)
Caraway		Karon		كراوية
Carob				خروب
Castle			Castellum	قصر (قلعة)
Cat			Cat	قطّة
Cave			Caven Cavus	كهف
Centaurus Centaur		Kentauros	Kentauros	قنطورس
Checkmate	Checkmate			شيخلك مات
Chiffon		Chiffon		شنيفون (شاش)

بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	بالعربية
Chiquer				الشفير (آلة موسيقية)
Cipher Cypher	Cifre Chifer			صفر
Clove	Girofle	Jeroffel		قرنفل
Coffee		Bone		قهوة ، بن
Coffer		Koffer		قفه
Coffin				كفن
Corban				قربان
Cotton	Coton	Kattun		قطن
Crimson Carmine	Cramoison	Karmin		قرمزي
Cubebs				كبابة صينية
Cumin Cummin		Kyminon	Cuminum	كمــون
Cup	Coupe	Coppchen	Cupa	كوب
D				
Damask Damson		Damast		حرير دمشقي

بالعربية	باللاتينية	بالالمانية	بالفرنسية	بالانكليزية
ذنب (نجم)				Deneb
ديوان		Diwan Douane	Divan	Divan
دون				Down
ترجمان				Dragoman
				E
إكسير الحياة				Elixir
زمرد	Smaragdus	Smaragdos	Emeraude	Emerald
				F
فرفر (آلة موسيقية)			Fanfare	Fanfare
فلوكه	Feluka	Feluke	Felouque	Felucca
فم الحوت (نجم)				Fomalhaut
فسطان من الفسطاط	Fustaneus		Fustaine	Fustian
				G
جلا الشهم (اللامع)		Galant	Gala	Gallant Gala
نسيج غزّى (من غزة)			Gaze	Gauze
غول (حيوان خيالي)		Algol	Goul	Ghoul

بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	بالعربية
Ginger	Gingibre	Ingwer	Zingiber	زنجبيل
Giraffe	Girafa			زرافة
Guide	Guider			قائد
Guitar Githara	Guitar	Quittaara	Cithar	قيثارة
H				
Hammam				حمّام
Hashish				حشيش
Hazard	Hazard			هزرد (لعبة من نوع النرد)
Henna		Alkanna		حنّا
Hookah				حقّه
Horne				قرن (آلة موسيقية)
J				
Jacket	Jaquette	Jagette Jackette		جاكيت
Jar	Jarre			جرّه
Jasmine Jessamine				ياسمين

بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	بالعربية
Jerboa				اليربوع (حيوان صغير)
Julep	Julab	Julep		شراب الجلاّب
Jujube	Zizphus	Zizphon		زيزفون
Jupe		Juppe		جبّة
L				
Lemon	Limon	Lemonade		ليمون
Lilac	Lila			ليلكي
Loofa		Luffaschwamm		ليفة شامية
Lozenge	Losange			اللوزنج
Lute	Luth	Laute		العود
M				
Magazine	Magazin	Magazin		مخزن (الفشك)
Mango				المنـــجا
Manna				المن
Masquerade	Masque			مسخـــرة
Mattress	Mateias			المطرح (فرشة)
Minaret				منارة

بالعربية	باللاتينية	بالالمانية	بالفرنسية	بالانكليزية
ميزان	Medius	Besahn	Misaine	Mizzen
محيّر (نوع من القاش)		Mohair	Moire	Mohair
مسجـــد			Mezquita	Mosque
المتن (الجبـــل)				Mountain
المومياء			Mummia	Mummy
قماش موصلي	Mussoline	Musselin	Musseline	Muslin
المســـك		Muschos	Musk	Mmsk
المـــــر			Myrrha	Myrre
				N
النقارة (آلة موسيقية)				Nacaire , Naker
النرد (ناردين)		Nardus	Nardus	Nard
النفط	Naft	Naft		Naphtha
النترون (ملح البارود)	Nitrum	Nitron	Nitrum	Niter , Nitre
				O
نارنج (برتقال)		Orange	Arancio	Orange

بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	بالعربية
P				
Parrot		Papagei		ببغـــاء
Pistachio				فستق
Q				
Quitarra, Quitar				قيثار
R				
Racket	Raquette	Rakete		راحة اليد
Razzia		Razzia		رزيّة
Ream	Reim, Rame			رزمة
Rebec, Rebeck	Rebele			رباب
Refuse	Refuser		Refute	الرفض
Rigel		Rigel		رجل الجوزاء (نجم)
Regulas				رجل الاسد (نجم)
Rhubarb	Rhubarbe		Rha-Barbarum	الراوند
Rice	Riz	Reiz, Orysa	Riso	رز
Rob	Robb			الـــرب

بالعربية	باللاتينية	بالالمانية	بالفرنسية	بالانكليزية
الرخ			Roc	Roc
الرخ في الشطرنج				Rook, Rokh
الرباب				Rubecca
				S
عصفر				Salflower
زعفران		Safran	Safron	Saffron
خشب الصندل				Sandalwood
شرقي				Saracen
شاش				Sash
ستان	Setinus	satin		Satin
السنا				Senna
السراي				Serie, Seraglio
سمسم		Sesame		Sesame
بصل عسقلان			Scallion	Shallot
شراب شريش (مدينةاسبانية)				Sherry
سموم (ريح جافة)				Simoom, Simoon

بالعربية	باللاتينية	بالالمانية	بالفرنسية	بالانكليزية
شراب	Sirupus	Sirup	Sirop	Sirup, Sherbet
الصوفة		Sofa	Suffa, Soffa	Sofa
سبانخ	Spinaceus	Spinat	Espinache	Spinach, Spinage
سكر	Sukkarum, Sukkarim	Zucker	Sucre	Sugar
سماق		Sumach		Summach, Sumac
				T
تافته		Taft	Taftas	Tafetta
الطلق (حجر)				Talc, Talcum
طلسم		Telesma		Talisman
تمر هندي	Tamarinde	Tamarinde		Tamarind
طبل				Tambour, Tambourine
الطرفاء				Tarfetta, Tara
ملح الطرطير	Tartarum		Tartre	Tartar
طاسه			Tasse	Tas
الثور (نجم)				Taurus
الترياق				Theriac

بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	بالعربية
Typhoon				طوفان
		Tocke		طاقية
V				
Vega		Weqa		النسر الواقع (نجم)
Violin	Viola			فيولين
Volcano		Berkan	Vulcan	بركان (نوع من القماش)
Z				
Zebra				زبراء (انثى حمار الوحش)
Zenith				سمت الرأس

المصادر العربيـــة

اســـم المؤلـــف	اســـم الكتاب
ابن الاثـــير	الكامـــــل
ابن الاثـــير	التاريـــخ الباهر
ارنولد سيرثوماس	تراث الاسلام
اسامة بن منقـــذ	الاعتبــــــار
حتي فيليب	تاريخ العرب المطول
حتّي فيليب	تاريخ سورية
حمزة عبد اللطيف	صلاح الدين بطل حطّين
خلوصي ـ صفا	بحث للدكتور وولت تيلور (العربي العدد ٢٢٨ تاريخ نوفمبر ١٩٧٧)
دار الفكر ـ الرفاعي انور	قصة الحضارة في الوطن العربي الكبير منذ فجر التاريخ حتّى العصور الحديثة
ديورانت	قصة الحضارة ترجمة محد بدران (لجنة التأليف والترجمة)
رنسيمان ستيفن	تاريخ الحروب الصليبية ـ ثلاثة مجلدات نقله الى العربية الدكتور السيد الباز العريني
سيديو ال	تاريخ العرب العام ـ ثلاثة مجلدات
الصياد فؤاد عبد المعطي	المغول في التاريخ
الصياد محمد محمود	أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية
عاشور عبد الفتاح	الحركة الصليبية مجلدان
عطية عبد العزيز	الحروب الصليبية والتجارة والثقافة
فريد ابو حديد محمد	صلاح الدين البطل الذي انتصر على الغرب
قلماوي سهير	اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية
لجنة الجامعيين لنشر العلم	تراث الاسلام

اســم المؤلف	اسـم الكتـاب
لوبون غوستاف	حضارة العرب – ترجمة عادل زعيتر
مظهر جلال	اثر العرب في الحضارة الاوربية
مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونيسكو	الحضارة الاسلامية – اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية
منتصر عبد الحليم	أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية
النقاش زكي	العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج
هونكه سيجرد	شمس العرب تسطع على الغرب – اثر الحضارة العربية في اوربا
هونكه سيجرد	شمس الله على الغرب – فضل العرب على اوربا

المراجع باللغة الانكليزية

BIBLIOGRAPHY

General Reference Works.

Barker, Earnest, " The Crusades," **Encyclopaedia Britannica,** 14th. ed., Vol. 6, PP. 771-795*

Denton, William, "The Value of the Crusades in the Light of Modern History," **The Historians History of the World,** 1907, Vol. 8. PP. 467-477.

Munro, Danna, "The Crusades, **Encyclopaedia of Social Sciences,** 1935, Vol. 4. PP. 615-616.

Nallino, C. A., "Alkymia", **Encyclopaedia of Islam,** 1934, Vol. I, PP. 500-501.

Stevenson, W. B., "The Spirit and Influence of the Crusades," **Universal History of the World.,** 1927, Vol 5. PP. 2797-2815.

Suter, H. , "Al-Djabr", **Encyclopaedia of Islam,** 1934, Vol. 1. P. 989.

"Arithmetic", **Encyc. of Islam,** Vol. 2, PP. 315 - 316.

"Handasa", **Encyc. of Islam,** Vol. 2, PP. 257.

الكتب باللغة الانكليزية

BOOKS.

Adams, George Burton, **Civilization During the Middle Ages,** New York, C. Scribner's Sons, 1922.

Medieval Civilization, New York, American Book Co., 1883.

Ahsanullah, Khan Bahadour, **History of the Moslem World,** Calcutta, The Empire Book House 1930.

Ali, Zaki, **Islam in the World,** Lahore, Shaikh Muhamed Ashraf, 1938 .

Archer, Thomas Andrew, **The Crusades,** London, T. F. Unwin, 1919.

Arnold, Sir Thomas Walker, **The Legacy of Islam.** Oxford, The Clarendon Press, 1931.

Ashly, Roscoe Lewis, **Early European Civilization,** New York, Macmillan Company, 1920.

Ball, Walter W. Rouse, **A Short Account of the History of Mathematics.** London, MacMillan and Co. Ltd. 1927.

Barker, K. Earnest, **The Crusades,** London, Oxford University Press, 1923.

Bart, Sir George, **The Crusades,** London, Longmans, Green & Co. 1923.

The Crusades, Religious Tract Society,

Dampier-Wheaton, William Cecil, **A History of Science,** New York, MacMillan Co., 1931.

Davis, H. W. Carless, **Medieval Europe,** London, Williams, 1911.

Emerton, Ephraim, **Medieval Europe,** Bostom, Ginn & Co., 1894.

Fisher, H. A. Laurens, **A History of Europe,** London, E. Arnold, 1937.

Gibson, Henry, **Two Thousand Years of Science,** London, The MacMillan Co., 1931.

Guizot, F. Guillaume, **The History of Civilization,** London, G. Bell & Sons, 1901-1902

Harding, S. Bannister, **Essentials in Medieval History,** New York, American Book Co., 1909.

Hays, Carlton, **A Political and Cultural History of Modern Europe,** Vol. I, New York, MacMillan Co., 1935.

Hell, Joseph, **Arab Civization,** Cambridge, W. Heffer & Sons Ltd., 1925.

Hitti, Philip K., **An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades,**

New York, Columbia University Peess, 1937.

Hitti, Philip K., **Histo!ry of the Arabs,** London, MacMillan, and Co. Ltd, 1937.

Khan, Moulai Abdul Latif, **A Short History of the Glorious Moslem Civilization,** Ghatura, 1924.

Lamb, Harold, **The Crusades, Iron Men and Saints,** London, Thornton Butterworth, Ltd., 1934.

Lane-Poole, Stanely, **Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem,** London G. P. Putnam's Sons, 1898.

Malouf, A. F., **Astronomical Glossary,** Cairo, Egyptian Literary press, 1935.

Mills, Charles, **The History of the Crusades,** London, MacMillan Co., 1920.

Newhall, Richard Ager, **The Crusades,** New York, H. Helt & Co., 1927.

Nutting Anthony, **The Arabs From Mohemmed to The Present.**

O,Leary, De Lacy, **Arabic Thought and Its Place in History.** London , Kegan Paul. Trench, Trubner & Co., Ltd., 1922.

R. C. Smail The Crusading Warfare .

Sellery, George Clark, **Medieval Foundations of Western** Civilization, New York, Harper & Bros., 1929.

Sullivan, F. W. Navin, **The History of Mathematics in Europe,** London, Oxford University Press, 1925'.

Venablem, Francis, **History of Chemistry,** Chicago, Heath & Co., 1922.

Wallaston, Arthur, **The Sword of Islam,** London John murray, 1905.

Westway, Frederick, Hillman, **The Endless Quest,** New York, Hillman-Curl Inc., 1935.

Young T. Cuyler - **The Near East Culture and** Society - Islamic Science, George Sarton.

Periodicals

Hitti, Philip K. "The Influence of the Crusades on the West," Jubilee Muktataf, 1878 - 1926.

للمؤلف

١ — ترجمة قوانين الشطرنج العالمية للغة العربية في سنة ١٩٤٩
٢ — أسس الاشراف الاداري في ١٩٠ صفحة في سنة ١٩٦٤
٣ — أسس الادارة العامة ٤٩٢ صفحة في سنة ١٩٦٩
٤ — أوراق عمل قدمت لمؤتمرات العلوم الادارية في جامعة الدول العربية حول المواضيع الآتية :—

أ — (١) التعيين
(٢) الترفيع
(٣) الوظيفة العامة
(٤) التنظيم
(٥) تصنيف الوظائف
(٦) تقييم الاداء
(٧) التأديب
(٨) التدريب
في سنة ١٩٦٥

ب — الاصلاح الاداري في سنة ١٩٦٧
ج — الانحراف الاداري في سنة ١٩٦٨
د — تقييم الاداء (دراسة تفصيلية) في سنة ١٩٦٨
ه — تطور الادارة المحلية في الاردن في سنة ١٩٧٢